اكتشاف البطء

ستِن نادولني

رواية

ترجمها عن الألمانية
سمير جريس



انضم لـ مكتبة .. امسح الكود



اكتشاف البطء

سِتِن نادولني



اكتشاف البطء

رواية

ترجمها عن الألمانية :

سمير جريس

اكتشاف البطء - رواية

تأليف: ستِن نادولني (Sten Nadolny)

ترجمها عن الألمانية: سمير جريس

تعتمد هذه الترجمة طبعة الرواية الرابعة عشرة، الصادرة عام 2000 عن دار بيبر، ميونيخ.

Sten Nadolny: Die Entdeckung der Langsamkeit. 14. Auflage, Piper-Verlag, München 2000.



الطبعة الأولى: 2022

ISBN: 978-9933-9358-1-8



الناشر:

أطلس للنشر والتوزيع

دمشق – الجمهورية العربية السورية

هاتف: 4421010 11 963+

خليوي: 312023 933 963+

بريد إلكتروني: atlasbooks@gmail.com





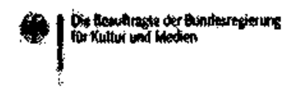
The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institute.


MOHAMED KHATAB



يشكر المترجم «الصندوق الألماني للمترجمين» لدعمه خلال العمل على هذا النص، وذلك في إطار برنامج «بداية جديدة للثقافة» الذي أطلقته مفوّضة الدولة لشؤون الثقافة والإعلام.






MOHAMED KHATAB



إلى أبي

بوركهارد نادولني

(1968 - 1905)


MOHAMED KHATAB



الجزء الأول

صِبا جون فرانكلين


MOHAMED KHATAB

الفصل الأول

القرية



بلغ جون فرانكلين العاشرة، ومع ذلك ظل يتسم بالبطء الشديد، حتى إنه لم يكن يستطيع أن يلقف كرة. كان يمسك بالحبل للآخرين. من أكثر غصون الشجرة انخفاضاً، كان الحبل يمتد حتى يده المرفوعة، ويمسك به بقوة مثل شجرة، دون أن يخفض ذراعه قبل نهاية اللعبة. كان مُهيّأً كي يمسك بالحبل أكثر من أي طفل آخر في سبيلسبي، أو حتى في لينكولنشاير. من نافذة دار البلدية كان الكاتب يلقي نظرة، ونظرته كانت تنم عن إعجاب.

قد لا يكون في إنكلترا كلها شخصٌ يستطيع الوقوف ساعة أو أكثر ممسكاً بحبل. كان يقف ساكناً مثل صليب على مقبرة، ومستقيمَ القامة مثل نصب تذكاري. «مثل فزاعة طيور!»، يقول توم باركر.

لم يكن بمقدور جون أن يتابع اللعب؛ أي أن يكون حكماً؛ فهو لا يرى بدقة متى تلمس الكرة الأرض، ولا يعرف ما إذا كان أحدهم قد أمسك بالكرة حقاً، ولا إن كان الشخص الذي استقرت الكرة في يده، قد أمسك بها أم مد يده فحسب. راح يراقب توم باركر. كيف يلقف الكرة! عندما لا

يعود توم ممسكاً بالكرة، يعرف جون: لقد فاته مرة أخرى أهم شيء. ليس بمقدور أحد أبداً أن يلقف الكرة أفضل من توم الذي كان يرى كل شيء في ثانية واحدة، ثم يتحرك دون تردد، دون خطأ.

ثمة ذبابة على عين جون. إذا نظر إلى مدفأة الفندق؛ فإنه يراها في النافذة العلوية الأخيرة. وإذا سدد بصره إلى منتصف النافذة؛ انزلقت الذبابة إلى لافتة الفندق. وهكذا، كانت الذبابة تتحرك دائماً أمام عينيه فجأة، وتهبط إلى أسفل، لكنها تلازم بصره منهكمة؛ عندما ينظر إلى السماء.

سيسافرون غداً إلى سوق الخيل في هورنكاسل. بدأ يشعر بالسرور؛ إذ إنه قام بالرحلة من قبل. عندما تنطلق العربة التي تجرها الخيل من القرية، يبرق في البداية سور فناء الكنيسة، ثم تأتي أكواخ الفقراء في حي إنغ منغ، أمامها نساء بلا قبعات، يضعن غطاء للرأس فحسب. كانت الكلاب هناك تتسم بالهزال الذي لم يكن واضحاً على الناس؛ لأنهم يرتدون ملابس.

سيقف شيرارد أمام الباب ويلوّح. بعد ذلك يمرون بالمزرعة ذات الجدار الذي يغطيه الورد، وبالكلب المربوط في السلسلة التي يجرها جيئة وذهاباً أمام كوخه، ثم يأتي السياج الطويل بنهايتيه: النهاية الناعمة، والأخرى الحادة. تقع النهاية الناعمة بعيداً عن الشارع، يراها المرء تقترب على مهل، وتبتعد على مهل. أما الحادة، اللصيقة بحافة الشارع، فتنتهي فجأة مثل نصل فأس. كان ذلك هو المدهش: عن قرب بالغ تلمع الأشياء، وتبرز: ألواح السور الخشبية، وزهور، وغصون. وفي الخلف، على مسافة ما، ثمة أبقار، وأسقف قش، وتلال في الغابة، هناك كان للظهور والتواري إيقاعٌ يبعث إلى السلام والهدوء. أما الجبال النائية فهي مثله: تقف ببساطة، وتنظر.

كان تشوقه إلى الخيل أقل. إنه يشتاق إلى رؤية الناس الذين يعرفهم،

حتى صاحب حانة «رِد ليون» في بومهر. اعتادوا أن يتوقفوا هناك، وكان الأب يذهب إلى صاحب الحانة الواقف عند البار. عندئذ كان الأخير يأتي بشيء أصفر في كأس طويلة: سم من أجل ساق الأب. يناوله الساقي الكأس بنظرته المرعبة. المشروب اسمه لوثر وكالفين. لم يكن جون يخشى الوجوه المتجهمة؛ مادامت على ملامحها دون أن تتغير بسرعة لأسباب غير مفهومة.

في تلك اللحظة سمع جون كلمة «ينام»، ثم رأى توم باركر يقف أمامه. النوم؟! ذراعه لم تتحرك، والحبل مشدود، ما سبب انتقاد توم له؟! استمر اللعب، ولم يفهم جون شيئاً. حدث كل شيء على نحو أسرع من اللازم: اللعب، وكلام الآخرين، والهرج والمرج في الشارع أمام دار البلدية. كان أيضاً يوماً مشحوناً بالقلق. مرت بهم تواً فرقة الصيد التابعة للورد ويلوبي: تنورات حمراء، وخيل متوتر، وكلاب ذات بقع بُنية بذيول متراقصة، ونباح عظيم. ماذا ينتفع اللورد من كل هذا الضجيج؟

كانت في الساحة أيضاً خمس عشرة دجاجة على الأقل، والدجاجات كائنات غير لطيفة؛ إنها تحاول أن تدبر المقالب السخيفة للعين. كانت تقف هناك بلا حراك، ثم تنبش الأرض، وتلتقط مما عليها، ثم تتجمد ثانية كأنها لم تلتقط شيئاً من قبل قط، وبوقاحة تتظاهر أنها تقف ساكنة منذ دقائق عديدة. إذا نظر إلى دجاجة، ثم إلى برج الساعة، ثم إلى الدجاجة مرة أخرى، فإنه يجدها تقف متخشبة ومحذرة كما كانت تقف من قبل، مع أنها في تلك الأثناء قد التقطت شيئاً، ونبشت الأرض، وتلتفت برأسها فجأة، ويتحرك عنقها، العينان تحملقان في مكان آخر، لكن كل هذا خداع! موضع العينين أيضاً يثير الحيرة: ماذا ترى الدجاجة؟ عندما تنظر بإحدى عينيها إلى جون، ماذا ترى العين الأخرى؟ هكذا تبدأ المشكلة!

يفتقد الدجاج النظرة الشاملة، والحركة الملائمة. إذا خطا المرء في اتجاه الدجاجات حتى يضبطها أثناء حركاتها غير الخادعة، فإن القناع يسقط، وترفرف الدجاجات، وتصيح. ينتشر الدجاج في كل مكان فيه منازل. إنه عبء ثقيل.

ها هو شيرارد قد ابتسم له، لكنها ابتسامة قصيرة. تحتم عليه أن يبذل جهداً، وأن يكون لاقط كرة ماهراً؛ فهو من إنغ منغ، وكان بسنواته الخمس أصغرهم.



اعتاد أن يقول:

– عليّ أن أحترس مثل النسور.

لم يكن يقول «مثل نسر»، بل «مثل النسور»، ناظراً خلال ذلك نظرة جادة كل الجدية، متحجراً في وقفته مثل حيوان يبحث عن فريسة؛ لكي يبين ماذا يعني بكلماته. كان شيرارد فيليب لوند قصيراً، لكنه كان صديق جون فرانكلين.

والآن، ركز جون بصره على ساعة سانت جيمس. كان ميناء الساعة مرسوماً على حجر أحد جوانب البرج البدين. لم يعد هناك سوى عقرب واحد، وكان لا بد من زحزحته ثلاث مرات في اليوم. سمع جون ملحوظة ربطت بينه وبين هذه الساعة العنيدة. لم يفهم مغزاها، لكنه منذئذ ظل يعتقد أن للساعة علاقة به.

كان بِرغرين برتي، الفارس الحجري، يقف داخل الكنيسة، ويلقي نظرة على المصلين. قبضة السيف في يده منذ مئات كثيرة من الأعوام. أحد أعمامه كان بحاراً اكتشف الجزء الشمالي من الكرة الأرضية، بعيداً جداً كان ما اكتشفه، حتى إن الشمس لا تغرب هناك، والزمن بلا نهاية.

لم يتركوا جون يصعد إلى أعلى البرج. مع أن بإمكان المرء بالتأكيد -خلال إلقاء نظرة على المنطقة- أن يمسك جيداً بالحواف الأربع ذات النتوءات الكثيرة. جون خبير بالمدافن. السطر الأول على كل شواهد القبور الحجرية، هو: To the memory of[*].

يستطيع جون القراءة، لكنه يفضل أن يتعمق في روح الحروف المفردة. كان يعشقها؛ فهي الشيء الباقي في الكتابة، الشيء الذي يعود دائماً. تنهض شواهد القبور خلال اليوم، وتميل إلى الخلف، أو إلى الجانب، حتى تلتقط للموتى شيئاً من أشعة الشمس. وفي الليل ترقد على الأرض، وتجمع الندى من فجوات الكتابة، بصبر عظيم. شواهد القبور يمكنها أن ترى أيضاً، وتشعر بالحركة التي تعتبرها العين البشرية شديدة البطء: رقصات السحاب عند سكون الريح، وتحول ظلال البرج من الغرب إلى الشرق، والتفاتة رؤوس الزهور إلى الشمس، بل حتى نمو الأعشاب. وعموماً، كانت الكنيسة هي المكان المفضل لجون فرانكلين، لكن المرء لا يستطيع هناك أن يفعل الكثير، غير الصلاة والشدو بالترانيم؛ والشدو بالترانيم تحديداً لم يكن يحبه.

ما زالت ذراع جون تمسك بالحبل. طيلة ربع ساعة واصل القطيع التهام الكلأ خلف الفندق، وتقدم بطول ثور. العنزة، الكائن الأبيض الصغير، تلتهم الحشائش مع القطيع دائماً، فهذا يحول -هكذا يقولون- دون اندلاع الخوف والقلق في القطيع. من الشرق حلّق أحد طيور النورس، ثم هبط على إحدى مداخن الفندق المشيدة بالطوب الأحمر. ثمة شيء يتحرك على الجانب الآخر، أمام مطعم «الأيل الأبيض». استدار رأس جون. خالته آن تشابل تسير هناك، يرافقها ماثيو، البحّار، الذي كان

(*) لذكرى (فلان).

يمسك بيدها. على الأرجح سيتزوجان قريباً. ثمة علامة مثبتة على قبعته، مثل كل الضباط البحريين عندما يسيرون على اليابسة. أومأ كلاهما تجاهه، وقال كلٌّ منهما شيئاً للآخر، ثم ظلا واقفين. حتى لا يحدق فيهما، راح جون يتأمل الأيل الأبيض الراقد على سطح النافذة البارزة، والإكليل الذهبي يحيط بعنقه. كيف أدخلوا الإكليل عبر القرون؟ بالتأكيد لن يجيب أحد على ذلك أيضاً. مكتوب إلى يسار الأيل: Dinners and Teas. وإلى اليمين: [*]Ales, Wines Spirits. أمن الممكن أن تكون آن تتحدث مع ماثيو عنه، عن جون فرانكلين؟ يبدو القلق عموماً على وجهيهما. إنه يبدو في مظهر جيد، أليس كذلك؟ ربما يقولان: «إنه يشبه الأم». هانّا فرانكلين كانت أبطأ أم في الدنيا.

تطلع ثانية إلى النورس. خلف المستنقعات رأى الشواطئ الرملية والبحر. كان إخوته قد رأوا ذلك من قبل. وهناك ثمة خليج يُطلق عليه «واش». في وسطه فقد الملك جون جوهرة تاجه. قد يصبح مَن يجدها ملكاً. كان بإمكانه أن يحبس أنفاسه فترة طويلة عندما يغوص. إذا كان شخص يمتلك أشياء كثيرة، فإن الآخرين يتعاملون معه فوراً باحترام وصبر.

الصبي اليتيم، تومي، في كتاب الأطفال هرب ببساطة. بعد أن جنحت به السفينة، انتهى به المطاف لدى قبائل الهوتنتوت، وظل على قيد الحياة؛ لأنه كان يملك ساعة لها دقات مسموعة. اعتبرها السود حيواناً مسحوراً. روّض أسداً كان يذهب إلى الصيد نيابة عنه، ووجد ذهباً، وركب سفينة إلى إنكلترا. عاد ثرياً، وساعد أخته، غودي، في تجهيزها للزواج الوشيك.

(*) بالترتيب: وجبات ساخنة، وأنواع من الشاي.، ثم: بيرة لمزر، وأنبذة، ومشروبات روحية.

لو كان جون ثرياً؛ لدرس واجهات المنازل طيلة أيام، ولتطلع إلى النهر، واستلقى في المساء أمام المدفأة، من أول شعلة حتى طقطقة الحطب الأخيرة، ولاعتبر الجميع ذلك شيئاً بديهياً تماماً. جون فرانكلين، ملك سبيلسبي: البقر يرعى، والعنزات تساعد المرء على مواجهة النحس، والطيور تحط، وشواهد القبور تتشبع بالشمس، والسحب تتراقص، والسلام يعم في كل مكان. والدجاج ممنوع.

سمع جون أحدهم يقول: «يا لك من خامل!»، كان توم باركر يقف أمامه. تأمله جون، بعينين نصف مغلقتين، كاشفاً عن أسنانه.

صاح شيرارد الصغير موجهاً كلامه إلى توم السريع:

- دعه! إنه لا يستطيع حتى أن يغضب!

لكن توم كان يريد أن يكتشف ذلك بنفسه. ظل جون ممسكاً بالحبل كما فعل من قبل، وسدد نظرة حائرة إلى عينيّ توم الذي نطق عدة جمل، بسرعة بالغة؛ لذا لم يفهم جون كلمة واحدة. قال له: «لا أفهم». أشار توم إلى أذن جون، ولأنه كان قريباً جداً منها، راح يشد شحمة أذنه.

تساءل جون:

- ماذا عليّ أن أفعل؟

كلمات كثيرة مرة أخرى. ثم انصرف توم، حاول جون أن يستدير رغم أن أحدهم كان يمسك به. صاح شيرارد:

- اترك الحبل!

وصاح الآخرون:

- يا له من غبي!

في تلك اللحظة صدمت الكرة الثقيلة باطن ركبة جون. سقط مثل

سلم مائل، ببطء في البداية، ثم بقوة. انتشر الألم من الخصر ومن الكوع. وها هو توم يقف ثانية هناك، متفهماً ومبتسماً. بصوت شبه عالٍ قال للآخرين شيئاً، دون أن يحوّل نظره عن جون، شيئاً فيه كلمة «ينام» مرة أخرى. ارتفعت قامة جون ثانية، ما زال الحبل في اليد المرفوعة عالياً، لم يرد أن يتخلى عن ذلك. قد تعود الأمور إلى ما كانت عليه عبر ما يشبه المعجزة، وماذا كان سيحدث لو ترك الحبل يسقط من يده؟ ضحك الأطفال شامتين، وبدت ضحكاتهم مثل نقنقات الدجاج. «الكمه، ربما يستيقظ عندئذٍ!»، «إنه لا يفعل أي شيء، يحملق فقط». وبينهم يقف -دائماً- توم باركر في مكان ما، وكان جون يراه من بين رموشه المسبلة. عليه أن يفتح عينيه على اتساعهما حتى يبصر الجميع؛ إذ كان الآخر يغير مكانه باستمرار. لم يكن الأمر يبعث على الراحة، لكن الهرب جبن، وهو أيضاً لا يستطيع العَدو، ولا يشعر بأدنى خوف. لكنه لا يستطيع أن يضرب توم. لم يبق إذن سوى السير وراءه. صاحت فتاة: «متى سيفك قبضته عن الحبل أخيراً؟». حاول شيرارد الإمساك بتوم، لكنه كان أقصر وأضعف من اللازم. وبينما كان جون يعتقد أنه يراقب الوضع، جذب أحدهم شعره من الخلف. كيف وصل توم إلى هناك، مرة ثانية شعر بأن جزءاً من الزمن ينقصه. استدار، وتعثر، وفجأة وجد كلٌ منهما نفسه مطروحاً على الأرض؛ إذ إن ساق توم تعثرت بالحبل الذي كان جون قد شده ثانيةً. استدار توم، ولكمَ بقبضته فمَ جون، ثم خلّص نفسه، وسار مبتعداً عنه. شعر جون أنّ سِناً في صف أسنانه العلوي قد تخلخلت. لم يكن هذا هو السلام! مد يده بعنف تجاه توم الواقف أمامه، كأنه دمية يحركها أحد عن بُعد. دون طائل راح يحرك ذراعيه، كأنه لا يريد أن يضرب العدو، بل أن يهشه ليبتعد. في إحدى المرات مد له توم وجهه، وقد علته أمارات التهكم، لكن

يد جون بقيت في الهواء كأنها شُلت، وكأنها نصب الصفعة التذكاري. «إنه ينزف!». «اذهب إلى بيتك يا جون!». شعر الأطفال بالحرج. شيرارد أيضاً تدخل مرة أخرى: «إنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه!». واصل جون سيره وراء توم محاولاً اصطياده، ولكن دون اقتناع. ربما لم يكونوا جميعاً ضده، حتى وإن كانوا يضحكون ويتطلعون إليه في انتباه، لكن وهلة لم يستطع جون أن يفهم لماذا تبدو وجوه البشر هكذا: مكشرة عن أنيابها، بفتحتي أنف واسعتين على نحو غريب، وبجفنين ينغلقان وينفتحان، وأحد الأشخاص يريد دائماً أن يكون صوته أعلى من الآخرين. «يشبه جون مِسحج النجار»، هكذا صاح أحدهم، لعله شيرارد، «إذا أمسك أحداً، فإنه يقبض عليه بقوة!» لكن المسحج لن يستطيع الإمساك بشخص هارب. انتشر الملل بينهم.

انصرف توم ببساطة، بوقار ومهابة، ودون أن يسرع الخطا، وفي إثره جون بقدر ما امتد الحبل. ووراءهما الآخرون. قال شيرارد معزياً: «لقد شعر توم بالخوف!».

تجلط الدم على أنفه الذي كان يؤلمه. بين الإبهام والسبابة كان يمسك بسنه الحليبية، بعد أن راح لسانه يتحسس الثغرة دون جدوى. تلطخ معطفه بالدم. «مرحباً، مستر ووكر!»، كان ووكر المسن قد ابتعد، عندما نطق جون بتحيته.

عادت الذبابة إلى عينه في تلك اللحظة، وكانت تتحرك على نحو مثير: إذا أراد أن يراها، تراوغه، أما إذا نظر بعيداً، فكانت تقترب. لا بد أن هذا الاقتراب، ثم الابتعاد، هو الطريقة التي تتحرك بها العين عموماً. كانت الذبابة تقفز من نقطة إلى أخرى، ولكن وفق أي قاعدة؟ وضع جون

إصبعاً على جفن العين اليمنى المغلق، وباليسرى سدد نظرات متفحصة إلى «هاي ستريت» في سبيلسبي. شعر أن عينه تواصل ارتجافها، وترى أشياء جديدة دائماً، وكان آخر ما رأته هو الوالد عند النافذة، وسمعه يقول: «ها هو الأحمق قد أتى!». لعله على حق: قميص جون ممزق، وركبته مجروحة، والمعطف ملطخ بالدماء. وقف أمام تقاطع السوق، محملقاً ومتحسساً عينه. كان ذلك مهيناً للأب. سمع جون أباه يقول: «أهكذا تسيء إلى أمك!»، ثم توالت الضربات. «هذا مؤلم!»، قال جون، فعلى الأب أن يعرف ما إذا كانت جهوده تكللت بالنجاح. كان الأب يرى أن عليه أن يضربه ضرباً مبرحاً حتى يستيقظ. مَن لا يكافح، مَن لا يستطيع إعالة نفسه، سيكون عبئاً على الناس، ووالدا شيرارد مثال على ذلك، رغم أنهما لم يكونا يتسمان بالبطء. ربما عليه أن يعمل في الغزل والنسيج، وربما بظهر منحن في الحقول. الأب محق بالتأكيد.

على فراشه راح جون يفرز آلام اليوم. كان يعشق الهدوء، لكن على المرء أيضاً أن ينجز الأشياء العاجلة. إذا لم يستطع مواكبة الأمور؛ فإن كل شيء يسير ضده. عليه إذن أن يلحق بالآخرين. حتى يُحسن التفكير، جلس جون في فراشه، ووضع يديه على ركبته، وراح يلمس بطرف لسانه مكان الجرح الناجم عن السِن المفقودة. عليه أن يدرس السرعة، مثلما يدرس آخرون الإنجيل، أو يتعلمون اقتفاء أثر الحيوانات الضارية. يوماً ما سيصبح أسرع من كل الذين يفوقونه الآن. أود أن أكون بسرعة البرق، قال لنفسه، أن أكون كالشمس التي تتحرك، ظاهرياً فحسب، ببطء شديد عبر السماء! إن أشعتها سريعة مثل لمح البصر، وتصل في الصباح الباكر فوراً إلى أبعد الجبال. قال بصوت عال: «سريع كالشمس!»، ثم ترك نفسه يهوي على وسائده.

في الحلم رأى بِرغرين برتي، لورد ويلوبي المتحجر. كان يحكم قبضته على توم باركر حتى يصغي إلى جون. لم يستطع توم أن يتملص منه، سرعته لم تكفِ إلا بضع حركات ضئيلة. راح جون يراقبه برهةً وهو يفكر مرة بعد أخرى: ماذا يقول له؟

الفصل الثاني

الصبي البالغ عشر سنوات وساحل البحر

ما السبب؟ ربما كان الأمر نوعاً من البرد. يتخشب البشر والحيوانات عندما يرتجفون برداً. أو أن الأمر كان يشبه ما يحدث لأهالي إنغ مِنغ الجوعى. يتحرك على دفعات، إذن: إن غذاء خاصاً ما ينقصه. عليه أن يعرف ما هو، ويأكله. عندما فكر جون في ذلك، كان يجلس أعلى الشجرة، بجانب الطريق المؤدي إلى بارتني. سطعت الشمس على مداخن سبيلسبي، وكانت ساعة كنيسة سانت جيمس، المتأخرة أيضاً، تشير إلى الرابعة عصراً. الحيوانات الضخمة، قال جون لنفسه، تسير أبطأ من الفئران أو الزنابير. قد يكون عملاقاً كامناً. ظاهرياً هو قصير القامة مثل الآخرين، ولكن يجدر به أن يتحرك بحذر حتى لا يدهس أحداً، ويقتله.

هبط من الشجرة ثم صعد إليها ثانية. إنه يسير ببطء فعلاً: امتدت اليد إلى الغصن ووجدت شيئاً تستند عليه. يجب على عينه -الآن- أن تكون قد وجدت الغصن التالي. ماذا تفعل العين؟ لقد ظلت لدى اليد. السبب هو النظر إذن. كان خبيراً بهذه الشجرة، رغم ذلك لم يكن يتسلقها على نحو أسرع. لا تستجيب عينه للاستعجال.

سدد نظرة ثانية إلى الغصن المتفرع كالشوكة. الرابعة والربع. لديه كل وقت العالم. لا أحد يبحث عنه، شيرارد على أقصى تقدير، وهو لن يجده. صباح اليوم العربة التي تجرها الخيل! نافدي الصبر وجه له الإخوة نظرة متحجرة، وكرهوا أن يكونوا إخوته. كان جون يعلم أنه يبدو غريباً؛ عندما يكون متعجلاً. على الأقل بسبب العينين المفتوحتين على اتساعهما. بالنسبة إليه قد يتحول مقبض الباب فجأة إلى شعاع في عجلة أو إلى ذيل حصان. اللسان في زاوية الفم، الجبين مشدود، والأنفاس لاهثة، والآخرون يقولون: «ها هو ينهجي من جديد!»، هكذا كانوا يطلقون على حركاته. كان الأب نفسه هو الذي أطلق عليه ذلك.

ببطء شديد كان يسدد نظرته. لو كان أعمى، لنظر على نحو أفضل. خطرت له فكرة! هبط من الشجرة مرة أخرى، ورقد على ظهره، وراح يدرس شجرة الدردار، ويحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، من أسفل إلى أعلى، كل غصن، وكل ما يمكن الاستناد عليه. ثم ربط جورباً حول وجهه، وراح يتحسس الغصن الأسفل، وتحركت أطرافه بأوامر من رأسه، وفي الوقت نفسه أخذ يعد بصوت عال. كانت الطريقة جيدة، لكنها خطيرة إلى حد ما. ما زال لا يتحكم في شجرته، وما زال يقع في أخطاء. انتوى أن يصبح سريعاً إلى درجة أن فمه لن يستطيع أن يواكب العد.

مرت خمس ساعات بعد الظهيرة. جلس لاهثاً يتصبب عرقاً على الغصن المتفرع، ثم أزاح الجورب إلى أعلى في اتجاه الجبهة. لا تضيع الوقت، عليك أن تلتقط الأنفاس فحسب! عن قريب سيغدو أسرع رجل في العالم، لكنه سيخدع الآخرين، ويمثل أن لا شيء تغير. ظاهرياً سيسمع خاملاً كلام الآخرين، وسيتحدث بصعوبة، وسيتهجى المشي، وسيصل متأخراً في كل مكان. ثم يُقام عرض علني: «لا أحد أسرع من جون

فرانكلين». سيجعلهم ينصبون خيمة في سوق الخيل في هورنكاسل. وسيأتون كلهم حتى يضحكوا عليه من القلب: آل باركر من سبيلسبي، وآل تنيسون من ماركت ريزن، والصيدلي ذو الوجه الحامض فلندرس من دونينغتون، وآل كراكروفت. كلهم سيأتون بين عشية وضحاها! سيعرض لهم أولاً كيف أن بمقدوره أن يتابع أسرع المتحدثين، حتى إذا استخدموا تعبيرات مهجورة تماماً، وسيجيب بسرعة هائلة؛ فلا يفهم أي شخص شيئاً. سيتلاعب بالكرات وأوراق اللعب إلى حد إبهار الجميع. استحضر جون الأغصان مرة أخرى في ذهنه، ثم تسلقها هابطاً. لكن قدمه لم تجد ما تستند عليه في الغصن الأخير، فسقط. نزع الغمامة عن عينيه: دائماً الركبة اليمنى!

ظُهر اليوم تحدث الأب عن طاغية في فرنسا أُسقِط، وفقد رأسه. يفهم جون ما يقوله الأب جيداً؛ عندما يُكثر من احتساء «لوثر وكالفين». مشيته أيضاً تختلف عندئذ، كأنه يخشى أن تهبط الأرض فجأة، أو أن يتغير الطقس. كان على جون أن يبحث ليعرف أي طاغية يقصده. عندما يفهم كلمة، كان يريد أن يعرف أيضاً معناها. «لوثر وكالفين» هو خليط من البيرة وشراب «جنيفر».

نهض. يريد الآن أن يتدرب على لعب الكرة. يريد خلال ساعة أن يرمي الكرة في اتجاه الجدار ثم يلقفها. لكن بعد ساعة لم يكن قد لقف الكرة مرة واحدة، بل نال العديد من الضربات، وقرر قرارات جديدة تماماً. جلس القرفصاء على عتبة منزل آل فرانكلين، وراح يجهد نفسه في التفكير.

كاد ينجح في التقاط الكرة؛ إذ إنه اخترع وسيلة تساعده: النظرة الثابتة. لم يكن يتابع الكرة، وهي تصعد ثم تهبط بسرعة، بل كان يركز بصره على نقطة معينة في السور. كان يعلم: لن يلقف الكرة إذا تابعها بعينيه، لن يلقفها

إلا إذا تربص بها. في بعض المرات كادت الكرة تقع في الفخ، ثم تتالت المصائب. في البداية سمع كلمة «فجوة في الأسنان»، هكذا أمسى يُسمى منذ الأمس. لقد وصل توم مع الآخرين. كانوا يريدون الفرجة فقط. ثم لعبة الابتسام. عندما يبتسم المرء لجون، يجد نفسه يرد بابتسامة لا يستطيع كبتها. حتى إذا شدوا شعره عندئذ، وركلوه على قصبة ساقه، فإنه لم يكن يستطيع التخلص من الابتسامة بسرعة. كان توم يستمتع بذلك، ولم يقدر شيرارد على التدخل. بعد ذلك سرقوا الكرة.

كان الضجيج ممنوعاً في الممر المسقوف بجانب بيت آل فرانكلين. يستدعي الصراخ الأم هانا التي كانت قلقة من مزاج الأب. انتبه الخصوم إلى أنها تكاد تسير وتتحدث مثل جون. هي أيضاً لم يكن بمقدورها أن تغضب، وهذا ما جعل خصومها وقحين. طالبت الأم بالكرة، فَقُذفت في اتجاهها، ولكن بقوة أعجزتها عن التقاطها. كبر الفتيان، وأمسوا لا يطيعون امرأة تتسم بالبطء. والآن تدخل الأب. يسب مَن؟ الأم. ويضرب مَن؟ جون. ثم منع شيرارد المذهول من أن يجيء مرة أخرى إلى هنا. هكذا سارت الأمور.

النظرة الثابتة صالحة للتأمل. في البداية لم ير جون سوى قلب ساحة السوق، وبعد ذلك راحت أشياء عديدة تنضم إلى هذا القلب: دَرج، ومنازل، وعربات تجرها الخيل. كان يرى كل شيء بنظرة شاملة دون أن تُسرع عيناه، أو تحضه على فعل شيء. وفي الوقت نفسه تجمعت في رأسه أجزاء التفسير الكبير لأصل كل الشرور مثل صورة ملونة، صورة فيها درج ومنازل وفي الخلفية الأفق.

يعرفونه هنا، ويعلمون مقدار الجهد الذي يجب عليه أن يبذله. يود أن يكون بين غرباء، قد يكونون مثله. لا بد أنهم موجودون، ربما في مكان ناء

للغاية. هناك سيكون بمقدوره أن يتعلم السرعة على نحو أفضل. إلى ذلك، فهو يريد أن يرى البحر. لن يكون بإمكانه هنا أن يصبح شيئاً. حزم جون أمره: في ليلة هذا اليوم! لا تستطيع الأم حمايته، ولا هو يستطيع حمايتها أيضاً، إنه بالأحرى مصدر هَم لها. يهمس جون:

- ليست الأمور سهلة معي. سأتغير، وسيختلف كل شيء عندئذ!

عليه أن يسافر، في اتجاه الشرق، إلى الساحل، مِن هناك تهب الرياح. بدأ منذ تلك اللحظة يشعر بالسرور.

يوماً ما سيعود مثل تومي في الكتاب، سريع الحركة وبملابس فاخرة. سيدخل الكنيسة، وفي وسط القداس سيصيح بصوت عال: «توقفوا!». كل الذين أهانوه أو أهانوا أمه سيهجرون القرية من تلقاء أنفسهم، وسيسقط الأب ويفقد رأسه.

في الفجر تسلل من البيت. لم يمر بساحة السوق، بل سار عبر الحظائر، على المراعي مباشرة. سيبحثون عنه، عليه إذن أن يفكر في الآثار التي يتركها. عبر إنغ منغ. لم يرد إيقاظ شيرارد، إنه فقير، وسيرغب في الذهاب معه، لكنه أصغر من أن يعمل على سفينة. وصل جون إلى حظائر هاندليبي. كان الجو بارداً ورطباً، وما زال الضوء ضعيفاً. كان يتطلع إلى العيش في الغُربة، وكانت خططه مُحكمة.

في قناة نحيلة سار حتى وصل إلى غدير «ليمن». سيظنون أنه سار في اتجاه هورنكاسل، لا إلى البحر. سار في قوس واسع ماراً بسبيلسبي من ناحية الشمال. عندما أشرقت الشمس، كان يجر قدميه عبر بقعة ضحلة من نهر ستيبينغ، حاملاً حذاءه في يده. كان في تلك اللحظة قد ابتعد عن القرية مسافة كبيرة ناحية الشرق. قد يقابل الراعي في الهضبة، لكنه نؤوم الضحى، فهو يرى أن الفجر لحيوانات الغابة. لدى الراعي فائض من الوقت، وهو

يكثر من التفكير، في معظم الأحيان بقبضتين مضمومتين. كان جون يحبه، لكن من الأفضل ألا يقابله اليوم. قد يتدخل في أمره، فالشخص البالغ لديه دائماً رأي يختلف عن رأي الطفل فيما يتعلق بالهرب، حتى إنْ كان مجرد راعٍ ينام طويلاً، وشخصاً متمرداً.

بمشقة اخترق جون غابات ومراعي، متجنباً كل الطرق المطروقة، زاحفاً عبر الأسلاك والسياجات. عندما كان يجتاز الغابات المعتمة، ثم يغادرها مخترقاً الشجيرات، كانت الشمس تمد أشعتها تجاهه، بالضوء بدايةً، ثم بالدفء المتزايد. نالت ساقاه خدوشاً من الأشواك. كان سعيداً كما لم يكن من قبل، فهو الآن معتمد على نفسه فحسب. من بعيد تناهت إلى سمعه عبر سيقان الشجر طلقات رصاص لمجموعة من الصيادين. سار في قوس ناحية الشمال عبر المراعي؛ إذ لم يكن يريد أن يصادف حيوانات ضارية.

كان يبحث عن مكان لا ينظر فيه أحدٌ إليه على أنه بطيء أكثر من اللازم. لكن هذا المكان قد يكون نائياً.

لم يكن في جيبه سوى شلن واحد، هدية من ماثيو البحّار. سيحصل مقابله في حالة الطوارئ على قطعة لحم وسلطة. بإمكان المرء أيضاً، مقابل شلن، أن يسافر بضعة أميال بعربة البريد؛ إذا ركب خارجها، أي إذا جلس على سطحها. يجب عليه عندئذ أن يتشبث جيداً بالعربة، وأن يخفض رأسه عند مروره تحت البوابات المنخفضة. البحر والسفن أفضل دائماً.

ربما يمكن الاستعانة به كملاّح، لكن على الآخرين أن يثقوا به أيضاً. قبل شهور ضلوا طريقهم خلال تجوالهم في الغابة. وحده، جون، هو الذي راقب التغييرات التي حدثت شيئاً فشيئاً، وضع الشمس، ميل الأرض. كان يعلم كيف يرجعون. نقش رسومات على تربة الغابة، لكنهم لم يريدوا

مطلقاً أن ينظروا إليها. اتخذوا قرارات متعجلة، وبالسرعة نفسها تخلوا عن تنفيذها. ليس بمقدوره العودة وحده، لن يتركوه. مهموماً راح يسير خلف ملوك فناء المدرسة الصغار، الذين كانوا يدينون بالفضل في مكانتهم إلى سرعتهم، لكنهم لا يعرفون الآن كيف يسيرون. لو لم يقابلوا راعي الأغنام الإسكتلندي؛ لقضوا ليلتهم في العراء.

أضحت الشمس في كبد السماء. بعيداً، في الناحية الشمالية من الهضبة، يقف قطيع من الخراف. قنوات المياه تتكاثر، والغابات تقل. سدد نظرة بعيدة إلى السهول، وتعرف إلى طواحين هواء، وطرق تحف بها الأشجار، وبيوت للسادة. كانت الريح منعشة، وأسراب النوارس تزداد ضخامة. متأنياً راح يجتاز سياجاً وراء الآخر. أتت أبقار تتفرج عليه وهي تومئ وتتأرجح.

استلقى خلف سياج من الشجيرات. بالنار الحمراء ملأت الشمس عينيه خلف الجفنين المسدلين. قال لنفسه إن شيرارد سيشعر بالخيانة. فتح عينيه ثانيةً حتى لا يشعر بالحزن.

لو كان المرء يجلس هكذا فحسب، وينظر إلى السهول مثل حجر، قروناً بأكملها؛ ستصبح المراعي غابات، والمستنقعات ستغدو قرى أو حقولاً! لن يوجه له أحد سؤالاً. سيتعرفون إليه إذا تحرك باعتباره إنساناً فحسب.

لم يكن بمقدور المرء هنا، خلف سياج الشجيرات، أن يسمع أي شيء صادر من سكان الأرض، باستثناء صياح بعيد من دجاج وكلاب، وبين الحين والآخر طلقة رصاص. ربما قابل في الغابة قاطع طريق. عندئذ سيفقد الشلن.

وقف جون، وواصل سيره في المرج بين المستنقعات. هبطت الشمس

في الأفق، وأصبحت خلف سيلسبي بمسافة كبيرة. آلمته قدماه، والتصق لسانه بفمه. سار حول قرية. كان عليه أن يسير في قنوات ضحلة تزداد اتساعاً، أو أن يقفز فوقها، ولم يكن جون يجيد القفز. اختفت سياجات الشجيرات. بعد ذلك سار في طريق يؤدي إلى قرية، غير أن كنيستها بدت مثل كنيسة سانت جيمس. أزاح بسهولة من خياله صورة بيت الوالدين وطعام العشاء. رغم الجوع كان يشعر بالسرور؛ لأنهم يجلسون الآن هناك وينتظرون، وهم لا يستطيعون الانتظار، وأنهم كانوا يجمعون الملاحظات التي سيسمعونها إياه، وأنهم لن ينطقوا بها.

كانت القرية تدعى إنغولدملس. غربت الشمس. اختفت فتاة في منزل حاملة أثقالاً على رأسها، دون أن تراه. في تلك اللحظة تعرف جون خلف القرية إلى ما يبحث عنه.

رأى بحراً رمادياً، رصاصياً، متسعاً اتساعاً لا نهائياً، قذراً ومسكوناً بالضباب، كعجين خبز متمدد، يبدو خطيراً بعض الشيء، مثل نجم بعيد عندما يتأمله المرء عن قرب. تنفس جون عميقاً. هرول متعثراً في اتجاه ذلك الشيء المنبسط، بأسرع ما يستطيع. ها هو قد وجد المكان الذي ينشده. كان البحر صديقاً، هذا ما شعر به، حتى إن لم يبدُ جميلاً في تلك اللحظة.

هبط الظلام. بحث جون عن المياه، لكنه لم يجد سوى الطمي والرمال ومجاري المياه الهزيلة الضحلة. كان عليه مواصلة السير. رقد خلف كوخ فيه قارب، وراح يحملق في الأفق المائل إلى السواد حتى نعس. في الليل استيقظ في قلب الضباب، شاعراً بالبرد والجوع. البحر هناك الآن، لقد سمعه. سار في اتجاهه، وهبط بوجهه حتى لم تبق سوى مسافة أصابع بينه وبين الخط الذي تلتقي فيه اليابسة بالبحر. لكنه لم يستطع أن يحدد بدقة موقع هذا الخط. كان يقعد مرة في البحر، وأخرى على اليابسة. دفعه

ذلك إلى التفكير. من أين أتت هذه الرمال الكثيرة؟ أين يختفي البحر عند الجزر؟ شعر بالسعادة، ثم راحت أسنانه تصطك ببعضها بعضاً. عندئذ عاد إلى الكوخ وحاول أن ينام.

في الصباح أخذ يتلمس طريقه على طول الساحل، وهو يراقب رذاذ الزبد. كيف يمكنه أن يصعد على سطح سفينة؟ رأى صياداً يصلح قارباً مقلوباً بين الشِباك السوداء ذات الرائحة العفنة. على جون أن يفكر جيداً في السؤال الذي سيطرحه، وأن يتدرب عليه؛ حتى لا يفقد الصيّاد صبره فوراً. من بعيد رأى سفينة. برقت الأشرعة العديدة في شمس الصباح، كان هيكل السفينة مختفياً وراء سطح الماء. لاحظ الرجل نظرة جون، وضيق عينيه، ثم نظر نظرة فاحصة إلى السفينة، وقال: «هذه فرقاطة، رجلُ الحرب». جملة مدهشة بعض الشيء! ثم واصل عمله. تطلع جون إليه، ووجه سؤاله: «كيف يمكنني، من فضلك، الصعود على سطح سفينة؟».

«في هال»، قال الصياد مشيراً بمطرقته نحو الشمال، «أو سكيغنيس في الجنوب، ولكن بكثير من الحظ». نظر إلى جون نظرة سريعة من أعلى إلى أسفل، باهتمام، مثلما أظهرت المطرقة المعلقة في الهواء. ولم تخرج كلمة أخرى من فمه.

تلاعبت الرياح بجون وهو يشق طريقه تجاه الجنوب. سيكون محظوظاً بالتأكيد. إذن إلى سكيغنيس! لم يكد يحول بصره عن الأمواج التي تصل إلى اليابسة بلا توقف. بين الحين والآخر كان يجلس على أحد الحواجز الخشبية التي كان عليها، في هيئتها المتراصة، أن تعوق البحر عن قذف الرمال على الشاطئ. باستمرار كان يرى مجاريَ جديدة من المياه، بركاً وفجوات تنشأ، ثم تتحول بسرعة إلى مساحات ملساء ساطعة. صاحت النوارس منتصرة: «هذا صحيح!»، أو «واصل سيرك فحسب!». الأفضل

ألا يشرع في التسول! أن يذهب فوراً إلى سفينة، وهناك سيجد شيئاً يأكله. إذا قبلوه؛ فسيلف حول العالم ثلاث مرات قبل أن يستطيعوا إرساله إلى بيته مرة أخرى. لمعت بيوت سكيغنيس من خلف التلال الرملية. كان واهن القوى، لكنه متفائل. قعد وراح يحدق برهة في الرمال ذات الأضلاع الرقيقة، فسمعت أذناه أجراس المدينة.

لاحظت صاحبة المطعم في سكيغنيس حركات جون فرانكلين، فنظرت في عينيه، وقالت:

- لن يتحرك من مكانه، إنه يكاد يتضور جوعاً.

أفاق جون فوجد نفسه يجلس إلى مائدة عليها مفرش خشن، وأمامه صحن فيه شريحة، تشبه شريحة سميكة من الخبز، لكنها مكونة من قطع اللحم. سُمح له بالاحتفاظ بالشلن. كان طعمها بارداً، مزاً، ومالحاً، وكانت بالنسبة إلى الحلق مثل الأجراس بالنسبة إلى الأذن، ومثل الرمال الناعمة المتموجة إلى العين. ببهجة عظيمة انهمك في الأكل، دون أن يزعجه الذباب النهم. طيلة تناوله الطعام كانت تعلو وجهه ابتسامة. المستقبل أيضاً بدا له ثرياً ولطيفاً، وواضح المعالم مثل الطعام في صحنه. كان في طريقه إلى مناطق غريبة من العالم. سيستقصي أمر السرعة، وسيتعلمها. لقد وجد امرأة منحته طعاماً. لن تكون السفينة المأمولة بعيدة عنه إذن.

«ما اسم هذا؟»، سأل مشيراً بشوكته إلى الصحن.

أجابت صاحبة المطعم:

- هذا طعام تقليدي، زولتسه(*) من رأس الخنزير، إنها تمنح قوة.

(*) Sülze «زولتسه»، ويطلق عليها أيضاً «آسبك»، عبارة عن قطع لحم في جيلاتين متماسك، وتقطع شرائح سميكة قبل تقديمها.

لديه الآن قوة، لكنه لم يجد سفينة بعد. لم يكن محظوظاً في سكيغنيس، باستثناء الطعام. زولتسه نعم، فرقاطة لا. لكن ذلك لن يثبط عزيمته. قريباً منه تقع «غيبرالتر بوينت»(*)، وهناك تمر سفن عديدة في طريقها إلى خليج «واش». هناك يريد أن يتجول في المنطقة. ربما يكون بمقدوره بناء طوف، وأن يبحر حتى خط انطلاق السفن، سيرونه، ولا بد عندئذٍ أن يأخذوه معهم. تجول في اتجاه الجنوب مبتعداً عن البلدة: غيبرالتر بوينت!

بعد مرور نصف ساعة على الرمال الحارقة استدار جون. غابت المدينة مرة أخرى وسط الضباب والدخان. لكن في مقدمة المدينة كانت هناك نقطة يمكن التعرف إليها بوضوح تام. شخص يقترب بسرعة كبيرة! راح جون يراقب الحركة بقلق. شيئاً فشيئاً كانت النقطة العمودية تستطيل، وتقفز إلى أعلى ثم تهبط. لم يكن هذا إنساناً يسير على قدميه! تعثر جون في سيره المتعجل خلف أحد الأعمدة الخشبية التي تكسر الأمواج، ثم زحف منبطحاً على الأرض حتى وصل إلى المياه، وحاول أن يشق طريقه وسط الرمال. كان يرقد على ظهره، يضرب الأرض بكعبيه ومرفقيه، والبحر يرسل إليه ضرباته الطويلة اللاعقة. كان يأمل في أن يظل تحت سطح المياه حيث لا يظهر سوى أنفه. سمع في تلك اللحظات نباح كلاب تقترب. حبس أنفاسه وحملق بنظرة متحجرة في غيوم السماء، شعر بأن أطرافه تخشبت، كأنه هو كاسر الأمواج. استسلم جون عندما واصلت كلاب الصيد نباحها في أذنه. لقد أمسكوا به. ها هو يرى الخيل أيضاً.

من نهر «ستيبينغ» جاء توماس على حصانه، ومن سكيغنيس أتى الأب

(*) Gibraltar Point: محمية طبيعية تقع على بحر الشمال، بالقرب من لينكولنشاير في إنكلترا.

مع الكلاب. جذبه توماس من ذراعه، ولم يعلم جون السبب. عندئذ تسلمه الأب، وتتالت الضربات، فوراً، في المكان نفسه، تحت شمس العصر.

بعد ست وثلاثين ساعة من بداية هروبه وجد جون نفسه في طريقه إلى البيت مرة أخرى، جالساً أمام أبيه على حصان لا يتوقف عن الهز والدفع، ومن خلال عينيه المتورمتين راقب الجبال البعيدة، التي كانت تعود معه إلى سبيلسبي كأنها تسخر منه، بينما كانت تعبر به إلى غير رجعة السياجات والجداول والأسوار التي كلفته ساعات لاجتيازها.

لم يعد متفائلاً. لم يعد يريد الانتظار حتى يصبح بالغاً! حُبس في غرفة مع ماء وخبز، حتى يتعلم الدرس، لكنه لم يعد يريد التعلم أيضاً. بلا حراك حملق في البقعة نفسها دائماً، دون أن يرى شيئاً. ضاق تنفسه كأن الهواء طمي. وانغلق جفناه طيلة ساعات، ترك كل شيء يسير مساره. لم يعد يريد أن يغدو سريعاً. على العكس، كان يريد أن يكون بطيئاً حتى الموت. بالتأكيد لم يكن سهلاً أن يموت كمداً دون استخدام وسيلة مساعدة، لكنه سينجح في ذلك. في مواجهة كل المواعيد سيتعمد منذ الآن أن يتأخر، وأن يتخلف حتى يظنوه ميتاً. نهار الآخرين سيكون بالنسبة إليه مجرد ساعة، وساعاتهم محض دقائق. شمسهم تطاردهم في السماء، تسبح في بحر الجنوب، ثم تشرق ثانية في الصين، وتتدحرج فوق آسيا مثل كرة من كرات البولينغ. الناس في القرى يثرثرون ويتململون طيلة نصف ساعة، هذا هو يومهم. بعد ذلك يخرسون وينطفئون، ويجذف القمر قاربه بسرعة عبر القبة السماوية؛ إذ إن الشمس قد عاودت اقترابها لاهثة من الناحية الأخرى. سيصبح أبطأ فأبطأ. تعاقب النهار والليل سيشبه رمشة العين، وسيكون أبدياً؛ لأنهم سيظنونه ميتاً. جنازته! ملأ جون رئته بالهواء، ثم حبس الأنفاس.

استفحل المرض، وآلمه جسده. قذف الجسم خارجاً ما دخله قبل قليل. تشوش الذهن. ساعة سانت جيمس، كان يراها عبر النافذة، لم تعد تعني لجون شيئاً، كيف يمكنه أن يجد علاقة بالساعة مرة أخرى؟ في العاشرة والنصف كانت الساعة تعود إلى العاشرة ثانية، وكل مساء كان كالمساء الذي سبقه. إذا مات الآن، فسيكون الأمر مثلما كان قبل الولادة، كأنه لم يكن.

كان محموماً، كأنه في فرن. وُضِعت له كمادات خردل، وقُطِر في فمه شراب من البوصير وحبوب الكتان، واحتسى فوق ذلك شراب عيدان الشعير. أمر الطبيب الأطفال الآخرين بالابتعاد عنه، وأوصاهم بأكل حبات الكشمش وعنب الأحراج لفعاليتها في مقاومة العدوى. كل ربع ساعة كانت ملعقة من مسحوق بذور القمرية ولحاء الكروتون والراوند المجفف تمر عبر شفتي جون.

لم يكن المرض سبيلاً سيئاً، لكي يكتسب وضوح الرؤية من جديد. عاده الزوار في فراشه: الأب، والجد، ثم العمة إليزا، وأخيراً ماثيو البحّار. كانت الأم موجودة على نحو شبه دائم، صامتة ومضطربة، لكنها لم تكن قط عاجزة، ودائماً تفيض سلاماً، كأنها متأكدة من أن كل شيء سيمر بسلام. كانوا جميعاً يفوقونها، ومع ذلك كانوا في حاجة إليها. الأب ينتصر، وهو دائماً معدوم الفائدة تماماً. كان دائماً في الأعلى، لا سيما عندما يتحدث، حتى إن أراد أن يقول شيئاً لطيفاً: «عما قريب ستذهب إلى المدرسة في لاوث. وهناك ستتعلم قواعد النحو، وستحفظ أشياء أخرى كثيرة». في حماية المرض أخذ جون يدرس كل ما يقع تحت يديه. كان الجد ثقيل السمع، ويحسب كل ألثغ، وكل مَن يغمغم في كلامه، متحدياً له. والخائن هو من يتجرأ ويفهم ما يقوله المُغَمغِم: «بذلك سيعتاد الأمر!». خلال هذه

المحاضرة سُمح لجون بأن يشاهد ساعة الجيب. على ميناء الساعة المليء بالزخارف آية من الإنجيل تبدأ بـ«طوبى...»، كان الخط صعباً متداخلاً. خلال ذلك حكى له الجد: إنه هرب من البيت إلى الساحل، عندما كان صبياً. وهو أيضاً أمسكوا به، وأعادوه. انتهت الحكاية فجأة مثلما بدأت. تحسس الجد جبهة جون، ثم انصرف.

صورت العمة إليزا رحلتها إلى سبيلسبي، من «ثيدلثورب أول سانتس» حيث تعيش، وهي رحلة لم تر فيها شيئاً. رغم ذلك واصلت حديثها، وواصلت، كأن الكلام حبل طائرة ورقية لا ينتهي. من العمة إليزا يمكن أن يتعلم المرء: أن مضمون الحديث السريع لا فائدة منه في معظم الأحيان، مثل السرعة نفسها. أغلق جون عينيه. عندما لاحظت العمة ذلك أخيراً، خرجت من الغرفة بصوت مبالغ في خفوته، شاعرة ببعض الإهانة. في يوم آخر زاره ماثيو. لم يدّعِ مطلقاً أن كل شيء يحدث بسرعة في البحر. كل ما قاله كان: «على المرء في السفينة أن يحسن التسلق، وأن يتعلم أشياء كثيرة عن ظهر قلب». أسنان فك ماثيو السفلي كانت قوية جداً، كان يبدو مثل كلب «بولدوغ» ألماني. كانت نظرته حادة ومحدقة، كان من الواضح دائماً إلى أين ينظر، وماذا يهمه حقاً. أراد ماثيو أن يسمع من جون الكثير، وانتظر صابراً حتى ينتهي من صياغة إجاباته والنطق بها. جون أيضاً كانت لديه أسئلة كثيرة. ثم هبط المساء.

إذا كان أحد يفهم في البحر، فهو يجيد الملاحة. راح جون يردد الكلمة عدة مرات. ومعنى ذلك: النجوم، والأدوات، والتفكير بعناية. أعجبه ذلك. قال: «أريد أن أتعلم قواعد الإبحار الشراعي!».

قبل أن ينصرف ماثيو، انحنى على جون حتى اقترب منه تماماً.

«سأسافر إلى تيرا أستراليس(*)، سأغيب سنتين. بعد ذلك سأحصل على سفينة خاصة». «تيرا أستراليس، تيرا أستراليس»، راح جون يتدرب على نطق الكلمة.

«لا تهرب مرة أخرى! بإمكانك أن تصبح بحّاراً. لكنك شخص يميل إلى التأمل، عليك إذن أن تصبح ضابطاً، وإلا فستعيش في الجحيم. حاول أن تجتاز المدرسة حتى رجوعي. سأرسل لك كتباً عن الملاحة. وسآخذك كضابط صف في سفينتي».

رجاه جون: «مرة ثانية من فضلك!». وعندما فهم كل شيء بدقة، انتابته فوراً الرغبة في أن يكون سريعاً مرة أخرى.

أعلن الطبيب مزهواً: «الحالة تحسنت كثيراً. الدم الفاسد لا يستطيع مواجهة لحاء الكروتون!».

(*) terra australis: قارة افتراضية ظهرت في الخرائط القديمة، وتعني الكلمة اللاتينية «الأرض الجنوبية». وفكرة وجود تيرا أستراليس تقوم على افتراض وجود قارة جنوبية تقابل قارات الشمال.

الفصل الثالث

د. أورم

كل الأزرار مُزررة خطأ: مرة أخرى من البداية! هل كان الوشاح مربوطاً حول العنق بشكل صحيح، والسروال القصير هل يغطي الركبة جيداً؟ قبل الفطور يفحص مساعد المعلم مظهر الشخص الخارجي. راسب: لا فطور. مقابل كل زر ليس في مكانه: لطمة على الأنف. وإذا كان الشعر غير مصفف: خبطة على الرأس. ياقة الصديري يجب أن تكون فوق السترة، الجوارب مشدودة تماماً. منذ مطلع النهار والأخطار الكثيرة تتربص به. أحذية بأربطة وأحزمة، وأكمام إضافية، وفتحات خلفية في الجاكيت، والقبعة، هذا الفخ!

ارتداء الزي كان بالتأكيد تدريباً جيداً للمستقبل. في المدرسة مساوئ، لكن جون كان مقتنعاً كل الاقتناع، بأن في استطاعة المرء في كل مكان في العالم أن يتعلم شيئاً ينفعه في الحياة، إذن في المدرسة أيضاً. وحتى إذا لم يكن الأمر كذلك، فلا مجال للهرب. لا بد من الانتظار، إذا لم يكن بدافع من الرغبة، فبدافع من الذكاء.

لم تصله بعد أي رسالة من ماثيو. ولماذا يرسل إليه؟ لقد قال له: عامين. حتى ينقضي العامان ما زال هناك وقت طويل.

التعلم في الحصص المدرسية. قاعة الدراسة مظلمة، النوافذ في أعلى القاعة، وفي الخارج عاصفة خريفية. كان د. أورم يجلس في حِنية الهيكل، خلف طاولته حيث وضعت ساعة رملية. يجب على كل حبات الرمل أن تعبر المضيق حتى تكوّن في الأسفل الكومة نفسها التي كانت من قبل في الأعلى. الوقت الضائع، الناشئ عن ذلك، يُسمى حصة اللغة اللاتينية. أصبح الجو بارداً، والمدفأة كانت لدى المعلم.

كانوا يطلقون على أكبر التلاميذ سناً: المرشدين. وكانوا يجلسون في الأمام بجانب الجدار، ويراقبون الآخرين. وبالقرب من الباب كان يجلس المعلم المساعد ستوبفورد، ويسجل أسماء التلاميذ.

راح جون يحملق أمامه في ثنيات أذن هوبكينسون، وفي تلك اللحظة وُجِه إليه سؤال. غير أنه فهم فحواه. والآن عليه أن يحترس! عندما يجيب بسرعة كان يتهته، وتخرج الحروف مختنقة من فمه، ما يزعج المستمعين. من ناحية أخرى كان الدكتور أورم قد أوضح في الأسبوع الأول، وبشكل حاسم: «مَن ينطق بالصواب، ليس عليه بالضرورة أن يبدو في مظهر حسن!». كان بإمكان المرء اتباع هذه النصيحة.

تلاوة ما حفظ، تصريف الأفعال، التصريف مع الضمائر، الحالة الإعرابية الصحيحة. عندما ينتهي من هذا، سيكون لديه مرة أخرى الوقت لمنحنيات أذن هوبكينسون، أو للجدار الذي كان يراه عبر النافذة، والبلاط المبلل، والنباتات المتسلقة التي كانت تهتز في العاصفة.

التعلم في وقت الفراغ في المساء. مسموح برماية السهام في الفناء، لكن ألعاب الزهر والورق ممنوعة. الشطرنج مُباح، لكن النرد ممنوع. إذا سُمِحَ له، كان جون يسير إلى شجرته لكي يتسلقها، فإذا لم يُسمح له، كان يقرأ، أو يتمرن على شيء. كان يجرب السرعة أحياناً مستخدماً السكين: يمد يداً مُباعداً بين الأصابع، وباليد الأخرى يرمي النصل في المثلث الناشئ بين إصبعين. سُرقت السكين منه، والطاولة تضررت ضرراً شديداً، وبين حين وآخر كان يصيب أحد أصابعه. كانت اليد اليسرى على كل حال.

كان يكتب رسائل أيضاً، إلى أمه، وإلى ماثيو. لم يكن أحد يريد أن يتفرج عليه أثناء الكتابة، مع أنه كان يحب الكتابة، ويكتب بخط جميل. كيف كان يغمس طرف الريشة، ثم يهزها، ويرسم الحروف، ويطوي الورقة حتى يختمها، لم يكن أحد يطيق أن يرى ذلك كله.

كان صعباً عليه التحول إلى شخص آخر في المدرسة. الوضع هنا كما كان في سبيلسبي: كانوا يعرفون نقاط ضعفه، ولا أحد يصدق جدوى تمارينه، وكلهم مقتنعون تماماً: بأنه سيظل كما هو.

لا بد أن يتعلم كيف يتعامل مع التلاميذ الآخرين. على ظهر السفينة أيضاً سيتعامل مع عدد كبير من الناس، وسيكون الأمر صعباً؛ إذا كان ثمة كثيرون لا يحبونه.

انتهى التلاميذ من كل شيء بسرعة، وكانوا يلاحظون فوراً إذا ما كان شخص قد تأخر عنهم. لا يذكرون الأسماء سوى مرة واحدة. فإذا استفهم عنها، كانوا يتهجونها. كان التهجي السريع بالنسبة إليه أسوأ من التحدث ببطء. تحملَ نفاد صبر الآخرين. كان تشارلز تينيسون، وروبرت كراكروفت، وأتكينسون، وهوبكينسون، يشحذون ألسنتهم، وكلما سنحت

لهم فرصة، تهكموا على جون. بدا له كأنهم ينظرون إليه دائماً بعين واحدة، وبالعين الأخرى يتفاهمون فيما بينهم. إذا قال شيئاً، مالوا برؤوسهم، بما يعني: «أنت ممل، متى ستصل أخيراً إلى نهاية كلامك؟». كان توم باركر، ولا يزال، أصعب ما يواجهه. إذا أعطاه المرء ما يطلبه، فإنه يتظاهر بأنه كان يطلب شيئاً آخر تماماً. مَن يتحدث معه، يُقاطع فوراً، ومن يلمحه، يصطدم بسحنته التي يقلصها عمداً. كان على جون أن ينام بجوار توم في قاعة النوم؛ لأن كلاً منهما يتحدر من سيلسبي. كانا يقتسمان الصندوق بين الفراشين. كل منهما يرى ما يمتلكه الآخر. ربما يكون ذلك تمهيداً جيداً لعمله بحاراً؛ فهناك أيضاً المكان ضيق، وبعضهم لا يستطيع أن يتحمل الآخرين.

لا شيء يستطيع أن يدفع جون إلى حافة اليأس، كان يحمل في صدره أملَ ماردٍ. العوائق التي لا يستطيع التغلب عليها، يتجاهلها ببساطة. غير أنه كان يستطيع مساعدة نفسه في معظم الأحيان. كان يحفظ نحو مئة عبارة شائعة، وكانت تلك العبارات جاهزة للاستخدام وتساعده كثيراً، وشيوع هذه العبارات كان يمنح بعض المستمعين الشجاعة؛ لكي ينتظروا قليلاً، حتى يصل جون إلى جوهر إجابته: «يمكنك القول»، أو «هذا شرف لا أدعيه»، أو «هذا أمر تفرضه طبيعة الأشياء»، أو «شكراً على جهودك». عبارات كهذه يمكن النطق بها بسرعة. كان يستطيع أيضاً أن ينطق بسلاسة أسماء قادة سلاح البحرية. كانوا يتحدثون كثيراً عن الانتصارات، ولهذا كان يريد أن يعرف فوراً أسماء قادة البحرية، وأن يكمل الأسماء الناقصة.

وكان يريد أن يتعلم كيف يمسك بخيوط الحديث. كان عموماً يحب الإصغاء، وكان يسعد عندما تعطي الشذرات التي التقطها مغزى. كان حذراً في استخدام الحيل: أن يقول ببساطة نعم، وأن يتصرف كأنه فهم.

هذا أمر لم يثبت جدواه. في كثير من الأحيان ينتظرون شيئاً ما من الشخص الذي يقول نعم. فإذا قال لا، فإنهم يهجمون عليه فوراً: لمَ لا؟ السبب! «لا» بدون سبب كانت تنكشف أسرع من «نعم» بدون سبب.

قال لنفسه: لا أريد أن أؤثر على أي شخص بالكلام. لو يتوقف الآخرون فقط عن محاولة التأثير عليّ! عليهم أن يسألوني، وأن ينتظروا إجابتي متشوقين. عليّ أن أصل بهم إلى هذه النقطة، هذا هو كل شيء.

الشجرة. الطريق إلى هناك يمر بـ«حارة الإنجيل»، ثم عبر شارع يدعى «الرقبة المكسورة». لم يصبح أسرع عبر التسلق، هذا ما أدركه الآن. لكن الشجرة لم تعد معدومة الجدوى. متنقلاً بين غصن وغصن كان بإمكانه ممارسة التفكير المترابط، أفضل كثيراً مما لو فعل ذلك على أرض مستوية. عندما يجد نفسه يلهث بشدة، كان يرى في الأشياء نظاماً.

من أعلى يمكن إلقاء نظرة على مدينة لاوث: طوب أحمر، وحواف بيضاء، وعدد من المداخن يفوق مداخن سبيلسبي بعشرة أضعاف. المدرسة تشبه كل المنازل، لكنها بدت منكمشة. فضلاً عن ذلك كان ينقصها الفناء المسوّر والمساحات الخضراء. في المدرسة ثلاث مداخن عالية مربعة، كأنهم يعملون بالحدادة في الداخل. وعموماً، كان هناك ما يكفي من ضربات المطارق.

«يوم الإصلاح والتهذيب». ثمة يومان في الحقيقة: يوم العصا، ويوم الخيزرانة. هل يمكن أن ينمو نبات في حرية، لكي يصبح عصا؟ كان من الغريب أيضاً تعدد المسميات المتعلقة بالعقاب. يطلقون على الرأس «شمندر»، أو «صندوق الشعراء»، والمؤخرة «السجل»، والأذن «ملعقة»،

وعلى الأيادي «مخالب»، أما الذين يتلقون العقاب فهم «الجُناة». كان جون يواجه صعوبات كافية مع الكلمات الشائعة؛ لذا بدت له هذه المفردات الإضافية محض تبذير.

كان يتجاهل العقوبة في حد ذاتها. يزم الشفتين، ويرسل النظر إلى العالم البعيد: هكذا يمكن اجتياز كل أيام الإصلاح والتهذيب. المهين هو أن المرشدين يمسكون بالمذنب كأنه يريد الفرار. كان جون يتجاهلهم أيضاً. ثمة، كذلك، عقوبات خارج الصف. التأخر عن الصلاة، أو عدم الاستئذان قبل الذهاب إلى الشجرة، أو أن يُضبط المرء خلال ألعاب النرد: عندئذ كانت العقوبة تنفذ فوراً! مكتوب على ختم المدرسة: Qui parcit virgam, odit filium؛ أي: «من يدخر في استخدام الخيزرانة، يكره الطفل». أبدى الدكتور أورم ملاحظة بشأن ركاكة اللغة اللاتينية في الجملة وكسرها القواعد.

كان الدكتور أورم يرتدي سراويل حريرية تصل حتى الركبة، ويسكن في منزل عند «الرقبة المكسورة»، وهناك هكذا يُقال: يقوم بتجارب علمية على الساعات والنباتات، وكان يجمع كليهما بحماسة. يقولون: إن أحد أسلافه كان أحد «القباطنة الثمانية في بورتسمَث». ورغم أن جون لم يعرف قط ماذا كان يفعل أولئك القباطنة، فقد أصبح يرى علاقة بين معلم الفصل الرقيق والمِلاحة، وكثيراً ما كان ينظر إليه بكونه حليفاً سرياً.

لم يكن الدكتور أورم يزعق، ولا يضرب، قط. وربما كانت ساعاته تثير لديه اهتماماً أكبر من اهتمامه بالأطفال. ترك فَرض النظام للمدرس المساعد، ولم يكن يأتي إليهم إلا للحصص المدرسية.

كان جون يريد أن يتعامل مع أشخاص مثل ستوبفورد على نحو أفضل؛ إذ لا يستهان بخطورتهم. في أحد الأيام الأولى في المدرسة أجاب جون

مرة عن سؤال وجهه ستوبفورد قائلاً: «سير، أحتاج إلى بعض الوقت للإجابة عن السؤال!»، اضطرب المعلم المساعد. ثمة جرائم يرتكبها التلاميذ لا تسبب البهجة، ولا حتى للمعلم المساعد. أما طلب المزيد من الوقت، فهذا شيء لا وجود له في مفهومه للتربية.

كان توماس ويب وبوب كراكروفت يحملان دفاتر ضخمة، يكتبان فيها طوال الوقت شيئاً بخط جميل. على الدفتر المجلد كان مكتوباً «أقوال مأثورة وأفكار»، أو «عبارات لاتينية شائعة». كان ذلك يترك انطباعاً طيباً، ولهذا بدأ جون يكتب في دفتر ضخم بعنوان «عبارات شائعة لافتة وتركيبات لغوية جديرة بالحفظ»، وفيه سجل أقوالاً منسوبة لفرجيل وشيشرون. إذا لم يكن يسجل شيئاً، كان الدفتر يرقد تحت ملابسه في الصندوق.

العشاء. بعد صلاة طويلة لم يكن هناك سوى الخبز مع بيرة خفيفة وجبنة. مرتين في الأسبوع كانوا يحصلون على مرقة اللحم، أما الخضار فلم يروها قط. العصا في انتظار مَن يسطو على بساتين الفاكهة ويسرق شيئاً. في رغبي، هكذا حكى أتكينسون، حبسوا قبل عامين الناظر في القبو. منذ ذلك اليوم كانوا يحصلون على قطع اللحم ثلاث مرات في الأسبوع، ولم يكونوا يُضرَبون سوى مرة واحدة. سأل جون:

– وهل ما زال في القبو؟

لقد تمردوا في الأسطول البحري أيضاً، على القادة!

كانت قاعة النوم واسعة وباردة. في كل مكان عُلقت أسماء التلاميذ السابقين الذين أنجزوا شيئاً؛ لأنهم تعلموا هنا باجتهاد. الشبابيك عليها قضبان. والأَسرّة مرتبة في القاعة حتى يمكن الوصول إلى النائمين من

الجانبين؛ فلا يستطيع أحد أن يحتمي بجدار، ولا أن يحملق فيه، ولا أن يبكي في اتجاهه. يتظاهر المرء بالنوم حتى يستغرق في النوم. المصباح مُضاء دائماً. يسير ستوبفورد رائحاً غادياً؛ ليرى أين يضع التلاميذ أياديهم. رحلات جون فرانكلين تحت الغطاء لا تلفت الانتباه، ولا تراها العين بسبب تمهلها.

كثيراً ما كان يواصل التعلم خلال مرحلة استغراقه في النوم أيضاً، وذلك بتكرار ما تعلمه، أو كان يتكلم مع ساغالس.

حلم بهذا الاسم في ليلة ما. يتخيله الآن رجلاً طويلاً، يرتدي الأبيض، هادئاً، ينظر من فوق سقف القاعة إلى أسفل، ويستطيع أن يصغي لما يقال، حتى إذا كانت الأفكار صعبة ومعقدة. من الممكن تبادل الحديث مع ساغالس؛ فهو لا ينصرف فجأة أبداً. لا يكاد يقول شيئاً، فقط كلمة واحدة بين الحين والآخر، لكنها كلمة ذات مغزى، لا سيما عندما تكون كلمة لم تخطر على بال جون. لم يعطِ ساغالس أي نصائح، لكن جون كان يعتقد أن وجهه يشي بوضوح بما يفكر فيه. على الأقل ما إذا كان يميل إلى «نعم» أو إلى «لا». كان بإمكانه أيضاً أن يبتسم ابتسامة لطيفة غامضة. لكن أفضل شيء هو أن لديه وقتاً. كان ساغالس يبقى دائماً فوق القاعة حتى يستغرق جون في النوم. قريباً سيحضر ماثيو أيضاً.

أصبح يتقن أسرار الملاحة. بدأ بمقالة غاور: «الملاحة بين النظرية والتطبيق». على الغلاف المجلد ثبّت سفينة صغيرة، مزودة بشراع مرن ومجاذيف متحركة. كان جون يتدرب على تغيير الاتجاه والدوران. الكتاب نفسه هو البحر، مجرى مائي يمكن إغلاقه. قرأ كتاب مور «الملاحة العملية»، وحاول تطبيق تعاليم إقليدس. كان يسهل عليه الحساب؛ إذا لم

يتعجله أحد. يخلط أحياناً بين علامة الناقص والزائد، ولم يتخلص أبداً من شكوكه بشأن أهمية الفارق الصغير في العلامة. مقدار جنوح السفينة عن مسارها، وانحراف البوصلة، ووضع الشمس في السماء: بمقدوره حساب كل ذلك. في الربيع تحدث أكثر من مئة مرة إلى أوراق الشجرة النضرة: «حساب المثلثات الكروية، حساب المثلثات الكروية». كان يريد نطق اسم مجال تخصصه بلا أخطاء.

من المقرر أن يأتي معلم جديد، شاب اسمه بارنبي. قد يُدرّس الرياضيات.

الملاحة البحرية: عندما يستخدم المرء هذه الكلمة في لاوث، فإن المرء يعني بها القناة الواصلة بين نهر اللود ومصب نهر الهَمبر. هذا فيما يتعلق بلاوث! مع أن البحر لا يبعد عنها إلا نحو نصف يوم. بعد حديث جديد مع ساغالس قاوم جون الإغراء. لا يزال يريد انتظار ماثيو.

كان يريد أيضاً أن يحث توم باركر على الالتحاق بالبحرية.

لم يعد جون يكتب في الدفتر الآن إلا عبارات إنكليزية لاستخدامه الشخصي، تفسيرات وشروحات منبثقة من جموحه وإحساسه بالزمن، يود أن يستطيع النطق بها في حالات الضرورة.

كان أتكينسون وهوبكينسون مع والديهما على البحر. كلا، يقول هوبكينسون، لم ينتبه للسفن. لكنه حكى عن «عربات السباحة»، والمقصود كبائن على عجلات يسحبها حصان حتى البحر؛ كي يستطيع المصطافون النزول إلى البحر دون أن يراهم أحد. وحكى أن السيدات كن يسبحن مرتديات ما يشبه الأكياس من الفلانيل. ما أكثر الأشياء التي تثير اهتمام هوبكينسون. أما أتكينسون فكان لا يتحدث إلا عن مشنقة علق

عليها السفاح كيل من ماكتون، ثم قطعت جثته إلى أربعة أجزاء، وأُلقي به طعاماً للجوارح. «هذا أمر تفرضه طبيعة الأشياء»، أجاب جون بأدب، وإنْ كان محبطاً بعض الشيء. لم يكن أتكينسون وهوبكينسون من الأشخاص الذين يُشرّفون أمةً من البحّارة.

تعلو وجه أندرو بارنبي في الغالب ابتسامة وديعة. من البداية يقول: إنه موجود من أجل الجميع، لا سيما من أجل أضعف التلاميذ. على هذا رأى جون ابتسامته كثيراً. تبدو دائماً متكلفة بعض الشيء، فمَن يكون موجوداً من أجل الجميع، لا يتبقى لديه وقت كثير. لا يميل بارنبي إلى العقوبات البدنية، لكنه كان يطمح إلى استغلال الوقت. لم تعد ساعات الساعة الرملية تعني شيئاً؛ إذ أضحت الدقائق والثواني مهمة الآن. للجواب عن أسئلته كان يضع، سواء سراً أم علناً، حداً ملائماً للوقت، فإذا لم يأت الرد في الوقت المناسب، وجب على التلميذ أن يرجع فيما بعد إلى السؤال. كان جون يتجاوز هذا الحد في كل مرة، ويجيب في كثير من الأحيان خارج دوره، وعلى نحو غير متوقع، عن السؤال قبل الأخير، فلا شيء كان بمقدوره أن يقف عائقاً بينه وبين الحل، حتى إن كان توقيته غير ملائم على الإطلاق. كان لا بد من إحراز تقدم في هذا المجال. في دفتر العبارات كتب: «ثمة توقيتان لكل شيء، توقيت في أوانه، وتوقيت بعد أوانه»، وتحتها كتب: «ساغالس، الكتاب الأول، الفصل الثالث»، حتى تبدو العبارة كأنها قول مأثور معترف به. لم يعد يضع الدفتر تحت ملابسه، بل فوقها، وبشكل واضح. بإمكان توم أن يطالعها. هل فعل ذلك؟

أمطرت السماء في الأحد الثالث بعد عيد الفصح. ذهب جون مع بوب كراكروفت إلى الاحتفال السنوي. كانت الخيام تقطر ماءً، والأرض موحلة

مليئة بالنَّقْر. لم يكن جون سعيداً؛ إذ كان يفكر في توم باركر وفي نفسه. قال لنفسه: إذا كان هنالك وجود للإنسان المثالي عندنا، وليس فقط في اليونان، فستكون له أطراف طويلة، بيضاء، وسيضحك بهدوء، وبإمكانه أن يكون بحقارة توم. منذ أن بدأ يُعجب بتوم، كان ينظر إلى نفسه باستهجان. كيف كان يسير مثلاً: مُباعِداً بين قدميه، بعينين مستديرتين، ورأس مائل كالكلب. كانت حركاته تلتصق في الهواء، أما حديثه فكان مثل حديث الفأس عندما ينغرز في القُرمة. لم يكن يضحك كثيراً، فإذا ضحك، استمرت ضحكته أطول من اللازم. الصوت مبحوح كأن ديكاً يصيح من باطنه. لن يكون ذلك مهماً في البحر. وهناك ظاهرة جديدة أيضاً تظهر دائماً من حيث لا يتوقع، انتصاب لا يختفي إلا ببطء شديد. أن تلفتَ الأنظار في موضع كهذا! استولى الهم على جون. «هذا عادي»، قال بوب، «سفر الرؤيا، الإصحاح الثالث، الآية 19: كل من أحبه، أوبخه وأؤدبه». كان ذلك مرة أخرى دليلاً على استعصاء الإنجيل تماماً على الفهم. سدد جون نظرة زجاجية جامدة إلى الهرج والمرج السائدين في الاحتفال السنوي، كأن عليه لقف كرة. عند السور وقف سبفينس، ذو القدم الواحدة، الذي ألف كتاباً يضم ذكريات بحّارة. صاح: «المال مفسدة! كل شيء تضاعف سعره، وناشري يصم أذنيه!».

ليس بعيداً عنه، كان «كشك» القرص الدوار العجيب. إذا دار بسرعة كافية حول محوره، فإن كلا الشكلين، الفتى هارليكن والفتاة كولومباين، المرسومين على جانبين متقابلين، يتحدان. الأمر له علاقة بالسرعة، لكن جون كان يشعر اليوم بأنه أغبى من أن يدير القرص. سار عائداً إلى سبفينس؛ لأنه يتحدث ببطء ويمكن فهمه. كلمة وراء أخرى استطاع أن يحكي كيف يثبت الصور على الجدار. بأنف يقطر صاح: « الرب هو

السلام! لكن ماذا يرسل إلينا؟ الحرب والغلاء!»، من تحت المعطف مدّ فخذه المبتورة الذي ثبتت به الساق الخشبية، المصنوعة جيداً واللامعة بعد دهنها بورنيش الأحذية. «يرسل إلينا الانتصارات المكلفة، لا لشيء إلا ليختبرنا أكثر فأكثر!»، مع كل جملة كان يخبط ساقه الخشبية فوق الحشائش، مُخلفاً حفرة صغيرة، وفي كل مرة كان ينثر على جوارب الواقفين حوله ماء موحلاً. همس بوب كراكروفت قائلاً: «أعتقد أنه ليس موضوعياً تماماً». ثم شرع يتحدث عن نفسه.

كمستمع، أصبح جون يتمتع بتقدير عال، وخصوصاً لأنه كان يسأل؛ إذا لم يفهم شيئاً. حتى توم قال: «إذا فهمتَ شيئاً، فلا بد أن يكون صحيحاً». أخذ جون يفكر في معنى الجملة، ثم أجاب: « على كل حال، إنني لا أفهم أي شيء مبكراً».

في هذه المرة لم يكن جون مستمعاً جيداً. في النهاية الأخرى للسوق لمح نموذج فرقاطة يبلغ ارتفاعها طول رجل، كان بدن الفرقاطة مطلياً بالأسود والأصفر، وكانت مزودة بالمدافع والصواري. كانت معروضة في خيمة الدعاية لسلاح البحرية. أخذ جون يدرس كل شبر في الفرقاطة. لديه على الأقل ثلاثة أسئلة بخصوص كل جزء. بعد ساعة طلب الضابط أن يحل محله أحد، ثم استلقى على فراشه.

في المساء كتب جون في دفتره: «صديقان، أحدهما سريع، والآخر بطيء، يسافران عبر العالم كله. ساغالس، الكتاب الثاني عشر». ثم وضع الدفتر فوق ملابس توم.

جلسا على ضفة نهر اللود عند الطاحونة، خلا المكان حولهما من البشر، فقط بين حين وآخر كانت تُسمع طقطقة عجلات عربة تجرها

الخيل فوق الجسر. وضع توم قدمه في الماء، إحدى القدمين الرائعتين. قال له: «لقد تجادلا بشأنك». دق قلب جون، ووصلت الدقات حتى عنقه. هل قرأ توم في دفتر «العبارات اللافتة»؟

- قال بارنبي: إنك خامة جيدة، وتفهم في شؤون السُلطة، وإن تعليمك سيؤتي ثماره. لكن الدكتور أورم يعتبرك شخصاً يحفظ عن ظهر قلب، ولذلك فإن تعلُّم اللغات القديمة لن يفيدك. يريد أن يتحدث مع والدك حتى تتعلم حرفة.

كان توم قد تنصت في المساء بجوار نافذة مطعم «ويتشيف إن» المفتوحة.

- لم أفهم كل شيء. لم يقولا كلمة واحدة عني. بارنبي قال... اعتقدتُ أن ذلك يهمك؟

رد جون:

- نعم، جداً. شكراً على تعبك.

- تحدث بارنبي عن ذاكرتك الجيدة. بعد ذلك قال: إن الحرية ليست سوى مرحلة انتقالية. لا أعرف إن كان ذلك عنك. ثم صاح غاضباً: «التلاميذ يحبونني». أعتقد أن الدكتور أورم كان غاضباً أيضاً، لكنه كان خافت الصوت. قال شيئاً مثل «مثال الرب» و«المساواة»، وأن بارنبي لم ينضج بعد. أو الوقت. كان يتحدث بصوت خافت جداً.

فوق الجسر مرت عربة تجرها الخيل خارجة من المدينة. الآن نطق جون بسؤاله:

- هل قرأت في كتابي؟

- أي كتاب؟ دفتر ملاحظاتك؟ وماذا أفعل بها؟

بعد ذلك بدأ جون يتحدث عن ماثيو وعن عزمه أن يصبح بحاراً.

– ماثيو يحب عمتي، وسيأخذني معه، وأنت أيضاً!

– لماذا؟ سأصبح طبيباً أو صيدلياً. إذا أردت أن تغرق، فافعل ذلك وحدك!

أخرج توم قدمه الرائعة من مياه اللود التي لن يغرق فيها إنسان بالتأكيد، كأنه أراد أن يؤكد كلامه، ثم ارتدى جوربه ثانية.

في الآونة الأخيرة أصبح بارنبي يعلّم الرياضيات فعلاً، دائماً في أيام السبت. لم يبد أن قدرة جون على فعل أشياء كثيرة قد سببت له بهجة حقيقية، لكن بقيت الابتسامة على وجهه. إذا اكتشف جون خطأ في شروحات بارنبي، كان يحدث كثيراً أن يبدأ المعلم في التحدث عن التربية، حديثاً متحمساً نارياً، أو حديثاً حزيناً بعض الشيء، ولكنه كان دائماً مبتسماً. حاول جون أن يفهم التربية؛ لأنه كان يود حقاً أن يسعد بارنبي.

كان د. أورم يحضر دروس أيام السبت ويصغي. ربما كان بمقدوره أن يشرح الرياضيات أفضل من بارنبي، لكن بنداً في وثيقة تأسيس المدرسة يمنعه من أن يدرس شيئاً آخر غير الدين والتاريخ واللغات.

بين حين وآخر كانت ابتسامة ترتسم على شفتيه.

قبع جون فرانكلين في الزنزانة. كان قد أحكم قبضته حول رقبة شخص تحول عنه نافد الصبر، دون أن ينتظر بقية إجابته. فعل جون ذلك دون أن يفكر في أن هذا الشخص هو بارنبي. استخلص جون من ذلك: إنه لا يستطيع أن يتخلى عن شيء، لا عن صورة، ولا عن إنسان، ولا عن معلم. أما بارنبي فقد استخلص من ذلك: أن جون يجب أن يُعاقب عقاباً قاسياً.

الزنزانة كانت أقسى أنواع العقاب. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى

جون فرانكلين الذي كان يستطيع الانتظار مثل عنكبوت. لو كان لديه فقط شيء يقرأه! صار يحب الكتب بجميع أشكالها؛ فالورق يستطيع الانتظار، ولا يعرف الإلحاح. كان يعرف غاليفر وروبنسون، وسيرة البحار ويليام سبفينس، وفي الآونة الأخيرة أيضاً رواية «رودريك راندوم». كان آخر ما قرأه هو أنهم كادوا ينشرون ساق جاك راتلين المكسورة. ماكشين، طبيب السفينة غير الكفء الذي قد يكون في السر كاثوليكياً، كان قد وضع رباطاً ضاغطاً لمنع تدفق الدم، غير أن رودريك راندوم هجم عليه وأوقفه. بنظرة مسمومة تركه الطبيب الفاشل، وبعد ستة أسابيع ظهر جاك راتلين مرة أخرى في الخدمة واقفاً على قدمين سليمتين. حجة ناصعة في مواجهة كل الإجراءات المتعجلة. ثمة ثلاثة توقيتات: «توقيت في أوانه، وتوقيت بعد الأوان، وتوقيت قبل الأوان». انتوى جون أن يكتب ذلك في دفتر العبارات بعد أن يخرج من الزنزانة.

لم تكن الزنزانة مريحة، أحجار القبو ما زالت محتفظة ببرودة الشتاء. مستلقياً على ظهره تحدث جون عبر السقف المقوس إلى ساغالس، الروح التي كتبت كل كتب العالم، خالق كل المكتبات.

صرخ بارنبي: «أهكذا تكافئوني!». لماذا يستخدم ضمير الجمع؟ لقد ارتعش في قبضة جون وحده. أما هوبكينسون فقد همس معجباً كل الإعجاب: «يا لقوتك يا رجل!».

لن يستطيع البقاء في المدرسة. أين يمكنه انتظار ماثيو؟ كان ينبغي أن يظهر منذ فترة طويلة. الأفضل أن يهرب بأسرع ما يمكن! أن يختبئ في صندل نهري، تحت غطاء حبوب الغلة. وليعتقدوا أنه غرق في نهر اللود.

يمكنه البدء في ميناء هال على أحد السفن الشراعية لنقل الفحم، مثل جيمس كوك العظيم.

كان توم كعادته. لو كان شيرارد لوند هنا، لذهب معه! لكنه يزرع الشمندر في الحقل.

وبينما كان جون يتشاور مع ساغالس، انفتح باب القبو، ودخل د. أورم، منكساً رأسه عميقاً بين كتفيه، كأنه يريد أن يظهر أن الزنزانة لا تتلاءم في الحقيقة مع المعلمين. قال له:

- لقد جئت لكي نصلي معاً.

تمعن في جون بدقة بالغة، دون أن تخلو نظرته من بشاشة. انغلق جفناه وانفتحا، كأنهما يدخلان الهواء إلى مخه المتعب. واصل قائلاً:

- لقد أعطوني كتبك ودفترك. ولكن من هو ساغالس؟

الفصل الرابع

الرحلة إلى لشبونة

أصبح الآن على سفينة، في وسط البحر! «ولم أتأخر»، همس جون، وابتسم للأفق. متحمساً ضرب بقبضته على درابزين السفينة، مرة بعد أخرى، كأنه يريد أن يعطي السفينة إيقاعاً تمخر المياه وفقه حتى تصل إلى لشبونة.

لم يعد شاطئ القناة الإنكليزية في مرمى البصر، ولم يتبق من الضباب سوى شريط من البخار. كانت الحبال ثابتة، أو تتحرك أفقياً ورأسياً، وفي موضع ما كانت تنسحب إلى أعلى، فيتابعها المرء ورعدة تنتابه، وعنقه يتحرك إلى أقصى الخلف. لم تكن السفينة هي التي تحمل الصواري، بل كانت الأشرعة هي التي تسحب السفينة وترفعها. بدت السفينة كأنها تتشبث بالأشرعة عبر آلاف الحبال. ما أكثر السفن التي رآها في القناة، بكل صورايها وقلاعها وحبالها، وكان لها أسماء مثل: لوياثان، أو أغاممنون! منذ شواهد قبور سانت جيمس لم ير مكاناً جليلاً يحتضن الحروف مثل قوس السفينة وكوثلها(*). قبل قليل انشق الضباب عن سفينة حربية ضخمة، وكادت السفينتان تتصادمان رغم قرع الأجراس والنفخ في الأبواق.

(*) قوس السفينة هو الجزء الأمامي من بدنها، والكوثل هو مؤخر السفينة.

امتد البحر أمامه، البشرة الطيبة، السطح الحقيقي للكوكب كله. كان جون قد رأى نموذج كرة أرضية في مكتبة لاوث: اليابسة خشنة ومتعرجة، تتشابك، ثم تسير مسطحة للغاية حتى تملأ أكثر ما يمكن من الكرة. في ميناء هال راقبهم وهم يبنون في المياه أهرامات من عروق الخشب، حتى يبرهنوا على سيادة البلد على البحر، كانوا يطلقون عليها «دلافين»، حتى يزيدوا من بلبلة أفكاره. قال له البحار الهولندي: «ليس هذا دلفيناً، بل دعائم خشبية تبنى عليها السفن!»، ولأن البحار لم يبتسم، ولم يرمش بعينيه، بل كان يبصق الكلام كعادته، فلا بد أنه محق. رجاه جون أن يكرر الكلمة حتى يتعلمها. عرف أيضاً: أن الفرنسيين يبنون ذراعاً طويلة، وأنهم منذ الثورة يصنعون المرايا المقعرة من الفضة الخالصة في الفنارات. كان جون يشعر بالراحة. قد يكون الوضع هنا هو بالفعل حريته كلها.

في هال، وأثناء تناوله طعاماً تقليدياً، فكر كثيراً في معنى الحرية. المرء ينعم بها إذا لم يكن مجبراً على أن يقول للآخرين مسبقاً ما يخطط له. أو إذا صمت عن خططه.

نصف الحرية: إذا كان على المرء أن يعلن عن خططه قبل وقت كاف. العبودية هي أن يتنبأ الآخرون بما سيفعله المرء.

كل الأفكار كانت تقوده دائماً إلى النتيجة نفسها: من الأفضل أن يتفاهم مع الوالد، لا أن يذهب ببساطة ولا يعود. المرء لا يصبح ضابط صف على سفينة إلا بالعلاقات. ولأن ماثيو لم يرجع، فلم يبق أمامه سوى الأب.

سرعان ما عبروا الدرجة الثالثة غرباً من خط الطول. مدينة لاوث تقع على الدرجة صفر، وخط الطول يشطر ساحة السوق. بدون د. أورم -كان جون يعلم ذلك- لظل يجلس على مقعده، وبدلاً من أن ينظر إلى البحر،

كان سيتأمل الثنيات العريضة في أذن هوبكينسون الذي كان يفكر في تلك اللحظة في الفلانيل.

قام د. أورم بتغيير لوائح المدرسة النظامية. صاروا يقدمون الآن قطع اللحم مرتين في الأسبوع، وعُين أيضاً مدرس مساعد جديد يهدئ من شطط التلاميذ المرشدين.

د. أورم! كان جون ممتناً له، ويعرف أنه سيظل دائماً ممتناً له. لم يَدّعِ د. أورم أنه سيسانده، ولم يتحدث عن الحب ولا عن التربية، بل اهتم بحالة جون الخاصة، بدافع من الفضول ودون أي أثر من الشفقة. لقد تفحص عيني جون وأذنيه، وإدراكه وذاكرته. مع د. أورم كان جون يشعر بأنه على أرضية آمنة؛ لأنه لا يهتم بالتلاميذ، وإذا فعل ذلك يوماً، كان الأمر يستحق الاهتمام. لم يكن يقول قط ما يفكر فيه. فإذا خطر على باله شيء، ضحك فحسب، مُظهراً أسنانه الصغيرة العوجاء، ثم يأخذ نَفَساً، كأنه طفا تواً من أعماق المياه.

هبت الريح، وبدأ جون يشعر بالبرد. سار إلى أسفل وتمدد على سريره.

بعد حديث مطول مع د. أورم استجاب الأب، وقال بصوت شبه خافت شيئاً يبدأ هكذا: «العاصفة الأولى سوف...». كان جون يعلم فيما يفكران. كان د. أورم يعتقد أنه لن يتحمل أمواج البحر، وعندئذ سيرغب في أن يصبح رجل دين، هذه كانت نصيحته. كان الأب يأمل أن يأخذ دشاً بارداً على سطح السفينة. أما الأم فكانت تود أن ينجح في كل شيء، لكن ما كان يحق لها أن تقول شيئاً.

شرع جون ينظر عبر العوارض الخشبية السوداء في سريره، وسرعان ما أضحى، هو نفسه، ماثيو المفقود الذي كان يجوب آفاق الأرض الجنوبية بصحبة أسد. بعد ذلك عاد ليكون جون فرانكلين ثانية، وراح يشرح لسكان

سبيلسبي كيف يهيئون أنفسهم حتى يستطيعوا الإبحار. لكن الريح كانت عارمة، وعلى طول الطرق تشققت الصدوع مصدرة طقطقة، وشرع كل شيء يتحرك ويتداخل في فوضى عارمة. نهض جون وهو في هم عظيم، فاصطدم رأسه بالعارضة الخشبية السوداء. غطى العرق جبهته. بجانب الفراش كان ثمة دلو خشبي لطاقم السفينة، مزود بطوق من الحديد، كان يبدو مثل برميل صغير، لكن مساحة قاعدته كانت ضعف قمته. كان جون على السفينة، في وسط خليج بسكاي، وفي قلب العاصفة.

لا يجوز له أن يُصاب بدوار البحر. كان يريد في تلك اللحظة أن يحل بعض مسائل الحساب.

همس قائلاً:

- ما هو الوقت الحقيقي في غرينتش، إذا...

تخيل وهلة أرصفة المرفأ المستقرة والمباني الراسخة في غرينتش، والمقاعد المريحة الثابتة التي يمكن للمرء عليها أن يراقب حركة السفن. أزاح الفكرة بسرعة من عقله.

- في الدرجة 34 والدقيقة 40 من خط الطول الشرقي...

استند على الحافة بيد، وبالأخرى أمسك الدلو.

- إذا كان التوقيت الحقيقي 8.24 مساء؟

متأوهاً حاول أن يحسب الزاوية في ذهنه. صعد الآن إلى السطح ما يعتمل في باطنه. علم المثلثات الكروي لن يساعده كثيراً إذن. لا يستطيع العقل أن يحتال على البطن، هذا المسافر الكئيب. بعد ذلك بقليل كان جون يرقد مستقيم البدن مثل شمعة، فارداً رأسه وقدميه، عاقداً النية على أن يكتشف سبب مرضه.

ثمة حركة متأرجحة حول المحور العرضي المتخيل للسفينة، ترتفع إلى الأمام أو تهبط إلى الخلف كل نصف دقيقة، بإيقاع غير منتظم على الإطلاق. ضعف المعدة له -في الغالب- علاقة بها، وأيضاً الشلل في الرأس الذي صار تدريجياً في غباء الدلو تحته. ما يكون متكاملاً مع بعضه بعضاً على البر بدون أي مشاكل، يتغير هنا عبر درجة القصور الذاتي الذي يصدر رد فعل على حركة السفينة: يسبق الرأس الجسم في ردة الفعل، ويسبق البطن المعدة، والمعدة أسرع من محتواها. ثم تلك الذبذبات حول المحور الطولي للسفينة، الميل ثم السير، ودائماً بتنويعات جديدة مترافقة مع الصعود والهبوط. كان مخ جون يتمايل هنا وهناك مثل قطعة من الزبدة في مقلاة ساخنة، وبدا أنه سينصهر تماماً. بآخر ما لديه من قوة حاول أن يتعرف إلى أي شكل من الانتظام يمكن للرأس والمعدة والقلب والرئة، وكافة الأعضاء الأخرى، أن تتبعه كأنه قاسم مشترك. «ماذا أستفيد من تحديد مكان السفينة، إذا لم يكن بمقدوري تحمل حركاتها؟».

تنهد وواصل حساباته، والدلو أمام عينيه. همس قائلاً: «الإجابة: الساعة السادسة وخمس دقائق وعشرون ثانية!» لا شيء يستطيع إعاقته عن إتمام حساب ما.

خُيل إليه كأن طرف السفينة الأمامي يغوص عميقاً جداً، قد تتسرب المياه من ثقب في المقدمة. تزايد ضغط المياه، كلما كان الثقب أعمق، وضغط على السفينة بقدر الجذر التربيعي للارتفاع. إذا غرقت سفينة إذن، فإنها تغرق من ثانية إلى أخرى على نحو أعمق. من الأفضل أن يصعد إلى سطح أعلى.

اجتاز الباب بتركيز عال. على سطح السفينة بدأ صراع بين يديه البائستين وشيء خشن كان يتلاعب به كما يشاء، وحشره كلما أراد بين

الخشب والحبال. في كل مرة يجد نفسه في وضع جديد، والبحر الهائج ينهشه في كل مرة بفم يفيض ماء. بين حين وآخر كان يرى أشخاصاً يلتصقون بالحبال أو بالخشب إلى أن يتحينوا لحظة مختارة بدقة، ويتشبثوا بشيء جديد. لم يكونوا يتقدمون إلا كهذا، كأنهم يريدون خداع العاصفة بحسبانهم جزءاً ثابتاً من السفينة. خلف ظهره فحسب كانوا يجرؤون على الإتيان بحركات إنسانية. من الصاري الكبير سمع جون فرقعة خافتة، وضربات وطقطقات غاضبة. وصلت إلى طبلة أذنه صرخات. هدأت العاصفة من قوتها. تواً كان الشراع الكبير مرفوعاً، أما الآن فلم يعد كذلك. بدا بياض البحر مثل الحليب المغلي، واقتربت منه أمواج يمكن لقرى بكاملها أن تجد مكاناً عليها.

فجأة أمسكته قبضتان ليستا من العاصفة. إلى أسفل نقلتاه بسرعة تشبه سرعة السقوط الحر. التعليق الوحيد كان السب واللعن. في الكابينة كان دلو البحارة مقلوباً رغم عرض أرضيته. انتشرت رائحة أشعرته فوراً بالغثيان. «رغم ذلك»، قال لنفسه وهو يقع والدلو، «إن هذا هو طريقي الصحيح». أخذ نفساً عميقاً ملأ به رئته حتى لا يجد الخوف مكاناً في صدره. كان متأكداً من أنه ولد ليكون بحاراً.

«هذه أفضل رياح يحصل عليها المرء»، قال له البحار الهولندي. «رياح الشمال البرتغالية، تهب دائماً من الخلف، إننا نبحر بسرعة تزيد عن ست عقدات». لو كان شخص آخر نطق بهذه الكلمة الجديدة، لما فهمها جون، لكن الهولندي كان يعلم أن مستمعه يفهم كل شيء؛ إذا توقف المرء بين الكلمات. إلى ذلك فقد كان لدى كليهما الكثير من الوقت؛ إذ إن كاحل البحار قد التوى خلال العاصفة.

ظل الطقس مشمساً. على مستوى كاب فينستيرا رأيا صاري سفينة كبيراً يتحرك على المياه، تملأ سطحها سرطانات البحر. منذ ثلاث سنوات في البحر، إذا كان الربّان صادقاً.

في الليل اقتربوا من نيران متوهجة. سمع جون أحدهم يقول: «هذه هي بُرلينغس». جزيرة فيها قلعة وفنار. عندئذ لاحظ جون شيئاً ذكّره بنظريات د. أورم:

الشعاع الضوئي يدور حول قمة البرج، كما هي الحال لدى كل شعلة تدور على ذراع واحدة. رأى جون الشعاع يتجول، لكن الضوء ظل مرئياً من اليمين على الدوام، حتى عندما يكون قد تحول إلى الجانب الأيسر، وكان الضوء يُرى في اليسار عندما يظهر ثانية في اليمين. الماضي والحاضر. ماذا قال د. أورم عن ذلك؟ الأكثر حضوراً هو الضوء عندما يقابل بريقه حدقة عين جون مباشرة. ما رآه غير ذلك، يجب أن يكون قد لمع من قبل، وهو الآن يلمع في عينه فحسب، كضوء ماضٍ، فانٍ.

أتى الهولندي، ودمدم قائلاً: « بُرلينغس، بُرلينغس!».

«الجزيرة اسمها بيرلينغاس!». ما زال جون يحدق في الفنار. ثم قال موضحاً: «إنني أرى مُذنباً بدلاً من أن أرى نقطة، وليس ثمة حاضر إلا عندما يبرق الضوء». وفجأة انتابته شكوك حزينة: ربما تتابع عينه الدورة كلها؟ البريق، عندئذ، ينشأ من الدورة الأخيرة، وليس من الحالية!

استغرق شرح جون وقتاً، كان– حتى بالنسبة إلى الهولندي– وقتاً أطول من اللازم. تدخل قائلاً: «أرى الأمر على نحو مختلف. على البحّار أن يثق بعينيه مثلما يثق بذراعيه، أو...» ثم صمت، وتناول عكازيه وجرّ قدمه المتورمة بحذر إلى الطابق السفلي. بقي جون في الأعلى. بيرلينغاس!

أول ساحل أجنبي خارج إنكلترا. تحسنت حالته من جديد. وضع قبضته المضمومة على درابزين السفينة، كأنه يحتفل. لقد أصبح كل شيء الآن مختلفاً، اليوم بعض الشيء، وفي الغد سيختلف تماماً.

كانت غوندولين تريل نحيفة، شاحبة الذراعين، بيضاء العنق، وملتحفة بأقمشة وثيرة كثيرة، حتى إن جون لم يستطع أن يرى بدقة شيئاً آخر. كانت ترتدي جوربين أبيضين. عيناها زرقاوان، وشعرها يميل إلى الحمرة. تتحدث بسرعة متعجلة. لاحظ جون أنها هي نفسها لا تحب ذلك، لكنها تعتبره ضرورياً. كان الأمر شبيهاً بحالة توم باركر. على وجهها نمش. تطلع جون إلى شعر قفاها البارز فوق الياقة. لقد حان الوقت لكي يختلي بامرأة؛ حتى يعرف ما يجب فعله. فيما بعد، كصف ضابط بحري، سيكون عرضة للتهكم بسبب هذا التأخير أو ذاك، لكنه في هذا الموضوع أراد أن يسجل بعض السبق. قال الأب تريل تواً شيئاً، عسى ألا يكون سؤالاً. الأمر يدور حول مقبرة. سأل جون: «أي مقبرة؟»، كان يريد أن يكون حذراً خلال تناول الطعام، وأن يترك انطباعاً جيداً؛ إذ إن مستر تريل سيكتب للأب كل شيء.

ضحكت غوندولين، فسدد الأب نظرة في اتجاهها. مقبرة هنري فيلدنغ. أجاب جون أنه لا يعرفه، وهو لا يعرف عموماً الكثير عن البرتغال.

غير المريح هنا كان الأزيز الصادر من أفواه الناس في لشبونة، الذين كانوا يتحدثون كأنهم يخشون أن تحترق الشفاه من كل كلمة لا ينطقون بها فوراً. بالإضافة إلى ذلك لم يكونوا يتوقفون عن تحريك أياديهم كالمراوح. عندما ضل جون طريقه ووصل إلى القنوات المائية المرفوعة عند بلدة «القنطرة»، سأل عن الطريق. بدلاً من أن يشير أحدهم بهدوء إلى الاتجاه الذي يلزم السير فيه حتى يصل إلى بيت تريل، فقد كانوا يلوحون

ويحركون أياديهم. وجد نفسه مرة أخرى في ساحة دير «قلب يسوع». السكان هنا بالطبع كاثوليك، كان يمكن تقبل ذلك. ما لا يمكن قبوله كان سخريتهم من التناقض بين إنكلترا العظيمة وجون الحائر. بعد تناول الطعام دخل الوالدان إلى مخدعهما، وتركا جون وغوندولين وحدهما. تحدثت عن فيلدنغ. كانت تنفخ منخاريها، وعليهما النمش، أما عنقها فقد احمر: كيف لا يعرف فيلدنغ! الأديب الإنكليزي العظيم! انتفخت، واستطالت، كأنها منطاد يوشك على الطيران، إذا لم يمسك به أحد. قال جون: «أعرف بحارة إنكليز عظماء». لم تكن غوندولين قد سمعت قط بجيمس كوك. ضحكت، كانت أسنانها مرئية دائماً، وعن ثوبها صدرت خشخشة؛ لأنها كانت تتحرك كثيراً. سمع جون أن فيلدنغ كان يعاني النقرس. راح يفكر: كيف أجعلها تصمت؟ وماذا أفعل حتى أختلي بها؟ شرع يهيئ سؤالاً، لكن ذهنه تشتت؛ لأن غوندولين لا تتوقف أبداً عن الكلام. كان يود أن يصغي إليها طويلاً لو صمتت الآن مرة واحدة. كانت تتحدث عن شخص يدعى توم جونز. على الأرجح مقبرة أخرى. قال وهو يمسك بذراعيها: «فلنذهب إذن إلى هناك!». لكن تفكيره كان خاطئاً. عندما يمسك بها، فلا يستطيع أن يتحدث عن الذهاب، بل كان عليه أن يُقبّلها. لكنه لم يكن يعلم كيف. كان عليه أن يخطط لكل هذا بشكل أفضل. تركها. اختفت غوندولين مع بعض الكلمات السريعة التي لم تقلها، ربما، لكي تُفهم. كان جون يعلم شيئاً واحداً فحسب: لقد طال تفكيره أكثر من اللازم. كان ذلك هو التأثير السيئ للصدى الذي تحدث عنه د. أورم: كان يتردد أطول من اللازم خلف الكلمات المسموعة أو خلف كلمات المرء نفسه. إن مَن يتأمل صياغاته اللغوية مرة بعد أخرى، لن يستطيع إقناع امرأة.

بعد الظهيرة ذهب مع آل تريل للتمشية وسط الأزقة المعتمة التي

احتشدت بدقات الأجراس. وصلوا إلى هضبة عليها بنايات، ورأوا المنازل بلا ضوء، بيضاء مثل ميناء الساعات الجديدة، مجرد هياكل للمباني بدون أي زخارف، وحول البنايات لم تكن الأرض خضراء، بل ذات لون أحمر شاحب. أخذ مستر تريل يحكي عن ثمار الفراولة الكبيرة قبل أعوام عديدة. سارت غوندولين في الأمام وكانت حركاتها رشيقة لطيفة. دون أن تتطلع إليه بنظرة واحدة كانت قد حركت أشياء عديدة في جسد جون.

لكن الوقت مضى، وضاعت الفرصة. «التفكير جيد»، قال الأب، «على ألا يستغرق وقتاً طويلاً يذهب فيه العرض إلى شخص آخر». مَن يتخلف دورة، يتقلص حاضره، ويصبح نحيلاً مثل الحدود بين البحر واليابسة. ربما يجب عليه أن يحاول إمساك التوقيت الصحيح مثل الكرة: إذا استخدم نظرته المتحجرة في الوقت المناسب، فإنه -عندما تحين الفرصة- يهم بإمساك الكرة، ولا يدعها تفلت منه. مسألة تمرين!

«قريباً ستحتفل لشبونة بعيد القديس مرقس»، قال مستر تريل، «يجلبون عندئذ ثوراً إلى المذبح المقدس، ويضعون إنجيلاً بين قرنيه. إذا هاج؛ فإن المدينة تنتظرها أوقات صعبة، أما إذا ظل ساكناً؛ فكل شيء سيكون على ما يرام، وعندئذ يذبحون الثور».

لم تكن غوندولين بعيدة المنال تماماً. في بعض الأحيان كانت تلقي إليه بنظرة. ورغم نفاد الصبر الذي اتسمت به، كان جون يشعر بشيء كالصبر أيضاً، ربما هو صبر أنثوي لم يستطع سبر غوره. لو كان بحّاراً فوق مستوى الشبهات ورجلاً شجاعاً، لمنحته غوندولين بالتأكيد الكثير من الوقت. في تلك اللحظة، كأن ذلك تأكيد لهذه الفكرة، أطلقت المدفعية الثقيلة على ظهر سفينة «فوز دو تيجو» ذات الطوابق الثلاثة تحية عسكرية استمرت طويلاً، ردت عليها مدفعية الساحل. غوندولين والبحر: لم يحن

الوقت بعد لكليهما معاً، وإذا جلس المرء بين مقعدين؛ فسيسقط على مؤخرته. إذن سيصبح ضابطاً، ويدافع عن إنكلترا، وعندئذ يختلي بامرأة! عندما يُهزم بونابرت؛ سيتوافر الوقت. ستنتظر غوندولين وتريه كل شيء. قبل ذلك لم يكن هناك فائدة من أن يسلك سلوكاً لافتاً. إلى ذلك، فستبحر السفينة بعد يومين فقط.

«حسناً»، قالت غوندولين بعد تناول الطعام على نحو غير متوقع، «فلنذهب إلى مقبرة الشاعر!». كانت عنيدة ومتأنية مثل جون في الرياضيات.

على قبر فيلدنغ نمت نباتات القراص كما على مقابر كل الناس الذين كان لهم شأن في الحياة. كان ذلك ما عرفه جون من الراعي في سبيلسبي.

وجه نظرة حاسمة إلى غوندولين حتى يبرهن قدرته على فعل ذلك بكل حرية دون أن يتهته، ولا أن تحمرّ أذناه. وفجأة رأى ذراعه تلتف على جيدها، وشعر بضفيرة شعرها تدغدغ أنفه. ومرة أخرى كان من الواضح أن جزءاً كبيراً من الحدث ما زال ناقصاً. نمّت عينا غوندولين عن الخوف، فمدت يديها بين صدره وصدرها. كان الموقف غامضاً بعض الشيء. أياً كان الأمر، فقد اعتقد أنه الآن في وسط فرصة، وقرر أن يطرح السؤال الذي تدرب عليه باجتهاد: «هل توافقين على أن أختلي بك؟».

«لا!»، قالت غوندولين، وتملصت من ذراعيه.

لقد أخطأ إذن. شعر جون بالارتياح. لقد وجه سؤاله. والإجابة كانت بالنفي، وهذا شيء عادي. لقد فسر الإجابة على أنها إشارة إلى أن عليه الآن أن يختار البحر حقاً. أصبح الآن يريد الإبحار والحرب.

في طريق العودة رأى غوندولين فجأة بعينين غريبتين تماماً: وجهها

مسطح، وجبهتها عريضة، وفتحتا الأنف واضحتان للغاية. مرة أخرى راح جون يفكر في الوجه الإنساني، ولماذا يبدو كهذا، وليس على أي شكل آخر.

من الراعي في سبيلسبي سمع أيضاً: أن النساء في العالم كله يُرِدن شيئاً مختلفاً تماماً عما يريده الرجال.

من سور الميناء تلألأت لشبونة كأنها القدس الجديدة. هذا الميناء: إنه حقاً العالم! مقارنة به كان مرفأ هال على الهامبر مرسى عشوائياً للقوارب الشراعية الضالة. هنا توجد سفن، ذات طوابق ثلاثة، وقلاع بأسماء ذهبية. عبر نوافذ مائلة بشكل فني مثل نوافذ القلاع. كان جون يريد يوماً ما أن يلقي – كقبطان– نظرة على الأفق.

سفينته كانت صغيرة. لكنها كانت تسبح وحدها كأي سفينة أخرى، وكان لها ربّان مثل أكبر سفينة. متأخراً اعتلى البحارة السفينة، بعد أن أوصلهم السكان المحليون بقوارب ذات مجاذيف. بعضهم كان في نشوة سكر عظيم؛ لذا تحتم رفعهم ببكرة رفع الأثقال عبر درابزين السفينة. كان الأب يحتسي بين الحين والآخر كأساً أكثر من اللازم، وستوبفورد يحتسي عدة كؤوس، لكن ما فعله هؤلاء البحارة بأنفسهم كان شيئاً آخر، لا بد أن له تسمية مختلفة. سقطوا في قمراتهم، ولم يظهروا إلا بعد رفع المرساة. قبل ذلك، قام أحد البحارة، الذي لم يكن مخموراً مثل الآخرين، بعرض ظهره على جون: في كل مكان كانت ندبات بيضاء خلفتها آثار ضرب محفورة على الجلد المسمّر، كأنها فوهات براكين أو أجراف صخرية، مِزق كثيرة من الجلد كانت منتزعة، بدأت نموها في اتجاه معاكس. شعرُ ظهره الذي كان كثيفاً على نحو منتظم، تأقلم مع التغيرات مكوناً غابات صغيرة في وسطها بقع تخلو من الأشجار.

قال له صاحب هذا العرض الفني: «هذا هو سلاح البحرية. السوط مقابل أي خطأ يقترفه المرء!»، أمن الممكن أن يموت المرء من جراء عقوبة كهذه؟ «وأي موت!»، أجاب البحار.

علم جون الآن: ثمة ما هو أسوأ من العواصف. وهناك الخمر كذلك، عليه أن يسايرهم في ذلك أيضاً، هذا جزء من الشجاعة. وفي التو قُدمت له كأس: «جرب! نسميه: الريح». سائل خفيف ولزج، أحمر وشرير. احتسى جون بهدوء متكلف رشفتين، ثم راح يصغي إلى جوفه. اكتشف أنه كان وجلاً من قبل بعض الشيء. شرب الكأس كلها. بدأ يرى الأمور على نحو مختلف الآن.

ما سمعه الآن من حكايات عن سلاح البحرية، ليس موجهاً بالتأكيد إلى الشجعان.

أبحروا ما يزيد عن مئتي ميل بحري غرباً في اتجاه المحيط الأطلسي، حتى لا يواجهوا الرياح البرتغالية الشمالية. بالإضافة إلى ذلك كان من الجيد تجنب السفن الحربية الإنكليزية القابعة منذ فترة طويلة على الساحل، التي تتربص دائماً بالسفن التجارية؛ لكي تستعين ببعض أفراد طاقم تلك السفن مدعين أن لديهم عدد أفراد أكبر من اللازم. بعض أفراد الطاقم على السفينة حدث لهم ذلك، وكانوا سجناء مثل الحيوانات المتوحشة، وكان عليهم المشاركة في معارك حتى استطاعوا الفرار في أول فرصة سنحت لهم. فكر جون: لقد شعروا هم أيضاً بالخوف.

عشرة أيام أخرى ثم يصلون مرة أخرى إلى القناة الإنكليزية. أصبح يُسمح لجون كثيراً الآن بتناول طعامه مع الربّان، وفوق هذا كان يُصب له عصير العنب والبرتقال. علم من الربان أن كل سفينة لها سرعة قصوى لا

تتعداها، حتى إذا كانت الرياح تهب في اتجاههم على أفضل نحو، وحتى إذا علقوا ألف شراع.

راقب جون بدقة العمل على السفينة. تعلم أيضاً كيف يعقد المرء العقد. ولاحظ فارقاً: في التدريب كان المهم هو عقد العقدة بسرعة، أما في العمل الحقيقي فقد كان المهم أن تكون العقدة متينة. انتبه جون جيداً إلى المناورات الشراعية التي كانت تستلزم حقاً السرعة. لدى الاستدارة كان الأمر واضحاً: فقدت السفينة سرعة أكبر، كلما طال الوقت الذي تقف فيه أشرعتها ضد اتجاه الريح، على البحار إذن الاستعجال عندما يشد الحبال. ثمة مواقف مشابهة كثيرة. قرر جون أن يحفظها بمرور الوقت عن ظهر قلب، مثلما يحفظ الشجرة عندما يقف أسفلها.

الأمر متوقف الآن على الأب. عليه أن يكتب إلى القبطان لوفورد حتى يحصل ابنه على فرصة متدرب. لم يكن مرجحاً أنه سيفعل ذلك. لكن هناك إمكانية أخرى: أن يظهر ماثيو مرة أخرى، ويأخذ جون معه.

عاد جون إلى منزله. وبقي ماثيو مفقوداً. لم يكن أحد يحب التحدث عن ذلك، وإذا فعل، فقط حتى يقنع جون فحسب بعدم الذهاب إلى البحرية. وقبل أن تنتهي العطلة بقليل، اجتمع آل فرانكلين حول مأدبة كبيرة. لدى اتخاذ بعض القرارات كان الأب يُشرك العائلة. كان يقول أهم الأشياء، ثم يتحدث الآخرين بالقدر الكافي، حتى لا يبدو الأمر كأنهم لا يقولون شيئاً.

«إلى البحر؟ تذهب مرة ولا تعود أبداً!»، تحدث الجد بصوت حازم. كان من اللازم بالطبع تذكيره، بأنه لم يبحر في حياته قط.

لكن جون لم يكن في حاجة إلى أي نوع من الدعم، إذ حدث شيء غير

متوقع: لقد غيّر الأب رأيه. لقد أصبح فجأة متحمساً كل التحمس لمهنة البحارة، وكان الوحيد الذي انحاز إلى صف جون. بدا أيضاً أنه لم يعد في حاجة إلى إقناع الأم. كانت تنظر نظرة مشجعة ومرحة، وقد يكون تحوّل الأب راجعاً إليها. وعموماً، لم تكن في حاجة إلى الكلام قط، ولا حتى في مجلس العائلة. سيطر الاضطراب الشديد فترة على جون، حتى إنه لم يستطع أن يشعر بالفرح.

لم يقل توماس شيئاً، كان يبتسم بمكر فحسب. أما الأخت الصغيرة إيزابيلا فقد شرعت ببكاء عال، دون أن يعرف أحد السبب. وهكذا حُسم الأمر.

قال توماس ببطء: «إذا أصدر أحد أمراً في البحر ولم تفهمه، فقل ببساطة: نعم، نعم يا سيدي، واقفز من السفينة. بالتأكيد لن يكون ذلك خطأً».

قرر جون: أنه ليس في حاجة إلى التفكير في ملاحظات كهذه.

أراد أن يُطلع شيرارد على الخبر الجديد. سيشعر شيرارد بالسرور من أجله، كان يعرف ذلك. لكنه لم يعثر عليه. قال ناظر الضيعة إنه يعمل في الحقول مع والديه وأشخاص آخرين من إنغ مِنغ. لم يسأل عن مكانه، إذ لم يكن يرغب في مقاطعته خلال وقت العمل.

تأخر الوقت، وكانت العربة في انتظاره.

لم يتبق سوى عام واحد في المدرسة. بالنسبة إلى شخص مثل جون كان ذلك لا شيء تقريباً.

الفصل الخامس

كوبنهاغن 1801

«عينا جون وأذناه»، هكذا كتب د. أورم إلى الربّان، «تثبّت كل انطباع مدة طويلة على نحو غير مألوف. ما يبدو فهماً بطيئاً وكسلاً لديه، ليس سوى عناية فائقة يوليها عقله للتفاصيل من كل نوع. صبره العظيم...»، شطب الجملة الأخيرة.

«يجري جون الحسابات بكفاءة عالية، ويعرف كيف يتغلب على العقبات عبر التخطيط».

قال د. أورم لنفسه: سلاح البحرية سيكون عذاباً بالنسبة إلى جون. لكنه لم يكتب ذلك؛ فالرسالة كانت موجهة إلى سلاح البحرية.

فكر في أن جون لا يعرف شيئاً اسمه الشفقة على الذات.

لكنه لم يُنزل الريشة على الورقة؛ إذ إن إعجاب المعلم بتلميذه لا يفيد إلا نادراً، ولن يفيد في سلاح البحرية مطلقاً. هذا إذا قرأ الربّان الرسالة أساساً قبل الإبحار. جون هو الذي يريد أن يشارك في الحرب بأي ثمن. أما كونه أبطأ من اللازم، وما زال في الرابعة عشرة... ماذا بمقدوره أن يكتب؟

فالحظ التعيس يرافقه منذ الولادة، قال لنفسه. ثم كور الرسالة وألقاها في سلة المهملات، وسند ذقنه واستولى عليه الحزن.

مستيقظاً رقد جون فرانكلين ليلاً، وراح يستعيد بسرعته الخاصة أحداث اليوم التي مرت عليه بسرعة بالغة. كانت أحداثاً كثيرة. ستمئة رجل في سفينة كهذه! وكل واحد في حركة دائبة، وله اسم. ثم الأسئلة! من الممكن أن يُسأل في كل وقت. سؤال: أي مهمة تقوم بها؟ الإجابة: المدافع السفلية والتدريب على الأشرعة في قسم مستر هيلس.

Sir. يجب ألا ينسى المرء لقب سير أبداً! العواقب خطيرة!

كل الطاقم للخلف دُر لتنفيذ... لتنفيذ العقوبة. لا بد أن يستطيع النطق بهذه الكلمة! تنفيذ العقوبة.

كل الطاقم، أفردوا الأشرعة!

تسليم السلاح.

تجهيز السفينة للمعركة، هذا يتطلب الرؤية الشاملة.

تم الشحن، سير! الإبحار. ربط الحبال.

المدفعية السفلى جاهزة للمعركة. ولا بد من التنبؤ بدقة بكل ما يأتي!

سجّل اسم الرجل، مستر فرانكلين! أمرك، سير، الاسم، تسجيل، بسرعة!

ينبغي على اللون الأحمر في الغرف الداخلية أن يحول دون... يحول دون رش الدم! لا، ألا يجعله لافتاً للأنظار! الرمل المنثور يحول دون أن ينزلق المرء وسط الدماء. هذا كله جزء من المعركة. الشراع عكس الريح، إلى آخره...

أفضل النصائح تأتي من الربّان، سير، من فضلكم، يجب أن تهبطوا إلى الطابق السفلي!

الأشرعة: الملكي الكبير، والملكي المتقاطع، والملكي الأمامي. إذا نزلنا إلى أسفل، فستبدأ الصعوبات. كان بإمكانه تحديد الزاوية الأفقية للأجرام الليلية، لكنه لم يكن في حاجة إليها مطلقاً. لا أحد يريد معرفة شيء كهذا. لكن: أي نوع من الحبال في أي مكان؟ وأين مكان الصاري المتحرك والصاري الثابت، أو العكس؟ حبال تثبيت الصاري، وحبال الصاري المتحرك، حبال رفع الشراع وإنزاله، وحبال تحريك الشراع جانباً، هذه الأنواع التي لا تنتهي من الحبال، غامضة ومعقدة مثل شبكة عنكبوت. كان يشد الحبال مع الآخرين، ولكن ماذا إذا كان ذلك خطأ؟ إنه ضابط صف، ويُنظر إليه باعتباره ضابطاً. إذن، مرة أخرى: الشراع الكبير، الشراع العرضي الكبير، الشراع العلوي الكبير...

«ششش، هدوء!»، فح شخص في الكابينة بجواره. «ما هذا الهمس في وسط الليل!».

«حبل طي الشراع»، همس جون، «عارضة شراع الكوثل».

«قلها مرة أخرى!»، قال له الآخر بهدوء تام.

«دعامة، الرمح، رمح شد الأشرعة، شدّادة الرمح».

دمدم الجار: «آه، ولكن كفى الآن!».

يستطيع أن يفعل ذلك بشفتين مزمومتين أيضاً، حركة اللسان وحدها هي التي لا يمكن الاستغناء عنها. راح يتخيل مثلاً كيف يصل المرء من أسفل الصاري الأمامي عبر الدقل(*)، وصولاً إلى قمة الصاري، متسلقاً

(*) الدقل حسب المعجم الوسيط هو: خشبة طويلة تُشد في وسط السفينة يُمد عليها الشراع، وجمعها أدقال.

دائماً من الخارج على عادة البحارة، فهذه الطريقة وحدها هي المعتمدة لديهم.

هل بمقدوره اكتشاف أخطاء؟ هل بمقدوره معرفة سبب تعطل شيء؟ وماذا يفعل إذا كان شيء غير واضح بالنسبة إليه؟

احتفظ في ذهنه بكل الأسئلة التي لم يُجب عنها حتى الآن. كان عليه أن يطرحها في اللحظة المناسبة، ولذا كان عليه أن يصوغها صياغة واضحة. شراع القارب المرافق يتميز بالخصوصية، لماذا؟ لقد أبحروا لقتال الدانماركيين، لماذا لا يقاتلون الفرنسيين؟ عليه أن يعرف فوراً أيضاً تلك الأسئلة التي قد توجه إليه، إلى جون فرانكلين. سؤال: ما عملك على السفينة؟ أو: ما اسم سفينتك يا ضابط الصف، وما اسم قبطانك؟ إذا سار المرء على اليابسة بعد غزو كوبنهاغن، فسيكون محاطاً بقادة البحرية، وقد يكون حتى الأدميرال نيلسون بينهم. سفينة جلالة الملك «بوليفيموس»، سير! القبطان لوفورد، سير! أربعة وستون مدفعاً. تمام يا أفندم!

حتى يسلّح نفسه، حفظ عن ظهر قلب أساطيل من الكلمات، ومدافع من الإجابات. عليه أن يكون مستعداً لكل شيء عندما يتكلم أو يفعل شيئاً. يمر وقت طويل حتى يفهم شيئاً. إذا كان السؤال بالنسبة إليه ليس إلا إشارة، وإذا استطاع النطق بالمطلوب بلا تردد وبآلية مثل ببغاء، لن يلومه أحد، ولن يعلق على إجابته. نجح في ذلك! من الممكن تعلم شؤون السفينة في البحر. صحيح لم يكن بمقدوره أن يركض بسرعة كبيرة. مع أن اليوم كله عبارة عن: ركض، ونقل الأوامر، ومواصلة الركض من سطح إلى آخر، وكل ذلك على سلالم ضيقة للغاية! لكنه درس جيداً كل الطرق، بل ورسمها، وأخذ يكررها في كل ليلة، طيلة أسبوعين. كل شيء سار تلقائياً؛ إذا لم يصادفه أحد على غير توقع. عندئذ لم يكن شيء يفيده بالطبع، وتسير

الأمور من غير دقة، أما صيغة الاعتذار فقد تمرس عليها بالمران. لم يمر وقت طويل حتى تعلم الآخرون أن يتجنبوه. لم يكن الضباط يحبون التعلم. «عليك أن تتخيل»، هكذا قال بصعوبة قبل ثلاثة أيام للملازم الخامس، الذي أصغى إليه أيضاً بعد أن احتسى عدداً محترماً من كؤوس الروم، «إن بدن أي سفينة له سرعة قصوى لن يتخطاها أبداً، أياً كانت قلاعها، وأياً كانت الريح. هكذا هو الوضع بالنسبة إلي».

أجاب الملازم، دون أن تخلو نبرته من لطف: «سير. يبدأون الكلام معي بـ"سير"!».

لم يكن الشرح يسفر في معظم الأحيان إلا عن أوامر. في اليوم الثاني شرح لملازم آخر: كيف أن كل الحركات السريعة تكون بالنسبة إلى عينيه مثل خطوط نحيلة وسط المروج.

– اطلع على قمة الصاري، مستر فرانكلين! أود أن أرى خطاً نحيلاً وسط المروج!

بعد فترة أصبح الوضع أفضل. تمدد جون راضياً في الكابينة. الملاحة البحرية يمكن تعلمها. ما لا تستطيعه عيناه وأذناه، يتمرن عليه رأسه في الليل. التمرين العقلي يوازِن البطء.

لم تبق سوى المعركة. وهذه لم يكن بمقدوره أن يتخيلها. فوراً استغرق في النوم.

تجاوز الأسطول المضيق البحري. وقريباً سيصلون كوبنهاغن. «سنريهم!»، قال رجل محنك ذو جمجمة عالية. فهم جون ما قيل جيداً؛ لأنه كرره عدة مرات. ثم قال له الرجل نفسه: «هيا، حمِّس الناس!»، ثمة مشكلة في القلع العرضي الكبير، لقد تأخروا. ثم قيلت الجملة المهمة:

«ما عساه سيقول نيلسون؟». حفظ الجملتين لترديدهما في الليل، وكذلك المفردات الصعبة مثل خليج كاتيغات، وسكاغيراك، وفاربنشاب، وكابلغات[*]. بعد توزيع حصص الروم عرف بعد أن طرح سؤالاً معداً بعناية: أن الدانماركيين قد بدؤوا منذ أسابيع في تعزيز الحصون على شواطئ كوبنهاغن، وتسليح البوارج الدفاعية. «أم هل تظن أنهم ينتظرون حتى نشارك في جلسة المشاورات التي سيعقدونها؟»، لم يفهم جون ذلك فوراً، لكنه اعتاد أن يعقّب على كل الإجابات التي تنتهي بصيغة سؤال يُطرح بنبرة عالية الصوت، ليقول آلياً: «بالطبع لا!»، وهو ما يرضي سائله في تلك اللحظة.

وصلوا عند العصر. في الليل أو في الصباح سيهاجمون مدافع الدانماركيين وبوارجهم. ربما يكون نيلسون قد جاء اليوم إلى السفينة، وشاهد كل الاستعدادات. ما عساه أن يقول! وهكذا انتهى اليوم في عجلة، وبالكثير من الصراخ، وبأنفاس لاهثة، وأقدام منهكة، ولكن بلا خوف ولا غضب. لدى جون الشعور بأنه يستطيع أن يساير زملاءه؛ لأنه كان يحدس دوماً ما قد يحدث. الإجابة إما «نعم» أو «لا»، تنفيذ الأمر الصادر يقوده إما إلى أعلى أو إلى أسفل، الشخص إما أن يكون سير أو لا يكون، رأسه يصطدم إما بحبال متحركة أو بحبال ثابتة. كل هذا يبعث حقاً على الرضا. كان عليه أن يتدرب على كلمة جديدة صعبة: تريكرونر[**]. أقوى المدافع أمام كوبنهاغن هناك. إذا بدأت في الضرب، فهي بداية المعركة.

(*) كاتيغات وسكاغيراك خليجان، الأول يفصل بين السويد والدانمارك، ويفصل الثاني بين السويد والنرويج. أما «فاربنشاب» و«كابلغات» فهي كلمات من لغة البحارة، وتعني على الترتيب: «خزانة» و«مخزن صغير لقطع الغيار والحبال والسلاسل إلى آخره».

(**) جزيرة اصطناعية أمام ميناء كوبنهاغن.

لم يأت نيلسون مرة أخرى. المدافع السفلى على سطح المركب على أهبة الاستعداد، نيران الموقد مطفأة، الرمل مرشوش، وكل الرجال في أماكنهم. راح أحدهم، بجانب ماسورة المدفع مباشرة، يكشف عن أسنانه دائماً. وآخر، الذي يحشو المدفع بالبارود، كان يفتح يده ويغلقها، مئة مرة ربما، وفي كل مرة ينظر متفحصاً أظافره. فزع رجل في وسط السفينة، وصاح قائلاً: «إشارة!»، فاستدارت الرؤوس إليه. أشار إلى الخلف، لكن لم يكن ثمة شيء. لم ينطق أحد بكلمة.

وبينما استولى القلق على المحنكين أو أصابهم الجمود، مرّ جون بإحدى اللحظات المميزة له؛ إذ إن بمقدوره أن يتجاهل الأحداث أو الأصوات السريعة، وأن يهتم بتلك التغيرات التي لا يكاد يلاحظها أحد آخر بسبب بطئها. وحين كانوا يتقدمون ببطء في اتجاه الصباح ومدافع التريكرونر، كان جون يستمتع بحركة القمر وتحولات الغيوم في السماء الليلية. لم تكد تهب رياح في ذلك الفجر. نظر طويلاً عبر الفتحة التي تخرج منها ماسورة المدفع، أصبحت أنفاسه عميقة، ورأى نفسه جزءاً من البحر. بدأت الذكريات تعبر رأسه، وتجولت صور في ذهنه على نحو أبطأ منه. رأى مجموعة من صواري السفن تقف متلاصقة، وخلفها لندن. عندما تتجمع السفن متلاصقة في هدوء، فثمة دائماً مدينة. مئات من الحبال معلقة فوق مباني المرفأ مثل غيمة ممتدة ومتداخلة. على جسر لندن تتزاحم المساكن كأنها تريد النزول إلى المياه بأي ثمن، وأن تشارك في الحدث، لكنها تتردد في اللحظة الأخيرة. بين وقت وآخر كان منزل يسقط فعلاً من الجسر، ودائماً عندما ينظر المرء في اتجاه آخر. للمنازل في لندن وجوه تختلف تماماً عن منازل قريته. شامخة بأنفها في السماء، عابسة، فخمة في معظم الأحيان، وفي بعض الأحيان ميتة. رأى حريقاً

على سطوح السفن أيضاً، وسيدة أمرت البائعين أن يجلبوا لها من أحد المحلات كل الملابس تقريباً حتى تفحصها عند نافذة عربتها؛ لأنها لم ترد أن تسير بحذائها في الأوساخ. كان لدى التاجر زبائن آخرون، غير أنه ظل واقفاً عند الميزان، وأجاب عن كل الأسئلة بلطف تام. كان يتسم بالهدوء البالغ حتى إن جون اعتبره حليفاً له، رغم أن حدسه كان قوياً: هذا الإنسان سريع. ثمة نوع من الصبر اللطيف الذي يتحلى به التجار، لكن صبره كان من نوع آخر.

في العربة التي تجرها الخيل ثمة أيضاً فتاة. الفتيات الإنكليزيات، النحيفات، ذوات الشعر الأحمر والذراعين البيضاوين، المرتبكات قليلاً، هن أحد الأسباب الثمانية أو العشرة التي تحمل المرء على الانتباه وفتح عينيه. جذبه توماس بعيداً مثلما يفعل الإخوة الأكبر سناً عندما يتحتم عليهم رعاية الإخوة الأصغر منهم، وبسبب نفاد صبره شعر بالكراهية. كانوا قد اشتروا قبعة ثلاثية الحواف، والسترة الزرقاء والحذاء ذا الإبزيم، وصندوق البحر، والخنجر. على المتدرب من الدرجة الأولى أن يشتري زيه. عندما تسلقوا النصب التذكاري في «فيش ستريت هيل»، كان قد أحصى ثلاثمئة وخمساً وأربعين درجة. ربيع بارد، تفوح في كل مكان رائحة دخان الفحم. من بعيد رأوا قصوراً تتشبث بحدائق خضراء. راح يراقب مصاباً بالصرع كان يضرب بجبهته أو يحملق في البعيد. سمع أحدهم يقول: إن هناك قطاع طرق، وثمة مشنقة في تيبورن. قال له الأخ الأكبر: إن على ضابط الصف أن يسلك سلوك الجنتلمان. في السوق رأوا مشاجرة حول سمكة، قد تكون منفوخة على نحو اصطناعي، وربما لا تكون.

من كل مكان كان المرء يرى صواري السفن، أو أشرعتها العلوية على الأقل. وخلفها، بارتفاع أقل، المداخن الألف في المدينة. كان من الصعب

إدراك أن السفن تستطيع التحرك فوق البحر بمعونة الرياح ووفق خطط محكمة، حتى إذا حفظ المرء عن ظهر قلب كتاب مور «الملاحة العملية». يتسم الإبحار الشراعي بسمة ملكية، وهكذا كانت تبدو السفن أيضاً. كان يعلم ما يجب فعله؛ كي يفرد القلاع كلها. قبل ذلك يجب تشييد بدن السفينة، الخشب المقوس تماماً، وتعشيقه، وبعناية سحجه ثم جلفطته، ودهنه، وتلوينه بدقة، وفي الغالب كساؤه بأجزاء نحاسية. إن الهيبة العظيمة التي تتمتع بها سفينة تنبثق من المواد الكثيرة والأشياء التي تدخل في بنائها.

بوم!

كانت تلك مدافع تريكرونر، والمعركة!

الالتزام بسلوك الجنتلمان. عدم الوقوف في الطريق بقدر الإمكان خلال القصف بالمدفعية. الجري بين المدافع والكوثل، ثم العودة. فهم الأوامر فوراً بقدر الإمكان، أو - إذا لم يكن ذلك ممكناً- طلب التكرار بحسم. صاح الضابط ذو الجمجمة العالية:

- اسمعوا أيها الرجال! لا تموتوا من أجل الوطن!

فترة صمت.

- عليكم أن تجعلوا الدانماركيين يموتون من أجل وطنهم!

ضحكات صاخبة، نعم، هكذا يشعل المرء الحماسة لدى الآخرين! كانت المعركة صعبة حقاً. دون انقطاع كانت مدافع تريكرونر والمدافع الأخرى تطلق نيرانها. بالنسبة إلى شخص تأتي ردود أفعاله دائماً متأخرة، فإنه يفقد سيطرته على الأمور تماماً وسط تلك الهزات. أسوأ شيء كانت المدافع على طول سفينتهم. بدا كأن السفينة تقفز في كل مرة. حافظ على النظام الجيد مثلما تعلمه. لكن هدفه الآن هو إشاعة الفوضى في صفوف

الخصم، غير أن الفوضى كانت تعود إليهم بفجائية لا يحبها جون. في طرفة عين أصيب المدفع الأسود في الجانب بحز عميق يبرق بريقاً مفززاً، كأنه أخدود حفرته آلة يدوية ألقيت بقوة هائلة وأخطأت هدفها. الأزيز المنفر الصادر عن هذا الجرح المعدني انطبع عميقاً في النفس. لم يعد أحد يقف مستقيماً. ومَن بمقدوره أن ينهض الآن؟ الحركات اليدوية التي تمرسوا عليها تتعثر الآن، إذ إن نصف الطاقم لم يعد موجوداً. ثم الدماء. إن رؤية الكثير منها يسيح، يصيب المرء بالقلق. هذه الدماء تسيل من أحدهم، تسيل من أفراد الطاقم، في كل مكان.

«لا وقت للتأمل! إلى الماسورة!»، كان ذلك مَن صاح من قبل «إشارة». فجأة صارت فتحة ماسورة المدفع أوسع من ذي قبل. قطعة الخشب الناقصة تغطي عدة أجساد في منتصف السفينة.

على سطح السفينة عرف أن ثلاث سفن من اثنتي عشرة سفينة قد غرزت في الرمال، لكن ليست من بينها «بوليفيموس». من جانب إحدى السفن المجاورة تصاعدت سحابة من دخان أبيض. ظلت الصورة ثابتة أمام عيني جون. كالسكاكين تطايرت في دوائر شظايا عديدة من الخشب بسرعة البرق فوق سطح «بوليفيموس». مهموماً رأى جون الضباط -الذين يتسمون عادة بالهدوء، ولا يتحتم عليهم أبداً أن يفسحوا الطريق لشيء- وهم يقفزون إلى الجانب بلا أدنى هيبة. بالطبع كان سلوكهم صائباً، لكن الحركة كانت تفتقر إلى الهيبة. كانت مهمته هي نقل الأنباء.

بدا الدرج الآن على نحو مختلف تماماً. برزت عوائق من الجدران، عروق خشبية علوية انفكت مما يثبتها، وراحت تتأرجح أمام جبهته. لم يكن بمقدوره أن يتنحى عن الطريق، ولا أن يظل واقفاً في مكانه، فقد

تلقى من شظايا المركب ما ترك خدوشاً وحفراً وأوراماً، إنه يبدو الآن بطلاً بالتأكيد. حاول أن يسلك طيلة الوقت مثل جنتلمان. بسهولة قد يفقد المرء عيناً، نيلسون أيضاً ليست لديه سوى عين واحدة. في أي شيء يفكر نيلسون الآن؟ إنه يقف في مكان ما في كوتل «الفيل». سيعرف نيلسون كل شيء.

صوت المضخات مسموع، ربما نشب حريق؟ أم أن المياه دخلت إلى السفينة؟ تمايل البحارة على سطح السفينة كالسكارى. جلس الربّان عند أحد المدافع، وصاح: «فلنمت جميعاً!»، كان يقول من قبل كلاماً آخر تماماً. فجأة فَقَدَ المستمع بجانب الربّان رأسَه؛ أي فُقد المستمع نفسه. شعر جون بالتعاسة. تصيبه كل التغيرات المفاجئة بالارتباك، سواء التغيير في أماكن الجلوس، أم في السلوك، أم في النظم الإحداثية. من الصعب تحمل فقدان المزيد من البشر. كان يشعر أيضاً أنها إهانة عميقة عندما يفقد المرء رأسه، هكذا، بلا مقدمات، نتيجة تصرفات أشخاص آخرين. كانت هزيمة، لا مجداً. جسد بلا رأس، يا له من منظر حزين مثير للشفقة!

عندما وصل إلى المدافع مرة أخرى، رأى ضوءاً ساطعاً وسمع دوياً عظيماً: انفجرت سفينة بالقرب منهم. سمع تهليلاً، واسم السفينة يتردد بين حين وآخر. وسط التهليل صدر صرير متوغل ثم اصطدام: اصطدمت بهم سفينة دانماركية من الجانب، ومن الفتحة الخشبية اندفع رجل إلى الداخل.

رأى جون صورة حذاء عسكري غريب فاتح اللون، دخل فجأة، ثم استطاع أن يجد موطئاً، حركة سريعة خطرة، لم يستطع جون أن يستقبل ما حدث بعد ذلك؛ لأن الصورة توقفت داخله. آلياً فكر رأسه: سنريهم! إذ إن

هذا هو الموقف الذي فكر فيه عندما قابلته الجملة مرة أولى. بعد ذلك رأى فم ذلك الرجل وإبهاميه -إبهامي جون- يحيطان برقبة الرجل. مصادفة ما حملت الرجل على الاستسلام، والآن استطاع جون إحكام قبضته عليه!

إذا أمسك جون بخناق أحد، فلا فرار. في نهاية نظرته الموجهة إلى أسفل لمح مسدساً يظهر. شُل فوراً. لم ينظر في اتجاهه، وفضّل أن يثبت بصره على الإبهامين القويين، كأنه بذلك يجبرهما للانتصار على المسدس الموجه - وهذا شيء لا يمكن إنكاره- على صدره. في رأسه راح هم وحيد يزيح بقية الهموم، وأخذ ينمو وينمو. لم يلتزم بحدود، ثم انفجر صارخاً: بمقدوره أن يضغط على الزناد فوراً ويقتله، سيموت أو سيهلك في الحريق هلاكاً بطيئاً. لا مفر الآن، الموت حاضر. على وشك أن يمسك به، ولا شيء يستطيع إيقافه. بوضوح تام شعر جون فجأة بمكان قلبه، مثل أي شخص يعرف أن الموت كامل وتام. لمَ لا يطيح بالمسدس، أو يلقي بنفسه جانباً؟ يجهل الأمر، لكنه لا يستطيع! إنه يمسك بخناقه، ولم يفكر في شيء إلا أنه لم يعد في حاجة إلى إطلاق الرصاص على شخص يختنق. لكن شخصاً لم يختنق بعد، بل في طور الاختناق، لأن شخصاً آخر يشدد عليه الخناق، هذا الشخص سيطلق النار بالأحرى، نعم، ربما أراد جون أن يفكر في ذلك، لكنه لم يستطع، لأن عقله تظاهر بالموت. لم يبق حياً سوى التصور: أنه سيبعد الخطر بمواصلة خنق ذلك الحَلق. ما زال الآخر لم يطلق الرصاص.

بالنظر إلى كونه جندياً كان الرجل مسناً، بالتأكيد فوق الأربعين. لم ينحن جون قط فوق أحد، ولم ينظر من عل قط إلى رجل قد يكون والده. كانت الرقبة دافئة، والجلد طرياً. لم يمسك جون بإنسان كل هذه المدة قط. الفوضى تنتشر الآن، المعركة داخل جسده؛ إذ إن الأعصاب

الموجودة في أصابعه كانت خلال الضغط تشعر بهلع بسبب ذلك الدفء وتلك الطراوة. أحس بهذه الرقبة تغرغر، وتصدر ذبذبات رقيقة بائسة، غرغرة عميقة بائسة! أُصيبت اليدان بالهلع، لكن الرأس الذي كان يخشى إهانة المحتضر، هذا الرأس الخائن الذي كانت أفكاره خاطئة فوق ذلك، تظاهر بعدم فهم أي شيء.

سقط المسدس، وكفّت القدمان عن الوقوف على الأرض، ولم تعد تصدر عن الرجل أي نأمة. رصاصة في الكتف، ودم فاتح اللون.

لم يكن المسدس مُعمّراً.

ألم يقل الدانماركي شيئاً، ألم يستسلم؟ قعد جون، وحملق في رقبة الميت. كان يخشى إهانة الموت العنيف. أما أن يضغط على جسم حي، لأن إدراكه بطيء، ولأن الخوف لم ينزح بالسرعة اللازمة، فقد كان ذلك أكثر من فقدان العقل. كان ذلك إهانة، فقداناً للوعي، إهانة ساحقة أكثر من أي إهانة أخرى. والآن، بعد أن نجا، تحتم على رأسه أن يسمح ثانية بكل الأفكار، وتواصلت المعركة في الداخل، وتمردت اليدان، والعضلات، والأعصاب.

قال جون وهو يهتز اهتزازاً: «قتلته». من عينين متعبتين تطلع إليه الرجل ذو الجمجمة العالية. لم يبد عليه التأثر. واصل جون قائلاً: «لم أستطع التوقف عن الضغط على رقبته. كنت أبطأ من أن أتوقف».

أجابت الجمجمة بصوت مبحوح: «كفى! لقد انتهت المعركة». ما زال جون يرتعش، ثم صار الارتعاش اهتزازاً، تقلصت عضلاته في مواضع عدة مكونةً جزراً مؤلمة، كأنها تريد بذلك تحصين باطنه أو لفظ شيء غريب من وسط جلده. «لقد انتهت المعركة!»، صاح ذلك الرجل الذي رأى الإشارة من قبل. «لقد أريناهم!».

وضعوا طافيات جديدة؛ إذ إن الدانماركيين أزالوا كل الإشارات البحرية حتى تغرز السفن الإنكليزية في الرمال. ببطء اقترب القارب الصغير بالقرب من جزيرة تريكرونر التي دمرتها النيران، ووصل إلى حافة منطقة ضحلة. جلس جون شارداً على أحد المقاعد محملقاً في اليابسة. البطء مميت، هكذا فكر. والأسوأ أنه مميت للآخرين. أراد أن يكون قطعة من الساحل، صخرة من صخوره، تتطابق أفعاله دائماً مع سرعته الحقيقية. صيحة جعلته ينظر إلى أسفل: في المياه الصافية الضحلة كان قتلى كثيرون يرقدون على القاع، العديد منهم بسترات زرقاء، وكثر بأفواه فاغرة وعيون تنظر إلى أعلى. رعب؟ كلا. بالطبع يرقدون هناك.

هو نفسه واحد منهم، إنه تروس ساعة توقفت عن الدوران. ينتمي إليهم أكثر من انتمائه إلى بحارة القارب. خسارة كل هذا العمل الجم. ظن أنه سمع أمراً ما، لكنه لم يفهمه. ليس ثمة إنسان يفهم أمراً بعد رعد المدافع هذا. أراد أن يطلب تكرار الأمر، ثم اعتقد أنه فهمه. استقامت قامته ونهض، أغمض عينيه، ثم سقط، شيئاً فشيئاً مثل سلم مائل أكثر من اللازم. في المياه ألحّ عليه سؤال على غير توقع: ما عساه سيفكر نيلسون؟ كان الرأس الخائن بطيئاً بطئاً بالغاً هنا أيضاً، ولم يرد أن يتخلى عن السؤال. وهكذا اصطاده الآخرون قبل أن يفكر في الغرق.

في الليل كان يحملق أمامه وإلى أعلى باحثاً عن ساغالس. لم يعد يجده. لم يجد سوى إله الأطفال، وها هو قد غرق معه. أخذ جون يصلي لكافة الأشرعة والقلاع، من الشراع الأمامي السفلي حتى الشراع الأمامي العلوي، قرابة مئة مرة، ذهاباً وإياباً. كرر أسماء الحبال الثابتة، من الشراع الملكي الأمامي حتى الشراع الملكي العرضي، وأسماء الحبال المتحركة لأشرعة الصاري الخلفي وصولاً إلى الشراع الملكي الكبير. راح يستدعي

كافة أنواع الأدقال، من الصاري العرضي حتى الصاري الأمامي. راح يهيئ السفينة في ذهنه للإقلاع، ومرّ بكافة نهايات الصواري في كل طوابق السفينة، وكل أماكن المبيت، وكافة الدرجات والرتب، هو وحده ظل متداخلاً ومشوشاً في أفكاره وغير مهيأ لشيء. لقد ولت الطمأنينة وانقضت.

قال له د. أورم عندما التقيا ثانيةً: «أظن أنك حزين بسبب موته»، قال الجملة ببطء بالغ. احتاج جون إلى وقت، ثم شرع فكه يرتعش. إذا بكى جون فرانكلين، فإن بكاءه يستغرق وقتاً. انتحب إلى أن شعر بخَدر يسري في أنفه وفي أطراف أصابعه.

واصل د. أورم كلامه:

– إنك تحب البحر. ليس من اللازم أن يكون لذلك علاقة بالحرب.

كفّ جون عن البكاء؛ لأنه استغرق في التفكير. راح يتأمل خلال ذلك حذاءه الأيمن. أخذت عينه تتبع دون توقف المربع اللامع في الإبزيم الكبير: بالأعلى إلى اليمين، في الجانب إلى أسفل، بالأسفل إلى اليسار، في الجانب إلى أعلى، ثم عاد إلى نقطة البداية. كرر ذلك أكثر من عشر مرات، وبعدها ثبّت بصره على حذاء د. أورم المسطح، الخالي من الأبازيم، والمزود برباط في الأمام. وفي النهاية قال:

– الحرب، لقد ضللت طريقي إليها.

رد د. أورم:

– قريباً سيحل السلام. ولن تكون ثمة معارك أخرى.

الجزء الثاني

جون فرانكلين يتعلّم مهنته

الفصل السادس

إلى رأس الرجاء الصالح

شرع شيرارد فيليب لوند، البحار المتدرب على سفينة «إنفستيغاتور»، البالغ من العمر عشر سنوات، في كتابة رسالة إلى والديه. «شيرنيس، في الثاني من يوليو 1801. الوالدان العزيزان!». لعق شفتيه بلسانه، وواصل الكتابة دون أن يترك بقعة واحدة من الحبر على الورق. على الأرجح سيقرأ لهم الرسالة المعلم رايت كود.

«ستكون هذه أطول رحلة تقوم بها السفينة منذ تدشينها. سعيد أنني معهم، لا سيما متدرباً من الدرجة الأولى. يرفض القبطان أي شكر أوجهه له، ويقول: إن جون فرانكلين هو الذي سعى من أجلي. أود أنا أيضاً أن أصبح قبطاناً. كنت مع جون في لندن. لقد أمسى منذ معركة كوبنهاغن أبطأ من ذي قبل، ويغرق كثيراً في أفكاره. وفي الليل يحلم بالموتى. جون إنسان خيّر. لقد اشترى لي، على سبيل المثال، صندوق بحارة مثل صندوقه تماماً: مخروطي الشكل، وعميق جداً، ومقسم إلى أرفف كثيرة. وثمة شريط سميك يحيط به من الأسفل. المقبضان مصنوعان من حبال

القنب. والغطاء مبطن بقماش الأشرعة. على هذا الصندوق أكتب لكما».
أزاح الورقة إلى أعلى، ولعق شفتيه، ثم غمس الريشة في الحبر. امتلأت الورقة حتى نصفها فقط.

«حصلت أيضاً على ماكينة حلاقة هدية، لأن جون يرى أنني سأحتاج إليها بعد أن نصل إلى تيرا أستراليس. بالإضافة إلى ذلك فقد شرح لي المدينة. الناس لا تُحَيّي بعضها بعضاً؛ لأنهم لا يعرفون بعضهم بعضاً مطلقاً. على ظهر السفينة عمة جون أيضاً، آن (تشابل)، وهي الآن زوجة القبطان. يصطحبها معه إلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية. تسألني في بعض الأحيان ما إذا كنت أحتاج إلى شيء. أنا متشوق لما سيأتي، وراض. سأتوقف الآن عن الكتابة؛ لأن هناك الكثير من العمل على السفينة».

لم يكن ربّان السفينة سوى ماثيو الذي عاد أخيراً، بعد أن حسبوه في عداد المفقودين. كان جون فرانكلين قد بلغ تواً الخامسة عشرة.

«حالته ليست جيدة»، هذا ما يقوله حتى ماثيو، ولأنه أضحى زوج عمته الآن، فقد كان يتصدى لحمايته من الآخرين على نحو أكثر حزماً، مثلاً لحمايته من الملازم فاولر.

كثيراً ما كان جون يقف حائراً في مكان ما، ودائماً حيثما يزعج الآخرين. قال فاولر: «هو ليس بالبحار الجيد حقاً». فرد ماثيو: «ليس رجلاً سيئاً، سمعه ثقيل فحسب من تأثير المعركة». قال فاولر لنفسه: لقد مضى شهر على ذلك.

تحته بطابق كان شيرارد يقول: «جون قوي جداً. بيديه العاريتين خنق دانماركياً. لكنه كان صديقي قبل ذلك!».

كانت معاناة جون تزداد؛ إذا سمع مثل هذا الكلام. صحيح أنهم كانوا حسني النية، وهو لم يكن يريد أن يخيب أملهم. لكنه لم يعرف كيف يساعد نفسه، لا سيما عندما يسمع مديحاً كهذا. في الليل، إذا لم يظهر له القتلى مرة أخرى في قاع البحر، كان يتراءى له في الحلم شكلٌ غريب: متماثل في تكوينه، أملس وبدون حواف، مساحة لطيفة منظمة، لا هو مربع تماماً، ولا دائري تماماً، وبه رسم متناسق. لكن ذلك الشكل يتحول فجأة إلى شيء متداخل ومتشظٍ، ثم يغدو بسرعة وجهاً متنافر القسمات، مقززاً ومهدداً حتى إن جون يستيقظ غارقاً في عرقه، وخائفاً من العودة إلى النوم. في النهاية أمسى خوفه من الشكل المتناسق الأملس أكبر من خوفه من الشكل المرعب الذي تمخض عن الأول.

كانت «إنفستيغاتور»، واسمها السابق «زينوفون»، فرقاطة خاضت غمار المعركة بكل شرف، ثم أُصيبت. في خضم الحرب على فرنسا، لم يكن بمقدور إدارة الرحلات الاستكشافية الاستغناء عن سفينة أفضل منها. قال كولبيتس، المشرف على المدافع: «عندما أسمع هذه الكلمة: الاستكشاف، أعرف في الحال: علينا فوراً ضخ المياه المتسربة! لو لم يغيروا اسمها، على الأقل. هذا شيء يتحدى القدر أكثر!». مستر كولبيتس من المؤمنين بالعرافة والتنجيم. في غرافسند جعلهم يسجلون كل أيام النحس التي ستصادفه في السنوات الثلاث المقبلة. قالت له المنجّمة: «عليك أن تنتبه حتى لا تهلك مع السفينة. إذا نجوت بعد تحطم السفينة، فستعيش حياة طويلة». لم يكن جيداً بالنسبة إلى مستر كولبيتس أن يحفظ فريق البحارة ذلك عن ظهر قلب، وهم بعد في شيرنيس.

عندما تلا ماثيو قبل الإبحار القواعد الملزمة، مط فكه الأسفل إلى

الأمام وقال بلهجة حادة: «النجوم لا تبوح لنا سوى بموقع السفينة، ولا شيء غير ذلك!».

يتحدر كل الطاقم تقريباً من لينكولنشاير، كأن ماثيو جمع على سفينة واحدة، من بين أبناء الفلاحين في هذه المنطقة، كل أولئك القلائل الذين لا يهابون البحر. هناك الأخوان التوأم كيركبي من مدينة لينكولن، اللذان اشتهرا بعضلاتهما. بيديهما سحبا عربة بحمولتها الكاملة -بعد أن انهارت الثيران التي كانت تجرها- عبر شارع «ستيب هيل» حتى الكنيسة. كان أحدهما يشبه الآخر تماماً، ولا يمكن التفرقة بينهما إلا من خلال العبارات التي يستخدمها كل منهما. اعتاد ستانلي أن يعلق قائلاً: «هذا هو ما وصفه الطبيب!»، أما أولوف فكان لا يقول سوى: «فاخر!»، عن الطقس، والتبغ، والعمل المُنجَز، أو يقول عن زوجة الربّان: «فاخرة».

ثم هناك موكريدج، الملّاح الأحول ذو الغليون المصنوع من الصلصال. له عين متحدثة، وعين مستقبِلة. إذا نظر جون في العين المستقبِلة، فَهِمَ في معظم الأحيان الكلمات قبل أن تُنطق. لكن الأكثر أماناً في الأغلب هو النظر إلى العين المتحدثة.

كان الملازمان مستر فاولر ومستر صَمويل فليندرز متعجرفين مثل كثيرين من نوعهما. أطلق أفراد الطاقم على كل منهما «الهوّال»؛ لأنهما يحبان المبالغات والتهويل.

يعيش في السفينة أربعة وسبعون فرداً، وثلاث قطط، وثلاثون خروفاً. بعد يومين كان جون يعرف الجميع، حتى الخراف، والعلماء بصورة خاصة: عالم فلك، وعالم نباتات، ورسّامان. كل منهم له خادمه الخاص. ناثانيل بيل هو أيضاً ضابط صف متدرب، ولم يبلغ الثانية عشرة بعد. كان

يعاني من الحنين إلى وطنه قبل أن تغادر السفينة مرسى شيرنيس، رغم أن إخوته الثلاثة الأكبر منه كانوا معه وشجعوه كثيراً. حتى الرائحة المألوفة التي تنبعث من الخراف لم تساعده، بل زادت من معاناته.

حسب رأي مستر كوليتس: إن لروث الخراف فائدة عظيمة. أعلن متجهماً: «إنه أفضل ما يمكن الحصول عليه لسد الثغرات الصغيرة في السفينة. لكن علينا أن نتوقع حدوث ثغرات كبيرة».

كانت «إنفستيغاتور» سفينة حربية؛ لذا كان على سطحها أيضاً عشرة جنود بحريين وقارع طبل. كانوا يأتمرون بأوامر العريف، والأخير كان يتبع أوامر الرقيب. راحوا يتدربون باجتهاد والسفينة لا تزال في المرفأ، وأخذوا يسيرون بالخطوة العسكرية جيئة وذهاباً على سطح المركب، إلى أن حدث صدام بينهم وبين الضابط المسؤول عن تموين السفينة. أخبرهم مستر هيلير: أنه في حاجة إلى المكان لأعمال أكثر أهمية. كان حمل المؤن وتخزينها من الأعمال المحببة إلى جون. أين تُوضع الدفتان الاحتياطيتان؟ وإلى أين يذهب بالصناديق الخمسين المعبأة بالطين من أجل الشتلات؟ هل صحيح أن البقسماط واللحم المجفف يكفيان لعام ونصف العام، أما الروم فيكفي لعامين؟ أخذ جون يحسب ذلك. في الكابينة الكبيرة المشتركة كتب تتيح مادة للقراءة طوال عام، إذا حسبنا ضمنها «دائرة المعارف البريطانية». وإلى أين بالهدايا المخصصة للسكان الأصليين؟ خمسمئة فأس وبلطة، ومئة مطرقة، وعشرة براميل مملوءة بالمسامير، وخمسمئة مطواة، وثلاثمئة مقص، وعديد من النظارات الملونة، وخواتم للآذان والأصابع، وكريات زجاجية، وشرائط ملونة، وإبر خياطة مع الخيط، وتسعون ميدالية عليها صورة الملك، وكل هذه الأشياء مسجلة بدقة في قائمة من نسختين. كان مستر هيلير يعرف وهو نائم أين مكان أي

شيء. استبدل ماثيو بجزء من المدافع الثقيلة مدافعَ خفيفة، وحتى هذه أمر بوضعها في المخزن حيث لا تعوق الحركة. وعندما لاح على وجه مستر كولبيتس أنه يريد أن يبدي ملاحظة بشأن ذلك، استبقه ماثيو بالقول: «نحن مستكشفون! سنحصل على جواز مرور من الحكومة الفرنسية».

المشكلة الأولى! لأسباب وجيهة كان ماثيو فترة متجهماً، فتحاشاه الجميع: العلماء، وضباط الصف، والقطط، وحتى الطباخ.

في شيرنيس تفقد السفينة ضابطان عاليا الرتبة من قيادة سلاح البحرية. تمت تلبية معظم رغبات ماثيو: قلاع جديدة تماماً، نقلت إلى الصواري ملفوفة كأنها نقانق هائلة الحجم، وحلت حبال جديدة من الكتان البلطيقي الجيد محل الحبال القديمة المهترئة. قوس السفينة كان يلمع بالنحاس المكسو به وصولاً إلى الفتحة التي يلقى منها الهلب؛ إذ كانوا يتوقعون الإبحار وسط مناطق جليدية. وعندئذ رأى السيدان النبيلان ملابس نسائية معلقة على حبل غسيل. امرأة على السفينة؟ في رحلة طويلة كهذه؟ «مستحيل!»، وتحتم على آن -التي لم يكن أحد من طاقم السفينة يحمل لها أي ضغينة- أن تغادر السفينة. مع أنهم كانوا يغضون البصر تماماً عن النساء في السفن الأخرى، ما دمن لم يبحرن ليشاركن في المعارك. يا أبطال الإدارة! ألا تريدون السماح لماثيو بأن ترافقه زوجته آن اللطيفة، التي تشع اطمئناناً وصحة؟! احمرّ وجه الربّان غضباً. بصوت بالغ الخفوت همس قائلاً: «لن أتبع أبداً، أبداً أي تعليمات بالية تأتي من فوق! ولن أقرأ حتى شيئاً كهذا!».

غادر الضابطان السفينة. لكن المشكلة التالية كانت في انتظارهم. قبل دوفر أنزل ماثيو الدليل من السفينة، واعتمد على خرائط البحرية. بعد

عدة أميال، بالقرب من دانغنيس، دخلت السفينة منطقة ذات مياه ضحلة. شدوا حبال القلاع، وأنزلوا القوارب إلى المياه. ساعدهم التيار. خلال مدة وجيزة استطاعت السفينة أن تحرر نفسها وتواصل إبحارها. ولكن على «إنفستيغاتور» الآن، وقبل أن تبدأ الرحلة الكبيرة، أن تبحر إلى الحوض الجاف في بورتسموث. لا بد من فحصها والتأكد من أن بدن السفينة السفلي لم يُصب بضرر. أبدى ماثيو ملحوظة هادئة بشأن الإدارة البحرية وخرائطها، لكنها كانت مسموعة جيداً في القمرات كافة.

على العكس من ذلك كان مستر كولبيتس سعيداً؛ إذ إنه اعتبر هذه المياه الضحلة تلك التي ينتظرها، وبالتالي لم يعد هناك خطر من هلاكه. أما موكريدج فكان يفكر في أشياء أخرى. غارقاً في أفكاره قال:

- بورتسموث، هناك أعرف فتيات كثيرات.

عينه البعيدة كانت مسددة على أولئك الفتيات في تلك اللحظة. وافقه ستانلي كيركبي، وأخبرهم أن هذا ما وصفه الطبيب. صمتَ أخوه أولوف؛ إذ كان حكمه يصدر دائماً بعد مرور فترة. والفحص الدقيق يسبق إطلاق وصف «فاخر» على أي شيء. بالإضافة إلى ذلك لم يكن من المؤكد بعد، ما إذا كان سيُسمح لطاقم البحارة من الأساس بالذهاب إلى المدينة.

كان جون فرانكلين يريد أن يكون مثل أي رجل آخر؛ لذلك كان يصغي بانتباه للأحاديث التي تدور حول النساء. «أحبُها بخصر عريض بعض الشيء»، قال المشرف على المدافع. أما دوغلاس، المسؤول عن الصيانة، فقال: «على حسب... على حسب...»، لكن البستاني له رأي آخر. على ما يبدو، كان كل رجل يتفحص جيداً ما تعرضه ذاكرته أمام عينيه. كان ما يهم جون في المقام الأول هو التطبيق العملي. سار إلى موكريدج وسأله أسئلة

فكر فيها بعناية، عن: متى وكيف؟ هنا أيضاً كانت الإجابة في الغالب «على حسب»، لكن جون ظل عنيداً. سأله:

– هل يعري الرجل المرأة قبلها؟

فكر موكريدج طويلاً جداً، ثم قال:

– أنا أشعر بالانبساط هكذا، لكنك أنت الزبون، وسيتم الأمر كما يحلو لك!

المألوف هو بالتأكيد ما يفعله موكريدج. لكن جون كان مهموماً بسبب الأزرار الكثيرة.

– عليك أن ترى بنفسك ما تفعله عندما تكون هناك، أزرار أو أحزمة أو عُقد. ولا تنسَ: لا تقل مجاملات فظة إلا للنساء الكبيرات في السن! هل أنت خائف؟

كان خائفاً، ولذلك شرع، خلافاً لطبيعته، يحكي له أنه بيديه العاريتين قد قتل جندياً في كوبنهاغن... فوراً شعر بالخجل. بعينه البعيدة نظر موكريدج برفق إلى جون، في حين سددت العين حادة البصر، المتحدثة، النظرة إلى غليونه.

– عندما تضطجع بجوار امرأة، ستنسى كوبنهاغن!

على اليابسة أراد جون أن يتفرج على كل النساء، وأن يحاول دراسة ملابسهن إلى أن يحفظها عن ظهر قلب. لكن أشياء كثيرة كانت تستحق الفرجة، حتى كاد هدفه يختفي من أمام عينيه. ازدحمت المدينة بالبحارة، لا مكان في العالم يجمع كل هؤلاء الشباب، وهو منهم. كان يرتدي زي البحارة أيضاً، وعندما كان يقف في مكان ما، كان واحداً منهم. بالطبع لم يكن يستطيع الرقص، وقد رقص الآخرون كثيراً.

لم يكن يشبع من مشاهدة دار البلدية، وهو مبنى رشيق يقع وسط شارع رئيسي، تزدحم حوله العربات التي تجرها الخيل. بعد ذلك رأى برجاً في الميناء يرسل الإشارات، ويلوح بأذرع عديدة مستقبلاً أوامر إدارة لندن البحرية أو مؤكداً على الاستقبال. أول مرة جلس جون في إحدى حانات البحارة. سأله الساقي عما يود أن يطلبه، فقرأ جون الأسماء المكتوبة فوق البار: ليديا. ضحك الجميع؛ إذ كان الاسم لسفينة من بورتسموث. أسماء السفن هنا كانت مسجلة على نحو احتفالي مثلها مثل المشروبات.

بعد أن استمد القوة من شراب «الوثر وكالفن»، ركز انتباهه مرة أخرى على النساء. كانت الملابس مختلفة بحق. لم تكن تشترك سوى في أعلى الصدار المحترم، الناهد بشكل مهدد. ترى، ماذا يخفي هذا الصدار؟ لم يكن من السهل معرفة ذلك. يتوقف كل شيء على التجربة. أوصله موكريدج إلى منزل في «كيبل رو»، ثم قال له:

– ماري روز على ما يرام. ستستمتع. هي فتاة بدينة حلوة، ودائماً فرحة. عندما تضحك، يتقوس أنفها.

انتظر جون خارج البناية المنخفضة، بينما كان موكريدج في الداخل يتفاوض على شيء ما. نوافذ المنزل كانت إما مصمتة أو مغطاة بالستائر. من يريد أن يرى شيئاً، عليه أن يدخل. ها هو موكريدج يأتي لاصطحابه.

لم يجد جون ماري روز بدينة، ولا أنفها يتقوس. لها وجه ذو عظام بارزة، وجبهة عالية. خطوط وجهها لينة مستديرة. شيء ما ذكّره بسفينة. كانت «رجل الحرب» من الجنس الأنثوي. في البداية رفعت الجزء السفلي من النافذة حتى تدخل المزيد من الضوء، ثم نظرت إلى جون متفحصة. سألته مشيرة إلى رأسه ويديه:

- هل وقعت بين الشجيرات؟

أجاب جون متلعثماً ومنقبض الصدر:

- لم تكن تلك شجيرات. لقد شاركت في معركة كوبنهاغن.

- ومعك أربعة شلنات؟

أومأ جون. ولأنها صمتت، فقد رأى مهمته بوضوح. قال دون اكتراث:

- سأعريك الآن.

سددت إليه نظرة مبتهجة من تحت الأقواس الكثيرة لرموش عينيها، ومن بين حاجبيها وعظام جبهتها، ومن تحت خلجان منبت شعرها. ثم قالت مبتسمة:

- مظهرك يقول ذلك!

كان بمقدور شفتيها البضتين أن تقولا جملاً متهكمة على نحو لطيف للغاية. على كل حال، لا يدعو الأمر حتى الآن إلى الهرب.

بعد نصف ساعة كان جون ما زال هناك. قال لها:

- يهمني كل ما أجهله حتى الآن.

- إذن، مد يدك إلى هنا، هل يعجبك ذلك؟

متعكر المزاج قال جون:

- نعم، ولكن الأمر لا يسير على النحو الصحيح.

- غير مهم! لدينا هنا ما يكفي من المدافع.

في تلك اللحظة انفتح الباب، ووقف رجل بدين طويل بوجه متسائل. كان من الواضح أنه يريد الدخول. «اخرج!»، صرخت ماري روز. انصرف البدين. عقّبت ماري روز بمزاج رائق:

- كان هذا هو جاك. إنه على سبيل المثال مدفع في التهام الطعام وفي السُكر! عندما انغرزت سفينته مرة في الرمال، ألقوا به خارجها، وفوراً تحررت السفينة.

اتكأت إلى الوراء، وضحكت من كل قلبها بعينين مغمضتين. وهكذا كان بإمكان جون تأمل استدارة ركبتها وفخذها، وأن يفكر في الخطوة التالية. ولكن ذلك لم يحرك أيضاً ذلك الشيء الذي امتنع من قبل عن الحركة. أحضر سرواله من فوق الكرسي متفحصاً أين بدايته ونهايته، ثم أخرج الشلنات الأربعة. قالت ماري روز:

- نعم، لا بد أن تدفع، وإلا ستعتقد أنك لم تستمتع!

أمسكت برأسه. شعرت شفتا جون بحاجبيها، وأحس بالشعيرات الصغيرة. أحس بالسلام والوداعة. لم يكن ثمة جهد أو تفكير، إذ راحت يداها تحرك رأسه يمنة ويسرة. ثم قالت:

- أنت شاب جاد، وهذا شيء جيد. عندما تكبر، ستصبح «جنتلمان». تعال مرة أخرى، في المرة القادمة ستوفق، أعرف هذا.

أدخل جون يده في جيبه مرة أخرى، ثم قال:

- لدي هنا مفك بحارة من النحاس الأصفر.

أعطاها الهدية، فأخذتها ولم تقل شيئاً. وهي تودعه قالت بنبرة خشنة:

- عندما تخرج، مد قدمك ليتعثر جاك البدين. إذا انكسرت رقبته، سيكون لدي أمسية بلا عمل!

عندما دخل جون السفينة، بدا موكريدج كأن عينيه تنظران إليه أول مرة من الزاوية نفسها.

- كيف كان الأمر؟

فكر جون، ثم قرر قراراً التزم به:

- لقد وقعت في الحب. كنتُ في البداية فقط وَجِلاً بعض الشيء بسبب الأزرار.

لم يكذب. وظل فترة طويلة يفكر في رائحة بشرتها اللطيفة. وبقي الأمل في أن يكون بطء النساء له علاقة ببطئه الشخصي.

لم يُصب بدن السفينة السفلي بأي أعطاب. في تلك الأثناء حصل ماثيو على جواز السفر لسفينته، ونال أيضاً -ورغم سوء الحظ في دانجنيس- على دعم الهيئة البحرية. التحق بالسفينة عالم آخر، د. براون، وثيستل، المشرف على القلاع الذي طال انتظاره، وبذلك اكتمل طاقم السفينة. أمر ماثيو برفع المرساة.

بعد أربعة أيام قابلوا أسطول القناة، وهو منظر ليس مريحاً. ها هي السفن الضخمة العالية تترصد وصول الفرنسيين، السفن المحملة حتى آخرها بالبارود والحديد، المستعدة لإطلاق النار أكثر من استعدادها للإبحار.

قال جون متنفساً براحة: «لن أبحر معهم أبداً!» لقد أبحرت سفينته في مياه خارج القارة الأوروبية، حيث يكون المهم هو دقة الملاحظة والخرائط الجيدة فحسب. العالم الجميل الغريب، لا بد أن يراه الآن فعلاً، وإلا لن يعتقد بوجوده. البحر هو الذي سينقذه من شعوره بانعدام الثقة في نفسه. لم يعد طفلاً. عندما قال شيرارد مرةً، كما اعتاد القول في السابق: «إنني أحترس مثل النسور!»، استولى على جون شعور غريب، كأنه يريد البكاء على شيء ضائع.

ولكنه الآن كان قد أبحر.

من يبحر، لا يستطيع أن يبقى يائساً فترة طويلة؛ فهناك الكثير جداً من العمل. أخذ ماثيو يدرب فريقه من الفلاحين إلى أن سقطوا في النعاس وقوفاً. لم يتعلم جون كافة المناورات والمناوشات فحسب، بل عرف أيضاً كل بكرة، وكل كسوة معدنية، وكل مفصل في السفينة. كان يعرف أين تُعقد الحبال والسلاسل، وكيفية تمرير الحبل في العروة، وكيف يحمي الحبال من التهرؤ، وكيف يربط نهايات الصواري. حفظ عن ظهر قلب أوامر المناورات الشراعية كافة، وقد كانت كثيرة. لم يجلب له الهم سوى القط تريم، وهو حيوان جميل يشبه النمر بخطوط رمادية، ولا يعرف أي شفقة. كان يجلس في مطعم صف الضباط، معهم على المائدة، واكتشف سريعاً أن بإمكانه أن يضرب بمخالبه قطعة لحم محمرة وإسقاطها من شوكة أبطأ صف ضابط، ثم يلتهمها بعد ذلك في مكان آمن. ما أكثر نجاحه في هذه المناورة! كان الجالسون معه على المائدة ينتظرون حدوث ذلك، ويكادون يتعثرون في البلع من الضحك. لاحظ جون مغتاظاً أن تريم كان يكتسب عبر ذلك شعبية متزايدة. كان هذا أحد الهموم التي تُنسي المرء هموماً أكبر.

ندر ظهور هذا الكائن الشرير في الليل. وفي الحلم كان جون منشغلاً أكثر بعملية فرد القلاع. سمع صوته العالي يقول: «شد الحبل! حبال الصاري! شد الحبل جيداً! ارفع الشراع! اسحب الشراع!...»، وكانت السفينة تنصاع وتفعل المطلوب منها.

في بداية درس الملاحة البحرية قال ماثيو: إنه لا يعتقد أن أي أحد في العالم، يستطيع أن ينجز شيئاً خيراً دون أن يعرف النجوم، بأسمائها

ومكانها. ثم راح يشرح السماء وجهاز السُدس(*). كان جون يعرف هذه المعلومات، لكنه أول مرة يمسك بيده هذا الجهاز الثمين. المرآة وعلامات القياس تعطي قياسات تعادل بالضبط واحداً على ستين من البوصة. وفي المنتصف تدور مسطرة قياس مكتوب عليها اسم مشرقي هو «العضادة». كان جون هو أول من تعلم: أنه يجب ألّا يقع الجهاز على الأرض، ثم كيف يستخدمه المرء. «إما أرقام دقيقة، أو الصلاة، ليس هناك شيء ثالث!»، قال لهم ماثيو. عندما كان يلقي نظرة متفحصة عبر عدسة السدس، قد كان ماثيو يبدو شخصياً مثل جهاز دقيق: العين اليسرى مغلقة، ومحاطة بتجعيدات صغيرة حادة، ممتعضاً، والشفة العليا مقوسة إلى أعلى كأنه يعبر عن احتقاره العميق لكل ما هو تقريبي. الذقن إلى الوراء بأقصى ما يستطيع. هنا يقف شخص يعرف تماماً كيف ينظر قبل أن يبادر بالفعل. اتفق جون مع شيرارد في الرأي: بأنهما يحبان ماثيو خصوصاً عندما ينظر في هذا الجهاز.

ثم هناك ساعات الكرونوميتر(**) التي يحب ماثيو أن يطلق عليها «حامية الوقت». لا يستطيع المرء حساب تقدمه إلى أي خط طول ناحية الغرب أو الشرق إلا إذا عرف بدقة توقيت غرينتش. حاميات الوقت كانت تُصنع مفردة وبعمل يدوي طويل، وكانت تزهو بأسماء مبتكريها: إرنشو رقم 520 و543، كيندال رقم 55، أرنولد 176. كل ساعة لها وجهها الخاص -زخارف سوداء على خلفية ناصعة البياض- وكل ساعة كانت تقدّم

(*) السدس (الجمع: السُدُسات): جهاز فلكي قديم، كان يُستخدم لقياس الزاوية بين جسمين أو نجمين، واخترعه أبو محمود الخجندي في القرن العاشر. ويُستخدم الجهاز في الملاحة والمساحة، ويطلق عليه هذا الاسم نسبة لشكله الذي يشبه السدس من الدائرة تقريباً. وكان الجهاز أداة الملاحة الأولى للسفن والطائرات حتى منتصف القرن العشرين.

(**) الكرونوميتر (ويطلق عليه أيضاً الميقاتية) هو نوع من الساعات الدقيقة جداً التي تستخدم في الملاحة البحرية والجوية.

قليلاً أو تؤخّر على طريقتها. معاً فحسب كانت الساعات تضمن الدقة. عبر المقارنة الدائمة كانت تظهر فوراً خصوصية كل ساعة. الساعات مخلوقات. وأعظم معجزاتها أن نوابضها تحافظ على قوتها ثابتة تماماً عبر ميزان الساعة المفعم بالأسرار. إذا تأخر حامي الوقت دقيقة واحدة فقط؛ فإن المرء يخطئ في حساب الموقع بنحو خمسة عشر ميلاً بحرياً. البوصلة أيضاً، ووكر رقم 1، كانت آلة محترمة. هذه الأجهزة حساسة تماماً، لا سيما إذا كانت بالقرب من مدافع.

كان جون يحب تأمل خرائط اليابسة والبحار. كان يتمعن فيها طويلاً جداً حتى يعتقد أنه فهم كل خط فيها، وفهم أسباب شكل الأرض في هذه المنطقة. كان يقدّر المسافات الساحلية بمقدار ابتعاد الطريق بين إنغولدملس حتى سكيغنيس عن الساحل، كان ذلك مقياساً معقولاً. قال ماثيو: «في الحقيقة إن الخريطة شيء مستحيل؛ لأنها تحول ما هو بارز إلى شيء مسطح».

أما أكثر ما كان جون يحبه، فهو مشاهدة كيفية قياس السرعة. عندما سمح له مرة أولى بأن يقيس السرعة، وعندما ترك البكرة تدور، كان عاطفياً جداً، وشعر أخيراً بالسعادة التامة. بعد أن قطعت السفينة ثمانين قدماً، استقرت القطعة الخشبية في مكانها الصحيح، وانفلتت عقدة البداية من البكرة، فقلبَ شيرارد الساعة الرملية. استغرق هبوط الرمل والحبل ثماني وعشرين ثانية، عندئذ توقف جون وتفحص. «ثلاث عُقدٍ ونصف، ليس هذا مألوفاً». ثم أعاد القياس مرة أخرى.(*)

(*) المقصود هنا: جهاز لتحديد سرعة سير السفينة (بالعقدة)، يُطلق عليه بالإنكليزية log، والجهاز عبارة عن بكرة فيها حبل طول ملفوف ينتهي بقطعة خشبية مثقلة بالرصاص، تلقى في البحر، وبساعة رملية يُقاس الزمن اللازم للوصول إلى نهاية الحبل، ومن ثم السرعة التي احتاجتها السفينة لقطع هذه المسافة.

كان جون يود لو أخذ معه بكرة القياس والساعة الرملية إلى الكابينة حتى يقيس سرعة استغراق الإنسان في النوم، وسرعة أحلامه.

كانت لماثيو عيوبه أيضاً. يوماً بعد يوم كان يأمر بتهوية الأرجوحات التي تستخدم للنوم، وبمسح الجدران بالخل، وحكّ أرضيات السفينة بـ«الحجر المقدس». صوت الاحتكاك الصادر عن الحجر كان يوقظ في الصباح آخر النائمين.

في كثير من الأحيان كان يُقدم الكرنب المخلل والبيرة، فضلاً عن ذلك كان قدر كبير من عصير الليمون متاحاً للجميع. هكذا كان ماثيو يريد التغلب على الإسقربوط. كان يقول مهدداً:

- لا أحد يموت في سفينتي. على أقصى تقدير ناثانيل بيل بسبب حنينه إلى الوطن.

- أو نحن جميعاً، ولكن ليس بسبب المرض.

هكذا كان كولبيتس يقول في دائرة صف الضباط. كان في تلك الأثناء مقتنعاً مرة أخرى بأن جنوح السفينة المُتَنبأ به سيحدث. ثمة إمكانية ثالثة أيضاً: في كل ساعة تتسرب إلى السفينة بوصتان من المياه. ظل النجار يزحف في قاع السفينة ساعات، ثم رجع بوجه شاحب إلى السطح، وطلب من ماثيو أن يتحدث معه على انفراد. فوراً انتشرت شائعات.

«أراهن أن أحد الأعمدة من خشب شجرة السمن»، قال أحدهم، «سوف يقودنا هذا العمود إلى الأسماك!»، صرخ فيه موكريدج: «لا تقل كلاماً فارغاً! انظروا إلى هذا العمود من خشب العرعر، إنه يوازن الكفة مع أي شر!».

كثرت الأقاويل خلال تفريغ المياه، وفي مواجهة حكاية قديمة تتوقف سلطة العقل، لا سيما عندما يبدو أن الحكاية ستتحقق. بعد ثلاثة أيام ازدادت الوجوه وجوماً. وقال الملازم أول:

– تتسرب الآن أربع بوصات في الساعة. قريباً لن نكون في حاجة إلى قطط، الجرذان ستغرق من تلقاء نفسها.

ماديرا! مرة أخرى سار جون على اليابسة. الأرض ثابتة على نحو يجعل القدمين تهتزان باستغراب. الحرب تقترب ثانية: قبل فترة وجيزة تم نقل جنود الفوج رقم 85 إلى اليابسة، ليطاردوا في النواحي المحيطة بمدينة فونشال كافة الأرانب والسحالي، وذلك عبر الحفر الدائم لإقامة حصون. يجب الدفاع عن فونشال في مواجهة الهجوم الفرنسي. غير أن هذا الهجوم وشيك، لا لشيء إلا لأنهم يتحصنون هناك. بكل ود احتلت إنكلترا ماديرا البرتغالية الصديقة. وكما هو الحال دائماً عندما يكون لجون في موضوع معين رأي خاص لا يتبناه الآخرون ربما؛ فإنه يشعر بالهموم تستولي عليه. لكنه قال لنفسه: إنني أعلم أقل من اللازم حول الموضوع.

في فونشال تمت جلفطة كافة ثقوب «إنفستيغاتور» من أسفلها حتى أعلاها. في الليل ناموا على اليابسة، وقضى الضباط وضباط الصف ليلتهم في فندق. تعلم جون في تلك الليلة كم البراغيث والقمل الذي يمكنه أن يتجمع في مكان واحد وفي آن واحد، كان ذلك شيئاً لعلماء الطبيعة!

ملؤوا براميل المياه من جديد، واشترى ماثيو كمية من لحم البقر. وشرح لضباط الصف المتدربين: كيف يمكن التفرقة بين البقرة الهرمة والعجلة بلون اللحم المائل إلى الزرقة. كان نبيذ ماديرا أغلى من اللازم بالنسبة إليه. البرميل باثنين وأربعين جنيهاً استرلينياً، هذه قرصنة بوسائل

أخرى. قد يدفع ذلك مرضى الرئة من النبلاء الإنكليز الذين يتجولون في المنطقة، وهم يقرؤون الروايات جالسين على زلاجات تجرها الثيران.

حاول المستكشفون أن يتسلقوا جبل بيكو رويفو بجانب فوهة واسعة لبركان عتيق. بسبب بثور كثيرة في الأقدام لم يصلوا إلى القمة. عند العودة امتلأ قاربهم بالمياه أيضاً، حتى إن مجموعة الخنافس التي جمعوها هلكت. تنهد د. براون قائلاً:

- خسارة! ليس هناك في العالم كله خنافس أكثر إثارة للاهتمام من خنافس ماديرا.

عندما تركت السفينة الجزيرة خلفها والرياح الجنوبية الوديعة ترافقهم، لم يكن يقف على سطح السفينة الخلفي سوى فرانكلين وتايلور، أما الآخرون فكانوا جالسين. رأى تايلور سحابة حمراء من الغبار فوق المياه، آتية من جهة الشمال الشرقي. في البداية لم يستنتج أحد منهما شيئاً بشأنها. فكر جون: صحراء. تخيل كيف ترفع الريح رمل الصحراء الأحمر، وكيف تطارده عبر الساحل وعبر بحر الظلمات، ربما إلى أن تصل به حتى أمريكا الجنوبية. شيء ما بدا لجون غريباً. قال: «انتظر!»، وبعدها بدقائق: «السحابة، لقد...»، بعد فترة ضئيلة كانت كل الأشرعة تواجه الرياح، هبات الريح القوية الآتية من الشمال الشرقي اتحدت مع الرياح الجنوبية الضعيفة، وعاثت فساداً هائلاً في صواري «إنفستيغاتور». وسقطت إحدى القوائم العرضية مصطفقة بالأرضية، وهبطت قطعة ضخمة من خشب الدردار على أحد القطط فقتلته، ولكن ليس على القط تريم. لم تحدث أضرار كبيرة. انهمك الجميع في أكل سلحفاة ضخمة مطهوة، وشربوا كأساً من نبيذ «مالفازيا» في صحة القطة الميتة.

استغرق جون في التفكير. لقد رأى كل شيء، لكنه ظل في مكانه حائراً. بالتأكيد، من يريد أن يتعرف إلى خطر؛ فلا بد أن ينظر أولاً. أما إذا أراد المرء أن يفعل شيئاً؛ فإنه عندئذ يكون في حاجة إلى ما تعلمه وتدرب عليه على نحو أعمى. بدلاً من «انتظر، السحابة...»، كان عليه أن يصيح: «الريح تغير اتجاهها». عندئذ كانت ستكون أمامهم ست دقائق لحماية عارضة الشراع بإنزالها مع تحريك الصاري والأشرعة. كان بالإمكان أيضاً إنقاذ القلع العلوي. وصل جون إلى قناعة: أن عليه أيضاً أن يتدرب على كل ما هو غير متوقع. يريد أن ينقذ سفينة يوماً ما، من خلال سرعة تصرفه وصوابه.

أخذ شيرارد يختبره بالأسئلة:

– هناك عاصفة، ولكنك لا تستطيع إجراء مناورة لتغيير اتجاه الشراع.

أو:

– سقط رجل في المياه، والرياح تهب في الشراع بزاوية حادة!

في كل مرة كان جون يتمهل مدة خمس ثوان بالضبط، حتى تستطيع عينه الباطنية تأمل الموقف كله جيداً. عندئذ كان يجيب:

– الصياح: رجل في المياه، إلقاء عوامة الإنقاذ النهارية للرجل، ولكن ليس على الرجل، في الليل الأمر سيان؛ فالظلام سائد على كل حال. إبطاء سرعة السفينة، إنزال قارب الإنقاذ إلى المياه. على أحد أفراد الطاقم ملاحظة الرجل دائماً.

يقول شيرارد:

– جيد. والآن أنت ترى لهيب النيران في قوس السفينة.

خمس ثوان، ونفس عميق، ثم:

- فوراً تغيير الاتجاه، عكس اتجاه الريح، سد فتحات التهوية، تفريغ المدافع من البارود، إغلاق مخزن البارود، بالترباس، سد الفتحات السفلى في السفينة، ربط قوارب في الأشرعة وإنزالها إلى البحر لملئها بالمياه وإطفاء الحريق...

منذ فترة كان ماثيو يقف خلفه:

- ليس سيئاً! لكنك قد تبدأ متأخراً بعض الشيء في الإطفاء.

بيطء فهم جون، فاحمر وجهه. دمدم بصوت خفيض:

- املؤوا الدلاء بالمياه...

طوال أسابيع لا يابسة. كان الطقس حاراً جداً حتى لم يعد أحد من البحارة يتجول بالسترة ليلاً. استمتع جون بهدوء البحر، وهو هدوء لم يكن له أي علاقة بقوة الريح. كان أداء الطاقم يزداد اتقاناً بمرور الوقت. حتى كولبيتس، المشرف على المدافع، أصبح أكثر لطفاً، رغم أنه بذخيرته لم يكن يخدم سوى أهداف سلمية. عندما جرح ستانلي كيركبي نفسه في الذراع وأُصيب بالحمى، كان عليه أن يتناول خليطاً من البارود والخل. وسرعان ما تعافى. نما البحر الليلي المضاء بأشعة القمر، وأصبح شكلاً مستقلاً، نهض عالياً وصار سحابة من المياه كأنها جدائل شعر متشابكة، تدور حول نفسها بشكل لولبي، تزايد حجمها كلما علت، كأنها نبات ينمو نمواً شيطانياً، وكأنها شجيرات مائية مضيئة تشتعل في النيران، أو كالدوامة، لكنها دوامة ليست من الريح والتيار بل من قوتها الذاتية. تجسد البحر الآن، وكان يتلوى، ويقف، ويشير إلى اتجاهات. ومن خطوط الأفق المستقيمة التي تبدو أبدية صعد في الحلم بلا مجهود شكل عملاق، كأنه حقيقة، وعبرها يصبح كل شيء مختلفاً. في اتجاه السماء انفتحت هوة، فوهة،

أو أخدود. قد يكون ذلك وحشاً بحرياً، وربما رقصة من ملايين الكائنات الصغيرة. كثيراً ما حلم جون بذلك. وفي بعض الأحيان كانت تعقب الاستيقاظ أفكارٌ تشغله طويلاً. كان يتذكر ماري روز في بورتسموث، وأن المهم لدى النساء ليس التوقيت الخارجي، بل التوقيت الداخلي الكامن. مرة أخرى راح يفكر في عبور بني إسرائيل البحر الأحمر، ورجح أن البحر نفسه، وليس الرب، هو الذي أنقذهم.

عندما يستغرق في التفكير صباحاً، وهو راقد على فراشه المعلق، وقد استيقظ تماماً قبل فترة طويلة من ضجيج «الحجر المقدس»، كان عندئذ يعايش لحظات من الصفاء المُسكِر. كان يدرك أن شيئاً جديداً قد بدأ، ببطء بالغ. في الوقت نفسه كان ظهره يشعر بمظهر البحر اليوم. لن يمر وقت طويل حتى يصبح بحّاراً حتى النخاع.

الفصل السابع

تيرا أستراليس

رغم التصليحات تسربت المياه مرة أخرى إلى «إنفستيغاتور»، بل وكانت أكثر من المرات السابقة. «هذه السكيرة العجوز تعبّ الآن خمس بوصات في كل ساعة»، قال مساعد مشرف الصيانة. «إذا لم نسد الثقوب مرة أخرى في رأس الرجاء الصالح، فبإمكاننا من الآن أن نهيئ قوارب الإنقاذ. فإذا هبت عاصفة، لن نحتاج حتى إلى طبيب!». لكنها كانت إحدى الجمل المتشائمة القليلة التي تفوه بها أحد. اختار مستر كوليتس أن يلتحف الصمت البليغ، أما باقي أفراد الطاقم فقد قالوا لأنفسهم: سننجح في الوصول حتى رأس الرجاء الصالح.

واصل الصيف تقدمه ببساطة، وتزايدت حرارة الطقس. بدا أن زمن السراويل القصيرة قد تسمر في مكانه. أتى أكتوبر، لكنها كانت بداية الصيف هنا. عبر استمراره فحسب، غيّر الدفءُ البشر. ليس على سطح السفينة ما هو غير مهم، كل فرد كان يُصغى إليه. كل هذا منح جون الشعور بأنه لم يعد بطيئاً على الإطلاق، مثلما كان قبل عدة شهور فقط. إضافة إلى

ذلك، لم يعد بإمكان تريم أن يعرضه للإحراج. كان جون يعطي القط نصيبه قبل أن يمد مخالبه إليه.

غضبَ ماثيو؛ لأنه لم يستطع العثور على جزيرة ساكسمبرغ. رجل اسمه ليندمان ادعى أنه رآها قبل ما يزيد عن مئة عام، وسجل إحداثيات دقيقة. لكن، رغم أن ثلاثة رجال كانوا يتطلعون نهاراً وليلاً منتظرين ظهور ساكسمبرغ، فإنهم لم يجدوا لها أثراً. ربما كان ليندمان مجنوناً، أو كان الكرونوميتر الذي يستخدمه جهازاً شيطانياً. أو أن الجزيرة كانت مسطحة للغاية وبقيت خلف خط الأفق. وقد تكون السفينة قد عبرت بها على بعد لا يزيد عن خمسة عشر ميلاً بحرياً.

قال شيرارد:

– إذا لم يجدها أحد، فهي لي. سأبني عليها بيتاً لن يستطيع أحد أن يأخذه مني.

عند رأس الرجاء الصالح رأوا سرب سفن حربية إنكليزية، ساعدتهم بالنجارين وبالمواد اللازمة. سدوا ثقوب «إنفستيغاتور» بألياف جديدة من القنب. بفرقاطة أُرسل ناثانيل بيل إلى وطنه؛ إذ إن معاناته من الحنين إلى الوطن كانت أكثر من أي وقت سابق. بدلاً منه جاء ضابط صف آخر متدرب، دنيس لاسي، وهو شاب كثير التحدث عن نفسه؛ لأنه كان يعتقد أن على الآخرين أن يعرفوا مع مَن يتكلمون. نجح جون في أن يتحاشاه في البداية.

كان على الملازم فاولر وجون أن يقيما مرصد نجوم، وأن يحلا محل العالم الفلكي الذي نُقل إلى كيب تاون بسبب آلام النقرس القوية التي ألمت به. عندما شرع منظار كل منهما يجوب السماء، لاحظا أن درب سيمونستاون المؤدي إلى حديقة كرمباني يمر بمحطتهما الفلكية. وكل من

كان يعبر الدرب، سواء كان «جنتلمان» خلال جولته الصباحية بحصانه، أم كانوا عبيداً يحملون حطب التدفئة، أم بحارة السفن الراسية في خليج فالس، كانوا جميعاً يظلون واقفين ويتساءلون ما إذا كان يمكن رؤية أشياء مثيرة عبر المنظار. جيد أن شيرارد كان يرافقهما! أقام حولهما سوراً من الأعمدة الخشبية والحبال، ثم جمع كل المتسائلين حوله، وراح يحكي بعينين دائريتين أشياء مثيرة وغريبة عما شوهد من أجرام سماوية، وهكذا واصلَ السادة جولتهم بالخيل، واستمر العبيد في المسيرة بأحمالهم.

استأنفوا إبحارهم بعد ثلاثة أسابيع. وتوارت آخر السفن الحربية الأوروبية عن الأنظار.

قال جون لماثيو:

– أعتقد أنني أود أن أكون دائماً حيث لا يعود الجسد مهماً، أو إذا كان مهماً؛ فيجب أن يلقى الاحترام.

فهم ماثيو ما يعنيه، فقال:

– حيثما سنصل، يمكن إخماد حرب وهي بعد في المهد.

سارت «إنفستيغاتور» بسرعة ست عقدات صوب الشرق مباشرة. في غضون ثلاثين يوماً تقريباً سيصلون إلى تيرا أستراليس، في نقطة معلومة بالفعل، وهي كيب لوين. كان جون قد تخيل بالفعل شكل السكان الأصليين. «هل هم عراة تماماً؟»، سأله شيرارد. أومأ جون شارد الذهن. كان يفكر أن الرجل الأبيض لا بد أن يكون بالنسبة إلى البدائيين إنساناً رائعاً؛ لأنه يأتي من مكان بعيد جداً، وأنهم سيسمعون ما يقوله الرجل الأبيض دائماً فترة طويلة، حتى إن لم يفهموا كلمة. كان جون ينتظر بشغف أيضاً؛ لكي يعرف ما إذا كانت الأسماك وسرطانات البحر تتسلق الأشجار

حقاً؛ لكي ترى أقرب مكان للمياه. حكى موكريدج ذلك، وهو شخص يوثق به في معظم الأحيان. بالطبع لم يكن خبيراً بعد بتيرا أستراليس.

أصبح لاسي مُعذِّب جون الجديد.

كان دنيس لاسي يفقد صبره عندما يرى ما يفعله جون فرانكلين. «لا أستطيع رؤية ذلك!»، كان يقول عندئذ ويبتسم معتذراً. كان هو الأسرع، ويستعرض ذلك أمام الجميع، وليس فقط أمام جون. ومن السرعة العالية استنبط الحق في انتزاع ما يفعله الآخرون في تلك اللحظة من أياديهم. «دعني أفعل هذا!»، كل فعل طويل لا بد أن يقاطعه، ويقسمه إلى قطع قصيرة. كلما طال كلام أحد، زادت عدد مقاطعات دنيس حتى يؤكد أنه فهم. وخلال ذلك كان يقفز ناهضاً؛ لأن عليه أن يفعل شيئاً، أن يضع كوباً قد يتدحرج على المائدة، أو أن يُفزع تريم الذي ربما يريد أن يسنّ مخالبه بحكها بسترة ملقاة جانباً، أو أن يلقي نظرة متفحصة من الشباك ليرى ما إذا كانت اليابسة، بالمصادفة، في مجال البصر. بالإضافة إلى ذلك بدا أنه واقع في غرام ساقيه؛ إذ إنه كان يحب أن يتراقص يمنة ويسرة، أو إنه يعدو على الدرج هابطاً على نحو يجعل لخطواته وقع ضرب الطبل. كان يسير على سلم الحبال دون أن يبحث عن موطئ لقدميه، ودون أن يستند بيديه حتى يصل إلى الدرجة الخشبية الأخيرة. لم يبق سوى أن يقفز ذات يوم من قمة صارٍ إلى آخر. وعندما يتكئ مرة مستريحاً حقاً، عندئذ يسترق النظر متأملاً ساقيه ذاتي العضلات القوية. لم يكن يقصد إهانة المتمهل. ذات مرة أقسم أنه سيبذل جهده ليكون أفضل. «رغم ذلك»، قال عالم الجيولوجيا مرةً وهو الذي لم ينطق من قبل قط، «إنه لعنة!»، أمام دنيس لاسي كان كل شخص يشعر بأنه سلحفاة.

«اليابسة على مرمى البصر!».

نودي على كل الطاقم بالطبل؛ كي يصعد إلى سطح السفينة. تجهم وجه ماثيو، لكن عينيه كانتا تلمعان برضا. بعد ثلاثين يوماً وصل إلى كيب لوين بعد أن قطع عدد الأميال التي حسبها بالضبط.

- إننا نستكشف الآن سواحل عذراء. المراقب في البرج له أهمية قصوى الآن؛ إذ من الممكن أن تكون الشعاب(*) في كل مكان!

ثم خفض ماثيو من صوته:

- سنقابل أيضاً سكاناً أصليين. من يبدأ شجاراً معهم، فأنا أعِده من هنا، أمام الصاري، بأنه لن ينال أقل من ست وثلاثين جَلدة. نحن مستكشفون، لا غزاة. بالإضافة إلى ذلك فإن المدافع في الطابق السفلي.

نظر المشرف على المدافع إلى السماء، وحرك فكه يمنة ويسرة، كأن شيئاً في قفاه يحك فكه. واصل ماثيو قائلاً:

- من الممكن أن يبدأ المرء شجاراً أيضاً؛ إذا بدأ علاقة مع نسائهم. حذار أن أضبط أحداً! وبالمناسبة، سيقوم دكتور بيل فوراً بفحص الجميع بشأن الأمراض التناسلية، هذه تعليمات من فوق. لكن ليس معنى هذا أنه مسموح لكم بشيء منعتكم منه! من يسرق مسامير أو أي وسائل سداد أخرى، سيقف في الحراسة حتى يقع من طوله! لا أحد يطلق النار بدون أمر! أسئلة أخرى؟

لا أسئلة. بإمكان بيل أن يبدأ الفحص الطبي.

لم يكن وصف ماثيو للأستراليين إيجابياً جداً، لكنه أبحر طويلاً مع

(*) المقصود: شعاب بحرية، وهي عبارة عن صخور رملية تحت سطح البحر، قد تعوق سير السفن.

الربّان وليام بلاي، وسمع أيضاً الكثير عن خبرات كوك ودو ماريون السيئة، ولذلك لم يكن يريد أن يتعامل مع الأمور بخفة وطيش.

من سحنة الطبيب الذي أجرى الفحص؛ استنتج جون وشيرارد أنهما على الأرجح لم يصابا بمرض من الأمراض التناسلية. وشعرا بسعادة بالغة من أجل ذلك.

النزول الأول إلى اليابسة في كيب لوين. بقي الملازمون في السفينة، وأخذوا يهيئون مدفعاً للضرب حتى يمنحوا القوارب تغطية في حالة اضطرارهم للهرب والعودة. في البداية أمر ماثيو بالبحث عن زجاجة تركها الربّان فانكوفر هنا قبل عشر سنوات. سأله شيرارد:

– هل ما زال فيها شيء؟

صادفوا كوخاً مهجوراً وحديقة مهملة شعثاء مقفرة. في تفريعة أحد الغصون عُلقت لافتة نحاسية: «أغسطس 1800. كريستوفر ديكسون. سفينة إليغود». بعد أن شبعوا من أكل المحار المتواجدة بالآلاف على الجرف الصخري، قال ماثيو:

– لقد عرفت الأقدام الطريق إلى المنطقة. سفينتنا هي الثالثة خلال عشر سنوات. لم أسمع في حياتي بمستر ديكسون.

في مياه الخليج المتماوجة برقة، كانت «إنفستيغاتور» ترقد مثل سفينة غريبة تماماً ولكن تشع سيادة. من بعيد بدا هيكلها الخشبي كأنه محكم لا يتسرب منه شيء. كان معهم الرسام ويليام وستال ليرسم السفينة والخليج. نظر الربّان إلى رسمه عبر كتفيه دون أن يتوقف عن المضغ، وقال:

– لكن المرء لا يرى أن السفينة ترسو بمرساتين. أود أن أرى السلسلتين في الرسم!

هكذا كان ماثيو. كان يريد أن يرى شيئاً من العمل الذي ينجزه المرء.

عندما بدؤوا جولتهم في المكان، سمعوا فجأة تصفيقاً شديداً. غير أن ذلك لم يكن سوى بجعتين سوداوين انطلقتا في الطيران من إحدى البرك. وعلى مدى البصر لم يروا في أي مكان سرطانات بحرية متسلقة.

ثم صادفهم أول شخص من السكان الأصليين، رجل مسن. اقترب منهم بخطوات مهزوزة، لكن لم يبدُ عليه أنه يمنح البِيض أدنى اهتمام، بل خاض حديثاً صاخباً مع أصدقاء غير مرئيين في الغابة. عندما أطلق مستر ثيستل الرصاص على طائر، لم يصب المسن بأي ذعر. لقد تعجب برهة فحسب، ثم واصل حديثه. بعد فترة اقترب عشرة رجال سُمر، وفي أياديهم عصي طويلة، وعراة مثل المسن. أمر ماثيو رجاله بأن يتوقفوا، وقدم لأهالي أستراليس منديلاً أبيض والطائر الذي اصطادوه هدية. ولكن ربما لم يكن لهذا النوع من الطيور تحديداً معنى جيد. علت سمات الرفض وجوه الرجال، ثم أصدروا بأذرعهم إشارات دفعت الرجال إلى العودة إلى سفينتهم. لم يقبلوا المنديل أيضاً. وعندما رأوا السفينة راسية، أشاروا إليها مرة تلو الأخرى، وتحدثوا بنبرة آمرة. لم يكن ثمة مجال لسوء الفهم. «يقصدون: ارجعوا من حيث أتيتم!»، قال مستر ثيستل مرجحاً. ظن ماثيو أنهم قد يريدون مشاهدة السفينة فحسب، فأصدر إشارات داعية. فأشار الرجال السُمر بأن عليه أن يأتي بالسفينة إليهم. كان الوضع صعباً بعض الشيء مع البدائيين. لو كان مبشّر هنا، لرفع الصليب وصلى، ولكان ذلك ربما أفضل من منديل وطائر ميت من الصنف الخطأ. لم يروا نساء. لا بد أنهن بقين مختبئات. فكر جون في مستر ديكسون من سفينة «إليغود». لا أحد يستطيع معرفة كيف كان سلوكه هنا. سدد الرجال الأستراليون نظرة جادة من عيونهم المتورمة مثل سادة الدار الذين يأتي إليهم زوار مثيرون

للريبة، ثم يبدأون في التعريف بأنفسهم. كان شعر لحاهم ورؤوسهم مُستَنفَراً، قد يكون ذلك إشارة لشكوكهم، تماماً مثل القط تريم.

بعد تمحيص دقيق قال أولوف كيركيبي لأخيه التوأم:

– يبدو الناس هنا متشابهين تماماً!

في البداية كان حديث الأستراليين فيما بينهم قليلاً، ثم تزايد، وفي الختام بدأ بعضهم في الضحك. وسرعان ما فعل ذلك الجميع إلا واحداً، ثم انهمكوا في الحديث والضحك. رأى ماثيو أنهم بدؤوا يكتسبون ثقة الآن. أما مستر ثيستل فرجح أن سلوكهم الحالي هو الطبيعي الذي توارى فترة قصيرة فحسب بسبب ظهور البِيض، وانقلب إلى دهشة خائفة. وقال شيرارد:

– إنهم يضحكون؛ لأننا نرتدي ملابس.

كان جون أطولهم في إمعان النظر قبل أن ينطق بشيء. جاءت إجابته بعد أن حسب الجميع أن السؤال لم يعد في حاجة إلى إجابة، وكانت إجابته بطيئة كالمعتاد، حتى إن ماثيو وشيرارد فقط هما مَن أصغيا إليه:

– إنهم يعرفون الآن أننا لا نفهم لغتهم. لهذا يتحدثون عمداً كلاماً فارغاً ويضحكون على ذلك.

اندهش ماثيو، ثم ضرب فخذه صائحاً:

– صحيح!

ثم كرر كل شيء على نحو أسرع للآخرين. سدد الجميع الآن نظرات متفحصة للغاية: صحيح! عندئذ نظروا إلى جون. كسر شيرارد الصمت قائلاً:

– جون ذكي. أنا أعرفه منذ عشر سنوات!

في تلك الأثناء كان مستر وستال قد انتهى من معاينة الخليج. كل شيء صحيح، كل تل، وكل شجرة، السفينة أيضاً، وحبال تثبيتها، وكذلك الطريق إلى عرض البحر. لكنهم رأوا في الأمام شجرة عتيقة ضخمة لم يكن لها وجود في مكان آخر. أحاطت أغصانها بكل شيء مثل إطار، وفي فيئها اتكأ ثنائي حسن القوام من السكان الأصليين، وقد نظر كلاهما بإعجاب إلى السفينة. قال مستر وستال:

- سأرسم الفتاة على نحو أدق عندما نرى نساء أول مرة.

شعر جون بشكوك تتصاعد داخله، لكنه لم يعرف بعد كيف يحدد كنهها. ثمة شيء ما مختلف عن المعتاد لدى طاقم السفينة. ما الذي تغير فيهم عبر حضور السكان الأصليين؟ أخذ جون يتأمل الإنكليز الآن بالحدة نفسها التي راقب بها الأستراليين من قبل.

بقي الأخوان كيركيبي هادئين. ظلا يحملقان في البدائيين ملتزمين الصمت. لكن آخرين كانوا يقتربون منهم اقتراباً شديداً، مصدرين الإشارات من أياديهم، وبسرعة شديدة. ربما أرادوا أن يهدئوا من روعهم، وربما أن يظهروا فحسب قدرتهم على فعل شيء خلال هذا الموقف. لكن ذلك لا يغير شيئاً من تطفلهم. لقد أرادوا أن يفاجئوهم ويتركوا لديهم انطباعاً بالدهشة، مثلما فعل الجميع مع جون قبل أن يعرفوه جيداً. كان بعضهم يسلك سلوكاً مستفزاً عندما يقربون رؤوسهم من بعضهم بعضاً ثم يضحكون على البدائيين. بهدوء مُهدِّد قال ماثيو:

- مزيد من الاحترام يا سادتي! لا نكات بعد الآن، ولا حتى نكات جيدة يا مستر تايلورا

فجأة أدرك جون السبب: لقد ظنوا جميعاً أن البدائيين لا يقدرون

الواقفين أمامهم حق قدرهم، ولذا شعر البِيض بأنهم لم يُقابلوا بالاحترام الكافي. كانوا ينتظرون أن يُصحح هذا الخطأ.

عندما ركب الإنكليز قواربهم مرة أخرى، كان جون مشغولاً بنفسه إلى درجة أنه لم يعد يستطيع ملاحظة كل شيء بدقة. عندئذ سمع صوت ماثيو يقول بحدة:

- لن أنتظر طويلاً بعد الآن يا مستر لاسي!

كان الأمر يتعلق ببندقية أراد دنيس أن يطلق منها رصاصة بدافع من الطيش لا غير.

لفت نظر جون أن ماثيو يتحرك على نحو أهدأ من المعتاد، وأبطأ من أي أحد آخر في المرسى. لدى الأستراليين أيضاً كان ثمة رجل يسلك سلوكاً شبيهاً. كان يجلس مطمئناً، يضحك قليلاً، ويلاحظ كل شيء، مقلتاه كانتا في حركة دائمة.

في تلك اللحظة أُطلقت رصاصة. خيّم الصمت على الرجال السُمر. لم يُصب أحد. أحد جنود البحرية ضغط على زناد سلاحه.

لكن لماذا يحدث هذا لدى الوداع تحديداً؟ ولماذا يحدث لرجل تلقى تدريباً ممتازاً على السلاح؟

بعد أيام قليلة قابلوا في منطقة ساحلية أخرى قبيلة بأكملها، أي نساء وأطفالاً أيضاً، غير أنهم سرعان ما اختفوا في مكان آمن. استطاع جون التفرقة جيداً بين أفراد الأستراليين؛ لأنه كان يطيل النظر إليهم. ولا حتى د. براون كان يستطيع ذلك مثله، رغم أنه عالم ويقوم بدراسة البدائيين من قمة الرأس حتى أخمص القدمين. دوّن في أحد دفاتره: «مضيق الملك جورج وما يحيط به. أ: الرجال. متوسط البيانات من عشرين نموذجاً. الطول:

خمسة أقدام وسبع بوصات. الفخذ: قدم وخمس بوصات. الساق: قدم وأربع بوصات».

سأله شيرارد:

- وماذا نفعل بذلك؟ هل سيحصلون على ملابس؟

أجاب العالم:

- لا، هذه هي الإثنولوجيا.

كان على جون تسجيل أسماء أجزاء الجسد التي تم قياسها: كات: الرأس، كوبول: البطن، مات: الساق، وَاليكا: المقعدة، بيب: حلمة الثدي. كانت مقايضة: مسامير وخواتم مقابل قياسات وأوزان ومفردات.

عندما عرف ماثيو الكلمات المستخدمة لـ «ذراع» و«نار»، وبذا الاسم الأسترالي للبندقية، أمرهم بقرع الطبول على الساحل، حتى يثير فضول البِيض والبدائيين فيتجمعوا. رفع بندقية عالياً في الهواء وصاح بالأسترالية عدة مرات: «ذراع النار». ثم أطلق النار على دلو صغير مملوء بالمياه، كان قد أمر بوضعه على أحد الأحجار، وأصاب في الصميم، فاجتاحت الرصاصة المياه. أمرهم بوضع رصاص في البندقية، ووضع الدلو فوق ساحة قديمة. كان على جون أن يطلق النار الآن. لم يدرك جون فوراً المطلوب، وكان السبب هو أنه تبنى رأياً آخر، ولم يكن يريد أن يطلق الرصاص. أول مرة منذ فترة طويلة كان أبطأ من المعتاد، لكن لا مفر، لم يكن بمقدوره معارضة ماثيو.

كان الدلو من الصفيح يُصدر ضجيجاً عالياً، وجون كان الأبطأ. أراد ماثيو أن يظهر للبدائيين أن -حتى- إنكليزياً بطيئاً بإمكانه أن يحدث تغييرات فجائية باستخدام ذراع النار. يد جون هادئة، وهو يعرف كيف

يصوب. أصاب الصفيح. لم يحصل على تصفيق؛ إذ إن ماثيو منعه. كان يجب أن يظهر الأمر كأنه عادي ومألوف. النتيجة كانت غريبة. ضحك الأستراليون، ربما استغراباً. فهم لم يستخدموا قط كلمة «ذراع النار»، كانوا يستخدمون اسماً آخر للبندقية. كانوا قد شاهدوا من قبل سقوط الطيور والدلاء عندما تُصاب. قد لا يعرفون بعد أن هذا ما يحدث للناس أيضاً. على كل حال قد أصبح البِيض الآن يظنون أن البدائيين يعترفون بتفوقهم، وبهذا زاد احترامهم لربّانهم مرة أخرى.

كان لدى جون وقت الآن؛ لذا جلس طويلاً في قمة شجرة، وراح يراقب الإنكليز والسكان الأصليين. لاحظ أن الأستراليين هم أيضاً يمارسون علم الإثنولوجيا. في كل مرة يأتي قارب من سفينة «إنفستيغاتور»، كانوا يحدقون ويتحسسون كافة البِيض حليقي الذقون حتى يؤكدون لبعضهم بعضاً: أن النماذج الوافدة حديثاً لا تنتمي إلى جنس النساء.

في أثناء الرحلة الساحلية كلها كان جون يحب الجلوس على قمة الصاري الأمامي، كان بإمكانه رؤية الشعاب في الوقت المناسب، وأن يسمع ما يحدث، لأنه لم يكن يفعل أو يفكر في شيئين في آن واحد قط. مر بعض الوقت إلى أن صاح بأنه يرى الأمواج تصطدم بصخور، لكن الأمر لم يكن عموماً يتعلق بثوانٍ. المهم هو ألا يطلق أحد لأفكاره العنان سأماً، ناهيك عن أن يغرق في أحلامه. قال ماثيو:

– تبدو المياه مسطحة على نحو ملعون. اجعلهم يقيسون الأعماق يا مستر فاولر، وأرسل فرانكلين إلى قمة الصاري الأمامي، ولا أحد غيره!

جون نفسه لاحظ مدى إجادته الملاحظة في برج المراقبة. راضياً أخذ مكانه هناك. قال لنفسه: سأصبح ربّاناً لا تغرق سفينته أبداً. معي سيطفو

الطاقم كله، سواء كان يتكون من سبعين رجلاً أم من سبعمئة رجل. ألوان المياه، خلفية الخط الساحلي، الخط المستقيم الأبدي في الأفق، لم يكن يشبع من النظر إلى ذلك كله. أمام عينيه يرى الخرائط البحرية، التي كانت في منطقة تيرا أستراليس لا تكاد تُظهر سوى خطوط منقطة أو مساحات بدون أسماء مطلقاً، أو بها الكلمات «المسار الساحلي المُفترَض». أضاف خيال جون: مدينة لاحقة مُفترضة، ميناء مفترض. كل جبل يراه سيحمل في المستقبل اسماً، وستحيط به الشوارع. بلا كلل راح جون ينظر باحثاً عما أسماه ماثيو الخليج الحاسم، وهو الخليج الذي قد ينفتح على ممر واسع وسط تيرا أستراليس. أراد أن يكون هو، جون فرانكلين، أول من يرى الممر، حتى لو قضى من أجل ذلك أسبوعين أو ثلاثة أسابيع بلا استراحة فوق الصاري الأمامي. وهذا أيضاً ما قاله لماثيو.

للربان السلطة في تسمية كل شيء. سيعطي كل جزيرة، وكل رأس بارز في المياه، وكل مدخل إلى الساحل أحد الأسماء القديمة المحبوبة من لينكولنشاير: جزيرة سيلسبي، رأس جونينغتون، ويوماً ما سيكون هناك مرفأ فرانكلين في خليج سبنسر. فوراً تخيل جون وشيرارد مدينة «فرانكلين»، ستنمو هناك وتكبر. راح شيرارد يرسم مخططاً أفقياً، وكان يعرف ما الذي سيجعل المدينة ثرية: تربية المواشي والخرفان، والمسالخ، ومغازل الصوف. ستسافر سفينة شيرارد الخاصة مرة كل نصف عام إلى القطب الجنوبي، وستحضر من هناك ثلجاً لثلاجة آل لوند. «سأجمد اللحم، وعندما تجتاحنا مجاعة، سأخرج اللحم من الثلاجات». أكثر حكاية كان شيرارد يحبها هي معجزة إشباع خمسة آلاف إنسان(*)، واعتاد

(*) إشارة إلى ما ورد في الأناجيل (مثلًا في إنجيل يوحنا 6: 4 – 13) عن معجزة قام بها السيد المسيح عندما أطعم خمسة آلاف إنسان بخمسة أرغفة وسمكتين.

أن يزود الحكاية بتفاصيل تقنية. وافقه جون. هو أيضاً كان يفكر في «الزولتسه» المُعدّة من رأس الخنزير. العالم كله من الممكن أن يصبح جميلاً، مثل الحياة على متن السفينة، على كل منا فقط أن يفعل شيئاً يستفيد منه الآخرون.

أضاف شيرارد مؤكداً:

– لكن، لا بد أن يكون المرء غنياً. مَن لا يتمتع بالثراء، لا يستطيع المساعدة. سأجعل والديّ يحضران إلى هنا، وسيتعلمان القراءة، وسيقضيان اليوم كله في التنزه!

جلس جون على الصاري الأمامي، وراح يمر بيده على فرو القط تريم الذي تمدد في وضع خطير على يده، ولم يعد يُذكّر إلا قليلاً بالحيوان المفترس الذي ينتزع بمخلبه قطعة اللحم المحمر. الملاح الحقيقي لا ينفصل فترة طويلة عن زميله الملاح. أضحى جون يعتقد بقوة مع بقية البحارة، بأن تريم يمتلك عقلية بحرية، وكان هو الذي نشر الخبر بأن القط يستطيع فك عقدة الحبال، بل حتى طي الشراع. بالإضافة إلى ذلك فهو يرى دائماً ما خلف خط الأفق بمسافة نصف ميل بحري على الأقل. وقد يصدق المرء ذلك إذا راقبه بدقة. بدائرتي حدقتيه المتفحصتين بدا أنه يرى أكثر بكثير من عيني ماثيو اللتين تشبهان عيني الكلب الدانماركي الضخم، ومن نظرة جون التي تشبه نظرة طائر، ومن جهاز النظر الدقيق المعقد الذي يحمله موكريدج. عندما ينظر تريم باهتمام في اتجاه ما، فلا بد أن هناك شيئاً. وهذا ما حدث في تلك اللحظة.

كان تريم ينظر إلى بعيد، كأن البحر يبوح بأسراره هناك، والدوامة الكبيرة تظهر في الأفق. تتبع جون النظرة، لكنه لم ير شيئاً. ما لاحظه كان

يولد انطباعاً هادئاً منتظماً. كادت الصورة تكون سيميترية بشكل فائق: قوس السفينة تحته، والساحل خلفه، وإلى اليمين يمتد بحر هادئ تعلوه سلسلة من السحب الرقيقة البعيدة. لكن لا، ثمة شيء هناك! شيء مرتفع أبيض في قلب البحر، قد يبعد اثني عشر ميلاً بحرياً، بالمنظار رأى القمة تواً، قد تكون صخرة. نادى جون على البحارة صائحاً: «أرى جبلاً جليدياً أبيضاً». طيلة ربع ساعة ظل يستكشف الأفق دون أن يتحرك. لماذا يقترب التكوين بهذه السرعة، رغم أن المركب يسير بسرعة ثلاث عقدات؟ «سفينة!»، صاح جون وراح يحدق في منظاره فاغراً فاه. في لمح البصر ازدحم سطح السفينة تحته بالبحارة. سفينة؟ هنا؟ صعد ماثيو وتأكد بنفسه. نعم، إنها سفينة، سفينة شراعية. الشراع العلوي والشراع الملكي يظهران جيداً، ليس هذا قارباً محلياً بكل تأكيد. صرخ ماثيو مزيحاً المنظار جانباً: «أعدوا السفينة للقتال!». سادت على سطح السفينة في كل أنحائها حركة متوترة قلقة، وبُذل جهد هائل لنقل المدافع الملعونة التي كان عليهم أن يرفعوها إلى أماكنها، وأن يخلصوها من الصدأ بمكشطة حديدية. من أعلى بدا كأن حديد التجليخ الأملس المستدير سيتحطم من كثرة الحك إلى آلاف الشظايا. أنّت الرافعات، وصلصل الحديد، وضجت عجلات المدافع. لن يمر وقت طويل وستتناثر شظايا حقيقية. كان هذا بالتأكيد ما رآه جون في الحلم عندما بدأ الرحلة. ها قد أتى الموت، وحقق حلمه. شارد اللب راح جون يحدق في نقطة في الأفق: بنقطة واحدة بدأت الفاجعة. كان تريم قد هبط إلى أسفل منذ فترة، وانزوى في كابينة ماثيو التي كانت تعتبر مكاناً آمناً للقطط.

توالت ضربات الطبل كالمطارق. من ثقل المسؤولية احمر وجه مستر كولبيتس، فأخذ يزأر بما يستطيع. لديه بالكاد ساعتان، إذا ظلت الريح على

حالها. سمع جون الموسيقى المعروفة تنبعث في خفوت: إطفاء نيران الموقد، رش الرمل، نقل الذخيرة. لقد آن الأوان مرة أخرى.

بعد ساعة كان قد عرف أكثر. للسفينة الغريبة شراعان تحت الصاري المائل في قوس السفينة، كان جون يعرفهما جيداً من الحكايات: مثل هذه الأشرعة الأمامية المثلثة لا توجد إلا على متن السفن الحربية الفرنسية. ولم يمر وقت طويل حتى رأى العلم الفرنسي يُرفع. على سفينة «إنفستيغاتور» رَفعَ تايلور العلم البريطاني. تركوا أكبر الأشرعة تنتفخ بالهواء، وأضحت مثل الأكياس، حتى لا يستهدفها الفرنسيون بطلقاتهم؛ إذ كان معروفاً أن الفرنسيين يصوبون على الصواري الثابتة. أشعلت الفتائل. بجانبِ البحار الذي يدير الدفة، كان البديل واقفاً. قال جون لنفسه: لكن لدينا جواز مرور. حاول أن يتخيل أفكار ماثيو. فكر أنهم لن يسألوا عن جواز المرور، وسيدمرون اكتشافاتنا، وذلك بإغراقنا. سيطلقون على البلد اسم ثورتهم، ولن يكون هناك ميناء فرانكلين! صعد إليه بحار ليحل محله، فأوسع له جون مكاناً وهبط. أخذ ماثيو يشعل الحماسة في نفوس فريقه: «لن نسمح لهم بشيء! وإذا حاولوا، فسنلقنهم درساً!». بالطبع كان من الواضح إلى درجة كبيرة أن السفينة المعادية أقوى تسليحاً من سفينتهم. بالإضافة إلى ذلك، ليس المرء في حاجة إلى إطلاق النار على «إنفستيغاتور»؛ ففي كل ساعة تتسرب إليها ثماني بوصات من المياه.

أدرك جون في تلك اللحظة ما شعر به في كوبنهاغن: بالخوف والرعب! لا يريد هذه المرة أن يسيطر عليه الخوف، رغم أنه أحس بميل قوي إلى ذلك. كان يريد بعد مراقبة دقيقة وتفكير منطقي أن يفعل أكثر الأشياء عقلانية. ما زالت هناك نصف ساعة على أقصى تقدير. يتم توزيع

الروم الآن. لقد أعدوا كل شيء لمواجهة الكارثة. أما إذا كانوا سينجحون في تجاوزها، فهذا سؤال آخر.

وفجأة أرهف جون السمع. لقد سمع أمراً بكل وضوح. ليس من الواضح من أين أتى، لكنه بدا له أمراً جيداً. تصرف جون بأسرع ما يمكن.

كان شيرارد يقف عند أحد مدافع الميسرة، ناظراً بإعجاب إلى السفينة الفرنسية المقتربة. على الأقل ثلاثون مدفعاً على ظهر هذا الوحش. التفت إلى جون، لكنه كان قد اختفى. لا، ها هو يأتي من الخلف بخطوات خافتة، حاملاً في يمناه راية بيضاء مطوية. احتار شيرارد. ضابط الصف المسؤول عن الإشارة هو تايلور. صاح أحدهم:

– إيه، مستر فرانكلين، اللعنة ماذا...!

لكن جون لم يستدر، وتجاهل ما قيل. بتؤدة ثبت الراية، ورفعها بيده حتى ذروة الدقل. في اللحظة نفسها سُمعت فرقعة: تلقت «إنفستيغاتور» طلقة أمام قوس السفينة. على السفينة الأخرى كانت المدافع جاهزة منذ وقت طويل، بدا الأمر مخيفاً. وسط الضجيج سمع شيرارد الملازم الثاني يقول شيئاً ما بملامح باردة في وجه جون فرانكلين. حضر تايلور، وأسرع؛ لكي يُنزل الراية البيضاء مرة أخرى. لكنه واجه صعوبات. العُقد التي عقدها جون فرانكلين لا يستطيع أحد مثل تايلور أن يفكها. من السطح الخلفي للسفينة سمعوا صوت ماثيو:

– دع القماشة هناك يا مستر تايلور. لماذا أُعطي أوامر إذن؟

عندئذ صاح أحد البحارة في المقدمة:

– انظروا!

على دقل السفينة الحربية الفرنسية كان علم إنكليزي يرفرف إلى جانب العلم الفرنسي.

برهة ساد سكون هائل. شيء ما كان غير واضح بالنسبة إلى شيرارد. لماذا فعل ذلك جون وليس تايلور، ولماذا جاء تايلور عندئذ بـ... لكنه لم يستطع مواصلة أفكاره. لقد اندلع في كل أرجاء السفينة تهليلُ مَن يشعر بالارتياح.

كانت «لو جيوغراف» سفينة استكشافية، مزودة بجواز مرور إنكليزي. أبطأت كلتا السفينتين من سرعتهما، لم يعد هناك أي شك في نواياهما السلمية.

صاح الفرنسيون: Fraternité.(*)

زأر موكريدج تجاه السفينة:

- جميل أن نلتقي!

بدأ أحدهم في الدندنة بأغنية، ولكن بنغمات خاطئة تماماً، تبع ذلك غناء مدوٍ بنغمات مدهشة في دقتها. لم يعدم الفرنسيون أغانيَ يشدون بها أيضاً. واجه الضباط على كلتا السفينتين صعوبات كبيرة في فهم حتى من يقف بالقرب منهم. على سطح السفينة الخلفي ظهر تريم، ونظر إلى المشهد متفحصاً، ثم رفع ساقه الخلفية عالياً، وشرع ينظف نفسه. أمر ماثيو بتهيئة قارب. «القبطان يغادر السفينة أيها السادة!». أسرع البحارة المتدربون إلى السلاسل، ورفعوا القبعات. أطلق الملّاح صفيراً للترحيب بالربان. جرت الطقوس مثلما تدربوا عليها في الوطن في سبيتهِد، وربما كان ذلك جيداً في موقف لا يعرف المرء فيه بدقة إلى متى سيدوم السلام.

(*) أي: أخوّة.

ما زالت «إنفستيغاتور» مستعدة للقتال، وتواجه السفينة الأخرى من الناحية التي تصطف عليها المدافع. لكن قد يكون ذلك حدث لتهدئة المشرف على المدافع فحسب.

«ماذا حدث من قبل؟»، سأل شيرارد صديقه، ولكن بدا أن الأخير نفسه لم يكن يعرف. وقال موكريدج باقتضاب:

- مستر فرانكلين حاد البصر، وهو يرى بعض الأوامر دون أن يسمعها رغم الجدران السميكة.

ظلت السفينتان متجاورتين ليلة ونصف نهار، وتبادل القبطانان حديثاً مستفيضاً، ثم لوح طاقما البحارة لبعضهما بعضاً. الحرب في أوروبا، السلام جنوبي تيرا أستراليس! أول مرة منذ بدء التاريخ تتقابل في هذه المنطقة سفينتان أوروبيتان من قوميتين مختلفتين، دون أن تصيب الواحدة الأخرى بضرر. قال مستر وستال:

- هذا شيء يُشرّف الإنسانية.

صمتَ جون، لكن شيرارد كان لديه انطباع بأنه واثق من نفسه، ومرح كما لم يكن من قبل. ليس هذا فحسب، لقد بدا أنه يفهم ما يُقال على نحو أسرع. لا بد أن جون له حليف كبير ذو نفوذ واسع، لا سيما: ماثيو. وهو صديقي أيضاً، قال شيرارد لنفسه.

في تلك الأثناء كان تريم يرقد على قماش مشمع، فقال مستر كولبيتس متذمراً:

- في البداية ننقل المدافع بكل عناء، ثم نحمل الفتيل المشتعل فترة أبدية في اليد، وفي النهاية كان كل شيء هباء!

الفصل الثامن

رحلة العودة الطويلة

في قمرة قبطان سفينة «إرل كامدن» الهندية الشرقية، وقف الملازم فاولر من البحرية الملكية والقبطان دانس من شركة الهند الشرقية. قال دانس:

- لا بد أن تحكي لي الكثير يا مستر فاولر. ولكن عليك في البداية أن تعود إلى إنكلترا. مَن بقي معك من السفينة العتيقة «إنفستيغاتور»؟

- على ظهر «إرل كامدن» سيأتي الرسام وليام وستال...

- أعرف أخاه الأكبر. يرسم صوراً جيدة من الكتاب المقدس، أعرف منها واحدة بعنوان «عيسو يطلب بركة إسحق». جيد، ومَن غيره؟

- جون فرانكلين، صف ضابط تحت التدريب، ثماني عشرة سنة، وأكثر من ثلاث سنوات قضاها في عرض البحر.

- بحّار جيد؟

- لا شكاوى، سير. لكن الانطباع الأول الذي يخلّفه...

- ماذا؟

- هو ليس بالشخص السريع جداً.

- سلحفاة إذن، أم حلزون؟

- ربما. لكن من نوع خاص. لا شكاوى. من دونه ما كنا نجونا، ربما.

- من أي شيء؟

- عندما تقرر تفكيك «إنفستيغاتور» وتكسيرها أخيراً، واصلنا إبحارنا من سيدني بالسفيتين «بوربس» و«كاتو»، لكننا اصطدمنا بعد أسبوعين بشعاب. أنقذنا أنفسنا بقارب وحيد وببعض المؤن على شريط رملي نحيل في المياه الضحلة. كانت اليابسة تبعد عنا أكثر من مئتي ميل بحري.

- شيء مؤسف جداً!

- عندما أبحر القبطان بالمركب إلى سيدني حتى يأتي لنا بالمساعدة، بدأ بعض البحارة يفقدون الأمل. كان الشريط الرملي يبرز من المياه عدة أقدام فحسب. المؤن كانت شحيحة. لم يتوقع أحد أن يصل القبطان إلى هناك. انتظرنا ثلاثة وخمسين يوماً!

- وفرانكلين؟

- لم يفقد الأمل. على الأرجح لا يستطيع ذلك على الإطلاق. كأنه كان يستعد لقضاء سنوات هناك. انتخبناه عضواً في المجلس الاستشاري للشريط الرملي.

- المجلس ماذا؟

- البحارة كانوا على وشك التمرد. لكن فرانكلين أقنع اليائسين أن لدينا وقتاً، وأن التمرد البطيء هو دائماً خير من التمرد السريع. المجلس الاستشاري للشريط الرملي كان بمثابة حكومة للجميع.

- هذا شيء فرنسي جداً. لكنه يصلح ربما لشريط الرمال. وماذا كان الإنجاز البارز لفرانكلين هذا؟

- لقد شرع منذ أول دقيقة في تشييد ما يشبه السقالة ليضع فوقها المؤن. وعندما انتهينا بعد ثلاثة أيام، هبت عاصفة وأغرقت الجزيرة، لكن السقالة بقيت. ولأن فرانكلين بطيء جداً، فإنه لا يفقد وقتاً أبداً.

- حسن! سأتحدث معه. وأنت يا مستر فاولر؟ هل تستطيع أن تتولى تدريب البحارة على إطلاق النار؟ لقد ولى عهد السلام. علينا أن نعد العدة لصد هجوم الفرنسيين.

- تعد نفسك لدخول معركة، سير؟

- ممكن. سرب السفن التابع لي سيتكون من ست عشرة سفينة، وليست بينها واحدة غير مسلحة. إذن؟

شكلياً لم يكن فاولر سوى مسافر. لكنه رحب بالفرصة لكي يلحق الضرر بنابليون بونابرت. ووافق.

لن تبحر «إرل كامدن» إلا في غضون عدة أيام؛ لذا جلس جون فرانكلين بلا عمل على أحد أسوار ميناء وامبوا بجانب الرسام وليام وستال، وراح يراقب ما يتم شحنه. ليس مسموحاً للسفن ذات الغاطس الذي يزيد عن ثمانية أقدام بالسير على صفحة النهر، مع التيار، وصولاً إلى كانتون. كانت تنتظر هنا في وامبوا تفريغ شحنتها: نحاس، وشاي، وجوزة الطيب، وقرفة، وقطن، وأشياء أخرى. تواً قَبِلَ ضابط الميناء أن يأخذ حفنة من أحد أكياس التوابل. سمع جون أن الأفيون يصل إلى هنا أيضاً، آلاف كثيرة من الصناديق في العام. من يدخن الأفيون، يرى صوراً ملونة، ولا يفكر في الإقلاع أبداً. أما ذلك الكيس فلم يكن فيه سوى أغار، وهو طحلب بحري مضغوط على شكل مستطيل، يحتاج المرء إليه لتحويل السائل الموجود في رؤوس الخنازير الإنكليزية إلى «زولتسه».

عرف جون الآن أيضاً ماذا يعني الحنين إلى الوطن.

في دفء الربيع كانت تفوح من السور الذي جلسا عليه الرائحة نفسها، التي كانت تفوح من شواهد قبور سانت جيمس في سبيلسبي.

بتجعيدة حادة على جبهته دمدم وستال قائلاً:

- لقد رسمت صوراً زائفة. لا يمكن الاستمرار في هذا! عليّ أن أرسم على نحو مختلف تماماً! كل ما كنت أفعله هو الوصف بدقة إحصائية: تكوينات أرضية، ونمو النباتات، وأشكال البشر. مقلداً الطبيعة بدقة؛ أي يمكن التعرف إليها مرة أخرى.

- لكن هذا جيد.

- كلا، إنه مخادع. إننا لا نرى العالم مثل عالم نباتات، هو في الوقت ذاته معماري وطبيب وجيولوجي وقبطان. المعرفة لا تحدث مثلما تحدث الرؤية، حتى إنهما لا يتوافقان، وهي في المعتاد طريقة سيئة جداً لمعرفة ما هو موجود. ليس على الرسام أن يعرف، بل أن يرى.

بعد تفكير متمعن سأله جون:

- ولكن ماذا عليه إذن أن يرسم؟

- الانطباع! الغريب، أو على الأقل الغريب في المألوف.

كان جون فرانكلين -الذي ينظر دائماً بود وببعض الدهشة- مستمعاً مثالياً بالنسبة إلى المفكرين الصارمين. ولذا كان يسمع أحياناً جملاً لا يريد غيره أن يسمعها. كان يظل أيضاً على فضوله عندما لا يفهم شيئاً. الأفكار الغريبة تملؤه بالاحترام. بالطبع أصبح حذراً؛ إذ قد تنشط الأفكار بعيداً. الملّاح دوغلاس أعلن قبل موته بقليل: أن كل المتوازيات تندمج معاً في نقطة اللانهاية مكوّنة زاوية قائمة. ادعى ذلك بفم يخلو تماماً من الأسنان،

ثم مات بعدئذٍ: إسقربوط. تذكر جون أيضاً بارنبي، وكيف كان يتحدث عن المساواة، مبتسماً، وبعينين مفتوحتين على اتساعهما، وكثيراً ما كان خلال ذلك مشوش الذهن تماماً. الحذر لا يمكن أن يضر.

- من الآن فصاعداً سأوجه كل الأسئلة الممكن طرحها. من يمتنع عن توجيه أسئلة، سيجيء عليه اليوم الذي لن يفعل فيه شيئاً صائباً، بغض النظر تماماً عن الرسم!

قال وستال ذلك ثم بدأ فوراً بطرح سؤال:

- إننا، على سبيل المثال، نعتقد أننا نعرف ما هو الثابت في العالم، وما هو المتغير. لكننا لا نعرف شيئاً! في أحسن حالاتنا: إننا نحدس بذلك فحسب. والصور الجيدة تتسم بهذا الحدس.

أومأ جون، وأرسل النظر إلى المدينة البحرية العملاقة بقوارب الجنك الشراعية(*) وبناياتها العالية. أنصت إلى صوته الداخلي؛ ليعرف ما إذا كان قد فهم الجملة. أمام عينيه يتحرك آلاف الناس الذين يمارسون التجارة، سواء كانوا جوعى أم أغنياء. كل ما رآه جون كان في خدمة التجارة: أشرعة من الحصير، ومظلات تقي من حرارة الشمس، وأسوار ذات نتوءات بارزة مسوّدة، وقوارب محملة بالبضائع تشبه الأطواف، والعصي الطويلة التي تُستخدم للاقتراب من السفن الكبيرة. طيلة أيام وهو يتفرج على عمليات البيع والشراء: حصائر من العشب مقابل عملات نحاسية، وحرير مقابل ذهب، وخشب مطلي أو أشياء رقيقة من الزجاج. لكن المرء لم يكن يرى الأشياء الجوهرية على نحو مباشر. إنها موجودة على الدوام، لكن المرء لا يحدس بها مثل الرسام، بل كان يستنبط وجودها عبر التفكير المنطقي:

(*) تصميم صيني قديم للسفن الشراعية لا يزال مستخدماً حتى اليوم.

بلا صبر، لم تكن التجارة تجارة. بلا صبر لن يكون التجار سوى لصوص، الصبر مثل الميزان في الساعة.

- أريد على كل حال أن أعرف ما هو ثابت.

قالها جون لوستال الذي لم يكن ينتظر إجابة، وكان سيواصل كلامه. شعر جون بالقرابة مع ما هو ثابت، لكن من الصعب الإحاطة به.

لقد أصبح يعرف أماكن مختلفة كثيرة، لكنه لم يشعر في هذه الكثرة بقدر أكبر من الأمان. لا سيما وأن السؤال دائماً هو: لماذا ظل الثابت ثابتاً؟ لماذا للنعام ريش رغم أنه لا يطير؟ لماذا تحمل السلحفاة البحرية درعاً ثقيلاً على ظهرها، لكن كل أنواع الأسماك الأخرى لا؟ لماذا لا تنمو للأحصنة قرون، لكنها تنمو للظبيان؟

قال وستال بنبرة إصرار:

- ليس هناك أمان!

يكاد اختلاف الأعراق البشرية يسبب قلقاً أكبر، لا سيما وأن التناقضات تتصادم داخل كل فرد. يتكئ الأستراليون على عصي وينظرون نظرات ممتدة. لكنهم يستطيعون بسرعة البرق إخراج السمك من الغدير، باليد فحسب. بكل يسر يقف الصينيون مستقيمو القامة، فتبدو عليهم سمات الكبرياء. لكن إذا بادرهم المرء بالحديث، فإنهم ينحنون مرة تلو الأخرى. الفرنسيون احتفاليون ومتحمسون ويودون تغيير كل شيء. لكنهم ينفقون أوقاتاً لا تنتهي في إعداد الطعام وتناوله. يحتقرون المطبخ الإنكليزي، حتى إذا كانوا على وشك الموت جوعاً، هذا ما رآه جون في سيدني. والبرتغاليون: إنهم يتوقعون دائماً حدوث الزلزال التالي، ويبنون بيوتهم وفق ذلك. لكنهم دائماً ما يشيدون كنائسهم بأبهة عظيمة في المكان نفسه

حيث انهارت. والإنكليز! إنهم يفيضون حباً تجاه بلدهم، لكنهم يحبون السفر إلى أبعد مكان عنه. أومأ وستال موافقاً.

– ليس بمقدور المرء أن يتنبأ بأي شيء. لا أحد يستطيع أن يفسر لماذا يحدث هذا أو ذاك على هذا النحو، وليس على نحو آخر. إن المصادفة والتناقض أقوى من كل التنبؤات.

كان جون معجباً بالرسام. لم يكن يكبره سوى بخمس سنوات، لكن كانت لديه القدرة على استقبال الأشياء، ثم التساؤل عما إذا كانت كذلك حقاً. بالنسبة إليه، إلى جون، لم يكن ذلك أمراً ممكناً. مَن يسأل كثيراً، عليه أن يفعل ذلك بسرعة. إلى ذلك، كان جون يعلم كل العلم أن المرء لا يستطيع دائماً أن يوافق على ما يسمعه من إجابات. أما الإجابات الغريبة فما كانت تثير سوى السخط.

كان يود أن يعرف المزيد عن المصادفة، لا سيما عن الموت بالمصادفة.

أمام عينيه رقد مرة أخرى دنيس لاسي الذي سقط من الشراع الكبير وسط السفينة، من ارتفاع يزيد عن خمسين قدماً. لماذا سقط الأسرع وليس الأبطأ؟ لماذا حدث ذلك في وقت كانوا قد اجتازوا فيه كل المحن، وهم في طريقهم إلى كانتون؟ رأى جون بدقة الصورة المرعبة مرة أخرى. التنوع الهائل في المدينة البحرية لم يستطع أن يغطي عليها. رأى بقعة الدماء التي رقد فيها دنيس بجمجمته المهشمة. من قماش القميص برزت شظايا من عظامه مثل شوك طويل، ما زال صدره يعلو ويهبط، ومن فمه وأنفه فاض زبد، ثم توقف القلب عن الخفقان. حتى يتجاوز هذه الصورة، فكر جون في ستانلي كيركبي في جزيرة الكانغرو، عندما عضه كلب بحر في مؤخرته، وكانت عضة مؤلمة إلى أقصى حد. هنا أيضاً: لماذا حدث ذلك، ولماذا لم يمر الأمر بسلام؟ أو الضابط المسؤول عن التموين والإمدادات الذي

سقط من القارب، فقرصه قنديل بحر على نحو يثير الشفقة. ظل الطفح الجلدي مرئياً طيلة أسابيع. مع أنه كان القنديل الوحيد على امتداد البصر. أو ثيستل، المشرف على الأشرعة، والمتدرب تايلور، اللذان التهمتهما أسماك القرش، لأن قاربهما انقلب وسط الأمواج عند الساحل، لماذا هما، لماذا لم يسقط مستر كولبيتس، على الأقل لن يكون الأمر مفاجأة؟ لكنه لم يهلك، على العكس! إنه الآن في سيدني، ويدير مخزن البضائع بأمر المحافظ، ويأكل كثيراً وبانتظام.

قال جون:

- على المرء أن يضع جداول عن كيف يعيش الناس، وكيف يموتون، إنها نوع من الهندسة الرياضية.

وهو يعرف أيضاً كيف. باستخدام معايير ثابتة لكل السرعات الممكنة. رغماً عنه وجد نفسه يفكر في «حامية الوقت» وفي ماثيو الذي كان الآن في طريقه إلى إنكلترا ومعه خرائط بحرية ثمينة، والبريد، والقط تريم. سيرى ماثيو مرة أخرى في سبيلسبي. أما شيرارد فقد بقي في تيرا أستراليس للاستيطان هناك، وقد يبني مرفأ. لا شيء كان بمقدوره أن يحول بينه وبين ذلك.

قضى موكريدج نحبه. عندما تحطمت «كاتو» على الجرف الصخري، غرق ثلاثة رجال، ثلاثة فقط، وكان لا بد أن يكون أحدهم موكريدج! يمكن للمرء أن يقبل اختلاف البشر، وأنه يحب بعضهم ولا يحب آخرين، لكن أن تفعل المصادفة ما يحلو لها، فهذا مرير. تماسك جون، وعاد إلى الحديث مع وستال:

- لا بد أن أواصل التفكير في موضوع الدقة والحدس. لا أستطيع رسم صور، يجب أن أصبح قبطاناً؛ لذا أُفضّل أن أعرف كل ما يمكن معرفته.

قال القبطان دانس:

- والآن، مستر فرانكلين، فلنتحدث عما تركته خلفك. أعطني تقريراً مختصراً من فضلك!

كان جون يتوقع ذلك. يريد دانس أن يكوّن صورة عنه. بلا شك يعرف كل شيء عن الرحلة من الملازم فاولر. كان جون مستعداً. لقد فكر فيما ينبغي أن يكون هدف التقرير المختصر.

لكل تقرير جانب خارجي متصل ببعضه بعضاً اتصالاً منطقياً، ويمكن فهمه بسهولة، وجانب باطني يبرق في رأس المتحدث فحسب. لا يمكن كبت هذا الجانب الباطني، وإلا كانت النتيجة تهتهة مزعجة وأخطاء عديدة في الصياغة. كان على جون إذن أن يمنحها وقتاً، دون أن يدفع بها إلى الظاهر. قبل شهور قليلة فحسب كان يميل إلى تكرار الكلمة الأخيرة طويلاً حباً في الصور الباطنية التي يراها. أدرك الآن: أن عليه أن يتوقف بين الجمل. بدم بارد كان يخاطر بأن يقاطعه الآخر، أو أن يشعر بالإهانة عندما يواصل جون كلامه رغم ذلك.

بدأ بجملة جيدة تدربَ عليها، تضمنت: اسم السفينة، واسم الربان، وعدد أفراد الطاقم، وعدد المدافع، وتوقيت مغادرة المرفأ في شيرنيس. وابتداء من تلك اللحظة: رؤوس أقلام، وبيانات، ومواقع، وكل شيء بقدر الإمكان في ترتيب متوازن. ما يتم ذكره بهذه الطريقة، يعتبر عموماً تقريراً جيداً. حتى لقاء «إنفستيغاتور» مع «جيوغراف» - القبطان نيكولا بودان، ستة وثلاثون مدفعاً -، تقبل دانس فترات الصمت بين الجمل بصبر، لكنه قال بعد ذلك:

- أسرع يا مستر فرانكلين! فيم تفكر؟ لقد كنت هناك!

هنا أيضاً كان جون مستعداً.

- عندما أحكي، سير، فإنني أحتاج إلى إيقاعي الخاص.

التفت دانس إليه، وحدق فيه متعجباً.

- حتى الآن لم أسمع شيئاً كهذا إلا مرة واحدة. من أحد شيوخ كنيسة إسكتلندية. واصل!

قدم جون تقريره عن الرحلة التي استمرت سنتين حول تيرا أستراليس، أو أستراليا مثلما اعتاد ماثيو أن يقول استسهالاً. تحدث عن بورت جاكسون، وعن الإقامة في كوبانغ في جزيرة تيمور، وعن الانتشار المرعب للمرض الذي أراد ماثيو الانتصار عليه، وأرقام الخسائر. السفينة على وشك أن تغرق فعلياً، ولم يبقها طافية على المياه إلا المحاولات المستميتة التي قامت بها القلة التي بقيت سالمة لضخ المياه خارجاً. كيف كان ذلك، الموت، الضخ، الخوف من أن تخور القوى، صمت جون عن ذلك بين الجمل. لم يسمع دانس سوى أرقام، ومصطلحات جغرافية، وفترات صمت. بورت جاكسون مرة ثانية. أعلن الحاكم السفينة غير صالحة للملاحة البحرية، حطام. وزع البحارة من أجل رحلة العودة عبر سنغافورة على السفن «بوربوس» و«كاتو» و«بريدج ووتر». من يريد البقاء في المستعمرة للاستيطان فيها، يحصل على تصريح. فترة صمت طويلة من أجل شيرارد لوند. لم يكن ثمة شجار، لقد كانت لشيرارد أحلامه الخاصة. قال دانس محذراً:

- طال الصمت أكثر من اللازم.

كان يخشى أن يتعثر الشاب في كلامه أكثر عندما يتحدث عن تحطم السفينة: «بوربوس» و«كاتو» في الوقت نفسه، وفي قلب الليل. ولا غوث

مطلقاً من السفينة الشراعية «بريدج ووتر» التي كانت تبحر بالقرب منهم مباشرة. القبطان بالمر! قبطان على سفن الهند الشرقية مثل دانس نفسه. كان يعرفه من زمن ماض. لاعب بريدج بائس، والآن بحار حانث باليمين أيضاً، يا للقرف! لاحظ دانس مبهوتاً أنه استبق تقرير جون، ولذا لم يعد يستطيع متابعة ما يقول. خلال انفعاله بسبب بالمر، كان ضابط الصف قد تجاوزه بسهولة، رغم فترات الصمت الطويلة التي صمتها بسبب تحطم السفينة، وأصوات ألواح الخشب المنكسرة، وصراخ العاجزين، والجراح التي أحدثتها الشعاب، وموكريدج الميت، رغم ذلك كان فرانكلين قد وصل الآن إلى المؤن التي أنقذوها وإلى الشريط الرملي. الجوع والانتظار. يطلق ضابط النار على رجلين فيقتلهما دفاعاً عن النفس. لم يخبره فاولر بذلك مطلقاً! لم يقل فرانكلين كلمة عن التمرد، لقد وصفه بكلمات أخرى:

- لم يُقبل الاقتراح بصنع أطواف من بقايا الخشب، ثم التجذيف في اتجاه الغرب.

تحدث باستفاضة أكبر عن فليندرز، الربان:

كان قد أبحر بقارب نحو تسعمئة ميل بحري عائداً إلى بورت جاكسون، ثم رجع بثلاثة سفن؛ لينقذ طاقمه. ماثيو فليندرز، الملاح المدهش! اختتم ضابط الصف تقريره بجملة كاملة:

- مَن كان على الشريط الرملي أبحر على ظهر «رولا» إلى كانتون، القبطان وحده أبحر على ظهر السكونة(*) «كامبرلاند»...

ثم صمت فترة قصيرة من أجل تريم.

- ... مباشرة إلى إنكلترا.

(*) سكونة: مركب شراعي صغير ذو صاريين في المعتاد.

عقَب دانس:

- نأمل أن يصـل سالماً. إننا نخوض حرباً مرة أخرى.

فهم جون وارتعد، ثم قال:

- لكن لديه جواز مرور!

- لسفينة «إنفستيغاتور» فحسب.

رسمت أصابع الربان شرائط عديدة تحت بعضها بعضاً على طاولة الكابينة، كأنها تجاعيد على الجبين. عندئذ دخل في الموضوع:

- أنت أحد المسافرين معنا، يا مستر فرانكلين، لكنك، مثلما سمعت، رجل إشارة يمكن الاستفادة منه... أتصغي إلي يا مستر فرانكلين؟

كان جون مهموماً. راح يفكر في ماثيو. بصعوبة ركز انتباهه مع دانس ثانيةً.

- نعم، نعم، سير!

- «إرل كامدن» هي سفينة القيادة لسرب من سفن الهند الشرقية، وأنا العميد قائد السرب. وأعلنك من الآن رقيباً للإشارة على السفينة.

العميد البحري ناثانيل دانس في الستين من عمره، وهو طويل، نحيل، بأنف كبير وشعر رمادي أشعث. كانت كلماته -إذا لم يكن يشرح آيات من الكتاب المقدس، أو يتحدث عن موضوعات فكرية أخرى- متزنة ومفهومة. كل حركة لديه تعقب الأخرى دون أي مجهود. قد تلمع عيناه لمعاناً شريراً مثلما يحدث كثيراً لدى الناس الطيبين. يتظاهر بأنه فاقد الصبر، لكنه كان يصغي لما يُقال. في بعض الأحيان يقول جملاً فظة مثل:

- شكراً، لقد بدأت أشعر بالملل!

تشاجر مع الرسام وستال، وفوق ذلك في أثناء تناول الطعام. كان يرى أن على الفن أن يكون جميلاً. لكنه لن يكون كذلك إلا بالدقة الإحصائية. إن الخليقة أجمل من كل ما تفرزه قريحة الإنسان. أجاب وستال بذكاء قائلاً: إن الإنسان تاج الخليقة، وإن ذهن الإنسان هو أسمى الأشياء. ليس التركيب الفيزيائي للأشياء هو الجميل في حد ذاته، بل كيف تستقبله العين ويستقبله المخ. والحدس جزء من ذلك، وكذلك الخوف والأمل. بعد الانتهاء من الطعام سبّ وستال قائلاً:

- إن عمه هو ناثانيل دانس، الرسام. لهذا يدعي هذا الأفّاق أنه خبير بالفن.

في اليوم التالي عاودا الشجار. يبدو أن العميد البحري لا يستمتع بشيء قدر إرباك الرسام.

- رسم الخوف، تعسف النظرة؟ لم لا ترسم العمى مباشرة؟ إن خلفي ستين عاماً من الخوف والتعسف! كلا، مستر وستال، على الإنسان أن يثور على ضعفه برحمة الرب. أخوك يعلم هذا. فكر في «عيسو يطلب بركة إسحق»، هذه لوحة! على الفن أن يكون بنّاءً!

خلّفت «إرل كامدن» وامبوا وراءها، على رأس السرب المكون من خمس عشرة سفينة من سفن الهند الشرقية محملة حتى آخرها. كانت هذه السفن ضعيفة التسليح، وليست متينة البناء مثل السفن البحرية، وكانت أيضاً، وقبل كل شيء، صغيرة الطاقم. ساد نقص هائل في جنود البحرية. كانت الحبال مصنوعة من قنب مانيلا دون طبقة من القار، وبدا أنها سهلة الاستخدام. بعد عدة أيام لاحظ جون أن ذلك لا يرجع إلى القنب وحده، بل أيضاً إلى فريق البحارة. كان البحارة السُمر من شرق الهند متدربين تدريباً

ممتازاً، وسريعي الفهم، ويبذلون أقصى جهدهم. على السفينة كانت معهم أيضاً زوجات بعض البحارة، سمراوات وبيضاوات. لم يستهجن ذلك أحد. سفن الهند الشرقية ليست محطة قتال عائمة. البدن وحده كان مطلياً بشرائط سوداء وصفراء لخداع حثالة القراصنة. في الداخل كانت سفينة مسالمة. بسرعة كان جون، وعبر عمل نهاري وليلي، قد حفظ السرب كله عن ظهر قلب. كان يعرف البحارة الهنود بأسمائهم، مثلما يعرف الضباط. وكثيراً ما كان يتأمل في صفات الربان الجيد، وما إذا كانت تنطبق على دانس.

من يجب أن يحكم الآخرين في العالم؟

على كل حال أشخاص مثل ماثيو، وثمة أسباب وجيهة لذلك. بعد تحطم السفينة على سبيل المثال ظل على الشريط الرملي، حتى استطاع أن يرى بزوغ نجم في السماء الصافية، وأن يحدد موقعه. تحتم عليه أن يبقى ثلاثة أيام بلياليها في انتظار العاصفة. يعرف جون عدداً كافياً من الناس، كانوا سينطلقون قبل ذلك بكثير. ما كانوا سيصلون أبداً إلى بورت جاكسون، ناهيك عن العودة. ربما يكون طبع ماثيو الأصيل هو البطء، لكنه استطاع أن يشق طريقه ليكون رباناً؟ إذا كان موكريدج محقاً، فإن ماثيو لم يُقبل كضابط صف إلا لأن الخادمة توسطت من أجله لدى قائد إحدى السفن العسكرية. ولو لم يكن لماثيو أصدقاء في إدارة البحرية، لا سيما المدعو بانكس، لعزلوه من منصبه إثر اكتشاف زوجته على سطح «إنفستيغاتور»، أو بعد جنوح سفينته في القناة. هل بمقدور أحد الإبحار بسفينة متهالكة وبفريق من البحارة نصفهم مريض وعلى وشك الموت، ويدور حول قارة، ويرسم خلال ذلك خرائط موثوق بدقتها؟ هذه أمور لا

تتقرر تحت أعين السادة أمراء البحر عند الساحل. بمقدور البطيء أن يفعل الكثير، لكنه في حاجة إلى أصدقاء جيدين.

كل ما يريد العميد إبلاغه للأسطول كان يمر بين يدي جون، وكانت عيناه تقرأان أولاً ما يأتي رداً على ذلك. أضحى يعرف كل الرايات بتنويعاتها كافة، حتى دون أن يفكر. عندما يتطلع، فبنظرة «عمياء»، مع الرايات يجوز ذلك. في بعض الأحيان كان يراقبه دانس العجوز. بدت نظرته تنم عن تقدير، لكنه لم يقل شيئاً.

أعد جون قائمة بأهدافه الخاصة: الوصول إلى أي ميناء باستخدام المهارات البحرية. الحيلولة دون وقوع حوادث، مثلاً: عدم التوجه نحو ساحل خلال العاصفة. على المرء ألا يخجل أبداً مثل القبطان بالمر من «بريدج ووتر». ألا يكون المرء مسؤولاً عن الخاتمة التعيسة، وألا يتسبب في موت الآخرين. لم تكن بالقائمة الطويلة مطلقاً.

عَبَرَ السرب بحر الصين الجنوبي، واقترب من جزر أنامباس. «نأمل ألا يحدث شيء»، قال وستال ذات ليلة بلا تمهيد، ولم يبذل أدنى جهد في شرح ما يقصده.

– شراع!

تأكدت المخاوف: سفن حربية فرنسية.

همس الملازم فاولر:

– لقد تربصوا بنا. لو كنتُ أنا القائد، لفعلت كل ما في وسعي حتى أشتت سفن هذا الأسطول بعضها عن بعض!

قال آخر:

- هذه هي فرصتنا الوحيدة! إنها بالتأكيد من الطراز الذي يحمل أربعاً وسبعين مدفعاً على ظهرها، سنكون لقمة سائغة في أفواههم. كان علينا أن نستدير لتكون الرياح خلفنا.

وصاح بحار أصغر سناً من السابق:

- العجوز أبطأ من اللازم!

من يجب أن يحكم في العالم؟ مِن بين ثلاثة أشخاص، مَن الذي ينبغي أن يقول للاثنين الآخرين ما عليهما أن يفعلا؟ من هو الأفضل في الرؤية، من هو الربان الجيد؟

اعتلى ناثانيل دانس الصاري الكبير حتى يتأمل الأمر من العلو الصحيح. لكن من يفحص ما إذا كان قائد السفينة يتسم بالنظرة الثاقبة أم أنه فقدها؟ والآن، كان أخيراً قد وصل إلى قمة الصاري، وراح باعتناء يدير قرص المنظار؛ ليحصل على صورة أوضح، ثم تطلع بدقة. تناول منديلاً ونظف أنفه، ثم هبط مرة أخرى، محافظاً على إيقاعه الهادئ. لم يكن في حاجة إلى أن يجمع الضباط من حوله، فقد تجمعوا هناك مع البحارة منذ فترة.

قال العجوز وهو يحرك من غير خجل ساقه اليسرى التي سرى فيها الخدر في المرقب:

- إنها خمس سفن فرنسية، ولديها نية ما. لكنها لم تحسن الحسابات. مستر ستورمان، من فضلك، أصدر أوامرك لتجهيز السفينة للقتال. مستر فرانكلين؟

- سير؟

أصبح هذا الرد آلياً. عندما يسمع جون اسمه العائلي، فإنه يقول فوراً ودون تفكير: سير. وهكذا لا تجيء إجابته أبطأ من الآخرين.

- أرسل الإشارة: تجهيز السرب للقتال، الوقوف صفاً، إبطاء السير!

انطلق تهليل خجول. كان صدر الجميع منقبضاً في الحقيقة. الرايات التي رفعها جون لم تثر في البداية سوى أسئلة استفسارية. بُهتَ بحارة السرب كله، ولم يصدقوا أعينهم. وفي النهاية تكوّن ما يمكن أن نسميه خط المعركة. لكن شيئاً مدهشاً حدث: لقد أبطأت السفن الحربية سيرها أيضاً. ولم تعد أبدان السفن تُرى حتى من أعلى الصاري.

قال فاولر ضاحكاً ضحكة صبيانية:

- ولا سفننا أيضاً! قبل الغد لن يجرؤوا على فعل شيء.

غربت الشمس خلف جزيرة بولاو أور(*) التي حددوا مكانها تواً. السفن التجارية ذات الأشرعة المنتفخة كانت هناك بسمتها الأسود والأصفر المتجهم، كأنها سفن ركاب ذات أسلحة ثقيلة. حملان في فراء ذئاب كانت هذه السفن، ولن تنطلي الخدعة على الفرنسيين طويلاً! في الليل توقع الجميع صدور الأمر بفرد القلاع، لكنه لم يصدر. أراد دانس البقاء فعلاً حيثما كان. لم ينم أحد. قال بعضهم بصوت أجش:

- لم لا نحارب؟ سنريهم!

تصاعد في نفوسهم شيء كالشجاعة، ومن لم يسيطر عليه هذا الشعور فقد كان لديه على الأقل أمل في انصراف الفرنسيين من تلقاء أنفسهم حتى يفروا من التفوق الإنكليزي المزعوم.

ليس ثمة إشارات تُرسل في الظلمة. لدى جون وقت كي يتفحص شكوكه. لم يكن سهلاً عليه اليوم أن يكون حاسماً ومستبشراً. لم يكن يستطيع أن يعتمد على أنه يفعل دائماً الصواب. آنذاك، على ظهر

(*) Pulau Aur إحدى جزر ماليزيا.

«إنفستيغاتور»، كانت الراية البيضاء! كان قد سمع بوضوح أمراً ربما لم يصدر قط. في تلك الحالة كان عليه –مع أي قبطان آخر– أن يتوقع محاكمة حربية.

من ناحية أخرى نيلسون! قبل كوبنهاغن، كان قد تجاهل ببساطة الأوامر الصادرة عن قائد البحرية بالانسحاب، لا محاكمة حربية! ولكن حتى نيلسون لم يتمتع بالحماية إلا فيما بعد من خلال نجاحه. اليقين لا يمكن أن يحصل عليه إلا مَن يتمتع بديمومة كبيرة، مثل النجوم والجبال أو البحر. لكن تلك الأشياء، من ناحية أخرى، لا تنطق بكلمات؛ كي تقول لنا ما تعرفه من ديمومتها الطويلة. يرى جون في هذه النقطة حرية أكبر مما يتمناها المرء. بإمكان المرء دائماً أن يفعل الصواب، لكن من الممكن دائماً أن ينظر الآخرون كلهم إلى ذلك باعتباره خطأ؛ بل قد يكون لديهم حق.

طلع النهار. ما زالت الأشرعة في الأفق دون أن تتحرك قيد أنملة. ما زال الفرنسيون في أماكنهم. أمر القائد بأن تواصل سفنه الإبحار في الاتجاه القديم لإجبار الخصم على الحسم. بعد فترة قصيرة تكاثرت القُلُع واستطالت في الناحية الأخرى. أصبح لدى جون ما يفعله الآن. غيّر دانس الاتجاه ثانية، وأرسل أسطوله ليكون في مواجهة العدو تماماً.

لاحظ جون أنه يرتجف؛ فشعر بالغضب. وبملاحظته ذلك، نما خوفه. لم يكن من المرجح في رأيه أن تتكرر معركة كوبنهاغن، لكن ذلك لم يساعده إلا قليلاً. لذا حاول أن يتخيل أن كل هذا سيمر في وقت ما. في الغرب رأى بولاو أور. فكر كيف سيهرب الناجون من الصراع إلى هذه الجزيرة، إنكليز وفرنسيون. هل سيقتسمون الطعام ويقررون معاً ما يجب فعله؟ أم سيقتلون بعضهم بعضاً؟ في هذه الفكرة أيضاً لا يسكن الخوف.

لذا قرر أن يفكر في أشياء مختلفة تماماً، أشياء لطيفة نافعة. راح يعد الأشياء: «المؤن، والمياه، والقداحات، والآلات اليدوية، والضمادات، والبنادق، والذخيرة...» كانت هذه قائمة بالأشياء التي يجب نقلها إلى القوارب؛ إذا أُصيبت السفينة، وكانت على وشك الغرق. مثل هذه الأشياء كان يحفظها عن ظهر قلب. إذا لم يكن بمقدوره هزيمة الخوف، فعلى الأقل هذه الرجفة البائسة.

لماذا لم يهرب دانس في الليل؟ المخاطرة ستكون عندئذ أقل. من المستحيل أن يخاطر بأن يقتحم الأعداء سفنه!

شعر جون بالضعف، لكنه كان يراقب، ويفسّر الإشارات، ويبلغ، ويؤكد الأوامر بشكل صحيح. عندما تأتي إشارات، فإنها كانت تحرك مخه من الخارج. فإذا لم تأتِ، كان يواصل القائمة: «والمنظار، والسدس، والبوصلة، والكرونوميتر، والورق، وحبل القياس، وصنارة الصيد، والطنجرة، والإبرة....». لمواجهة خوفه كانت هذه القائمة طويلة بما يكفي. «الحجر المقدس» من الأشياء القليلة التي لا تُؤخذ بأي حال من الأحوال من سفينة غارقة.

لكن الرجفة زادت.

«والعوارض، والأشرعة، والحبال، والرايات...»

اقتربت السفن الحربية بسرعة.

دمدم جون:

– إشارات، يا إلهي الحبيب، إذا كان ممكناً، فليقتصر الأمر هذه المرة على الإشارات فحسب!

أصابت أولى الطلقات الفرنسية مديرَ الدفة في «إرل كامدن». تطلع دانس إلى البديل المنتظِر، ورفع ذقنه في اتجاهه، مائلاً برأسه بحيث تشير الجبهة إلى الدفة، والذقن إلى الرجل. كان بإمكانه أيضاً أن يقول: «تولَّ أنت القيادة!»، لكن المكان أمام عجلة الدفة كان يقطر دماً؛ لذا يفضل المرء التحدث بالذقن والجبهة. ثم خلع ساعته ودرسها بعناية، كأن التوقيت هو أهم شيء في وفاة جيمس ميدليكوت.

ازدادت رجفة جون عنفاً. أخذ يفكر كيف يمكنه أن يخفيها. لا أحد يستطيع الإمساك بوجهه أو بجسده. انحنى، ولف يديه حول ظهر المتوفى وركبتيه، ثم رفعه، مثلما يفعل المرء مع النساء والأطفال. كان موكريدج قد حكى له مرة عن صبي لقي حتفه في نيوكاسل، في التاسعة من عمره، بلغ به الإعياء حداً جعله يتعثر ذات مساء في الماكينات الدائرة.

أفزعت الحكاية جون للغاية. كثيراً ما تخيل كيف كان سيحمل الطفل المصاب بنفسه، لو كان موجوداً هناك.

صاح أحد البحّارة الهنود:

- الرجل ميت!

لم يجب جون. حمل الجثمان بعناية، دون أن يصطدم بأي عائق. ما فعله، كان بالطبع هراء. لكنه أتم ما يفعله، لا سيما وأن رجفته ظلت بعيدة عن الأنظار خلال ذلك. زأرت المدافع، واهتزت السفينة وارتجت. وضع جون الميت بجانب المرضى، وسار مبتعداً بأسرع ما يمكنه. سيرى الطبيب أنه لا يمكن أن يفعل شيئاً. صعد جون مرة أخرى. كان يعتقد اعتقاداً راسخاً: أنه لم يفعل هذا الهراء بدافع من الجبن. لقد كان ذلك نوعاً من الاستياء، نعم، هذا هو ما كان. وهو شيء لائق. هدأت أنفاس

جون، وانزاح الخوف. بالأعلى سيجيئه قريباً أمر الهجوم على الفرنسيين واقتحام سفنهم. كان جون يرفض ذلك أيضاً مثلما كان يرفض كل شيء في هذا الموقف. لم يكن في داخله شيء سوى العناد. قال: «لا أستطيع أن أستحسن ذلك، لن أقاتل!».

أراد أن ينظر، وأن ينتظر مثل جبل، ميتاً أو حياً. الكل بطيء في الحرب، وليس هو وحده.

بهدوء عميق صعد جون آخر درجة في السلم إلى سطح السفينة. الأكيد أن لا أحد في هذه السفينة قد عقد العزم مثله.

لكن التجربة لم تأتِ.

أتى كل شيء على نحو مختلف.

بعد ثلاثة أرباع ساعة كان على جون إرسال إشارة جديدة: رضي الفرنسيون من الغنيمة بالإياب، وولوا الفرار. طاردتهم ست عشرة سفينة تجارية إنكليزية، يضم جوفها حمولة مرصوصة جيداً، تبدأ بالنحاس الياباني ونترات الصوديوم وصولاً إلى الأغار والشاي. هربت خمس سفن حربية مكتظة بالمدافع والذخيرة، وعلى سطحها كتيبة كاملة من جنود البحرية الذين وقفوا على أهبة الاستعداد شاهرين نصالهم.

وفي لحظةٍ ما لاحظ جون: أن كل من حوله يضحك كالمجنون، دون توقف؛ إذ لا يمكن أن يكون العالم في هذه اللحظة أكثر جنوناً منه الآن، ولأن أحدهم صاح في مقدمة السفينة: «أعتقد أنهم لم يستهدفوننا نحن!» لاحظ جون أيضاً أنه يشاركهم الضحك منذ فترة، لكن عناده لم يتبخر، على العكس، لقد سرّى عن نفسه بهذه الضحكات فحسب.

من سطح السفينة الخلفي صاح القائد:

- مستر ويستال، آمل أن تكون قد رسمت بعض الرسوم الكروكية!

أجاب الرسام:

- لا، للأسف، سير، لقد فوجئت بعض الشيء بمجرى التدريب.

انتشرت الآن كلمة «تدريب» كالنار في الهشيم، وتواصلت الضحكات.

من أجل النصر راهن ناثانيل دانس بكل شيء. والآن أضحى بطلاً. كلهم أضحوا أبطالاً.

دعا القائد ضباطه وقباطنة السفن الأخرى إلى سفينة القيادة حتى يحتفلوا «بنصر بولاو أور». رفع كأسه قائلاً:

- لم ننجح إلا لأن الرب كان رحيماً معنا، ولأننا لم نتعجل. النظر ثلاث مرات، ثم الفعل مرة واحدة! لا يفهم الشبان ذلك دائماً. أن تكون بطيئاً وبلا أخطاء خير من أن تكون سريعاً آخر مرة. أليس كذلك يا مستر فرانكلين؟

اتجهت كل الأنظار إلى جون، ربما لأنهم كانوا يتوقعون أن يهتف ببهجة: «نعم، نعم، سير!»، كالعادة. لكنه راح يتطلع إلى القائد فحسب، وانتابته رجفة خفيفة. كان ذلك أمراً غير معتاد! تعجب الجميع، غير أنه كان على وشك تحضير جملة أراد قولها. تمهيداً، وحتى لا يستنفد صبر الآخرين، شرع يقول:

- سير، إنني أستجهن...

راح يفكر كيف يكمل جملته. فجأة ساد سكون تام بين الجميع. لذا فضّل أن يقول جملته الأهم:

- الحرب، سير، بطيئة جداً بالنسبة إلينا جميعاً!

وسط القهقهات الصاخبة التي ارتفعت الآن، راح جون يقارن محموماً ما قاله بما كان يريد قوله. لكن، لم يعد هذا يجدي شيئاً، لا سيما أن فاولر لكمه على كتفه، فاهتز الجميع ضحكاً ثانية.

ربما لم يفهم ما قيل سوى القائد، أو أنه أراد أن يفهم. قال جاداً:

- ليست أبطأ ولا أسرع من اللازم. «في يديك آجالي. نجني من يد أعدائي ومن الذين يلاحقونني».(*)

ثم أضاف:

- أخيراً تصدر عن مستر فرانكلين جمل بدلاً من فترات الصمت. سوف نستفيد كثيراً منه. اليومُ يومٌ جيد!

لم يفهم أحد من الحاضرين المقصود، ورغم ذلك ضحكوا جميعاً مثلما يضحك المرء على نكتة جيدة؛ فهذا هو اللائق أمام قائد منتصر طاعن في العمر.

وسرعان ما عرف الجميع على «إرل كامدن»: أن جون كان يقصد شيئاً آخر. سار إلى دانس والآخرين وصحح جملته. وقال لوستال:

- كنت أود أن أكون دائماً شجاعاً فوراً، لكن ما أفعله، لا بد أن يكون صواباً. عليّ أن أبلّغ كل شيء بمشقة، الشجاعة أيضاً.

أغلق وستال عينيه، ثم قال:

- لكنك تترك صورة جيدة لدى الآخرين.

تركوا سيلان وراءهم(**)، وعبروا رأس كومورين. تطلع جون إلى

(*) الجملة الأخيرة مأخوذة من مزامير النبي داوود (مزمور 31: 15)، وترد كثيراً في الترانيم.

(**) الاسم السابق لدولة سريلانكا.

البحر، في حين استغرق الرسام في رسمه. راح لسان وستال يلعق شفته السفلى باستمرار؛ فهو لم يكن يستطيع الرسم إلا هكذا. شرع جون يتحدث ثانية:

- مستر وستال، لا بد أن أقول لك شيئاً: إنني أجد الدقة أفضل من الحدس.

بإبهام مرفوع قاسَ وستال المسافة بين عيني جون، ثم حدد -بحافة يده اليسرى- مكان الأذنين، وقال:

- هذه الصورة ستكون دقيقة.

كان جون راضياً للغاية. ظل ساكناً، صامتاً، ولم يتحرك في جلسته. إذا أراد مستر وستال أن يرسمه بالطريقة القديمة الجيدة، فينبغي ألّا يجعل الصورة مهزوزة، بأي حال من الأحوال.

أمام ميناء بومباي رأوا الرياح الموسمية تهب. غادر وليام وستال سطح السفينة قائلاً:

- أريد البقاء هنا ورسم الهند. سأبدأ بالرياح الموسمية. أجمل لوحات أخي عنوانها: «كاسندرا تتنبأ بسقوط طروادة». لوحتي ستسمى: «هبوب الرياح الموسمية»، وستعبر عن الشيء نفسه، لكن بشكل أفضل!

لم يفهم جون كلمة واحدة. انتابه الحزن؛ لأن هذا الإنسان اللطيف، المجنون، يقترب كذلك من نهايته.

بورتسموث! بدت الحصون والأحواض الجافة كما تبدو دائماً، المدينة كلها كانت كأنه رآها بالأمس آخر مرة. لم تكن عودة شخص مثل جون فرانكلين من بحر الجنوب بعد ثلاث سنوات شيئاً يدفع أحداً لفعل أي شيء، ولا حتى وضع كأسه على المائدة. تفور بورتسموث بالشبان

والشابات، وبالضجيج، والأشغال، والرغبة في الفعل، كانت المدينة مشغولة بذاتها. وإذا كان يعيش في المدينة مسنون، فليس بالرغم من ذلك، بل من أجل ذلك. لا أحد هنا يعتني بالورد، ولا أحد يعظ أو يسمع عظة. المرء يعيش بسرعة؛ لأن الحياة قد تنتهي بسرعة. في الأحواض الجافة يعملون عملاً شاقاً، حتى أثناء الليل تحت أشعة القناديل. إنها مدينة جائعة، سريعة، وظلت هكذا دائماً وفيّة لنفسها.

عرف جون: أن الفرنسيين قد أسروا ماثيو الساذج في موريشيوس، وحبسوه زاعمين أنه جاسوس. كان إذن قد افترض أن السلم ما زال سارياً، ولذا رسا بسفينته أمام موريشيوس الفرنسية، رغم أن الرسالة التي معه كانت صالحة لـ «إنفستيغاتور» فحسب. عسى أن يكونوا تركوا له الخرائط البحرية التي كلفته جهداً عظيماً، وعسى أن يرسلوه قريباً إلى وطنه.

لا تزال ماري روز هناك.

ما زالت تسكن في كيبل رو، بعد منزلين فحسب من منزلها السابق. على النار كانت هناك غلاية كبيرة للمياه داخل حامل جيد التصميم، إذ كانت تستطيع أن تصب الشاي دون أن ترفع الماء عن النار. وعموماً، بدا أن حالتها جيدة. قالت له:

- إنك تتحدث أسرع مما كنت منذ ثلاث سنوات.

- لدي الآن إيقاعي الخاص، إنني أيضاً أستهجن أشياء أكثر من الماضي، هذا شيء يسرّع من الإيقاع.

حول الخطوط المستديرة تزايدت التجاعيد في وجه ماري. تطلع جون إلى جسدها في شهيقه وزفيره. في ساعدها لمعت شعيرات رقيقة دقيقة وهي تواجه الضوء. هذا الزغب كان أقوى شيء، وقد فعل بجون الكثير. وبدأت أشياء عظيمة بينهما.

- أنا مثل منحنى تصاعدي، كل شيء في ازدياد دائم!

وسريعاً ما نسي الهندسة، وأدرك أن ثمة أشياء كثيرة في العالم من الممكن أن تصبح جيدة مرة أخرى، وأن إنسانين يكفيان لذلك. رأى شمساً ملأت السماء. العبثي في الأمر أنها كانت بحراً في الوقت نفسه، وأشاعت الدفء من أسفل لا من أعلى. ربما هكذا يكون الحاضر، إذا لم يتسرب من بين الأصابع، قال جون لنفسه.

سمع صوت ماري يقول:

- معك يكون الأمر مختلفاً. أغلب الرجال أسرع من اللازم. وعندما يبدأ الأمر يأخذ مجراه، يكون قد انتهى أيضاً.

- هذا بالضبط ما أفكر فيه منذ فترة.

كان سعيداً لأنه شعر أن ماري تفهمه جيداً. تأمل عظام كتفها، وكيف كانت بشرتها البيضاء مشدودة فوق العظام المستديرة. نظر إلى كل شيء بدقة. البشرة أرق ما يكون فوق عظمتي الترقوة، فعلتها معه مرة أخرى، مبشرةً إياه بحاضر جديد وبشمس سفلية.

علّمت ماري جون: أن اللمس والتحسس لغة. بإمكان المرء التحدث والإجابة بها. لا بد من تجنب أي فوضى. تعلم الكثير في تلك الأمسية. وفي النهاية أراد البقاء دوماً لدى ماري.

- أنتَ مجنون!

ظلا يتحدثان حتى كاد الليل أن ينقضي. الصعب إقناع جون فرانكلين بأن يتخلى عن فكرة في رأسه. إذا كان هناك رجال آخرون ينتظرون دورهم في الخارج، فلا بد أنهم انصرفوا متذمرين.

همس جون:

- أنا سعيد أيضاً أن بإمكاني الآن أن أفعل بجسدي كل شيء.

تأثرت ماري روز لسماع ذلك.

- من أجل شيء كهذا، لم تعد من اليوم في حاجة إلى أن تبحر ثلاث سنوات حول العالم!

أمام حانة «وايت هارت إن» وقف العجوز إيسكوف البالغ من العمر ثمانين عاماً، منها خمسة وستين عاماً جندياً في أوروبا وأميركا. كل يوم يحضر عندما تجيء عربة البريد التي تجرها الخيل. كان يتفرس في وجه مَن ينزل من العربة، ليعرف بدقة من أين أتى.

تعرف على فرانكلين الشاب من حركته. بقبضة محكمة ظل ممسكاً بيد ضابط الصف؛ لأنه أراد أن يكون أول مَن يسمع كل شيء. قال أخيراً:

- أهكذا! لديك سفينة مرة أخرى، وسفينة كبيرة! ستخوضون المعركة قريباً وستدافعون عن إنكلترا.

بعد ذلك سار جون في اتجاه بيت والديه. نفذت الشمس من خلال أشجار الفاكهة. منذ أن وعى، وهو يتشوق دائماً إلى الرحيل من هنا. وفي حين كان أمله يرنو إلى البعيد، فقد كان ينظر إلى هذه المداخن، وإلى تقاطع هذا السوق، وإلى هذه الشجرة أمام دار البلدية. ربما كان الحنين إلى الوطن مجرد رغبة في الشعور بهذا الأمل القديم مرة أخرى. أراد أن يتأمل في ذلك، لذا وضع متاعه في تقاطع السوق.

كان لديه أمل الآن، أمل جديد. وهو أمل مبرر على نحو أكثر من الأمل السابق. من أين يأتي إذن الحنين إلى الوطن؟

ربما كان يحب كل هذا هنا، في زمن لم يعد يستطيع تذكره. الغربة

الآن هي بالأحرى هنا. يُهيأ له أن السور الربيعي في وامبوا كانت تفوح منه رائحة، أكثر ألفة من الرائحة التي تتصاعد من هذا الدرج الذي يقود إلى تقاطع السوق. رغم ذلك بقيت ذكرى باهتة من الحب.

– نعم، العودة إلى الوطن!

سمع صوت إيسكوف العجوز الذي تبعه يقول ذلك. ثم أضاف:

– لا يستطيع المرء عندئذ سوى أن يجلس.

نهض ضابط الصف جون فرانكلين، ونفض الغبار عن سرواله. راح يفكر: هل حب الوطن واجب، أم بالأحرى فطرة في الإنسان؟ لكنه بالطبع لا يستطيع أن يسأل جندياً قديماً شيئاً كهذا.

البيت في الممر النحيل مملوك الآن لرجل غريب، بدين، لا يقول سوى «هممم» كتحية، أو شرح، أو وداع.

كان الوالدان يسكنان في منزل أصغر من السابق. لمعت عينا أمه فرحةً، وهي تنطق باسم جون. ساد السكون، إذ لم يقل الأب سوى القليل. بدا عليه الحزن، وشعر جون بالشفقة تجاهه. هل أنفقَ ماله كله؟ لكن الأب كانت لديه ثروة؟ فضّل جون ألا يسأل. لقد سمع أن الزمن الجميل قد ولى وانقضى. تحدث الأب عن توماس باقتضاب، إنه يصدر الآن أوامره إلى فوج من المتطوعين. ستتولى الفرقة عقاب نابليون؛ إذا تجرأ واقترب مرة أخرى من هذه المنطقة.

أصبح الجد أصم تماماً. كان يتطلع طويلاً إلى كل مَن يتحدث، ثم يقول:

– لستَ في حاجة إلى الصراخ. إنني لا أفهم شيئاً على كل حال. كل ما هو مهم ألاحظه بنفسي، ليس على أحد أن يقوله لي!

خلال سيره إلى بيت آن، حاول جون أن يتذكر وجه ماري. لكنه لم يستطع أن يستجمع ملامحه، وأدهشه ذلك. هل ينسى المرء المظهر الخارجي لإنسان يحبه؟ ربما من أجل ذلك تحديداً.

آن فليندرز، واسمها قبل الزواج تشابل، أضحت أكثر امتلاء. سُرت برؤية جون. كانت قد سمعت منذ فترة بالمصيبة التي ألمت بماثيو:

- في البداية قادة البحرية، ثم الفرنسيون... مع أنه لم يؤذ نملة.

كانت حزينة، لكنها لم تبكِ. أرادت أن تسمع كل تفاصيل رحلته. وفي الختام لم تقل سوى: «سيكفّر الفرنسيون عن ذلك!».

بعد ذلك زار والدا لوند.

منذ رسالة شيرارد من شيرنيس لم يسمعا منه أي أخبار. ولا بد أن الرسالة التي أخذها ماثيو معه قد صودرت. ومن بورت جاكسون لم يكتب سطراً واحداً. فكر جون في المنطقة التي أراد صديقه أن يتوجه إليها، خلف الجبال الزرقاء، حيث تنساب كل الأنهار في اتجاه الغرب، وحيث يحاول مساجين خليج بوتاني أن يكافحوا للبقاء أحياء، هذا إذا تمكنوا أساساً من الهرب من السجن.

قال جون:

- إنه في بلد أخضر يتمتع بطقس جميل في معظم الوقت. لكن البريد هناك يعمل على نحو سيئ جداً.

استفحل الوضع في إنغ منغ. ناس أكثر وطعام أقل. ما زال آل لوند يملكون بقرة. لكن أرض القرية أمست صغيرة جداً بالنسبة إلى غنم الفقراء:

- الكبار يقيمون الأسوار ببساطة. والمرج يتآكل، حتى إن عيدان الحشائش لم تعد تجرؤ على النمو!

كان والد لوند يعمل في درس الحنطة. يتقاضى شلناً ونصف شلن عن اليوم في موسم الحصاد. أما زوجته فبإمكانها أن تغزل الكتان، لو لم تُنقل عجلة المغزل منذ فترة طويلة مع غلاية ماء الشاي إلى صاحب محل الرهن. كان ذلك هو الرجل الذي يعلق على كل شيء بـ«هممم» فحسب.

قال والد لوند:

- أبنائي الأصغر سناً ما زالوا كلهم يعيشون معنا في البيت. في أراضي المستنقعات الأجر أعلى كثيراً. أو سنذهب إلى مصنع الغزل، هناك يمكن للأطفال أن يحصلوا على أجر أيضاً، حتى في الشتاء. ربما يتحسن الوضع إذا كسبنا الحرب.

عرضا على جون آخر رسالة تلقياها من شيرارد. عن نفسه قرأ فيها: «ليلاً يحلم بالموتى».

كانت القرية كالمهجورة. توم باركر ذهب ليتدرب عند صيدلاني في لندن، والآخرون يخدمون في الجيش، كثيرون هاجروا من القرية. في الكنيسة كان بِرغرين برتي، لورد ويلوبي، يقف وينظر من علٍ على مجموعة من الكراسي الشاغرة.

الراعي - المتمرد، نؤوم الضحى - ما زال موجوداً.

أمام «وايت هارت إن» وقف الراعي عند البار رافضاً كل شيء. قال:

- الدوران حول العالم؟ لستُ في حاجة إلى سفينة من أجل ذلك، الأرض تدور من تلقاء نفسها.

بصبر تقبل جون ذلك، وأجاب قائلاً:

- لكنك تدور معها، إذن فأنت تظل في مكانك.

ضحك الراعي بصبيانية، وقال:

- ولكن عليك أن ترفع ساقيك!

بعد ذلك تحدثنا عن المرج في القرية.

- أتعرف ما هي المعجزة؟ المرج الذي ازداد نحولاً كلما كثرت الأفواه التي رعت فيه.

رد جون:

- لا أومن بالمعجزات، هذا شيء للأطفال.

أفرغ الراعي كأسه، ثم انتابته نوبة تمرد من جديد:

- غلط! في علم الاقتصاد لا تبدأ الدهشة إلا مع التفكير. لكنك أصبحت بطلاً! هل ترسل نقوداً- على الأقل- إلى والديك؟

الفصل التاسع

طرف الغار(*)

مبهوتاً تطلع د. أورم إلى جون، دون أن ينطق بكلمة. ثم نهض وأبدى سعادته. صاح: «جون!»، وبدا أن رموشه، وهي تتحرك، كأنها تُدخِل الهواء إلى مخه.

أكمل قائلاً:

– كنت أنتظرك. ولكن أملي كاد ينفد.

جون نفسه تعجب من الموضوعية التي راح يراقب بها الآن معلمه القديم. قال لنفسه: إنني أعني له شيئاً، هذا أمر جيد، أعتقد أنني أيضاً ما زلت أحبه.

جلسا إلى المائدة في الحديقة، خلف المنزل، عند «الرقبة المكسورة».

(*) المقصود: معركة «ترافلغار» البحرية في قادس بجنوب إسبانيا، وهي المعركة التي جرت في 21 أكتوبر 1805 حيث استطاع الأسطول البريطاني بقيادة الأدميرال هوراشيو نيلسون تحقيق نصر حاسم على الفرنسيين والإسبان، وكانت نقطة تحول في الحروب ضد نابليون. وقد سمي ميدان «ترافلغار» في لندن على اسم هذه المعركة البحرية تخليداً لانتصار نيلسون. ويُقال إن التسمية الإسبانية مأخوذة من العربية، وإن أصلها: «طرف الغار» أو «الطرف الأغر».

نشأت فترة صمت؛ فكل منهما لم يكن يعرف كيف يواصل الحديث. حكى د. أورم «حكاية صغيرة لتلطيف الجو»، فهو -حقاً- معلم.

- أخيل، أسرع عدّاء في العالم، كان بطيئاً جداً، إلى درجة أنه لم يستطع أن يتجاوز سلحفاة.

تمهل حتى يدرك جون جنون هذا الادعاء إدراكاً تاماً.

- سمح أخيل للسلحفاة أن تتقدم. كانا قد انطلقا في الوقت نفسه. عندما وصل إلى النقطة التي بدأت منها السلحفاة، كانت قد سارت إلى نقطة أخرى. ركض إذن إلى تلك النقطة، لكن عندما وصل، كانت قد زحفت متقدمة مرة أخرى. وهكذا سار الأمر عدة مرات. قلّت المسافة بينهما، لكنه لم يلحق بها أبداً.

أغلق جون عينيه وفتحهما، وراح يفكر ناظراً إلى الأرض: سلحفاة؟ تأمل حذاء د. أورم. أخيل؟ هذه بالتأكيد حكاية مخترعة. كان على المعلم أن يضحك. إحدى أسنانه الأمامية الصغيرة المائلة لم تعد موجودة.

قال المعلم:

- فلندخل أولاً، لقد حققتُ في هذه الأثناء بعض التقدم في استكشاف الطبيعة.

فتح -في الداخل- باب إحدى الحجرات.

في تلك اللحظة أمسك جون بذراعه:

- هذا السباق لا يمكن أن يكون أحد قد حكاه سوى السلحفاة!

في الحجرة جهاز صغير مُرَكَّب بعناية، قرص يدور حول محور عرضي، عندما يدير المرء الذراع. ثمة وجه مرسوم على كل من المساحة

الأمامية والخلفية، في الأمام رجل إلى اليسار، وفي الخلف امرأة إلى اليمين. عندما يدور القرص، يظهر الوجهان بالتناوب.

قال جون:

- أعرف هذا، من الاحتفال السنوي الذي أقيم في الأحد الثالث بعد عيد الفصح قبل ست سنوات.

شرح له د. أورم:

- اليد صنعها لي صانع العربات، والعدّاد الساعاتي. عند الدوران السريع يتحد الثنائي هارلكين وكولومباين.

نظر في كتاب صغير، وقرأ بصوت عال:

- عندما يدور القرص سبعمئة وعشر لفات تنخدع عيناي. لا بد أن ذلك يحدث مع خادم الكنيسة ريد بعد سبعمئة وثمانين لفة، ولدى السير جوزيف، القائد السامي، بعد ستمئة وثلاثين لفة، ولدى أكثر تلاميذي في اللغة اللاتينية كسلاً بعد خمسمئة وخمسين لفة، ولدى مدبرة منزلي السريعة بعد ثمانمئة وثلاثين لفة!

لاحظ جون ساعة رملية صغيرة مثبتة على ذراع صغيرة في جهاز العد.

- خلال أي زمن؟

- في خلال ستين ثانية. اجلس من فضلك. سأدير القرص بسرعة مطردة، إلى أن ترى الثنائي بوضوح. عندئذ سأحافظُ على السرعة، وأقلبُ الساعة الرملية. وفي الوقت نفسه أُشغلُ العداد.

بحذر راح المعلم يدير الذراع، ونظر إلى جون مترقباً. بدأت الآلة تصدر صليلاً يزداد ارتفاعاً. قال جون:

- الآن!

بدأت تروس العداد في الحركة. ترس الرقم واحد كان يقترب بعد كل لفة من ترس الرقم عشرة، والترس الأخير بالطريقة نفسها من ترس المئة. عندما سقطت آخر حبة رمل، قلب د. أورم الساعة الرملية ثانية، وتوقف العداد. وبصوت احتفالي أعلن:

- ثلاثمئة وثلاثون! أنت أبطأ شخص.

شعر جون بالسعادة. لقد تمت البرهنة على خصوصيته. قال د. أورم معقباً:

- هذا اختلاف مهم جداً بين البشر. هذا الاكتشاف سوف يجلب لنا فائدة كبيرة.

بعد الظهر انتقل د. أورم للتدريس في مبنى المدرسة المقابل. لم يرافقه جون. كان يخشى أن يضطر إلى إخبار التلاميذ بما مر به. لن يفهموا ما يحرك مشاعره، وهو لم يكن يريد أن يقول فحسب ما يُتوقع منه. فضل الذهاب إلى شجرته العتيقة. لكن حتى هذه كانت غريبة عنه تماماً. لكنه لم يعد في حاجة إلى شجرة، لديه الآن صواري السفن. ظل واقفاً في الأسفل، وتطلع مرة أخرى إلى الشجرة، ثم واصل السير.

تجول في المدينة من أقصاها إلى أقصاها متأملاً في السرعات البشرية. إذا صحّ أن ثمة بشراً يتسمون بطبيعتهم بالبطء، فينبغي أن يظلوا هكذا. لم تكن مهمتهم بالتأكيد أن يصبحوا كالآخرين.

شاعراً بالفرحة جلس إلى مائدة عشاء د. أورم. على العالم أن يكون كما هو! كان ينبغي أن يُقدم له الآن صحن «زولتسه». ولكن من أين لمدبرة المنزل السريعة أن تحدس بذلك؟

أراد جون أن يسأل د. أورم، ما إذا كان العالم سيخلو في المستقبل حقاً

من الحروب. حتى الآن لا يبدو الأمر كذلك. لكن، قد يسود بعد النصر على نابليون سلام أبدي؟ أجّل جون طرح سؤاله، لماذا؟ لا يعرف.

تحدث د. أورم عن أجهزة أخرى، أراد تكليف أحد بتصنيعها.

- لا يمكن أن أتحدث بالتفصيل عن ذلك الآن. لا بد أن أتمعن في الأمر أكثر.

عَرَضاً تحدث عن أسقف أيرلندي وضع نظرية للاستقبال عبر الحواس، أسقف كلوين:

- لقد تصور العالم أجمع، بكل ما فيه من بشر وأشياء وحركة، كشيء ظاهري فحسب. وبذلك أضحت حكاية يحكيها الرب للعقول عبر انطباعات الحواس المُختَلَقَة، وقد يكون حكاها لشخص واحد فحسب، أسقف كلوين. وفي النهاية لم يعد سوى عقله، وعينيه، وأعصابه، والصور التي وهبها الله له.

سأله جون:

- ولماذا يفعل الرب ذلك؟

أجاب المعلم:

- الإنسان يجهل مغزى الخليقة. فضلاً عن أن الحكاية الجيدة لا تحتاج إلى هدف.

قال جون مفكراً:

- إذا كان بمقدوره أن يُظهر كل شيء، فلمَ هو مقل في المعجزات؟

لم يكن بمقدور د. أورم الإجابة عن هذا السؤال. لكنه روى له ما يهمه في الموضوع: إذا كان الأسقف محقاً، فبأي جهاز يستطيع الرب أن يُدخل مثل هذه الصور في العقل البشري. وأردف:

- بالطبع هذه محض فكرة مُساعِدة، طرق الرب عصية حقاً على الاستقصاء.(*)

ما زال همٌ ما يعوق جون عن أن يلقي سؤاله عن السلم. كان يحب د. أورم، كإنسان لا يتحدث كثيراً عن الرب إذا كان هناك شيء ينبغي شرحه. ولم يكن جون يريد أن يتغير ذلك.

لكن د. أورم تحدث من تلقاء نفسه. قال إن على البشرية أن تتعلم. وهي تتعلم على نحو أبطأ مما كان يفترض.

- يرجع ذلك إلى أن المجتهدين يحاولون دائماً أن يغيروا القليل من العالم الذي يعرفونه. ويوماً ما سيكتشفون العالم، بدلاً من أن يُصلِحوه. ولن ينسوا بعد ذلك ما اكتشفوه.

لم يكن جون يحب جملاً طويلة عن العالم، لكنه كان يقبل الأمر عندما ينطق بها خلال الحديث معه أذكياء مثل د. أورم أو وستال.

عسى أن يدون د. أورم هذه الجملة لنفسه أيضاً.

قال جون:

- عن النسيان يخطر على بالي شيء. لقد وقعت في حب امرأة، ونمتُ معها، لكن وجهها غائب الآن عني تماماً!

انقطع الحديث فترة قصيرة بعد ذلك، إذ إن د. أورم وضع فنجانه سهواً على حافة صحن الفنجان.

لم يعد ثمة وقت لماري روز. على جون أن يوجد على ظهر «بِلِروفون»

(*) عبارة شائعة مأخوذة من إحدى رسائل بولس الرسول: «ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء.»، (رومية 11: 33).

الراسية أمام مصب نهر التيمز، بعيداً جداً عن بورتسموث. في القارب المتجه إلى شيرنيس تحدث مع ملازم كان يحمل شارة القائد، وهو رجل نحيل بعينين داكنتين وأنف طويل بارز، كأن الأنف العادي قد وضع فوقه أنف آخر امتداداً للأول. كان اسم الملازم لابنوتير، ويتحدث بسرعة فائقة. كان يقود السكونة «بيكل»، إحدى أصغر السفن في سلاح البحرية، وغالباً ما تستخدم في أغراض تجسسية على الساحل الفرنسي. كان طاقم «بيكل» يستطلع الحصون ويتصيد قوارب المراقبة. كان القائد مشهوراً بقدرته على استخراج المعلومات من الأسرى. قال له ضابط آخر:

- كفرنسي أنت مؤهل لذلك.

أجاب لابنوتير بحدة:

- أنا إنكليزي. إنني أحارب من أجل الخصال الجيدة في البشرية، وأحارب تلك السيئة.

سأله ضابط آخر:

- وما هي الجيدة؟

- الإيمان والمحبة.

سأله جون:

- والسيئة؟

- الحرية نفسها للجميع، جنون العظمة في المنطق البشري وبونابرت!

- هذا صحيح، اللعنة عليه! باركك الرب!

هكذا صاح الضابط الآخر، وقفز ناهضاً فاصطدم رأسه بخشب السقف.

استهجن جون كلامه؛ لأنه وجده غير مفيد.

على الفرنسيين أن يبتعدوا عن إنكلترا، هذا هو كل شيء.

حسب الطاقم كانت سفينة «بِلِروفون» أيرلندية وليست إنكليزية. في معارك عديدة أحدثت بمدافعها الأربعة والسبعين ضجيجاً، وجلبت الموت. كانت سفينة مشهورة. لا أحد يعلم لماذا يعمل فيها هذا العدد الكبير من البحارة الأيرلنديين. كان البحارة يطلقون عليها «الفتوّة» أو «البلطجي». في عام 1786 كانت عنيدة بما يكفي، إلى درجة أنها نزلت إلى البحر قبل موعدها، ودُشنت اضطرارياً بنصف زجاجة من نبيذ «البورت». كانت «بِلِروفون» في عمر جون تماماً. ماثيو أيضاً خدم على ظهرها كضابط صف. التمثال الخشبي المثبت في مقدمتها يصور شيطاناً مكشراً عن أنيابه، بالتأكيد شيطان إغريقي مثل الأعور المثبت على قوس سفينة «بوليفيموس»، وكان مثله بلا ذراعين.

كانت السفينة تختلف حقاً عن «إنفستيغاتور»! خشب سميك في كل مكان، وحبال ثقيلة، وطرق رحبة، وعدد لا يحصى من البشر، وجنود من ذوي المعطف الأحمر(*)، وبعضهم يرتدي زياً أزرق أيضاً، وكانوا متخصصين في مدافع الجبهة. الحُمر والزُرق كانوا يتدربون يومياً على سطح المركب، المساكين! كان طاقم البحارة ينظر إليهم في شفقة واحتقار، عندما يتحركون وفق الأوامر العسكرية: عمّر السلاح، شد الأجزاء، إلى اليمين سِر، وإلى الخلف دُر! وحدهم السكان الأصليون من أستراليا كانوا يبتهجون حقاً بسماع الطبل ومشاهدة المسيرة العسكرية. مؤخراً كان عليهم

(*) هكذا كان يُطلق على جنود الجيش البريطاني نسبة إلى المعطف الأحمر الذي يرتدونه.

أن يتدربوا مع الجنود بالعصي، فحولوا الاستدارات والحركات المفاجئة الكثيرة إلى رقصة. انتوى جون أن يتأمل في أحوال البشر. إذا كانوا حقاً يتعلمون، فلا بد أن يظهر عليهم شيء من ذلك.

لا يكاد يوجد واحد في الفريق، ولا بين الجنود العاديين، لم يُجند بالإكراه، وذلك بالخمر والضرب. كان هناك بعض النساء، طوعاً، أو ربما أجبرهن أزواجهن. كنّ يسكنّ الطابق السفلي، ويرتدين السراويل، ويختلفن في مظهرهن عن أي بحار آخر. لم يتحدث أحد عنهن، وما لا يتحدث عنه أحد، فهو غير موجود. ولم يكن ذلك يثير دهشة أحد على سفينة أيرلندية هي نفسها تسير متنكرة كسفينة إنكليزية.

إلى أين؟ يقولون إلى برست. حصار ميناء، عملية لا تنتهي. الجميع سيئ المزاج، ناهيك عن المجندين بالإكراه.

يقع مطعم ضباط الصف في أسفل طابق تحت مستوى الماء. الهواء هناك خانق. على الموائد علب سيجار، وشاي بالروم، وفطائر، وجبن، وغلايين، وسكاكين وشوك، وناي، وكتب ترانيم، وفناجين شاي، وبقايا من لحم الخنزير، ولوح من حجر الشيست. وحولها: ضجر وتعارك بدافع من الضجر، ثم هناك الحكم والمواعظ الصادرة من بانت ذي التسعة عشر عاماً، الذي يعتقد أنه يعرف كل شيء:

– النساء في الثلاثين تقريباً هن الأفضل!

اعتاد أن يعلن مثل هذه الأشياء. يتحدر من قرية بالقرب من ديفونبورت، أهلها بالتأكيد سعداء؛ لأنه انضم للأسطول.

– الثلاثينيات يعرفن كيف تسير الأمور. لديهن كل ما لدى العشرينيات

أيضاً، ولا يضيعن وقتاً! واللائي في الأربعين تقريباً يكن غالباً أفضل وأفضل!

والفورد –أكبر مَن في المطعم– نفخ دخانه في الهواء قائلاً:

– والآن، اخرس!

ثم بعد برهة:

– إنك تردد ما قاله لك أحدهم. أرجّح أنه في السبعين.

سيطر الغضب على بانت، ولكن قبل أن يقول شيئاً، أو يفعله، تلقى ضربة بالناي على أصابعه، فظل جالساً كالمشلول من الألم. بهذه السرعة كان والفورد. كما أن الأكبر سناً محق دائماً، هذا هو أحد المبادئ التي لا بد من الدفاع عنها في مواجهة نابليون.

بدأ البؤس بالنسبة إلى جون مع ملل الآخرين. مَن لم يتعلم الوحشية، فعليه على الأقل أن يكون قادراً على الوقاحة. في الأسابيع الأولى لم يلق جون الاحترام من أحد تقريباً. رغم ذلك لم يفقد تفاؤله. كان يعرف أن وضعه سيتغير. بين الحين والآخر كان يسأله أحدهم النصح والمشورة: سيموندس، أصغر البحارة الذي جاء من بيت والديه مباشرة إلى السفينة.

في بعض الأحيان كان جون يفكر في المستقبل. ماذا يفعل واحد مثله عندما تنتهي الحرب؟ ضابط صف بدون سفينة لا يحصل حتى على نصف الراتب. أن يستوطن أستراليا مع شيرارد؟ ولكن أين يبحث عنه؟ لم يعد جون الأصغر في السفينة. كان سيموندس في الرابعة عشرة، وهنري ووكر في السادسة عشرة.

الإبحار جيئة وذهاباً أمام برست طيلة الخريف والصيف! بحّار مثل جون يتحمل هذا. تعلم شفرة الإشارات الجديدة، وقرأ كل الكتب التي وقعت بين يديه.

ستنتهي الحرب. أراد محاولة الالتحاق بشركة الهند الشرقية.

كان يشعر بالشفقة تجاه سيموندس. عندما يرشق والفورد في المساء الشوكة في المائدة على نحو احتفالي، وكما هي عادة البحارة، عندئذ كان على البحارة الصغار أن يغادروا المطعم، ويذهبوا إلى قمراتهم. كان يُقال: إنهم ما زالوا في طور النمو وفي حاجة إلى نوم أكثر، لكن تلك حجة لا أكثر، كان الهدف الحقيقي هو إذلالهم. عندما لا يستيقظ سيموندس قبل بداية نوبة الحراسة -وكان ذلك يحدث بسهولة؛ لأنه كان ينام لدى المشرف على المدافع في الطابق السفلي- كان بانت يذهب للبحث عنه، وللضغط من أسفل على الأرجوحة التي ينام فوقها إلى أن يسقط. كان الصغير يُمنى بالخدوش والأورام مثل جون آنذاك. وكان عموماً يحصد التهكم من كثيرين. كان عليه أن يتعلم أبسط الأشياء. لم يكن، حتى، يعرف كيف يربط حبلاً. كان ذلك يرجع إليه أيضاً؛ إذ كانت تنقصه الجدية. بدلاً من أن يتعلم، راح يحكي عن كلبه في بركشاير. كان صبياً بشوشاً، يحب الحياة السهلة، لطيفاً دائماً ومستبشراً، لكنه كان يبحث عن حبل رفع الشراع الرئيسي العرضي في الشراع الأمامي. أمسك جون به، وقال:

- عليك ببساطة أن تشغل مخك! لا يمكن أن يكون الحبل إلا في الصاري العرضي!

شرح له أيضاً أشياء معقدة. بمرور الوقت لاحظ أن- حتى- الكبار يعرفون أقل منه. لم ينس جون شيئاً قط، رأسه يشبه مخزناً ممتلئاً عن آخره. في البداية شعروا بالغضب من ذلك. لكنه لم يتوان عن توصيل علمه إلى الآخرين؛ لأنه عدّ ذلك من واجباته، إذا كان الآخرون في حاجة إليه. بعد نصف عام كان الجميع يعرفه على نحو كاف، وكانوا يقابلونه باحترام، كما توقع. وفي المسائل المهمة كانوا يسألونه عن رأيه، ويعطونه الوقت الكافي

ليجيب. قال لنفسه: لن أستطيع الوصول إلى أكثر من هذا. ولكن بقي خطأ ما: رحى الحرب دائرة.

انقضى الشتاء. أخيراً غادروا برست! وجاء ربّان جديد، جيمس كوك، رجل رشيق أصلع بذقن مشقوقة. يبدو نبيلاً مثل برنابي، وكثير الابتسام. كان كوك أحد رجال نيلسون المخلصين، وكان يعرف كيف يحمّس بحارته. ما زال نيلسون بعيداً جداً، يطارد جزءاً من الأسطول الفرنسي. لكن كوك حوّل السفينة من الآن، كأن الأدميرال يقف بجواره على السطح العلوي في الكوثل. ألقى خطباً عن الموت والمجد والواجب، وجمع بين ذلك كله بلطف عظيم. كان يصغي بانتباه إلى كل شخص، لكن دون أن يُصدر ردود أفعال واضحة. ربما كان يتظاهر بالإصغاء فحسب، غير أن الجميع أحسوا بأنه يهتم بهم اهتماماً أسمى مما اعتادوه. كأن عصراً جديداً من الحرية والخير قد بزغ: لم يعد بانت يشكو، وقدم والفورد المساعدة والتشجيع، وحاول الجميع أن يكونوا أفضل. هذا ما أحدثته بضعة كلمات فحسب نطق بها القبطان! جون وحده راح ينصت إلى صوته الداخلي: «لم ألاحظ بعد شيئاً!» كانت لديه شكوك قوية، لا سيما تجاه كلمة «المجد». المجد: أن يريد الإنسان أن يكون أفضل. لكن من هو الطرف الأفضل في المعركة؟ هذا شيء ليس مضموناً. وعموماً، لا يبرهن الموت بشكل أكيد على أي شيء. ألقى جون خطاباً داخل عقله. تحرك اللسان خلف الشفتين المضمومتين. بسرعة كان الأمر واضحاً بالنسبة إليه فيما يتعلق بالمجد. أما فيما يتعلق بـ«الشرف» فقد توقف لسانه، وراح يقلب الكلمة على وجوهها كافة. الشرف موجود. لكن ما زال عليه أن يفحص كنهه بدقة.

أبحرت «بِلِروفون» إلى قرطاجنة في إسبانيا. أعيد طلاء التمثال

الخشبي المثبت في مقدمتها. وزار السفينة نيلسون شخصياً. سيد رقيق حازم، يعرف أيضاً كيف يبتسم. عندما وقف أمام طاقم «بِلِروفون»، تحدث بنبرة هامسة، تكاد تكون نبرة رجاء. بدا رجلاً مفعماً بالعشق، عشق المجد، وعشق أشباهه. وعلى هذا لم يعد هناك أحد، بعد برهة، يريد ألا يكون شبيهاً بنيلسون.

قال جون: «لم ينقل حماسته إليّ». هذا النيلسون يبدو واثقاً تماماً من أن الجميع سيفعلون ما يحبه هو، ما فعلوه أيضاً. هو يحب المجانين، وهكذا بدا الأمر مغرياً أن تصبح مجنوناً من أجل إنكلترا. وفجأة أصبح البحارة الذين جُندوا بالسُخرة، والجنود الذين يُعاملون بقسوة، عازمين على بلوغ البطولة. إنهم مؤمنون الآن بأنهم جزء من أسمى ما أفرزته الكرة الأرضية. عليهم أن يظهروا ذلك فحسب. يُلزِم الشرف كل فرد أن يفعل ما لقي المديح بشأنه. الشرف هو نوع من البرهان الذي يجب تقديمه لاحقاً.

«ما المقاومة التي يصادفها السيف في لحم الإنسان وفي ضلوعه؟ وما هي قوة جدار القلب؟»، هذا ما أراد سيموندس البالغ من العمر أربعة عشر عاماً أن يعرفه. ووكر البالغ ستة عشر عاماً قال له مؤكداً: «عليك فقط أن تريد، عندئذ يسير الأمر بكل سهولة!» كانوا يشعرون جميعاً بعنفوان القوة، ويتحرقون شوقاً إلى موقف مفعم بالتوتر، به موت وفزع حتى يروا ما إذا كانوا سيتغلبون عليه بالهدوء أم بالزهو الطائش. كل مَن لم يمر بذلك كان يريد أن يعرف. كان ينضم إليهم جدد دائماً، فشعر جون بأنه عجوز. كان يراقب بحدة الفتى سيموندس؛ لأنه كان يود أن يعرف بأي سرعة زادت حماسته الوطنية. هل هي أقوى في المساء عنها في الصباح؟ وهل تنبع من الباطن أم تأتيه بالأحرى من الخارج؟

ما زالت السفن الفرنسية والإسبانية تحت حماية مدفعية قادس.

أبحرت «بِلِروفون» وتقابل الأسطول كله هناك. ذات مساء قال جون في المطعم:

- لست مهيأ للقتال، وسرعتي هي ثلاثمئة وثلاثون لفة في الدقيقة!

لم يُسر أحد بسماع ذلك. قال والفورد:

- لا أعتقد يا فرانكلين أنك شخص «فالصو»! لكن تنقصك الحماسة!

كان جون يعرف جيداً جداً ما هو «الفالصو»، فهو يعرف كل شيء على السفينة: «الفالصو» كانت أجزاء وهمية تبرز من بوابة المدفع عندما يصلحون المدافع، أو ينقلونها إلى البر. لم يكن يريد أن يكون بحاراً وهمياً. خلال العمل بذلَ الآن جهداً مضاعفاً. يعمل من جديد كضابط إشارة. كان يتقن كل القواعد، ويعرف كل الأخطاء وكيفية تصحيحها. أراد أن يكون مجيداً في عمله، حتى لا يفتقد أحد الحماسة لديه.

سمع أحد الملازمين يقول:

- إن أسمى أفكار البشرية هي التضحية بالذات. إننا لا نذهب إلى المعركة كي نقتل، بل كي نخاطر بحياتنا من أجل إنكلترا.

جملة ثمينة يجب كتابتها في كراسة الجمل المأثورة، لو كان جون ما زال يمتلك واحدة. أثناء حديثه كان الملازم يتفحص وجوه المستمعين. على وجهه لاح شيء يشبه الرضا المهيب، كأنه يقول لنفسه: ما زال كل شيء هنا، ما زال كل شيء واضحاً، لم أرتكب خطأ بعد.

كثُر الحديث عن الشجاعة. لو كان للكلمات مفعول يدوم طويلاً، لَحمَلَ الرجال هذه الشجاعة معهم إلى المعركة. كان كثيرون يهدفون أيضاً إلى الترقي، لأنهم اعتقدوا أنهم لن يُعذبوا في الفترة التي تعقب البطولة. كانوا يفكرون أيضاً في أن الذين يموتون بين أفراد الطاقم لن يزيدوا عن

متين، أو ثلاثمئة، من بين ألف، وأن هناك دائماً ناجين حتى في السفن المحترقة أو الغارقة.

رسا الأسطول الإنكليزي جنوب غربي قادس، وبزغ الصباح. فطور، توزيع حصص الروم، إعداد السفينة للقتال. وضع بانت الفنجان قائلاً:

- عصر مجيد! ونحن نقاتل إلى جانب نيلسون!

أصبح هو أيضاً يتكلم كهذا. ورغم أنه كان ينظر نظرة متوقدة مثل كلب قبل الصيد، فإن كلماته بدت محض تقليد. لا عجب، فهو من ديفونبورت. كان الأمر مختلفاً مع سيموندس. كان يشعر حقاً بشيء عظيم، وكان يظن أنه لمس الحقيقة بيديه. قال: «أريد الآن أن أعرف!». صدقه جون.

ألقى جيمس كوك خطابه الأخير:

- نحن في طريقنا إلى الأبدية!

ابتسم، وأضاف:

- أعطوا أفضل ما عندكم، أفضل من المعتاد، فقط المزيد قليلاً وستكونون أفضل من الفرنسيين ثلاث مرات.

كيف حسبها؟

أُقيمت نقطة الإسعاف في مطعم صف الضباط. من فرط حماسته لم يعد سيموندس يسير كما يسير الناس، كان يركض فحسب، كأن المسألة مسألة حياة أو موت. ربما انقلبت حياته السهلة إلى قوة وشجاعة. لاحظ جون شيئاً شبيهاً لدى أفراد الطاقم. في بعض الأحيان فحسب بدا أن عجلة البطولة تصدر صريراً أثناء دورانها، كأن بعض الزيت ينقصها. على السطح الأمامي سمع جون الجملة التالية:

- الموتى ينظرون إلى الأمر نظرة مختلفة.

حفظها حتى يستطيع أن ينطقها بسرعة، ثم صوبها تجاه والفورد. مازالت لدى جون ثقة في أن المعركة لن تنشب.

لكن عندئذ صاح أحدهم من برج المراقبة: «سفن غريبة!» لم يمر وقت طويل حتى أضحى البحر، على مدى الأفق، أبيض من كثرة الأشرعة. بقي جون هادئاً تماماً، لكنه شعر وهلة كأنه يشم هواء ثلجياً. صار أنفه بارداً. صف غير منتظم من حصون عائمة، تبحر في اتجاه الشمال، وتملأ ثلث الأفق الشرقي. لقد غادروا المرفأ إذن، ثم عادوا، والآن يحاولون العودة إلى قادس.

لا بد أن للبرد سبباً باطنياً. كان جون يقف إلى جانب الملازم الثالث على السطح العلوي في الكوثل. هذا هو مكانه. لكنه شعر بالغثيان.

- إشارة من سفينة القيادة، سيرا

- وما الأوامر؟

لاحظ جون: أن الرجفة عاودته. لم تكن الإشارة من الإشارات التي تعلمها. كانت تبدأ بـ «253»؛ أي «إنكلترا». لا بد أن ثمة تشويش. لم يفهم جون الأمر، عليه أن يواصل السيطرة على معدته. النظرة الثابتة لم تهبه الوضوح المعتاد. كادت أنفاس جون تتوقف، وكان في موقف دفاع. لن يصبح أبداً مثل نيلسون. لن يصبح أبداً واحداً من عصبة الرجال هذه، حيث كل فرد مستعد لأن يصدق كل ما يقوله الآخرون، وأن يصدق حتى تحليه بالشجاعة حتى النصر. المهم ألا يتقيأ على سطح المركب، بهذا فكر، فشيء كهذا يعادل البصق على التاج الملكي. لم يكن يريد ذلك بأي حال من الأحوال. هبت رياح خفيفة من الشمال الغربي. قال الجميع:

- بسرعة إلى المعركة! بسرعة!

لم يعد لديهم وقت، بصورة ملحة كانوا جميعاً في حاجة الآن إلى المجد، على الأقل حتى تنتهي المعركة. لكن الأجواء البطولية لم تستمر إلى الأبد. أسوأ ما يمكن أن يحدث الآن هو ألا تنشب المعركة. سبع وعشرون سفينة حربية إنكليزية تتهادى مع الأمواج صوب العدو، ترافقها هبة ريح لا يوثق في استمرارها، عدة آلاف من الرجال يتطلعون إلى الأمام، هياكل عظمية، عضلات، دهون وأعصاب، جلد، أوعية دموية وعرق، وأدمغة عقدت العزم على الغضب الأعمى. رهنوا دماءهم قبل بدء المعركة. من بعيد بدا ذلك مهيباً ومُهدِداً. أما إذا نظرنا من قريب، فقد كان المتدرب يريد أن يصبح ضابط صف، والمساعد مسؤولاً عن التموين والإمدادات، والملازم الخامس ملازماً رابعاً. تعجب جون من البشر، كيف يكون بمقدورهم أن يبدوا غرباء. لكن، ألم يكن القتال ضرورياً؟ لا شيء من كل ذلك به شبهة الجنون! رفع صوته قائلاً: «الدفاع عن إنكلترا!»، لكن ذلك لم يجعله في وضع أفضل. ماذا يهم تلال سبيلسبي إذا كان الفرنسيون في هذه البلاد أم لا؟ ليس الخوف هو الذي أصابه بالشلل، بقدر ما هو التردد. ماذا عليه أن يفعل؟ لا يريد أن يرتد إلى العناد الذي سيطر عليه في «إرل كامدن». حَمْلُ الموتى والنظر مثل الجبال؟ لقد فعل ذلك بسبب الرجفة فحسب. الإمكانية الأخرى هي رؤية الأمور مثل أسقف كلوين: هو، جون فرانكلين، كان الروح البشرية، وشخص ما يمسك مرآة أمامه، ويعكس فيها كل شيء؛ ليرى ما إذا كان سيعترض إذا ساء الوضع. أراد أن يجرب الإمكانية الثانية: لا شيء حقيقي، الأكيد هو أن كل شيء مجرد مظهر.

رغم ذلك شعر بأنه وحيد ولا فائدة منه. حتى السفن بدت له الآن غريبة تماماً. لكنه بحار على سفينة حربية، ولا يستطيع أن يغير مهنته في

معمعة المعركة. كزّ على أسنانه، ورفع الراية ذات الإشارة المبهمة على الصاري. أخذ نفساً عميقاً بقدر ما يستطيع، ثم راح يعمل وفق خطة. تتبعت نظرته المحدقة الخط الذي يشطر السفينة إلى نصفين، فرأى كل التحركات كأنها على الهامش. ساعده ذلك قليلاً، وعاد إليه الهدوء. وفي تلك اللحظة تحديداً حدجه روذرام، النقيب الأول، بنظرة حادة:

- فرانكلين، إنك ترتجف!

- سير؟

- إنك ترتجف!

- نعم، نعم، سير!

لا بد أنه هو أيضاً يعتبره بحاراً «فالصو». إذا كان كل فرد هنا يصدق شجاعة الآخر، لماذا يستثنونه من ذلك؟

هبط الربان إلى الطابق الأسفل، وأعلن إشارة نيلسون. تصبب الرجال عرقاً، وابتسموا، وهللوا. يريدون الآن سماع الكلمات الكبيرة دون أن يشبعوا منها. بالطباشير الذي أخذوه من حصة دروس الملاحة كتبوا على مواسير المدافع: **بِلِروفون، الموت أو المجد**. في البحر اقتربت منهم سفينة فرنسية ذات مدافع على طابقين. ومنها انطلقت الطلقة الأولى.

أنشد أحد البحارة شيئاً ما، وانضم إليه الآخرون. السفينة كلها كانت تزأر مثل عملاق بصوت معدني:

NO FEAR OF THAT![*]

مرة بعد أخرى، بصوت يهدد ويستحث:

NO FEAR OF THAT!

(*) أي: لا خوف (من ذلك)!

شعر جون كأن هذا التهديد موجه إليه.

رفعوا القُلُع السفلية فبدت كأنها ستائر. وشرعت المدافع الأمامية في إطلاق النيران. كان جون يعرف ما سيعقب ذلك: دخان، وشظايا، وصرخات مزدوجة، وصرخات جماعية، وأخرى فردية. والرجفة الملعونة. وقف جون على سطح السفينة الخلفي، لا يبعد إلا أربع خطوات فحسب عن جيمس كوك، الذي علق رتبته على كتفيه. يا إلهي، إنه يعرض نفسه للموت! إنه يقدم لهم أفضل هدف!

رقد محتضرٌ على الأرض، وهمس:

NO FEAR OF THAT!

كان ذلك هو أوفرتون، المشرف على الأشرعة. مع بحار أيرلندي حمله جون إلى أسفل، ووضعاه على تلك المائدة التي رشق فيها والفورد شوكته في كل مساء طيلة عام. مَن كان يمسكه الطبيب بين أيديه، لم تكن حالته أفضل.

– سأعود إليهم ثانية يا مستر أوفرتون، لا أستطيع أن أتركهم وحدهم.

لا إجابة. على ما يبدو: إنه يفضل أن يموت قبل العملية.

التنفس بهدوء! السطح الخلفي. خط منتصف السفينة. النظرة الثابتة على كل شيء، وعلى لا شيء: نظرة طائر. أطلق الفرنسيون النار على الأشرعة فتمزقت وتهلهلت. سفينة العدو كانت تواجه بيسراها ميمنة «بِلِروفون» مباشرة، ولا تتوقف عن إطلاق النيران. والآن أتاهم أمر اقتحام «بِلِروفون». كالعاصفة هجم مئتا رجل من سطح السفينة الفرنسية الأمامي، وهم يزأرون، برقت النصال في الضوء. خلال ثوان تسببت الأمواج في ابتعاد كل سفينة عن الأخرى، فسقط المهاجمون في الهوة

الفاصلة. تحركت أياديهم في عنف بحثاً عن شيء تمسك به، ثم اختفوا وقد أمسك كل منهم الآخر مكونين عنقوداً بشرياً، نظرتهم مندهشة حتى وهم يسقطون. زهاء عشرين جندياً وصلوا إلى سطح «بِلِروفون» الأمامي، فقُتلوا فوراً. حول جون وجهه إلى الاتجاه الآخر. تعرضت السفينة الآن إلى القصف من ثلاث جهات.

سقط جيمس كوك صريعاً.

- سير، سنحملك إلى أسفل!

قال القبطان:

- كلا، دعوني أسترح عدة دقائق فحسب!

عندئذ صرخ سيموندس:

- هناك! الناحية الأخرى، على الصاري الخلفي!

في فوضى الصواري والحبال المتشابكة رأى جون ماسورة بندقية. تعرف إلى قبعة ثلاثية، وتحت جبهة نحيفة محمرة تعرف إلى عين خلف المهداف. قرر تجاهل ذلك، ورفعَ بحاراً أسود البشرة أصابته رصاصة. وحمل آخرون القبطان إلى أسفل. عندما هبط جون وسيموندس بالأسود على السلم، تقوس الرجل ثانية.

صاح سيموندس:

- إنه الرجل على الصاري العرضي مرة أخرى، إنني أعرف هذا الصوت!

حقاً، بالإمكان الآن التفرقة بين الرصاصات المفردة بعد أن قلّت النيران الصادرة عن البندقية.

- إذا لم يُقتل بالرصاص، فسيقضي علينا جميعاً!

إنه إذن رجل بمفرده يهدد الجميع ببندقية وعين حادة النظر، مفتوحة على اتساعها وسط فوضى الحبال. من يحاول قتله، سيكون التالي.

لم يعد الأسود يتنفس. توقف قلبه. تركاه راقداً واستدارا عائدين. قال سيموندس:

– دعني أركض في المقدمة، أنا أسرع!

ركض كالريح فوق السلم، ثم قفز فجأة وبخطاً ثقيلة تأرجح يمنة ويسرة مثل حيوان مفزوع، ولم تجد قدماه الدرجة الأخيرة فوقع في أحضان جون.

كان ثمة ثقب في وسط عنق سيموندس.

لا بد أن الفرنسي يصوب على الدوام في اتجاه السلم. وقد يقف اثنان هناك في الأعلى، الأول يعمّر البندقية، والثاني يطلق النار. حمل جون سيموندس على ذراعيه إلى أسفل. همس الصغير:

– شرف أكثر من اللازم!

فجأة يقول مثل هذه الأشياء! لم يكن سيموندس كبيراً إلى درجة أن يطلق النكات، أم أن هذه نكتة الآن؟ لحظة ظل جون يفكر في الأسقف الأيرلندي ونظريته. لقد خذلته إلى أقصى حد.

في تلك الأثناء صدرت حشرجة عن المصاب، صوت متأوه ممدود خرج من حلقه.

شقت رصاصة الدرابزين أمامهم. بجسد سيموندس كان على جون أن يضغط على الشظايا حتى تعود إلى مكانها. قال لنفسه: لا أستطيع أن أحملهم كلهم إلى أسفل. لن أحمل أحداً بعد الآن، سأبقى في الأعلى. في نقطة الإسعاف بدا أن سيموندس لا يزال حياً. أما كوك فقد فارق الحياة.

انتاب جون غضب هادر، خانق. حاول أن يعيد الصفاء إلى ذهنه، بأن راح يستعيد ألوان أربع الإشارات الأخيرة:

- 4، 21، 19، 35.

كان جيداً أن يتدرب المرء في كل مناسبة على أبسط الأشياء.

نصحه د. أورم يوماً بالإصغاء إلى صوته الباطني لا إلى الآخرين. ولكن ماذا يفعل مع الخوف؟ برهة ظل جون واقفاً بذارعين متدليتين. قال لنفسه: غبياً أبدو، بل -حتى- جباناً. عن حق يضحك الآخرون عليّ!

لا يستطيع المواصلة، لم يعد يستطيع أن يظل مشاهداً بعد الآن. تأوه سيموندس، وأسلم الروح. حاول جون بنظرته المحدقة أن يتحاشى النظر إليه. لكنه أخفق.

عليه أن يفعل ذلك، عليه أن يصعد إلى فوق! النأي بالنفس كان حلماً! تلاشى التردد من رأسه. لكن الجسد تمرد الآن. شُلت القدمان، والتصق لسانه بحلقه، وارتجف فكه، ويداه، أكثر مما سبق. حافظ جون على هدوئه، أراد أن يرى إلى أين سيصل. عمّر أول بندقية في الطابق السفلي. تقيأ خلال ذلك، ولطخ السلاح. كان عليه أن يمسحه، ثم صعد إلى الطابق المتوسط. وجد هناك بندقية ثانية مُعمرة. البندقية الثالثة عمرها له بجانب السلم الأعلى جندي من البحرية وهو يتأوه، ثم سلمها إليه. لديه الآن ثلاث بنادق. كان يعرف أنه لن يقدر على التصويب طالما ظل يرتجف خوفاً وغضباً. عليه أن يستجمع قواه، أن يطرد الغضب، وأن يسمح للخوف بالتسلل خارجاً، أن يزحزح الاشمئزاز، وعليه ألا يتوقف عن كل ذلك قبل الأوان. ماذا سيستفيد إذا حمّل نفسه كل الذنب، لكنه لا يصل إلى الهدف! رفع البندقية الأولى من خلف الساتر، من فوق رأسه، وحاول أن يوجهها

إلى الصاري الخلفي في السفينة الفرنسية، دون أن يظهر منه سوى يديه. كان عليه تقدير كافة الزوايا والمسافات من الذاكرة. خلف يده اليمنى في خشب السلم ظهر فجأة منخفض فاتح اللون. سمع أيضاً الطلقة وأزيز الرصاصة. وفق ذلك كان بإمكانه أن يحدد الزاوية على نحو أدق. صحح الاتجاه.

صاح أحدهم خلفه:

- أسرع وأطلق النار!

لكن جون فرانكلين -الذي كان بمقدوره أن يمسك الحبل في الهواء ساعات- كان لديه أيضاً الوقت للتصويب. أراد ألا يصوب إلا إذا كان متأكداً من أنه سيصيب. انتظر. مرة أخرى استجمع كل تركيزه ليكوّن صورة كاملة واضحة: الزاوية، والارتفاع المُقدَر، والشكوك التي تغلب عليها، والمستقبل الأفضل. ثم أطلق النار. رمى البندقة وأمسك بالثانية، وجهزها للتصويب ثم أطلق النار مرة أخرى، ثم تناول الثالثة وتلمس طريقه صاعداً السلم. أما زال القناص هناك؟ أصبحت فوضى الصواري والحبال أكثر تعقيداً الآن؛ إذ إن الشراع العلوي الممزق في السفينة الفرنسية قد غطى على مكان القناص. بدون تغطية أطلق جون النار مرة أخرى على الصاري الخلفي. لم يتحرك شيء هناك.

على السطح الخلفي كان يقف الملازم روذرام وحده. والفورد كان على سطح السفينة المعادية بعد حصوله على أمر بالاقتحام.

في تلك اللحظة رأى جون كيف كانت الريح المارة تحت الشراع العلوي الممزق تدفع إلى البحر قبعة مثلثة. تحت الشراع العرضي ظهرت فجأة قدم معلقة. حركة ضئيلة فحسب، قدم هبطت بوصات قليلة؛ لأنها

لم تعد تبحث عن شيء تستند عليه. ثم صرخ أحد البحارة الأيرلنديين: «انظروا، هناك!».

سقط القناص المعادي، برأسه أولاً، كأن رأسه فحسب يريد السقوط، ثم تبعه الجسد بعد مقاومة، وهو يبحث دائماً عن سند في العوارض وامتدادات الصواري، إلى أن تحتم عليه السقوط في البحر.

صرخ المسؤول عن الصيانة:

- لقد أُصيب!

فقال جون:

- لا، أنا الذي أصبته.

على سطح «بِلِروفون» الخلفي، وعلى الجزء العلوي فيها فحسب، قُتل ثمانون رجلاً أو أصيبوا إصابات بالغة، حتى إنهم كانوا في الحقيقة يحتضرون. الناجون كانوا منهكين للغاية، ولم يكن بمقدورهم أن يهللوا. كاد السكون يخيّم على كلتا السفينتين. فاحت في الأجواء رائحة عفنة.

مات سيموندس. لقد عرف الآن ما أراد معرفته.

بصوت متحشرج قال والفورد:

- قد تكون محقاً في هذه النقطة، الموتى ينظرون إلى الأمر نظرة مختلفة.

وحده بدا أنه يريد أن يستريح بالكلام. هناك الكثير من العمل، وهناك أيضاً إشارات لا بد من فك شفرتها. لقي الأدميرال نيلسون حتفه برصاصة. أصبح كولنيغوود القائد العام. انتقل والفورد مع الملازم الخامس إلى السفينة الفرنسية «إيغل»، ومعهما أمر بالاقتحام والاستيلاء على الغنيمة،

وانتقل هنري ووكر إلى السفينة الإسبانية «موناركا» حيث كان البحارة في معظمهم أيرلنديين.

هبّت عاصفة عاتية، وعاثت فساداً أكبر من ذلك الذي شهده جون قبل أربعة عشر عاماً في خليج بسكاي(*)، وأغرقت العاصفة سفناً أكثر مما فعلته المدافع. والمهم أن الغنائم ضاعت. قال البحر كلمته، وكان عليهم أن يسدوا الثقوب، ويثبتوا أعالي الصواري، ويفرغوا المياه إلى أن سقطوا في حالة إعياء كامل. طيلة الليل كافحوا حتى يبحروا بعيداً عن الشاطئ الخطير.

هدأت العاصفة في الصباح الباكر. سار جون إلى الطابق السفلي، وجلس حيثما اتفق بين المصابين، وقد تبلدت مشاعره. كان مرهقاً إلى درجة لم يستطع معها التفكير ولا البكاء، ولا حتى النوم. ترك نفسه نهب الصور التي كانت تظهر وتختفي، وجوه بشر تعود عليها: موكريدج، وسيموندس، وكوك، وأوفرتون، والبحار الأسود. انسل القناص الفرنسي بينهم، ثم فجأة نيلسون. يا له من تبذير! «لا شيء من أجل شرف البشرية». كان عليه أن يتأمل لاحقاً فيما فعله هو. رأته إحدى النساء جالساً. والأرجح أنها اعتقدت أنه يبكي، فصاحت: «مهلاً، مهلاً!» أبعد جون قبضته من أمام جبهته، وأجاب:

- لا أستطيع أن أسترجعهم كلهم. إنهم يختفون دائماً بسرعة.

قالت المرأة:

- المرء يتعود على ذلك، وعلى أشياء أسوأ لا تعرفها بعد. هنا شيء لتشربه.

(*) يقع خليج بسكاي على امتداد المحيط الأطلسي على الساحل الغربي لأوروبا، ويستمد اسمه من إقليم الباسك الإسباني. ويتسم برياحه العاتية وأمواجه العالية.

تمنح النساء بتدبيرهن المنزلي الذي لا يتزعزع الحربَ وجهاً بديهياً لا تستحقه. كانت تلك إحدى النساء الشاحبات، ذوات النمش على وجوههن. كانت مع الضابط أمين الخزينة الذي لقي نحبه. بعد مرور ساعات لم يعد جون يعرف ما إذا كان قبّلها، ولا حتى إذا ضاجعها، ولا إن كان كل ذلك من خيالاته فحسب. رؤية حسب مفهوم الأسقف. لا شمس على كل حال، لا حاضر.

ما زال عمله جيداً موثوقاً فيه. «أستطيع البقاء يقظاً والعمل طيلة ست وثلاثين ساعة»، كان يقول ليتشبث بأي شيء، فالنصر على الفرنسيين لم يمنحه الكثير. لكنه لاحظ: أن عدد ساعات الفترة المنصرمة لم يعد يعني إليه شيئاً. وهو لا يعرف أيضاً ما إذا كان قَتْل شخص بالرصاص يُعد عملاً. من بعيد رأى إشارة من «أوريالوس»، سفينة القيادة الجديدة التي يقودها كولنغوود. صدرت الأوامر بعودة السكونة «بيكل» إلى لندن؛ كي تنقل أخبار النصر. لحظة تخيل جون القائد لابنوتير، الرجل ذا الأنف الطويل، وكيف سيظهر في لندن، وبكل بلاغته سيقول ثلاث كلمات فحسب، ستجعل الجميع يقفز ابتهاجاً: «انتصرنا في ترافلغار».

رست «بِلِروفون» في سبتهيد أمام بورتسموث. أمام الساحل كانت قلعة «ساوث سي» تبرق براياتها، وإلى يمينها كان المرء يتعرف بمنظار جيد إلى السفن الحربية المتهالكة التي خرجت من الخدمة، والتي يجب الآن أن تستقبل أسرى الحرب من الفرنسيين. طُليت أبدان السفن العملاقة العتيقة باللون الرمادي، ونزعت عنها الصواري، وزودت كل سفينة بسقف عال هرمي وعدة مداخن. بدت السفن مثل منازل قبيحة تقف فوق الماء. وما السفينة بدون صوارٍ؟

لا تزال نشوة النصر الصاخبة سائدة في شوارع بورتسموث، أم أن

الأمر بدا هكذا فحسب؟ قد يرجع ذلك إلى الخمر وحده، فاليوم هو الأحد، وعمال الحوض الجاف لا يذهبون إلى الترسانة.

رأى جون أذرعة الإشارات في برج إشارة المرفأ تتحرك حركة دائبة. لقد أُرسلت مرة أخرى إشارة إلى قيادة البحرية، وستنتقل من تل إلى آخر حتى تصل إلى لندن. لا بد أنه تأكيد آخر على النصر، فشيء كهذا تحب قيادة البحرية أن تسمعه مرة بعد أخرى.

سلك جون أسرع طريق يصله إلى «كيبل رو»، ومن بين المنازل الواطئة الكثيرة عثر على المنزل الذي يبحث عنه.

من باب ماري تطلعت عجوز لم يكن يعرفها.

- أي ماري، هنا لا تسكن ماري!

- ماري روز، كانت تسكن هنا!

منذ فترة طويلة استطاع أن يتذكر وجهها ثانية. وهذا هو منزلها.

- ماري روز؟ لقد غرقت.

وانغلق الباب. في الداخل سمع جون قهقهات. طرق الباب مرة أخرى إلى أن انفتح. قالت العجوز:

- لا أحد هنا اسمه ماري. أم أنك تقصد السيدة العجوز في المنزل المجاور... ماذا كان اسمها...

- لا، شابة هي، بقوسين عاليين فوق العينين!

- لقد ماتت، أليس كذلك يا سارة؟

- كلام فارغ يا ماما، لقد انتقلت لتعيش في مكان آخر. كانت مجنونة.

- وحتى لو! هذه هي العاقبة على كل حال!

سأل جون: «وأين هي الآن؟».

- لا أحد يعرف.

قال جون:

- ليس لامرأة مثل حاجبيها.

- إذن، ستعثر عليها. ولكن الآن لدينا أشغال.

قالت العجوز ذلك ودخلت ثانية. لحظة ترددت الأصغر منها سناً، ثم قالت:

- دعك منها. أعتقد أن مَن تبحث عنها لم تعد هنا، أعتقد أنها في المَغزَل أو شيء كهذا. لم تعد تستطيع دفع الإيجار على الأرجح.

المَغزَل هو مأوى الفقراء. ثمة واحد في شارع «واربلنيغتون». سار جون إلى هناك، وطلب أن يتحدث مع ماري روز. تأسف البواب قائلاً: إن واحدة بهذا الاسم غير موجودة هنا. في الخلفية كان رجل مسن يصرخ مراراً: «جرذان، جرذان، أغيثونا!» أضاف البواب:

- حاول في بورتسي. إلم رود.

بعد نصف ساعة وصل جون إلى هناك. مأوى فقراء آخر، محاط بسور سميك. لم تكن هناك نوافذ، وإنما فتحات في الجدران فحسب، ومنها يمد البائسون عنقهم إلى الخارج ويتسولون من المارة. أيادٍ هرمة مصابة بالنقرس تمتد خارجاً، وبينها أذرع أطفال. كانت المديرة لطيفة جداً:

- ماري روز؟ إنها التي قتلت طفلها. لم تعد هنا. ستكون في «وايت هاوس» الواقع في «هاي ستريت». هل تعنيك في شيء، يا حضرة الضابط؟

توجه جون مرة أخرى إلى المدينة. إذا كان هذا مأوى للفقراء، فكيف سيبدو السجن؟

هزّ حارس «وايت هاوس» كتفيه قائلاً:

- هنا لا، على أي حال. ربما في إحدى السفن المخصصة للمجرمين، أو قد تكون رُحلت إلى أستراليا. يمكنك أيضاً أن تحاول في السجن الجديد في «بيني ستريت».

سار جون إلى هناك. كان الظلام قد هبط. في «بيني ستريت» سمع أنه لا يمكن فعل شيء قبل الصباح.

ولأنه عقد العزم على أن ينام ليلته في سرير، استأجر غرفة في فندق «ذا بلو بوستس» الغالي؛ إذ لم يجد غرفة شاغرة في مكان آخر. لم تكن لديه رغبة كبيرة في رؤية زملائه في «بِلِروفون». عليه أولاً أن يعثر على ماري روز، حتى لو أخرجها من إحدى سفن المجرمين.

طلع الصباح. بلا مشاكل وصل جون إلى قاعة العمل في السجن. رافقه أحد الموظفين. رأى أشخاصاً منهكين ويائسين ينزعون الألياف من الحبال القديمة المشبعة بطبقة من القطران إلى أن تدمى أصابعهم. أتى موظف آخر. نعم، ماري روز موجودة هنا، لكنها خطرة ومتمردة، وتصيح ساعات في أغلب الأحيان. لماذا يريد أن يراها؟ قال جون:

- أحمل لها تحيات من عائلتها.

كرر الموظف متشككاً كأنه صدى:

- عائلتها؟

ثم أضاف:

- حسن، ربما يهدئها ذلك.

وأحضرها له. كانت المرأة تسير بسلاسل، ويداها خلف ظهرها. لم تكن ماري روز، على كل حال ليست التي يبحث عنها جون. كانت شابة

تميل إلى البدانة، لون وجهها يشي بالمرض، وذات نظرة متبلدة تماماً. سألها جون عن ماري روز الأخرى التي سكنت في «كيبل رو». عندئذ ضحكت فجأة. كاد منظرها يكون لطيفاً عندما ضحكت مقوسةً أنفها. قالت له:

- ماري روز الأخرى... هذه كانت أنا.

ثم شرعت في الصراخ؛ فأخرجوها من الغرفة.

أخذ جون يتجول في المدينة وهو يفكر. وقف في الظهيرة طويلاً أمام أحد المطاعم البسيطة المخصصة للمحتاجين، وسأل عن حاجبي ماري المقوسين. مرة أخرى سمع بعضهم يقول «لقد غرقت»، إذ كانت هناك سفينة تحمل هذا الاسم.

غير ذلك لم يكن أحد يعرفها مطلقاً، أو كانوا يعرفون نساء كثيرات يحملن هذا الاسم. لم يلفت نظر أحد عينان متميزتان، فهم أيضاً لا يمعنون النظر. كيف كان بمقدورهم أن يفعلوا ذلك: ألا يمعنوا النظر؟! إنهم يبددون كل شيء جيد بعيونهم البليدة. قد يحسبون أنفسهم شيئاً مُبَدداً.

لاحظ أن البؤس يثير اشمئزازه.

ظل جون ثلاثة أيام في المدينة. تردد على أكثر المطاعم بؤساً، وهي كانت في المعتاد تحمل أسماء تطفح زهواً، مثل: «الأبطال». بل لقد ذهب حتى إلى المطعم سيئ السمعة «نمر السفينة» في ساحة كابستان. لا شيء! سأل هناك ثلاثة عاطلين من العمل، كانوا يعملون في الحوض الجاف. كانت لديهم هموم أخرى. وغد اسمه برونيل وضع ماكينة جديدة، يمكن بها أن يقوم عشرة عمال غير مؤهلين بتصنيع عدد من الرافعات يومياً، مثل الذي كان يُصنّعه سابقاً مئة عامل متخصص. أراد الناس الحصول على بارود لتفجير هذا الشيء. نصحهم جون بألّا يفعلوا ذلك، ثم واصل مسيره.

سأل ما يربو عن مئة بحار، وزهاء ثلاثين من البغايا، وطبيبين، وكاتباً في دار البلدية، بل لقد سأل حتى في مدارس الأحد الإنجيلية. في حانة «ثروة الحرب» أظهر له أحد الرجال الطاعنين في العمر عضده المتغضن بدلاً من أن يعطيه إجابة: وعليه رأى وشماً في صورة امرأة عارية جميلة كانت في الأيام الخوالي ذات صدر ناهد وشعر غزير، وأمست الآن في حالة يُرثى لها بسبب تجاعيده الكثيرة. أعلى المرأة قرأ جون «ماري روز» وتحتها: «الحب».

في الختام وجد بغياً قالت له:

– كنت أعرف واحدة تشبه وصفك، لكن لم يكن اسمها ماري روز. لقد تزوجت من فترة، تاجراً أو صانع قبعات من ساسكس. لكنني لا أعرف اسمها الآن.

باتَ نعلا جون نحيلين. كان يشعر بكل حجر. وبعد فترة جلس عند تقاطع أحد الشوارع على عربة يد، وحار في أمره. راح يحملق أمامه وقال:

– إذن، هذا أيضاً من الممكن أن يحدث.

ستبحر «بِلِروفون» قريباً. صندوق البحارة الخاص به ما زال على سطح السفينة. ليس على المرء بالضرورة أن يذهب إلى حيث يكون صندوقه. بعد المعركة انشق عن الطاقم في أول فرصة سنحت له، الرجلُ الذي رفع الإشارة الكبيرة المبهمة على سطح «فيكتوري»، بحار برتبة متدنية اسمه رووم. لم يكن جون يريد ذلك بأي حال من الأحوال. لا يخطر على باله أيضاً ماذا يستطيع عندئذ أن يفعل. لم يسمحوا له بمغادرة البحرية والالتحاق بشركة الهند الشرقية، ماذا يفعل إذن؟ بالإضافة إلى ذلك، لم يعد لديه سوى الزملاء. على الأقل يعرفهم. يشعر بصعوبة أكثر من أي

وقت مضى في أن يتحدث مع أي شخص، أو أن يبوح لأي شخص، بأنه لم يعد يعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل. نهض لكي يذهب إلى المرسى.

«الدفاع عن إنكلترا»، قال، وابتسم تلك الابتسامة الهزيلة التي لم يكن يحبها لدى الآخرين.

آخر من سأله عن ماري روز كان صبياً صغيراً. لم يكن يعرف هو أيضاً، لكنه تشبث بجون، وأراد أن يعرف شيئاً عن الحيوانات في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. جلس جون، وحكى له عن حيوان الورل العملاق، وهو نوع من السحالي يسمى «سالفاتور».

لقد راقب الورل في تيمور. لكنه الآن يشعر هو نفسه بالدهشة لأنه يتذكر، رغماً عنه، أشياء مريرة عديدة بخصوص هذا الحيوان الغريب.

- السالفاتور لا يهرب. لكنه أيضاً لا يحب القتال، هذا شيء ضد طبيعته. إنه ذكي مثل إنسان، ويحب الأصدقاء. لكنه بالكاد يتحرك، في معظم الوقت يجلس ساكناً، ولهذا لا يجد إلا القليل من الأصدقاء. وهو معمر، أكثر من الحيوانات الأخرى كافة؛ لذا يموت أصدقاؤه قبله.

تساءل الصبي نافد الصبر.

- وماذا يستطيع إذن؟

- إنه متواضع وأليف. لا يضايقه سوى الدجاج، وهو يلتهمه إذا استطاع. ما يرقد مباشرة أمامه، لا يتعرف إليه أحياناً على نحو جيد...

- من الأفضل أن تحكي لي كيف يبدو!

- له حراشف عالية فوق العينين، وفتحتا منخار بيضويان، وعلى جلده الأسود نقاط صفراء. ذيله طويل ومسنن، واللسان رقيق. به يتحسس كل شيء بعناية فائقة.

قال الصبي:

- أعتقد أنني لا أحبه، لا، ليس كثيراً. وهو بالتأكيد سام.

أجاب جون بحزن:

- لا، ليس ساماً. لكن الناس يعتقدون ذلك؛ لذا ينبغي عليه أن يتحمل الكثير. السنغاليون يعذبونه بإلقاء الحجارة عليه، وبالنار.

قال الصبي بحسم:

- إذا كان بطيئاً إلى هذا الحد؛ فالذنب ذنبه.

نهض جون:

- بطيء؟ ظاهرياً فحسب. إن أسرع عدّاء في العالم لا يستطيع اللحاق به، وهو يستطيع أن يرى عن بعد، أميالاً بعد الأفق!

بهذه الجملة سار مبتعداً، وكان ذلك وداعه لبورتسموث.

كان منهكاً إلى أقصى حد. لا يعتقد في هلاكه الشخصي، ولكن بدا له أن كل شيء قد انتهى، على نحو لا يستطيع تحديده، حتى إن استمرت حياته. لم يعد يستطيع البكاء كطفل، على الأقل؛ لأنه لم يعد يعتقد أن البكاء يغير شيئاً في العالم. في المقابل عَشّشَ في قلبه هَم مقيم، هَم خجول، ودائم. إنه متأهب، ومع ذلك مختبئ، يحمل الهم اسم ماري روز، لكنه يمد أصابعه إلى كل شيء آخر. لا يريد جون أن يهلك: هيأ نفسه مرة أخرى؛ كي يساير الأمور. لقد تحاشى بكل قوته أن ينمي موهبة الاستياء لديه. وقد حصد المديح بسبب ذلك، ونال رتبة ملازم. لم يكن ذلك بالقليل.

طيلة عشر سنوات ترك لصندوق البحرية اتخاذ أهم قرار بالنسبة إليه: القرار الخاص بحياته الشخصية. كاد ذلك يكون أطول من اللازم.

الفصل العاشر

نهاية الحرب

أحدهم في الوحل يحرس المكان بجانب عربة المدفع المحطمة. رفع رأسه وحرك أصابعه، ثم كل يد من المفصل، وبعد ذلك الذراعين من الكتفين. وشرع يتحسس جسده. وسط جبهته ثقب نازف، ثم ثقب آخر في مؤخر رأسه. كان يشعر بألم شديد أيضاً في الضلوع وأحد الكتفين. لم يستطع تحريك الساقين.

ظل جالساً فترة وهو يحملق في حذائه العسكري الذي كان يرقد على الأرض في اطمئنان غير مفهوم. ثم استند على أطلال هيكل المدفع؛ ليقف محاولاً أن ينظر حوله.

على مسافة ضئيلة رقد إنكليزي ميت في المستنقع الذي مرت عليه أقدام كثيرة، وبعد خطوتين أمريكي، ثم إنكليزي، وكلهم بوجوه شائهة من الإنهاك أو الغضب، ما زال الأمريكي يمسك في قبضته بالسيف الذي رفعه عالياً فوق رأسه.

حاول المشلول أن يصعد على مرتفع صغير حتى يراه أي شخص. لكن الأرض المعشوشبة كانت تنهار سريعاً؛ فلا يستطيع الارتكاز عليها.

أخذ نَفَساً، ورنا إلى السماء. فوق السحب الصغيرة الدائرية المتصاعدة من البارود ظهرت تموجات رمادية حادة. بقيت الشمس مختبئة.

من حوله سمع تأوهات بعض مَن ظلوا على قيد الحياة. لم يجب أحد نداءه. على أطراف الأصابع علق تراب مما دهسته الأحذية العسكرية، التي ارتداها الإنكليز المهاجمون الذين يرقدون الآن هنا، والأمريكيون الذي شنوا هجوماً مضاداً.

على بعد عدة أميال كان هدير الحرب ما زال مسموعاً. أخذ المشلول يحفر بيديه حفراً حتى يستطيع أن يسحب نفسه إلى أعلى. لا فائدة تُرجى من الاستناد على جثث الموتى، هذا ما لاحظه بسرعة؛ إذ إنها كانت تهبط ثم تسقط كلية، ومعها المتسلق. الطقس بارد، وبدا أنه سيزداد برودة. منتصف يناير، وفوق ذلك الدماء التي فقدها. شيء يحترق بالقرب منه، وبين الحين والآخر يشعر بالاختناق من سحابة السناج السميكة.

من بعيد مشى رجل طويل، محني القامة بعض الشيء. لحظة بدا كأنه يرتدي الأبيض. كانت حركاته متحسسة، غير متناسقة. كان يتعثر مرة بعد أخرى في الأنقاض والأجساد، حتى إنه دهس صدر مصاب على نحو مؤلم.

والآن سُمع صوته أيضاً: «أعمى!»، صاح الرجل. «أنا أعمى، هل يسمعني أحد؟».

صاح المشلول:

- تعال إلى هنا!

بعد برهة اقترب الآخر. له فم مبتسم، لكن فوقه نصف وجه بدا كأنه مرسوم باللون الأحمر. قال:

- هل تستطيع أن تخرجني من هنا؟

- لا أستطيع أن أتحرك إلا بصعوبة. الساقان. لكنني أرى على كل حال.

- سأحملك إذن. قل لي فقط الاتجاه!

قال المشلول:

- نلنا شرفاً أكثر من اللازم!

حمله الأعمى على ظهره.

- إلى اليسار قليلاً! أكثر! والآن انهض! اسندني! هذا جيد.

طريقة الحركة الجديدة تتطلب بعض التمرين. في البداية سقط كلاهما من أعلى المنحدر الذي احتاج المشلول إلى ساعة حتى يصعد فوقه. تمددا هناك.

- لم أر الوتد.

ابتسم فم الأعمى، وإن اتجهت الابتسامة إلى الناحية الخطأ.

- أعمى يحمل مشلولاً، ماذا تتوقع إذن!

هذه هي سمات الحرب البرية: الرقاد المُرهِق، والزحف في الوحل، ورقاد دائم، ونهوض بعديد من الأوضاع. لكن، ليس ثمة وضع يمنح نظرة شاملة. كان الأمر كله يخلو من أي حرية. بحارة في حرب برية، يا للبؤس! اتفق المشلول والأعمى على ذلك. يكفي ما عايشاه: الانفجار في عربة الذخيرة، أو كيف تسللت السكونة الأمريكية على نهر المسيسيبي إلى المخزن الإنكليزي ثم دمرته بوابل من الطلقات النارية، أو كيف انفجرت سفينة «كارولينا»: «لقد رأيت قفازاً مشتعلاً يطير في الهواء. أخشى أنه كان

يدي أنا». لقد شارك المرء في حفر القناة بين بايو كالاتان والمسيسبي، وقاد المراكب التي حاولت الهجوم على سفن الأمريكان المزودة بالمدافع. في الليل جذفوا ستة وثلاثين ميلاً عكس التيار، لكنهم لم يصلوا إلا مع ضوء النهار، هدف جيد للقناصين على الجانب الآخر. لماذا نجا المرء دون إصابة من كل ذلك، ولأي غرض؟ اليوم هاجموا نيو أورليانز نفسها. معركة خاسرة. من ظل حياً، لن يبقى طويلاً على قيد الحياة.

ليس مهماً مَن منهما عاش تفاصيل أكثر بشاعة. عليهما الآن أن يعثرا على الطريق إلى داخل البلاد، حتى إذا كانت مجرد صحراء، ففيها على كل حال حياة أكثر من هنا. عليهما العثور على السكينة، في أي مكان، وعدم العودة بأي حال. لن يساعدوا أحداً، ولن يتلقوا مساعدة من أحد، الابتعاد عن هنا فحسب، بقدر الإمكان.

نظر المشلول عبر رأس الأعمى إلى الطبيعة المتأرجحة والمهتزة، ثم شرع يتحدث مع نفسه:

– أنا الآن في التاسعة والعشرين. عشر سنوات منها خدمة في الحرب. الأراضي المنخفضة، البرازيل، الهند الغربية. أخطأت في كل شيء. رغم أنني كنت أعرف الصواب. لكن سيتغير هذا. ما زال لدي وقت.

كانا على طريق معقول. بخطوات واسعة سار الأعمى صامتاً، دون حتى أن يذكر اسمه. لكنه بدا راغباً في الإنصات.

– في ترافالغار فقدت نفسي، وبعد ذلك أكثر فأكثر. مع أنني كنت أريد التخلص من الارتجاف فحسب. لم أعد أريد أن أظهر بمظهر الجبان أو الغبي، إلى الأبد. كان ذلك خطأ.

لا رد.

– قد يقود رأس الإنسان إلى الضلال. قد يكون رأساً خائناً، ويفسد كل شيء على المدى البعيد. لكنني أعتقد أن بإمكان المرء أن ينجو من الأخطاء التي تستمر طويلاً.

– إلى اليمين أكثر! حافظ على الاتجاه، وإلا درت في دائرة!

صمت الأعمى، وصحح الاتجاه، وواصل السير بخطوات واسعة.

– سأتحدث الآن عن النظر، سامحني. كل شيء مرتبط به. هناك نوعان: نظرة تهتم بالتفاصيل، وتكتشف الجديد، ونظرة محدقة لا تتبع سوى الخطة الموضوعة، ما يؤدي إلى السرعة اللحظية. إذا كنت لا تفهم ما أعني، فاعذرني، فأنا لا أستطيع التعبير عن ذلك بكلمات أخرى. إن مجرد النطق بهذه الجمل يرهقني.

لم يخرج الأعمى عن صمته، لكنه بدا مستغرقاً في التفكير.

– في المعركة ليس هناك سوى النظرة المحدقة، لا شيء غيرها. نظرة مهاجمة، تشبه الفخ لاحتمالات ثلاثة أو أربعة أخرى. هذه النظرة جيدة فقط إذا كان على المرء أن يلحق الضرر بالآخرين؛ كي ينقذ نفسه. أما إذا أصبحت عادة، فإن المرء يفقد مشيته، وتضيع طريقته المميزة في السير.

اتكأ المشلول إلى جذع شجرة وقتاً طويلاً، استراح فيه الأعمى.

– صرت مدمناً، مدمن حرب! هل قلت شيئاً أيها الأعمى؟ هل قلت: «عبد»؟

صامتاً تكور الأعمى على نفسه. واصل المشلول:

– أنا مشوش. إنني أرى عموداً يصعد من البحر، برجاً من المياه. الدنيا سوداء أمام عيني. كنا نحب نيلسون. لقد سلبنا طريقتنا في المشي، وزاد من سرعة النيران. لم نكن سنربح...

سمع الأعمى يسأل:

- أين نحن؟

وسمع نفسه يجيب:

- في الوطن، على الساحل، خلف سكيغنيس، عند البحر الألماني، غيبرالتر بوينت.

أغلق عينيه، وانزلق نحو الأرض.

سمع الأعمى يقول شيئاً، لكنه لم يعد يفهم ما يُقال.

«حالتك تحسنت الآن»، قال طبيب سفينة «بيدفورد» راضياً. «لم أر في حياتي شيئاً أكثر جنوناً؛ في الأمام ثقب، وفي الخلف ثقب، لكن الرصاصة لم تخترق الرأس، بل مرت من تحت الجلد على طول الجمجمة، من حولها، ثم خرجت! هذا شيء يصلح للبحث العلمي. لقد اعتبروك ميتاً يا مستر فرانكلين!

فتح المصاب فمه. من الصعب الحكم ما إذا كان فهم ما قيل. غير أن ذلك لم يكن مهماً بالنسبة إلى الطبيب.

- أرادوا دفنك. لكنهم وقفوا حائرين أمام لغز وصولك إلى الساحل، بعيداً جداً عن المرسى...

همس جون فرانكلين بشيء:

- أعمى...



- نعم؟

- ألم تعثروا على أعمى؟

- لا أفهمك، سير؟

– إنسان أعمى يرتدي ملابس بيضاء؟

اندهش الطبيب، ونظر إليه نظرة مهمومة.

– على مقربة منك لم يكن هناك أحد، ولا حتى ميت. لقد مرّت عدة أيام على ذلك... ربما كان ذلك مجرد...

– إذن فلست مشلولاً أيضاً؟

– مشلولاً؟ في الحمى كنت تحرك ساقيك كأنك تريد عبور قارة بأكملها. كان علينا أن نربطك.

– أي سفينة هذه؟

– سفينتك!

صمت فرانكلين.

– بيدفورد، مستر فرانكلين! إنك الملازم الثاني هنا! إنك مستر فرانكلين!

تطلع إليه المريض بعينين متسعتين.

– أعرف مَن أنا. الاسم فقط كان غريباً بعض الشيء.

ثم غفا ثانية. صعد الطبيب إلى الطابق العلوي؛ لكي يخبر الربان.

السلام. وحدها ميدالية الشجاعة تذكره بالهجوم الفاشل على نيو أورليانز. والعمل اليومي؛ إذ إنه أصبح الآن أكثر مشقة. كثيرون غائبون.

لم تكن ثمة ضرورة للمعركة، هكذا يقولون. للأسف وصل خبر اتفاقية السلام متأخراً. لكن، ماذا يعني متأخراً؟ هذا يعني أنهم لم ينتظروه الوقت الكافي!

كانت السفينة في طريقها إلى إنكلترا. في الأسابيع الأولى واصلوا

التحدث عن الهزيمة. خمسة آلاف وخمسمئة بريطاني في مواجهة أربعة آلاف أمريكي فقط، لكن البريطانيين فقدوا خلال ركضهم الأعمى ألفي رجل، أما الأمريكان فلم يفقدوا بفضل حصونهم المنيعة غير ثلاثة عشر فحسب، وحتى هؤلاء لم يلقوا مصرعهم؛ إلا لأنهم خرجوا من الحصون، وأرادوا أن يصبحوا أبطالاً.

عبّر فرانكلين عن رأيه في ذلك بالصمت البليغ. التحدث عن عبثية معركة من المعارك معناه إعطاء الحرب نفسها معنى. فضلاً عن أنه كان منهكاً للغاية. قال أحدهم:

- بسبب بعض مهربي البضائع والمنشقين المختبئين، لم يكن الأمر يستحق حرباً مع الأمريكان!

بالتأكيد يتخيل هذا الرجل أهدافاً تستحق الحرب.

- لم يكن ينبغي أن نشعل النار في واشنطن وبالتيمور. الأمريكان هم في نهاية الأمر أقارب لنا!

الحرب جيدة إذن، لكن ليست على الأقارب.

- لو لم يكن باكنهام هناك، هذا الجنرال المجنون!

- لو لم يحسن الأمريكان التصويب بهذا الشكل! أين تعلموا ذلك؟

- لم يكن يجوز منحهم الاستقلال!

تأوه فرانكلين، واستدار ناحية الجدار.

سمع مَن يقول:

- لم يَستَعِد عافيته بعد.

بعد ثلاثة أسابيع كان يؤدي الخدمة مرة أخرى. عاد إلى سيرته الأولى

تقريباً. أصبح الآن ما كانه من قبل، لكن في صورة أكثر وضوحاً. كان يتنفس على نحو مختلف، جسده مستريح، ولم يعد رأسه يريد أن يخبئ شيئاً، ولا أن يُفشي شيئاً، ولا أن يصل بالإرغام إلى شيء.

«لقد أصبح مختلفاً»، كانوا يقولون وهم يراقبونه بدقة. جون نفسه كان يفكر: لم أعد أشعر بالخوف. هل ما زال هناك شيء يمكن أن يترك لدي انطباعاً؟ كاد يصبح ذلك خوفاً جديداً.

القبطان، إسكتلندي، يدعى ووكر، محارب حتى النخاع، نحيل، عصبي، جيد المزاج دائماً، وإن كان يتجهم عندما تبدأ الأحداث في الاندفاع المتسارع. كان هو وياسلي -الضابط الأول- نموذجين للاقتصاد والدقة. كانا يعيشان على السرعة، مثلما يعيش آخرون على الشاي والروم والتبغ، أو الكلمات الطيبة. كانا يتعاملان مع جون في السابق معاملة جيدة ظاهرياً، لكن أيضاً من دون رحمة. دون جدوى كان يبذل أقصى جهده، وتعلم على كل حال أشياء كثيرة مقابل الثمن الذي دفعه. كلامهما ليس سوى إبلاغ شيء، أو إصدار أمر بفعل شيء. لم يتضمن قط ذرة من تعليق. عندما يكرران شيئاً، كانا يحافظان على منطوق الجملة السابقة، وهو ما يحول دون حدوث ارتباك. لكن، ورغم أنهما كانا بالاقتصاد يوفران الكثير من الوقت، فقد كانا يحاولان أيضاً الوصول إلى ما يريدان عبر سرعة اللسان. كان جون الضحية المفضلة لديهما. عبر جمل سريعة وأخبار غير كاملة كانا ينصبان في كل مرة فخاخاً له، صغيرة وكبيرة. أصغر فخ مثلاً، هو: أنه كان يهتم بأشياء أُنجزت منذ فترة طويلة: «لكنني قلت ذلك من قبل يا مستر فرانكلين!». وبنفاد صبرهما كانا يعذبانه عندما يستفسر عن شيء، أو يطلب تكرار ما قيل.

كل ذلك أصبح في عداد الماضي. فجأة أضحى جون قوياً إلى درجة

تَحمُّل نفاد صبر الآخرين، وبذلك انتهت لعبتهم. كان يتحرك بطريقته الخاصة، ويصدر أوامره مثلما يدق النجار المسامير، كل مسمار يُدق بشكل مستقيم وعميق إلى أن يثبت في الخشب. كان يُضمّن كلامه وقفات قصيرة حيثما أراد، وليس عندما يقاطعه الآخرون. تخلى عن النظرة الثابتة والنبرة المزمجرة، حتى إنْ كان الموقف حرجاً.

لم تكن رحلة العودة إلى الوطن مريحة. عدة مرات هبت الرياح وصارت عاصفة، وقبل جزر الأزور بقليل تعالت الصيحات: «نيران في الكوثل!»، وفي كل مرة كان جون فرانكلين الضابط الذي يتولى الخدمة.

لأنه كان يتقن مهنته، كان يعرف منذ أمد بعيد أن هناك من هو أفضل منه؛ فهو يفتقر إلى التصرف العاجل، وبدون أصدقاء حاضري البديهة كان يواجه صعوبات. لكنه اكتسب فجأة هؤلاء الأصدقاء.

- مستر وارن، تأكد من تمام عدد الحراس، تستطيع ذلك أسرع مني!

أدى ضابط الصف وارن ما يستطيعه على نحو أسرع، محققاً رضا رئيسه. وثق جون بآخرين، وفكر بعناية في مَن يثق وفي أي مناسبة.

من بين أسنانه قال القبطان ووكر:

- ليس الأمر بالنسبة إليه أسهل مما سبق، لكنه أصبح فجأة يعرف طريقه. إنه يعلم ما يستطيع، وما لا يستطيع. وفي ذلك إنجاز نصف العمل.

عقّب باسلي:

- وهو محظوظ أيضاً.

بعد ذلك تخليا بضعة أسابيع عن أي تعليق. وبحثا عن ضحية جديدة.

إذا كان السلام على الأبواب، فهو يعني الفقر. الضباط العاطلون من

العمل لا يحصلون إلا على نصف الراتب، ناهيك عن غياب الغنائم، أما ضباط الصف وطاقم البحارة فلا يحصلون على أي بنس. وكان الفقر منتشراً بالفعل في إنكلترا.

«ليست لدينا أي فرصة»، راح أمين الخزينة يسب ويلعن. فترة صمت متأمل. «إذن، علينا أن نستفيد منها!»، قال آخر مازحاً.

«الفرصة هي نحن أنفسنا». استدارت الرؤوس: فرانكلين. ليس معنى ذلك أنهم فهموه. لكن، إذا كان أحد يتمعن فيما يقوله، فهو فرانكلين. وهكذا راحوا يتأملون ما قاله برهة على الأقل. كانت لديه الشجاعة بأن يظهر طويلاً في مظهر الغبي إلى أن يصبح ذكياً، في هذه النقطة ينبغي على المرء أن يقلده. وفوق ذلك فإن جمجمته صلبة! لم تستطع أي رصاصة اختراقها. لا بد أن الرب قد أعد لفرانكلين شيئاً ما. كانوا يساعدونه حسب قدرتهم.

بعد الحديث مع الأعمى -الذي ربما لم يكن له وجود في الحقيقة- شعر جون بأن لديه قوة أكثر من أي وقت مضى. فوق ذلك جلبت له ندبة الجبهة احتراماً جديداً لا يمكن تفسيره، وهو ما زاده قوة على قوة.

الآخِرون سيكونون أولين(*)، قال لنفسه، وفكر خلال ذلك بعض الشيء في ووكر وباسلي، فهو لم يكن قديساً.

لقد حان الوقت حقاً كي يغدو قائداً.

السلام! إنه -حتى- السلام الثاني! بعد الأول نُفي نابليون إلى جزيرة إلبا، لكنه هرب من هناك وأصبح من جديد سيد فرنسا. الحرب مرة أخرى،

(*) إحالة إلى آية في الإنجيل (متى 19:30): «كثيرون أولون يكونون آخِرين. وآخِرون أولين.».

ثم الهزيمة الكبرى. بدا هذا السلام نهائياً الآن، لندن كلها كانت تموج بالرايات والأعلام.

أُقيمت الحفلات والولائم للضباط. خطب تكريمية، وهتافات احتفالية، وشمبانيا وبيرة.

وقف جون جانباً كأنه متفرج. رغم أنه لم يكن يعارض التهليل من أجل السلام في شيء. لكنه شعر أنه -عموماً- لا يصلح للحماسة المسيطرة على الجميع، والآن أقل من أي وقت مضى. لم يكن سعيداً بذلك. قال لنفسه: بشيء من الشعور بالواجب: لا بد أن أعمل على ألا أبتعد عن الأمة ابتعاداً تاماً.

مع ضابط آخر تحدث جون عن «إنفستيغاتور» وعن شيرارد. «ماذا؟»، سأله الآخر، «شيرارد لوند؟ هل أنت متأكد أن اسمه ليس جيرارد؟ لقد سمعت بشخص يدعى جيرارد لوند». طلب جون منه التفاصيل.

قال له: إن جيرارد هذا كان الملازم الثاني على سفينة «ليديا» خلال رحلتها إلى السواحل الأمريكية اللاتينية. كانت سمعته مريبة بعض الشيء. وكانت تربطه علاقة ما بالليدي باربارا ولسلي خلال الرحلة حول رأس هورن. بلى، بلى! لقد تدخل القبطان بنفسه، وعلى فكرة – نظر الحكاء حوله– كان التدخل مدعاة لسخط الليدي. اختفى لوند فجأة بعد معركة في عام 1812، وتنتشر شائعة تدعي أن القبطان نفسه...

لم يكن جون يهتم بقصص الغيرة، وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً: أن الآخر يخلط بين الأسماء.

شيرارد فيليب لوند يزرع الأرض في أستراليا، ويعيش ثرياً مبتهجاً: لم يكن جون يريد أن يشك في ذلك.

كان هيو ويلوبي، أحد أقرباء اللورد الحجري بِرغرين برتي، قد اكتشف الجزر قبل مئات السنين، حيث لا تعرف الشمس أياماً ولا ساعات. لم ينس جون ذلك قط. اكتسب الأمر الآن معنى جديداً بالنسبة إليه. جون فرانكلين، الملازم في البحرية الملكية، بلا عمل في الوقت الحالي، كان الوحيد الذي يعرف هدفه بدقة. مع الناس كان يحتفظ بحلمه لنفسه. لكنه كان يقول لنفسه بين حين وآخر: «لم يكن أحد بعد في القطب الشمالي!».

ولأن الشمس هناك لا تغيب، فقد كان متأكداً من وجود شيئين: مياه لا حد لها، وزمن بلا ساعات ولا أيام.

في لندن نزل جون في فندق نورفولك، حيث رأى ماثيو فليندرز آخر مرة. لقد نجح -حتى- في الحصول على الغرفة نفسها، كان ذلك مهماً بالنسبة إليه.

هناك، في الناحية الأخرى، جلس قبل خمس سنوات القبطان على الفراش، شاحباً محمر العينين من الأسر وكل الهموم التي يحملها. غيّر الفرنسيون ببساطة خريطة أستراليا، وأطلقوا اسم بونابرت وجوزفين بورانيه على خليج سبنسر وخليج سانت فينسنت، والوحيد الذي لم يكن ليسمح بذلك قط، القبطان نيكولاس بودان، كان قد لقي حتفه في العاصفة. ثم المعاملة كجاسوس، والاعتقال سنوات في مأوى رطب، والمرض، مسكين ماثيو!

القط تريم، صديقه الوحيد في موريشيوس، وجد نفسه في طنجرة طبخ السكان الأصليين الجائعين. أعطوا الفرو إلى ماثيو. في تلك الأثناء صححوا الخرائط، حتى ميناء فرانكلين أصبح موجوداً على الخرائط مرة ثانية. خليج تريم وحده -وهو خليج في أقصى شمال خليج بورت

فيليب- لم يعد له وجود. إذا أُقيمت مستوطنة هناك في يوم من الأيام، فلابد أن تُسمى مدينة تريم، عقد جون العزم على أن يبذل جهده لتحقيق ذلك، إنْ حصل على سلطة تؤهله لذلك.

لو كان ماثيو لا يزال على قيد الحياة، فكر جون، لأراد السفر هو أيضاً إلى القطب الشمالي. حتى يرى ما هناك.

أصبح د. براون -روبرت براون من سفينة «إنفستيغاتور»- من مستكشفي الطبيعة المعروفين. كان جون في حاجة إلى مساعدته من أجل مشروع القطب الشمالي، لذا راح يبحث عنه.

الوقت ظهيرة. بدا أن لا أحد يستطيع سؤاله في الجمعية الملكية. جلسوا جميعاً في القاعة يستمعون إلى محاضرة شخص يدعى بابيدج عن علم الفلك. وجد جون كرسياً واستجمع تركيزه. كان يعرف الكثير جداً عن النجوم إلى درجة أنه استطاع أن يتابع ما يُقال، حتى إنْ قيل بسرعة.

دخلت القاعة بعده سيدتان وجلستا في الصف خلفه. استدار جار جون وقال بصوت شبه عال: «منذ متى للنساء علاقة بالعلم؟ عليهن أن يبقين في بيوتهن ويطبخن البودينغ!» سمعت السيدتان ذلك. انحنت الأصغر سناً إلى الأمام، وقالت: «لكننا انتهينا من إعداد البودينغ! وإلا ما كنا هنا». بعد ذلك انفجرتا في الضحك، ونقلتا العدوى إلى آخرين، سمعوا الحوار. حانقاً سأل د. بابيدج الحضور عن المضحك في اكتشافات غاليليو، فهو يريد أن يشاركهم الضحك. لكن، كان واضحاً فوراً أنه لا يريد الضحك حقاً؛ إذ إن النجوم كانت بالنسبة إليه شيئاً أكثر جدية بكثير.

بعد المحاضرة سار جون إلى المرأة الأصغر سناً، وسألها عما تجده في علم الفلك مثيراً للاهتمام بشكل خاص. نظرت إليه نظرة استهجان،

وأجابت: أنها معجبة بتشارلز بابيدج. لم تكن تتحدث بجدية. وهذا ما اكتشفه جون بعد أسئلة محددة، ثم اعترفت هي بذلك في خاتمة المطاف.

كان صوتها صادحاً، وكانت تُسر بالأسئلة التي تستطيع أن تجيب عنها إجابات غير جادة. كانت تضحك بين حين وآخر، وتقفز على ساق واحدة. شابة مجنونة.

«رجلنا من مجلس الشريط الرملي!»، صاح د. براون. «هل ما زلت تتذكر، الشعاب العظيمة؟ لقد أضحيت عملاقاً! رجل لا يستطيع أحد إيقافه، هل أنا محق؟». فكر جون طويلاً جداً في الإجابة. لم يكن يحب مثل هذا الكلام، لكنه كان في حاجة إلى د. براون. رد قائلاً:

- من الممكن إيقافي، رأسي يقبل الحجج.

ضحك د. براون، وصاح: «إجابة جيدة!».

خلال كل تلك السنوات أصبحا غريبين عن بعضهما بعضاً.

تحدثا بعد ذلك عن ماثيو فليندرز، واقترب كل منهما من الآخر. لم ينس د. براون الربان الشجاع، وذكره بعبارات تفيض حباً واحتراماً.

- ولكن خسارة: لقد اخترع طريقة لمعادلة خطأ البوصلة عبر عصا معدنية، لكنه لم يكتبها قط.

أجاب جون:

- أعرف كل شيء عنها.

- ماذا؟ اكتب تقريراً يا مستر فرانكلين، بكل الحسابات والرسومات! سأقدمه للجمعية الملكية وقيادة البحرية. ويجب أن يحمل الاكتشاف اسم فليندرز.

- سأفعل.

عندئذ بدأ يتحدث عن القطب الشمالي. رفع د. براون حاجبيه عالياً، لكنه أصغى إلى كل كلمة بدقة. في النهاية وعد جون بتقديم دعمه. رحلة إلى القطب الشمالي، أو أي رحلة استكشافية أخرى، جيد! سيتحدث مع السير جوزيف ومع بارو. المال ليس متوافراً الآن، ولكن ربما...

- سأكتب لك في كل الأحوال ما وصلت إليه يا مستر فرانكلين، رفضاً كان أم قبولاً!

التقرير المكتوب أكثر صعوبة من التقرير الشفوي. بذل جون كل جهده طيلة أيام. والآن أراد أن يتفرج على لندن. ذهب إلى مقابلة إليانور بوردن، سيدة البودينغ، ورجاها أن تأخذه في عربتها ليتجولا قليلاً. ضحكت، ثم وافقت فوراً.

كان أبوها مهندساً معمارياً كبيراً وغنياً، شيد للملك قصوراً وبنايات مستديرة، وكانت هي ابنته الوحيدة.

قالت مقترحة:

- لنذهب إلى بانوراما معركة واترلو، يقولون إنها مصورة بشكل طبيعي للغاية.

تذكر جون أنها ألمحت إلى أنها تكتب الشعر. الأفضل ألا يدير دفة الحديث في هذا الاتجاه، قال لنفسه. لكن بمجرد أن جلسا في العربة، قالت:

- انتظر، سأتلو عليك قصيدة!

لم يكن جون في حاجة إلى الانتظار، فقد قرأت ثلاث قصائد فوراً. بدت القوافي جيدة، لكنها كررت كثيراً كلمتي «حسناً» و«حذار».

قال جون بنبرة مهذبة:

- لدي صعوبات بخصوص القصائد الغرامية. ربما لم أعد بعد سنوات الحرب الطويلة يقظاً لمشاعر الحب.

بُهتت الشاعرة وصمتت، وبعد عدة ثوان قالت: «حسناً...»، ولأنها التزمت الصمت، قرر جون أن يتلو عليها القصيدة الوحيدة التي يعرفها:

لا أحد يعرف مسبقاً الثمن

إلى أن يعلّمه الزمن.

إنها من مغامرات «جوني نيوكوم»، لكنها بالنسبة إليه قصيدة عن رحلات الاستكشاف.

ما زالت تلتزم الصمت.

أضاف بخجل أنه يحب القصائد القصيرة.

تمالكت إليانور نفسها. كانا قد اقتربا جداً الآن من البانوراما.

شارد اللب تطلع جون في الخيمة ذات القبة، إلى الأشكال القصديرية التي تمثل المحاربين وخيلهم. الجنود الصرعى، لا سيما من الرتب المتدنية، كانوا دائماً أصغر من الجنود الأحياء. في اللون أيضاً أكثر شحوباً، كأنهم تأقلموا على لون الأرض. اتخذ جون البانوراما مثالاً ليشرح لإليانور مزايا النظرة الثابتة ومساوئها. بعد ذلك تمشيا قليلاً في المدينة.

«غريب!»، قالت إليانور. «عندما تسير وسط الزحام، فإنك لا تتجنب الاصطدام بأحد. أنت تعتذر فحسب، هذا هو الفارق الوحيد بينك وبين الدب!» صدح صوتها. أخذ جون يفكر. قال لنفسه: إنها تراقبني. ربما تحمل لي تقديراً شخصياً. بدأ يهيئ جملاً يستطيع بها الإجابة عما تقول.

أثارت المدينة في نفس جون شعوراً بالغرابة الشديدة. تمنى لو سار الناس جميعاً بهدوء وعلى نحو واضح في طريقهم، واحتفظوا باتجاههم! لكن هناك دائماً انعطافات على غير توقع، وارتطامات تعسفية. كل ذكر تحت العشرين يشق طريقه ملاكماً شخصاً آخر من النوع نفسه. ودائماً، وبشكل مؤكد، كان جون يجد أمام قدميه إما المهاجم أو المصاب. ثم الحوذيون! مهموماً راح جون يحملق في هذه الكائنات ذوات القبعات المستديرة التي استغنت عن التفكير. كان الحوذيون يتسابقون في أكثر الأماكن صعوبة حتى تكاد العجلات أن تصطدم ببعضها بعضاً، ثم يسرعون بقدر استطاعتهم. لندن كلها بدت واقعة في عشق السرعة. جيد أن هناك أرصفة الآن، أي شرائط حجرية عالية على حافة طريق العربات. لكن إذا تقابل المرء هناك مع أربعة جنود سكارى، فإنه يهبط من الحافة، ويتعرض إلى خطر مضاعف. أما إذا ظل واقفاً حتى يلقي نظرة متمهلة، فإن المرء يتلقى فوراً خبطة من الخلف ويُدهس كعبه. وسط كل هذه الصعاب واصلت إليانور حديثها بصدر منشرح:

– ألا تريد أن تتعرف إلى أبي يا مستر فرانكلين؟

– أنا لا أستطيع إعالة امرأة.

كان قد تعثر في قضبان حديدية، وكان عليه أن يخلص كُمه من القمة المدببة. أضاف جون:

– أتلقى حالياً نصف الراتب، ولا أريد أموالاً غريبة، إلا إنْ كانت للرحلة الاستكشافية. لكن علينا أن نتراسل. إنني أنظر إليك بتقدير أيضاً.

بإمكان ميس بوردن أن تنظر من زاوية العين نظرات استهجان كما يحلو لها، على المرء أن يكون مستعداً لكل شيء.

قالت له:

- مستر فرانكلين، كان ذلك سريعاً جداً بالنسبة إلي!

عبثاً راح جون يبحث عن عمل. في المدن ذات الموانئ كان البحارة الجائعون والضباط المكتئبون يقبعون في كل مكان. معظم السفن تم تفكيكها، أو كانت مثبتة بالحبال عدة سنوات لاستخدامها كمأوى للأسرى، وهو ما حدث أيضاً لسفينة «بِلِروفون» القديمة.

تقلص وجه موظف إدارة البحرية، عندما قال له جون: إنه يريد أن يقوم برحلات استكشافية، وإلا فلن يبحر على الإطلاق. قال الرجل:

- كل شيء تم اكتشافه، علينا أن نحرس ما اكتشفناه فحسب.

بنبرة مرحة رد جون:

- أستطيع الانتظار.

كان ينظر إلى المستقبل بثقة. ألم يرقد قبل عام واحد في ساحة المعركة بساقين مشلولتين؟ لكنه تجاوز ذلك، - كيف؟ هذا ما لم يستطع أحد أن يقوله- ولم يمت، ولم يُجن، ولا حتى شُل. لا يعلم كيف حدث ذلك، لكنه شيء يمنح المرء شجاعة. الآن أيضاً لديه فرص ضئيلة، ألا يمكن أن يحدث مرة أخرى شيء لا يمكن تفسيره؟

سلّمَ التقرير عن التصحيح الذي قام به ماثيو للبوصلة، ثم قرر السفر إلى لينكولنشاير. أخبر د. براون وقلائل آخرين كيف يمكنهم الاتصال به، ثم ودعهم.

أمام «ساراسين هيد» في سنوهيل وقفت عربة البريد. كانت الساعة الخامسة عصراً.

سأله الحوذي:

- سبيلسبي؟ لا بد أنه مكان بطيء!

أكد التعليق حكم جون بخصوص وقاحة الحوذيين. لكنه عرف أنه ليس المقصود بذلك. كل مكان يطلقون عليه «بطيء»؛ إذا كانت عربة البريد لا تنطلق إليه إلا نادراً.

حتى يدخر، سافر جون «على السطح». مسروراً اكتشف أنه لم يعد يشعر بالخوف من السقوط. لم تكن خمس عشرة سنة من الإبحار عبثاً إذن.

من سطح العربة تطلع جون إلى الليل الذي أضاءه القمر. رأى العديد من أبراج الكنائس الراسخة ذات القمم المدببة التي راحت تبتعد، ومن تل إلى آخر تصبح أصغر فأصغر، وبيوت الفلاحين التي كانت تتلاصق برهبة.

فقر القرى وبؤسها كان يُرى من على بعد ميلين، بداية من الأسقف المرقعة ترقيعاً سيئاً، وصولاً إلى زجاج النوافذ المهشم. كان الحصاد سيئاً في هذا العام والعام السابق، والأهالي ينقصهم المال.

وفجأة أدرك لماذا كان الليل مضاء،هكذا، على نحو غير طبيعي: حريق! في مكان ما شرقاً، في اتجاه إيلي، كان هناك حريق، على الأقل في ثلاثة مواضع. ماذا حدث في هذا البلد؟ كان جون بحاراً، ولم يكن ينتظر أن يدرك كل شيء فوراً. ولكن المرء يشعر في الريف بشعور غير مريح بعد كل هذه السنوات.

كان يعرف على كل حال من الرسائل ما ينتظره في بيت العائلة: وجوه جديدة، ومال شحيح، وأخبار تنضح همّاً. 1807 انتحر توماس الأكبر؛ لأن ثروة العائلة تسربت من بين أصابعه في المضاربات. الجد توفي قبل ست

سنوات، والأم بعده بعام. الأب يعيش الآن خارج القرية بمسافة كبيرة في أحد بيوت الفلاحين. إحدى البنات ترعاه.

أظلم الأفق من جديد، واعترف جون لنفسه: أنه يرتجف برداً.

وصلا إلى بوسطن في الضحى.

سمع جون الأخبار الجديدة. هناك الآن «الاضيون»(*)؛ أي عاطلون عن العمل يدهنون وجوههم في الليل بالسواد، ويحطمون المناسج الآلية تحطيماً. وفي هورنكاسل حُفرت مؤخراً قناة للملاحة تؤدي إلى سليفورد، وهناك حتى مكتبة عامة أيضاً.

بدءاً من ستيكفورد صار الطريق سيئاً. في آخر مسافة سافر جون «في الداخل». كان قلبه يدق بشدة.

نزل من العربة في كيل، وسار بمتاعه في اتجاه أولد بولينغبروك حيث يسكن الأب. إذا كان لا يزال على قيد الحياة.

على مبعدة ما رأى على حافة الطريق كائناً يقف متأرجحاً ومستنداً على عصا. بدا الرجل كأنه في كل خطوة يتوقف؛ ليصحح مسيره. كان منشغلاً بذلك أكثر من أي شيء آخر يحدث حوله. هكذا يبدو الأب الآن إذن.

لم يتعرف إلى جون إلا من صوته، فهو لم يعد يرى تقريباً. قال شاكياً: «أنا تعبان». الزمن، الطاقة، كل شيء يتسرب من تلقاء نفسه، ناهيك عن المال. سأله جون ما إذا كان عليه أن يسنده أو أن يقوده. مد إليه ذراعه مثل سيدة. بطريقة ملتوية راح الأب يعتذر عن بطئه. تمعن جون في يده

(*) بالإنكليزية Laddte، والمقصود بهم -كما يشرح النص- العاطلون عن العمل في إنكلترا مع بدايات التصنيع وانتشار الآلات، من أتباع الجنرال «لاض» Ludd الذي أسس هذه الحركة للدفاع عن حقوق العمال.

التي كثرت فيها النتوءات والبقع والعروق البارزة، ثم مسح بإصبعه فوقها. تعجب الشيخ بعض الشيء.

تحدث جون عن الطقس البارد، وحكى له عن الرحلة. ذكر له هانتينغدون، وبيتربورو. سُر الأب بسماع أسماء مألوفة لديه، وكان ممتناً لنطق الكلمات واضحة، كلمة إثر أخرى. توقف قبل المدخل بقليل، ثم استدار مواجهاً جون، وتحسس وجهه:

– إنك الآن في بيتك. ولكن كيف ستواصل حياتك؟

الجزء الثالث

منطقة فرانكلين

الفصل الحادي عشر

رأس المرء والأفكار الغريبة

توقفت العربة أمام الوايت هارت إن في سبيلسبي، فسأل جون عن البريد.

لا رسالة من د. براون، لا عمل! إليانور وحدها كتبت رسالة طويلة، فهي تحب الكتابة. أجّل جون القراءة إلى يوم أفضل.

تغير الكثير في سبيلسبي. لم يعد إيسكوف العجوز ينتظر المسافرين والعربات التي تجرها الخيل. وجد جون شاهد القبر المُفضل بجانب برج سانت جيمس.

أُدين الراعي قبل شهور قليلة باعتباره مشعل الحرائق، ورُحِّل إلى خليج بوتاني. كان قد أشعل النيران في مخازن الغلال الثلاثة الكبيرة. لكن لماذا فعل ذلك؟ شعر جون بالأسف من أجله.

أما توم باركر فقد سطا عليه قطاع الطرق، وقتلوه عندما كان يتجول في الغابة. من المرجح أن يكون دافع عن نفسه، فمَن يقتل صيدلانياً عن طيب خاطر؟

لم تعد عائلة لوند تسكن في إنغ منغ. يقولون إنها رحلت في الليل بعد أن عبرت حدود القرية. كان هدفها شِفِيلد، مدينة الفحم حيث ترحب مضخات البخار بالوافدين. هناك يوجد عمل في هذه الأيام.

لم يسمع أحد شيئاً عن شيرارد.

عاد جون إلى بولينغبروك، وبوجه عابس قال لنفسه: أستطيع الانتظار!

مقابل جنيه وعشرة شلنات وستة بنسات اشترك في أول جماعة قراءة في هورنكاسل. كان المبلغ كبيراً، لكنه يتيح له أن يستعير عدداً من الكتب، يبلغ نحو ثمانمئة كتاب، وكان جون يريد أن يستفيد من فترة الانتظار.

مصطحباً كتاباً فيه وصف الرحلات التي قام بها كوك، صعد إلى العربة الذاهبة إلى لاوث. أراد أن يتحدث بإسهاب مع د. أورم عن القطب الشمالي.

لكن د. أورم كان قد توفي. في العام السابق انتكست صحته الجيدة فجأة. وجد جون في الكنيسة لائحة بكل ألقابه الأكاديمية والكَنَسية، وكانت كثيرة حتى إنهم حفروا الأحرف الأولى فحسب على اللوحة.

عند «الرقبة المكسورة» كان يسكن منذ فترة طويلة المعلم الذي خلف د. أورم. أعطى جون طرداً مختوماً ومغلفاً بجلد رقيق ومربوطاً عدة مرات، وعليه مكتوب: «إلى يد جون فرانكلين، الملازم في البحرية الملكية». خمّن المدرّس أنه إنجيل، وعرض على جون أن يجلس؛ ليرى ما في داخل الطرد، لكن جون رفض. فضّل أن يسير مرة أخرى إلى المدافن؛ لأنه أراد أن يختلي بنفسه عندما يقرأ السطور التي كتبها له د. أورم.

وجد مخطوطتين في الطرد. الأولى:

«نشأة الفردية
عبر السرعة
أو:
تأملات في المعيار الزمني الفاتن
الذي زرعه الرب
في نفس كل إنسان،
وذلك عبر مثال رائع».

أما الثانية فكانت تحمل العنوان التالي:

مقالة عن الإجراءات المفيدة
التي تصلح لبيان الحركة
للعين الكسول،
صالحة لتعليم بشارة
الرب
ونشرها، والابتهاج بها».

في الرسالة المرفقة لم يجد سوى السطور التالية: «عزيزي جون، اقرأ كلا الدفترين من فضلك، ثم أرسلهما إلي مرة أخرى. أود أن أسمع رأيك». ثم تحية، وتوقيع. كان ذلك كل شيء.

لم يكن ثمة سبب للبكاء. السطور قصيرة تشع مرحاً، وكاتبها لم يتوقع

الموت. بدأ جون فوراً في مطالعة المخطوطتين، كأن د. أورم ينتظر حقاً إجابة سريعة.

المخطوطة الأولى كانت تصفه هو، جون، دون ذكر اسمه. كان مكتوباً «التلميذ ف». انقبض صدره قليلاً دون أن يعرف السبب. انهمك فوراً في قراءة الثانية، لا سيما أنها كانت تضم رسوماً ملونة. بدت له الجمل في «الإجراءات المفيدة» أقصر بكثير منها في «نشأة الفردية».

خبأ جون المخطوطتين عن شقيقته، وعن كل الذين يسكنون البيت. لم يكن يريد أن يطلّع أحد على أفكار د. أورم، قبل أن يعرفها هو.

سار إلى النهر خارج القرية؛ كي يقرأ. في بولينغبروك كانت أطلال قصر ولد فيه يوماً ما أحد الملوك. على بقايا السور المنهار بجانب البوابة جلس جون طوال اليوم. عند النهر كانت البقر والماعز ترعى. وأحياناً كان يحوم حوله ذباب الحظيرة. واصل جون القراءة متحملاً قرصاته.

من أهم الإجراءات وأكثرها نفعاً في رأي د. أورم، هي: آلة الميوتوسكوب. وهي آلة ثُبتَ داخلها كتاب ضخم، وعبر نظام ميكانيكي قوي كانت الصفحات تُقلب بسرعة البرق. وعلى كل صفحة ثمة صورة مرسومة لا تختلف عن سابقتها إلا بفروق طفيفة. فإذا شوهدت صفحات الكتاب بأكمله في ثوان معدودة، كان ينشأ وهم أن هناك صورة واحدة، صورة متحركة. ادّعى د. أورم: أن خداع الحواس لا يحدث لدى الذين يتسمون بالبطء وحدهم، بل لدى كل الناس. لا بد أنه يعرف ذلك جيداً، فهو بلا شك قد جربها على مدبرة المنزل السريعة. انتوى جون أن يتحدث معها عن ذلك. ولكن أين الأجهزة؟ هل بيعت، أم فُككت، أم وضعت في عُلية ما عند «الرقبة المكسورة»؟ شعر جون بالفكرة الجديدة تأسره. انتوى

العودة في الغد إلى لاوث. كتب د. أورم أيضاً: كيف يمكن الاستفادة من اختراعه. لقد أراد أن ينقل الصور الناتجة عن التقليب البصري عبر فانوس سحري، وعرضها على جدار غرفة مظلمة. وبهذا كان بإمكان عدد من الناس أن يشاهدوا حكاية كاملة في صور متحركة، وهم جالسون جلسة مريحة. بلا كلمات سيدرك المشاهدون تتابع الأحداث، ويشاركون فيها دون أن يتعرضوا إلى الخطر، أو أن يرتكبوا أخطاء.

انتقلت عدوى الابتكار التي ميزت دكتور أورم إلى رأس جون، لا سيما وأن هناك بعض المشاكل التي لم تُحل بعد.

مثلاً، من أجل عرض حكاية طويلة كان لا بد من وجود عدد صفحات هائل. وكان لا بد أيضاً من مشاركة عدة فنانين شهوراً طويلة في رسم كتاب كهذا. إضافة إلى ذلك فإن حجم الصفحات الضخم ينطوي على صعوبات تقنية أيضاً. لا بد من تثبيت عدة كتب؛ ليحل دائماً، ودون تباطؤ، كتاب جديد محل الكتاب الذي وصل إلى نهايته. العائق الثالث كان العرض البصري. تشكك الدكتور أورم فيما إذا كانت هناك مصادر ضوئية قوية تُضيء ضوءاً كافياً.

لم تكن في ذلك مشكلة بالنسبة إلى جون. بإمكان الفنارات الجديدة أن تشع أميالاً بواسطة مراياها الفضية المقعرة، لا بد من استخدام شيء كهذا في القاعة أيضاً. بدا له أن الفنانين هم العائق الحقيقي. لم يكن يتصور أن ويليام وستال يستطيع أن يرسم آلاف الصور للطبيعة نفسها، مع تغيير طفيف فيها. سيرسم كل صورة بحدس مختلف وأجواء أخرى. من الواضح تماماً: أن الفنانين هم النقطة الأضعف!

اقترح د. أورم رسم لحظات مجيدة في التاريخ الإنكليزي، لحظات ليست حربية بقدر الإمكان، بل –في المقام الأول– صور للحياة المسالمة

والمنظمة في الدولة، «مثلما هو الحال في بانوراما حيوية». كان يفكر في: صور الصُلح والصلاة المشتركة، وفي العودة السعيدة للسفن، وفي نماذج من الشهامة والسلوك العطوف، تثير الرغبة في تقليدها. أما المعجزات الربانية فقد استبعدها منذ البداية. ليس إشباع خمسة آلاف إنسان أو شفاء الأبرص من الموضوعات المناسبة للرسم؛ لأن ذلك يعني محاكاة الرب.

هبط الظلام. راح جون يتأمل في معجزة إشباع خمسة آلاف إنسان، ثم وضع الدفترين في حقيبته، وتجول عائداً. كاد يضل الطريق؛ إذ كان مستغرقاً بعمق في التفكير فيما قرأه. كان يود الآن لو استطاع التحدث مع شيرارد لوند.

قبل أن يغفو بقليل هبّ مفزوعاً مرة أخرى.

غمغم قائلاً:

– ماكينات طباعة! ماكينات طباعة خاصة تطبع آلاف النسخ، ولكن مع تغييرها!

لكن، من أين المال؟

عندئذ استغرق في النوم.

في لاوث لم يكن لدى المعلم، أو مدبرة المنزل، أي معرفة بتجارب د. أورم. ولم تعد هناك أجهزة أيضاً. ما وُجد من أجزاء أو أذرع معدنية وخشبية، أو مسامير، بيع إلى عدة حرفيين. فضلاً عن ذلك لم يظهر في المخطوطات الأخرى التي عُثر عليها ما يشير إلى آلة الميوتوسكوب. مستغرقاً في التأمل سلك جون طريق العودة. الفكرة التي لا يمكن تحقيقها بسبب النقص في المال، هي: تضييع سيئ للوقت. إضافة إلى ذلك فإن شيئاً كهذا قد يعطله عن القطب الشمالي، وهو ما لا يهدف إليه.

لكنه لم يرد أن يبقى خاملاً في فترة الانتظار. عليه أن يعثر على أي شيء جاد، وبقدر الإمكان على شيء يُدر مالاً أيضاً.

أصبح سكان القرية وملاك الأراضي يعاملونه الآن على نحو أكثر انتباهاً؛ بسبب قامته والندبة على جبهته. ولم يعد أحد يسخر منه، أو يتركه واقفاً، ويمضي عندما يطلب منه أن يكرر ما قيل، بل كان يسمع في البداية اعتذاراً ثم إعادة لما قيل.

وبالنسبة إلى رجل بالغ كانت الحياة على البر شيئاً مريحاً للغاية.

لكن جون كان يريد أن يحاول محاولة أخرى. ثمة داعم محتمل لمشروع الميوتوسكوب بين أعضاء جمعية القراءة: الصيدلي بيزلي، وهو جامع أعشاب له وجه رقيق، ثري وشغوف. يعشق التاريخ الإنكليزي. أنصت جيداً إلى تقرير جون عن الاختراع، ثم قال:

- فكرة وجيهة! لدي فضول لمعرفة ما إذا كانت ستنجح.

لكن شيئاً ما بدا أنه يزعجه.

- لكن قل لي، مستر فرانكلين، لماذا فكر د. أورم في صور تاريخية؟ إن روح العصور لا يمكن اختزالها في صور.

خشي جون أن يكون الحق في جانب بيزلي.

- التاريخ، إذا دُرس بجدية، شيء مبهم. أما الصورة فهي مؤكدة.

الادعاء بعكس ذلك كان يبدو وهلة أولى صحيحاً دائماً، في أذن جون على كل حال. لم يرد الاستسلام؛ لذا راح يتحدث بإلحاح عن النماذج الجيدة، وكيف أنها تغير الإنسان نحو الأفضل.

- تغير الإنسان نحو الأفضل! هذا شيء لا تستطيعه سوى ثلاثة أشياء:

دراسة الماضي، والحياة الصحية في الطبيعة، وتناول الدواء عند المرض. أي شيء آخر لا يغير نحو الأفضل، أي شيء آخر هو محض سياسة أو تشتيت للذهن.

صار واضحاً لجون أنه لن يستطيع إثارة إعجاب هذا الصيدلي. هل عليه أن يحكي له عن القطب الشمالي؟ لكنه توقع الإجابة مسبقاً؛ لذا تحدث بعض الشيء عن نفسه فحسب. سُر بيزلي وأصبح أبوياً في سلوكه.

– البطء مزية عند دراسة التاريخ. إن الباحث يُبطئ الأحداث التي مرقت بسرعة آنذاك؛ حتى يستطيع عقله استيعابها. لكنه يظهر عندئذ للملك الذي يتسم بالسرعة: كيف كان عليه أن يتصرف بشكل عاجل في المعركة.

أُصيب جون بالدهشة. أيمزح الصيدلي؟ عسى ألا يكون كذلك. وعموماً، به شيء غير واضح وغير واقعي. لكن، سرعان ما تغير ذلك. فجأة راح يتحدث بحماسة شديدة، حتى إن جون اعتبره مرة ثانية رجلاً صادقاً.

– على بعد أقل من ثلاثة أميال من هنا! إنكليز ضد إنكليز! وحتى اليوم ما زالت عظامهم تظهر في حقول وينسبي عندما يحرثونها. تنمو هناك زهور مختلفة عن أي مكان آخر. هذا ما أعنيه، مستر فرانكلين، هذا الشعور! معرفة ما يمكن أن يحدث في بقعة ما على مر القرون. هذا ما يوسّع النظرة، ويوسع مدارك الشخص كله.

أدرك جون الآن ما يحرك مشاعر الصيدلي حقاً، فشعر بالاحترام تجاهه.

أضاف بيزلي موضحاً:

– توسيع الأفق، هذا هو أسمى ما يستطيع الإنسان الوصول إليه.

حاول جون فهم ذلك من منظور حساب المثلثات الكروية، لكن بيزلي كان قد تخطى هذه النقطة، وواصل كلامه:

- إنني أعمل على كتابة تاريخ لينكولنشاير مع الأخذ بعين الاعتبار تاريخ العائلات النبيلة. لا بد من تتبع أشجار عائلات، وقراءة الحوليات، وفحص علاقات الملكية، والاقتراب من رؤوس سامقة والشعور بمشاعرها. ساعدني في ذلك!

كان فك بيزلي يقفز علواً وهبوطاً خلال الحديث مثل فأر في المصيدة، ما يزعج المرء خلال الإصغاء إليه. تردد جون. أضاف بيزلي:

- التاريخ هو الإحاطة بالمجد وبالديمومة. إنه يجعلنا نسمو فوق الزمن.

اعترض جون قائلاً:

- لكنني بحّار.

- وأين سفينتك؟

أمعن جون في التفكير. القليل من الأشياء يكون البطء فيها فضيلة. السمو فوق الزمن، هذا شيء جذاب. لكنه لن يُدر مالاً.

بمرور الوقت لاحظ جون أنه عاطل من العمل، وأنه يشعر بنفسه معدوم الفائدة. لم يفكر في يوم من الأيام أنه، تحديداً هو، يمكن أن يشعر بالملل. لكن هذا نوع آخر من الانتظار غير ما عرفه سابقاً: كانت لديه مهنة، وكان لديه هدف. والآن توقفت حياته! كتب إلى لندن رسالة بعد أخرى، لكنه لم يحصل على أي رد، باستثناء رسالة تسويفية لا يعول عليها.

لا وجود للقدرات التي لا يستخدمها المرء. وربما لن يقدر المرء على استنفارها أبداً بعد اليوم؟

عززت القراءة اشتياقه إلى الفعل فحسب، بدلاً من أن تصرف انتباهه عنه. لقد تعلم أن يوفق بين الرأس والجسد على السفينة، وأصبح ضابطاً جيداً، واكتسب من القوة ما لم يحدث من قبل ولا من بعد. هل انتهى الآن كل شيء؟ نصف راتب، ليس هذا نصف الشيء فحسب، كلا، إنه لا شيء، شيء ممزق الأوصال، شيء مُهدِد، لا سيما ليلاً عندما يرقد صاحياً مثل ميوتوسكوب حي وحزين.

يقولون عن فلورا ريد، أرملة أحد الواعظين، إنها راديكالية. بحوزتها كتاب روبرت أوين «وجهة نظر جديدة عن المجتمع»، وكان الصيدلي بيزلي يقتبس منه في المناقشات الجدلية.

جلس جون مع مسز ريد عصراً بأكمله في مطعم «فايتنغ كوكس إن» في هورنكاسل. كانت لطيفة وتحترم الجالس أمامها. لم يشعر بالإرهاق إلا مما كانت تقوله.

الصور المتحركة لم تكن تثير اهتمامها هي أيضاً، فهي ترى أن «المرء يدرك الجوع والعوز بدون وسائل مساعدة. تكفي الحقيقة البسيطة للجميع، يكفي سماعها وقراءتها. من لا يستطيع ذلك، مستر فرانكلين، لن يصبح أكثر ذكاء بواسطة جهازك». شيء ما في هذا الكلام لم يكن منطقياً.

الآن طلبت بيرة خفيفة وفطائر. فرح جون بهذه الاستراحة؛ لأن الإصغاء إليها كان مرهقاً. صوت مسز ريد منخفض، فإذا تحمست لشيء لا يعلو صوتها، بل تزيد لثغتها فحسب. شعرها ناعم وأسود، ووجهها وديع. كانت عيناها تلمعان عندما تستشعر خطراً.

- الأفق الواسع؟ هل قال بيزلي ذلك؟ أظن أنه انتقل بالحديث من جمع الأعشاب إلى التاريخ. مستر فرانكلين، الأفق أمامنا وليس خلفنا! إنه دائماً هناك، كلما واصلنا التقدم، ألستُ محقة؟

كانت لديه اعتراضات على ذلك كملاح، لكنه لم يرد إزعاج مسز ريد. فضلاً عن أنها راحت تتحدث عن شيء آخر الآن:

- فكر في الجمارك على حبوب الغلة! فرنسا لديها حصاد وفير في المخازن، وبإمكانها أن تساعد الآخرين بهذه الوفرة. ينبغي ألا يجوع أي إنسان!

نظرت إليه نظرة بشوشاً، لكنها كانت مباشرة تماماً. فكر جون: أهي تحب النظر في عينيه، أم أنها ترسل نظرة محدقة تساعدها على ترابط حججها. لو كانت تتحدث بصوت أعلى قليلاً فحسب!

- ... ولماذا أُغلقت الحدود؟ لأن ملاك الأراضي يربحون من وراء النُدرة والشح، والبرلمان لا يتكون سوى من ملاك الأراضي وحدهم!

- مسز ريد، منذ ترافلغار وأنا سمعي ثقيل. المدافع.

- سأقترب منك إذن.

هكذا قالت دون أن ترفع صوتها، ثم واصلت:

- والآن، بخصوص الفقراء: إنهم يشعلون النيران في مخازن الغلال، ويزيدون من النُدرة. هنا عمى، وهناك جشع، هذا هو الأفق. أكنت تريد أن تقول شيئاً؟

- لا، تفضلي وواصلي الكلام.

لاحظ جون أنه كان يفضل قراءة ذلك في كتاب ما، فالحديث سار بسرعة بالغة بالنسبة إليه. لكن فلورا ريد أعجبته. منذ متى، يا ترى، توفي الواعظ؟

- ضريبة الملح، ضريبة الخبز، ضريبة الصحف، ضريبة النوافذ. لكن كل هذا المال يعود بشكل غير مباشر....

- لحظة واحدة، مسز ريد، أنا....

- كلا، مستر فرانكلين! فالعوز في كل مكان. انظر حولك! في كل مكان: صيادون بلا ترخيص، ولصوص، ومهربون. لماذا؟ لأنه لم يبق أمامهم أي شيء آخر....

- أظن أنني أفضل أن....

- لو استيقظ ضمير ملاك الأراضي! عندئذ، وليس قبل ذلك بدقيقة!

أومأ جون موافقاً:

- نعم، هكذا أفكر أيضاً. لكنني كنت فترة طويلة في البحر، وهناك الكثير مما لا أعرفه بشكل دقيق....

خلال حديثه كانت مسز ريد قد حشت فمها بقطعة من الفطائر. راحت تمضغ وتنظر إلى جون نظرة بشوشاً، إلى أن واصل حديثه. عقّبت مبتسمة:

- لا لجهاز للصور، مستر فرانكلين، ولا للتاريخ! صحيفة تكتب الحقيقة، رابطة ضد الفقر، ومن أجل أن يحصل الفقراء على حق الانتخاب، هذا هو ما يجب أن نفعله!

شعر جون أن هذا الحسم مريح جداً. إذا أمسكت فلورا بيده، لم يكن بمقدوره أن يشك بعد ذلك في كلمة من كلماتها. فيها شجاعة الأسد، وتبدو رقيقة عندما تصمت. ولكن حتى عندئذ كانت تنظر إليه بعينيها المشرقتين نظرة محدقة، فقد كان يجد نفسه مجبراً على أن يبادلها النظر.

- أتعرف ما يعجبني فيك، مستر فرانكلين؟ معظم الناس يفهمون سريعاً، وبعد ذلك ينتهي كل شيء. أنت مختلف. ناضل معنا، هذا واجب إنساني!

الحقيقة، قال لنفسه، هي ما تجعل كلامها حاسماً. إذا كانت الصحيفة

محبة للحقيقة، فلن يعيب المحرر أن يكون بطيئاً بعض الشيء. صحيح أنه لن يربح مالاً من وراء ذلك أيضاً.... قال لها:

- حسناً.

لقد عانى في الحرب من أنه لم يكن مُغيثاً حاضر الذهن عندما يكون هناك احتياج ملح. كم من مرة وصل متأخراً! صحيح أنه بطيء، لكنه ليس جباناً؛ لذا كان يقف وسط وابل الرصاص للبرهنة على ذلك. والآن، اكتشف مع فلورا ريد: أن بإمكان المرء أن يؤدي واجبه الإنساني بوقوفه على الجانب الصحيح، سواء كان المرء بطيئاً أم سريعاً. وافقه ذلك بشدة. تسارعت وتيرة رؤيته فلورا. استعار كتاب أوين، وعرف: أن الفقر هو سبب أشكال المعاناة الأخرى كافة، بما فيها الحرب، وأن الإنسان لا يمكن أن يكون خيّراً إذا سدّ الجوع كل الطرق في وجهه. كل فرد يريد أن يمتلك شيئاً: لكن الكراهية تترعرع، إذا حصل قلائل على الكثير، وكثيرون على لا شيء. لا بد من المساواة إذن، ولا بد فضلاً عن ذلك من تربية الناس على المساواة. هذا قانون عام، فهذا ما تقوله فلورا، وما يقوله روبرت أوين، وكل الذين تمعنوا في الأمر. حسب أفكار فلورا: إن البؤس في العالم مرتبط بعضه ببعض، مثل شبكة محكمة، وبإمكان المرء أن يعتمد على هذا الترابط. لا شيء يقف هكذا بمفرده. كل شيء مفرد له مكان في الكل، وبالكل فحسب يصبح شيئاً. وفي ذلك تكمن الاستمرارية أيضاً.

فإذا تغير هذا أو ذاك، أو اختفى، فإن القاعدة التي تحكم الأشياء تستمر. الآن كان لدى جون شيء يستطيع به أن يرتقي فترة انتظاره. ألم يُمنح كل إنسان الحياة كي يفعل شيئاً من أجل جنسه؟ إذا صح ذلك، فإن المنطق يفرض عليه بأن يبدأ فوراً بما هو مُلّح، وما هو منقذ للآخرين. كل

شيء آخر يمكن تركه لأولئك الذين لم ينضج إدراكهم للأشياء بعد. إذا كان عليه الانتظار، فهو يريد أن يفعل شيئاً من أجل إنقاذ البشرية. بدا له ذلك معقولاً جداً. فترة أطول من اللازم كان ينظر إلى مصائب الآخرين بنظرته المحدقة. كلا، الآن، طالما يتحتم عليه الانتظار، يريد حقاً أن يصبح على الأقل شخصاً خيراً.

لكن جون بدأ يفكر ملياً، مرة أخرى، في تصميم جهاز الميوتوسكوب. إذا أدرك المرء البؤس فور رؤيته، فسيكون من المفيد جداً وجود جهاز يستطيع المرء به أن يعرض شيئاً دون كلمات كثيرة!

عندما حاول جون تصور مزايا حق الانتخاب العام، خطر على باله أن بالإمكان استبدال تقليب الصور بعدد كبير من الشرائح المصورة ذات الحجم الواحد والمكومة فوق بعضها بعضاً. بسرعة البرق تسقط الشريحة تلو الأخرى في إطار معدني، وكل شريحة تُعرض مدة ثوان فحسب. كل شيء يتوقف على الآلية التي تسحب الشرائح من الكومة بسرعة ثابتة. فوراً رسم جون رسمة. للجهاز أذرع وآلية دائرية لنقل الصور، وهو شديد الشبه بالرَحَوية في سفينة «بلروفون».

سجل جون ما فكر فيه، ونسخ أيضاً شروح د. أورم ورسومه، ثم أرسل كل شيء إلى د. براون في لندن. لم يكن يريد أن يستمر تجاهل هذا الاختراع.

انقضت سنة ونصف، ولمّا يقرأ بعد كتاب د. أورم عن التلميذ ف. شعور راسخ لديه منعه من ذلك. ود. أورم نفسه هو الذي نصحه بالإصغاء إلى صوته الباطني.

كان يعرف تقارير الرحلات كلها تقريباً، فضلاً عن ذلك طالع كتب سبنس وأوغيلفي وهول وثومبسون. تعلم في «فايتنغ كوكس إن»: كيف يراقب المرء ترابط حججه الشخصية.

مع الصيدلي بيزلي سار في ساحة قتال وينسبي الغنية بالأعشاب. أصبح له رأي خاص عن العائلات النبيلة: «طبقة الأعيان طبقة نبيلة. هذا شيء يسر المرء. لكنها في كثير من الأحيان أيضاً طبقة غبية، وهذا ما يحبط المرء».

زرع وحصد في بيت العائلة، بل وغطى سقف البيت وأصلحه، وكان يخرج أبيه للتنزه، وجدد علاقاته بمعارفه.

قضى ليلة مع فلورا ريد، ثم عدة ليال. استعاد اللغة الحسية الرقيقة التي عرفها في تلك الأمسية في بورتسموث، التي أدرك خلالها أنه سيستخدمها مع كل امرأة أخرى، حتى إذا لم يكن يحبها. لم يكن الواعظ يستخدم هذه اللغة كثيراً؛ إذ بدت له لغة الإنجيل كافية. وربما يكون قد مات بسبب ذلك: فالواجب الإنساني وحده لا يكفي لإدخال البهجة في نفوس الآخرين، ناهيك عن إدخالها في نفس الشخص ذاته.

سنة ونصف! خلالها اهتم بتنظيم اجتماع فلورا مع المزارعين، ووزع حساء، وراجع مسودة منشورات، وصفَّها ليلاً، وطبعها. علاقات مع معارف، كان قد جددها قبل فترة بسيطة، رآها وهي تتحول إلى عداوات، وسمع أحاديث شريرة، وكان عليه أن يكظم غضبه. حاول أن يعيش بنصف الراتب، بل واعتنى بين فترة وأخرى بالدجاج. وتعلم أن يفهم بدايةً سخط الفقراء، السخط الجماعي والفردي، ثم تعلم أن يهابه. أُشعلت النيران في أحد البيوت، بيت الفلاح الثري هاردي. وعلى الأحجار كُتب بأحرف حمراء: **الخبز أو الدم!** و: **تخلصوا من آلات الدرس!** يا لها من فترة!

شكوك، لا شيء غير الشكوك. في البحر لم تكن تداخله الشكوك.

كان يعلم أنه يحب فلورا بنصف قلبه، حباً يكفي لقضاء الليل معها. كانت لفكرتها ديمومة، هذا ما يمنح الهدوء. لكن فلورا ريد بدأت تتغير في الآونة الأخيرة. هل تتحمل الفكرة ذلك؟ ما قيمة الواجب الإنساني إذا كان شيئاً يتشبث به المرء فحسب؟ أم أنه هو، جون، الذي تغير؟ كل شيء لم يكن في البر سوى «نصف»، حتى هو نفسه.

مرة أخرى خرج جون من شبكة القواعد الإنسانية. كانت القواعد مثل شيء لا يستطيع التحرك فيه إلا وهو يحبس أنفاسه. كي يستنشق الهواء عليه أن يغادرها، حتى إنْ كان بمقدوره أن يحبس أنفاسه فترة أطول.

شرع يغيظ فلورا. قال لها مثلاً:

- على الإنسان أن يستطيع السمو فوق الزمن.

فردت متهكمة:

- وماذا عن الشمس والحاضر؟

والآن تعلو وجهها تلك الابتسامة الشاحبة التي لم يكن جون يحبها، ولا حتى على وجهه هو. لقد بحث مع فلورا في الحب - دون أن يعلما- عن طريق للخلاص. أدركا ذلك الآن، ولم يكن ثمة خلاص.

مع الوقت ازدادت معارضة جون. سألها مرة:

- وهل ثبت أن البؤس يمكن دائماً إدراكه مباشرة؟

ومرة أخرى:

- لماذا لا يوجد سوى بؤس واحد؟ إنني أدعي: أن هناك أشكالاً كثيرة للبؤس، ولا علاقة لها ببعضها بعضاً.

كان ذلك يُحزِن فلورا في بعض الأحيان جداً، حتى إنها لم تكن قادرة على الإجابة إلا بكلمات. عندئذ كان يصيبه الحزن أيضاً.

الالتزام بالاهتمام بما هو مهم للبشرية يؤدي بالضرورة دائماً إلى أفكار وأفعال جديدة. شعر جون أنه –التزاماً بالمساواة– سيعد نفسه يوماً ما قابلاً للاستبدال. لكن من خبرته مع البحرية الحربية كان يعرف تماماً: ماذا يحدث عندما يصبح الذاتي غير مهم. لا يبقى عندئذ سوى الهروب إلى السرعة. المرء لا يكون «أفضل»؛ إلا إذا فعل الأشياء نفسها على نحو أسرع. وهذه الإمكانية لا تتوافر لديه.

منذ فترة طويلة وهو يحاول أن يتحدث مع فلورا عن ذلك. لكنها لا تعرف البحرية الحربية.

لا بد أن يحدث شيء.

في الصباح الباكر خرج من المنزل. سلك الطريق المؤدي إلى إندربي، لكنه اتجه شرقاً، ووصل إلى هاندلبي وسبيلسبي، واقترب من البحر، بدون أن يزحف وسط الشجيرات هذه المرة. في أشبي كان ثمة فتى نحيل يدهن سوراً. وفي سكريمبي حياه مُسن، وانطفأ غليونه خلال ذلك: لا يسير على قدميه مسافة طويلة، سوى الذين يعانون الفقر أو السمنة.

من غانبي هول سمع جون عبر الغابة طلقات رصاص، أطلقتها جماعة من الصيادين. نبلاء الريف يصطادون الثعالب، ويطلقون الرصاص على الديوك البرية، ويفكرون في قوانين صارمة لمكافحة سرقة حيوانات الغابة.

رأى جون الريف الآن بعيون أخرى، واستاء من أشياء كثيرة. إنهم،

مثلاً، يرسلون صبياناً في عمر الثانية عشرة، لمجرد أنهم سرقوا قطعة لحم صغيرة، إلى بلد، فان ديمن، حيث لا يعرفهم أحد.»(*)

قضى ليلته في إنغولدملس، وجلس يوماً بأكمله على السد مستغرقاً في دراسة ما يفعله البحر بالرمال، كأنه يرى ذلك أول مرة في حياته. في وشيش الأمواج المتراجعة كان يُهيأ له: أنه يسمع خليطاً من الأصوات تشبه ما يسمعه المرء عندما تكون السفن مبحرة، عندما تَصدر أوامر، ويتصاعد غناء، ويتبادل المرء النكات واللعنات. تصطك القوائم العرضية بعضها بعضاً، والحبال تزقزق عند مرورها فوق البَكَر. وتُسمع كلمات مثل: «الإبحار!»، و«ربط الحبال!»، و«حبال الصاري! وشد الحبل جيداً! وارفع الشراع الأوسط!».

كان يحتاج إلى حركة البحر، والإبحار الشراعي أهم بالنسبة إليه من التنفس.

بهذا استغرق في أحلامه وأفكاره. رأى صوراً أيضاً: منعطفات نهر، وقوارب، وحيوانات برية، ولحظات خطر. ظهرت له الآن جبال جليدية، وكتل جليدية تتكسر عند اصطدامها بقوس السفينة، وينفتح أمامه طريق رحب متلألئ. اختفى الحزام الجليدي، وحلّ الصيف القطبي ومعه اليابسة حيث يتمهل الزمن. هذا هو موطنه، وليس لنكولنشاير، ولا إنكلترا. بقية العالم كله لا يمكن أن تكون سوى أول جزء من هذا الموطن، عليه أن يجتازه.

(*) فان ديمن (1593 – 1645): حاكم استعماري هولندي، عين لسنوات حاكماً لجزر الهند الشرقية الهولندية. وقد أرسل بعثة اكتشفت جزيرة تابعة لأستراليا سميت «بلد فان ديمن»، وأطلق عليها فيما بعد (1855) تَسمانيا نسبة إلى مكتشفها الحقيقي أبل تَسمان.

سار عائداً إلى إنغولدملس، واستقل عربة البريد حتى بولينغبروك. عبر النافذة رأى السياجات ودروب الحقول تعبره، فقال لنفسه: إن حركتها خادعة. إنها حبيسة مكانها، في حين أنني وحدي الذي أرحل حقاً، ومعي الجبال البعيدة.

فكر عندئذ في الملازم باسلي. أصبح لديه الآن سفينة خاصة به. ويقود ووكر سفينة عليها أربعة وسبعين مدفعاً. لم يحسده على المدافع، لكن على الإبحار.

عليه أن يصبح ربّاناً! وأن يجد القطب! بعد ذلك سيهتم بأمر البلاد مرة أخرى، بعد ذلك!

التاريخ الإنكليزي هو الموضوع الذي يهتم به بيزلي، وفلورا تهتم بالبؤس في العالم، واختراع الأجهزة من اختصاص د. أورم وخلفائه، لكنه ليس من اختصاصه. وما كتبه د. أورم عن التلميذ ف. لن يقرأه إلا عندما يصل إلى خط العرض 82 شمالاً.

لقد حسم أمره: يريد أن يحاول مع صائدي الحيتان. كان يجلس أمام فلورا، ويمر بيده على ركبتها وهو في حيرة من أمره، ثم شرع يتحدث حديثاً رصيناً عن الالتزام الإنساني:

– إذا أردت إحضار حطب لفرن الجار، فلا يكفي أن أعرف الاتجاه وأسير بهمة. يجب أن تكون النيران في شعلتي متقدة. ماذا سأستفيد إذا سرت في الاتجاه الصحيح، لكنني أصل قبل الأوان؟

ردت فلورا:

– دعك من ذلك، لستَ موهوباً في التشبيهات. ولستُ أنا هذا الجار.

ركزت بصرها عليه مثلما فعلت في المرة الأولى، لكن نظرتها كانت

قاتمة. لاحظ جون أنه يتسم في هذه اللحظة بالغباء مثل سَلَفه الواعظ. أيعود ذلك -ربما- إلى فلورا؟

- قد يكون موضوع بحر الجليد هراء، وأعود قريباً....

لاحظ جون أنه يكذب.

التحفت بالصمت. هذا الصمت. لقد أضحى طاغية.

- ربما نتقابل مرة أخرى قريباً. سأعود وأصبح محرراً.

زادت وطأة الكذب عليه.

- وعندئذ ستكون نيران شعلتك موقدة؟

- ممكن. لا، لا، هذا هراء. لا أعرف ما سيحدث.

مسحت فلورا أنفها، ثم قالت:

- لستَ محرراً. بركة الرب معك!

قبّلته، ثم انصرف. يا إلهي، كم كان سعيداً لأنه تخلص منها! من فرحته لم يشعر حتى بالشفقة تجاهها.

عندما وصل إلى البيت حتى يودع أباه وأخته، كانت عربة غريبة تقف أمام الباب، هبط منها جنتلمان اسمه روجيه، بيتر مارك روجيه. كان يحمل إليه تحيات الدكتور براون من لندن.

- بالمناسبة، لقد قرأت الدراسة عن الميوتوسكوب. خسارة أن المؤلف توفي. إنني أهتم جداً بالظواهر البصرية، لا بد أن تشاهد مرة المِشكال الخاص بي. آمل أن نستطيع تجاذب أطراف الحديث في القريب العاجل.

- لا، لقد حسمت أمري. هناك أفكار كثيرة مهمة، لكنني أسير وراء رأسي أنا.

فجأة اكتسب وجه مستر روجيه ملامح الاستطلاع والترقب:

- ستبقى في إنكلترا؟

- لا، سأبحر ثانية. ويوماً ما سأصل إلى القطب الشمالي. لن أحقق ذلك إذا بقيت في إنكلترا.

- إذن، فإنني أفترض أننا سنتجاذب أطراف الحديث في القريب العاجل.

كان واضحاً أن الحديث بدأ يُدخِل السرور في نفس مستر روجيه:

- لقد أرسلني إليك رئيس الجمعية الملكية، السير جوزيف بانكس، وهو موجود حالياً في ضيعته في ريفسبي. ربما تريد أن ترافقني إليه؟

صمت جون مندهشاً، وقد خامره حدس ما.

- إنه يعرفك، وقرأ ما كتبته عن بوصلة فليندرز. هو وسير جون بارو، السكرتير الأول في إدارة البحرية....

بصوت مبحوح سأله جون:

- ولماذا؟

تردد مستر روجيه.

- في الحقيقة، كان السير جوزيف يريد أن يقول لك ذلك بنفسه. سوف تتولى قيادة سفينة في دِبتفورد، وستبحر إلى القطب الشمالي!

الفصل الثاني عشر

الرحلة إلى الجليد

البعثة الاستكشافية. كل فرد في دِبتفورد كان يعلم المقصود بذلك. كانت تتكون من سفينتين من نوع البريغ(*)، «دوروثيا» و«ترنت»، تُحمّلان في الوقت الحالي بكل ما يحتاج المرء إليه في القطب الشمالي.

– وخاصة بالسترات والمعاطف المصنوعة من الفراء.

هكذا كان يأمل بائعو الفراء.

أما تجار الكتب فكانوا يقولون:

– بالكتب الشائقة لأن الوضع هناك ممل جداً.

– بالرجال الجسورين.

هكذا كانت سيدات المجتمع اللندني الراقي يرجحن، ويأمرن سائق العربة بالانطلاق إلى الميناء للتفرج على هؤلاء الرجال.

كلٌ يدّعي معرفة مهام البعثة الاستكشافية. أحدهم قال إنه عرفها من إدارة البحرية نفسها، وادّعى آخر أن القبطان باكَن، قائد البعثة، أخبره

(*) بريغ (بالإنكليزية Brig) سفينة شراعية ذات صاريتين.

بذلك. واستند بعضهم في كلامه على الملازم فرانكلين، قائد «ترنت». في حين شكك آخرون في ذلك:

- فرانكلين؟ إنه لا يقول أي شيء، أبداً!

«قبطان بطيء، لا يمكن»، قال ضابط الصف جورج باك، «كيف سيكون الأمر عندما نكون في عرض البحر؟» نظر أندرو ريد إلى صديقه نظرة إعجاب. ولم يعارضه إلا رغبة منه في استكمال الحديث:

- لكنهم جمعوا الدجاج سريعاً من على سطح السفينة يا جورج.

- سيتضح أن ذلك كان خطأً. الدجاج لحم طازج. هذا أقل ما يجب أن يحصل عليه البحارة.

عندما يتحدث تنشأ بدايةً فترة صمت. كيف يصدر شخص كهذا أوامر؟ لقد تخرجا حديثاً في مدرسة البحارة، وكانا يعرفان تماماً ما هي الأشياء المهمة. وجد باك أيضاً لقباً ساخراً يطلقه على فرانكلين: القبطان المعاق.

أول ليلة على ظهر السفينة، أصيب جون فرانكلين بالحمى، وكان يرتجف. بين اليقظة والنوم يسمع أصواتاً لا عدد لها، تخبره بأشياء غير مفهومة، وتطلب قرارات، أو تنتقد شيئاً كان قد أمرَ به على حد قولهم. راح يتقلب في فراشه يميناً ويساراً، كازاً على أسنانه في أثناء الحلم، يتصبب عرقاً حتى يبلّل الأغطية. في الصباح آلمته عضلات الرقبة، وبعنق مائل راح يتلمس طريقه خارجاً من كابينته.

إنه الخوف، ولا شيء سوى الخوف، لكن من الصعب الانتصار عليه. سار صامتاً عبر السفينة كلها، ورد على التحيات، وتسلم الأنباء، وحاول أن يطوّر قدراته من عضو في جمعية القراءة في هورنكاسل إلى قائد سفينة.

كان قد خَبِر ذلك مسبقاً: الخوف من ألا يفهم شيئاً، وألا يستطيع شيئاً، وألا يغدو قادراً على المقاومة عندما يتجاوزه الآخرون ببساطة، والخوف من ألا يتأقلم أحد مع إيقاعه، وأن يفشل فشلاً ذريعاً؛ إذا حاول هو أن يتأقلم مع إيقاع الآخرين.

لا تحمل «ترنت» على ظهرها سوى مئتين وخمسين طناً، لكنها بدت له في هذه اللحظة أكثر ضخامة وهولاً من السفينة التجارية الأولى، التي قام بها برحلة إلى لشبونة قبل ثماني عشرة سنة. كان يعرف جيداً هذا النوع من الخوف. لقد استطاع حتى الآن طرده؛ لأنه اعتاد أن يفعل كل شيء حتى نهايته، سواء حالفه الحظ أم لا. لكن خوفاً جديداً انضم الآن إلى السابق: إذا مرض الآن مرَض الموت، أو إذا غرقت السفينة، أو حل أحد محله؛ فهذا معناه: أن انتظاره طيلة عقود وكفاحه، قد صارا هباءً.

بدا له: أن القوة والطمأنينة والسكينة التي وجدها على ظهر «بيدفورد» بعد معركة نيو أورليانز قد اختفت، أو أنه لن يسترجعها بالأمر، على كل حال. كان أيضاً يفتقد الكاريزما؛ إذ لم تعد الندبة - التي لا يعرف حكايتها أحد- عوناً له.

ثمة سبيل جيد لمكافحة الخوف: التعلم. بدايةً، تعلم جون إرشادات قيادة البحرية.

ليس القطب الشمالي هدف الرحلة، بل هو مجرد محطة بين محطات عديدة. بالنسبة إلى التاج الملكي كان القطب الشمالي مهماً؛ إذ كان يقع على بحر مفتوح يستطيع المرء عبره الوصول إلى المحيط الهادئ.

كان أحد صيّادي الحيتان قد قال: إن حقول الجليد في أعالي الشمال تنصهر بوتيرة متسارعة. وكان السكرتير بارو ينتظر هذا الخبر بأمل. أعلن

فوراً أنه، مع شخص آخر، يُدعى فرانكلين، يظن منذ فترة طويلة: أن البحر القطبي بحر مفتوح. وفجأة بدت البعثة -التي قوبلت في البداية بابتسامة هازئة- في غاية الأهمية للجميع.

على «دوروثيا» و«ترنت» أن تخترقا مجموعة جزر سفالبارد وغرينلاند، ثم الإبحار عبر القطب الشمالي إلى مضيق بيرنغ، وعند شبه جزيرة كامشاتكا التوجه إلى ميناء بتروبافلوفسك حيث رست سفينة كوك آنذاك. ومن هناك ينبغي إرسال نسخ، ودفتر السفينة، وملاحظات عن الرحلة، وخرائط إلى إنكلترا، عن طريق البر، في حين تبحر السفينتان إلى جزر ساندويتش وقضاء فصل الشتاء هناك، وفي الربيع التالي العودة إلى إنكلترا، ومن المفضل أن يحدث ذلك بالإبحار حول القطب الشمالي.

ثمة بعثة أخرى عليها أن تحاول الوصول من حافة القارة الأمريكية الشمالية، إلى المحيط الهادئ. لكنهم كانوا يعتبرون هذا الطريق هو الأكثر صعوبة.

يا لغرابة اهتمامات هؤلاء السياسيين والتجار! وضع جون الرسالة على طاولة كابينته، وبإصبعه جعلها تدور. من الانفعال كانت عروق رقبته تنبض بقوة. من القطب الشمالي يبدأ كل شيء من جديد، على المرء الوصول إلى هناك فحسب.

حفظ أيضاً السفينة عن ظهر قلب، واختزنت ذاكرته كل الأرقام الموجودة عليها. وأخذ يحسب كل ما يمكن حسابه: وزن الحمولة بالمقارنة مع الوزن الإجمالي، وطول السفينة، ومساحة الأشرعة، وطول السفينة تحت الماء، والغاطس. وها هو يتوقف أمام إحدى التفاصيل

الأولى: لقد بدا له غاطس «ترنت» يزداد بسرعة أكبر مما تستطيع الزيادة اليومية في الحمولة أن تسببه. أجرى مرة أخرى حساباته الدقيقة، ثم طلب حضور الملازم بيتشاي، وهو الضابط الأول على السفينة. أبدى رغبته في أن تخبره كل نوبة حراسة بدءاً من هذه اللحظة بمقدار عمق السفينة وكمية المياه المتسربة إلى جوف السفينة.

هل لاحظ الملازم ضعف ثقته بنفسه واضطرابه؟ لكن بيتشاي يتسم باللباقة. عندما تلاقت العيون، كان يحول وجهه وهو يرمش. بدا خلال الإصغاء أنه يفحص حالة الألواح الخشبية التي تغطي سطح السفينة، أما خلال الحديث فقد بدا أنه يبحث عن الأفق بفتحتي عينيه البيضاوين المحاطتين برموشه. لم تبح ملامح وجهه قط بأكثر من يقظة شخص سيئ المزاج، ولم يكن يتحدث كلمة أكثر من اللازم.

بدايةً، لقد كانت الحسابات صحيحة! «ترنت» فيها ثقب. لا يبدو أنه كبير، لكن المشكلة هي في عجزهم عن العثور عليه. واصلوا البحث. ضجيج المضخات إذن، وهم لا يزالون في الميناء! الغريب أن جون شعر بالراحة: ثقب في السفينة، أخيراً أصبح يواجه هماً حقيقياً.

على ما يبدو: إن القائد الأعلى يحسب جون ربيبَ سكرتير الإدارة البحرية. كان دافيد باكَن رجلاً نافد الصبر، ذا وجه أحمر. لم يكن يريد قط أن يصغي طويلاً، ولم يكن يريد خصوصاً أن يؤجل الإبحار بسبب ثقب في السفينة.

– أأنت جاد في كلامك؟ لديك ثقب ولا تستطيع العثور عليه؟ وعلينا أن ننتظر حتى ينتهي الصيف القطبي؟ عليك أن تأمر رجالك بضخ المياه عدة أسابيع، وستلاحظ عندها من أين تتسرب.

فظاظة باكَن جعلت جون أكثر هدوءاً فحسب. لديه الآن خصم محدد، هذا أمر يقدم عزاء وعوناً.

– سير، بالطبع أستطيع أيضاً أن أصل إلى البحر القطبي بثقب في السفينة!

بدت هذه الكلمات مفعمة بالتهكم والثقة في النفس إلى درجة أن ثقة باكَن بنفسه اهتزت قليلاً:

– إذا لم ينتهِ هذا الموضوع قبل الوصول إلى جزر شتلاند، فسنرفع «ترنت» من المياه ونفحصها من الخارج.

كان الخامس والعشرون من أبريل 1818 هو يوم الإبحار. أشرق رصيف الميناء بالوجوه. ظهرت إليانور بوردن، وتمنت لجون المندهش حظاً سعيداً، ودست في يده قصيدة طويلة يتحدث في نهايتها القطب الشمالي نفسه بخطاب مباشر، معلناً هزيمته. أدرك جون الآن: أنها تقدره حقاً. راحت تنظر متعجبة إلى مناشير الجليد الطويلة والمعدات التي يريدون بها تحلية مياه البحر. راحت تتحدث بحماسة عن البحث العلمي، وعن التنويم المغناطيسي، والظواهر الكهربائية، وأكدت على جون أن يكون منتبهاً لمعرفة ما إذا كانت القوى المغناطيسية في هواء المنطقة القطبية كبيرة، وكيفية تأثيرها على الانجذاب بين البشر. وعندما ودعته، ارتمت في أحضانه، وصدح صوتها. لم يستطع جون سوى الإمساك بخصرها. لو لم يكن يتشبث بكل شيء فترة طويلة هكذا! أحس أنه يخاطر بلفت الأنظار؛ فانسحب بسرعة ليكمل حسابات مهمة خاصة بالإبحار. ثم أقلعت السفينة.

أزهر النرجس، واصفرّ لون الساحل تماماً في بعض الأماكن.

كل يوم كانت كمية المياه المتسربة تزداد، ولم يكن لديهم عدد كاف من البحارة. حتى يكتمل طاقم «ترنت» كان ينقصهم نحو سدس العدد. وكل بحار كان يقضي نصف وقت خدمته في ضخ المياه خارج السفينة.

بالرغم من كل الجهود لم يجد جون في ليرويك أي ثقب، ولم يجد أيضاً متطوعين يمدون يد العون لطاقم البحارة. كان سكان جزر شتلاند يتعيشون من الملاحة وصيد الحيتان، ويعرفون جيداً ماذا يعني أن تغرز السفينة في المياه الضحلة، وأن يفتشوا في كل بوصة عن المكان الذي تتسرب منه المياه. وعندما يقولون لهم: إن الكسوة النحاسية لا بد أن تثبت بشكل أفضل فحسب، كانوا يضحكون بارتباك. لا أحد يريد العمل في سفينة تتسرب إليها المياه. بدأ جون يخشى على نحو جاد: أن هذا الثقب غير المرئي في الجدار الجانبي للسفينة قد يضيّع عليه القطب الشمالي.

فكر باكَن في تعويض النقص في البحارة عن طريق التجنيد الإجباري. ولأن ذلك أصبح غير قانوني، قال لجون:

- أترك لك اتخاذ القرار، مستر فرانكلين!

عندما اختلى جون بالضابط الأول، راح بيتشاي يمسح الأفق مسحاً بعينيه الرماديتين، ثم قال:

- سيتغلب الطاقم على ذلك. إنه طاقم جيد. ثلاثة أو أربعة يعملون بالسخرة وتنقصهم روح الدعابة هم أسوأ من لا شيء.

غمغم جون مبهوتاً:

- شكراً!

الأمر الجيد في بيتشاي: أنه لا يقول رأيه؛ إلا إذا كان المرء في حاجة إليه.

بمقدور البحار سبينك من غريمسبي أن يروي حكايات أكثر من ثلاث قرويات عجائز، لا سيما أنه سافر أكثر منهن. في عمر الثانية عشرة أجبروه على الالتحاق بالخدمة البحرية، ثم جاب البحار على ظهر سفينة «بيكل» الصغيرة تحت قيادة لابنوتير، ثم أسره الفرنسيون، وهرب، وجاب أوروبا هارباً مع شخص يدعى هيوسون إلى أن وصل إلى تريستا. ويروي عن إسكافي من الألزاس أن أحذيته تطيل الخطوات، فيسير المرء بسرعة مضاعفة، كأنه فرنسي. وعن النساء «الأليمانيات» في منطقة الغابة السوداء كان يحكي أنهن كن يستطعن تحت تنوراتهن الاحتفالية التي تشبه الخيمة تخبئة شخصين أو ثلاثة من الهاربين من قوات نابليون، وأنهم جدفوا بمجداف واحد فحسب قارباً في قلب بافاريا عبر بحيرة في قلب العاصفة، وفي قرية الصيادين على الساحل الشرقي أكلوا لحماً محمراً رقيقاً مع كريات رائعة من البطاطس، وبعدها استطاعوا أن يتجولوا طوال أربعة عشر يوماً بلا استراحة واحدة، وبلا أدنى شعور بالجوع، والعهدة على سبينك.

الجميع يركض على سطح السفينة: لقد شوهد حوت وحيد القرن، برزَ قرنه بوضوح تام. كان ذلك نذير شؤم. لم يكن هناك نذير شر أكثر من ذلك سوى شيء واحد: عندما تبدأ أجراس السفينة تدق وحدها. لكن ذلك لم يحدث قط، أو لم يحكه أحد؛ لأن السفن التي شهدت ذلك، غرقت سريعاً بكل ما عليها من رجال وفئران.

لم يتحدث أحد عن ذلك بكلمة، فهم على كل حال ينتظرون في عرض البحر القطبي، وبعد تجاوز العوائق الجليدية، كائنات أخرى تماماً ذات أبعاد هائلة، حتى إن إدارة البحرية تتوقع أن تتقدم تلك الكائنات تجاه

الجنوب بعد انصهار الكتل الجليدية، وأن تصل إلى المسارات البحرية التجارية في المحيط الأطلسي، وأن تبتلع هذه السفينة أو تلك.

لم يستطع أحد من طاقم «ترنت» أن يتحرر تماماً من خوفه، حتى إذا لم يكن يؤمن بالخرافات.

لم يكن أحد مشاكساً ولا كسولاً. كان جون قد هيأ نفسه على توقيع أول عقوبة في وقت مناسب، لكنها لم تلح بعد في الأفق. منذ زمن بعيد كان على كل قائد أن يسجل العقوبات في دفتر. في كل مساء كان يفتحه جون ويدوّن: «لا مخالفات اليوم».

لم يستطع أن يفهم جورج باك، أو بالأحرى: لم يستطع - فيما يخص باك- أن يفهم نفسه. بقي بينهما خجل، أو ارتباك، أو انتباه ويقظة. لم يكن من الممكن تبرير ذلك بسبب مهني.

أزاح جون الأمر جانباً. من الأفضل ألا يفهمه على الإطلاق من أن يُسيء فهمه. ربما ينقذ باك هذا حياته في يوم من الأيام! المشاعر الفطرية جيدة، ولكن فقط عندما تعبر عن نفسها بشكل واضح.

بقي بينهما بعض الانتباه واليقظة.

امتلك الآن الشجاعة؛ كي يطلب من الآخرين أن يكرروا ما قالوه، وألا يسمح بتسلل الاستعجال، كان يجبر الآخرين على السير وفق سرعته هو، ولمصلحة الجميع: «أنا بطيء. من فضلك، هيئ نفسك لذلك!». سمع باك ذلك، ببشاشة بالغة، وأصبحت بلاغاته بعد ذلك مفهومة. سقط رجل من السفينة، نار في السفينة؟ لا سبب يدعو إلى التهام مقاطع كاملة من الكلمات. المهم هو أن يفهم القبطان أين، وماذا، ومتى. البلبلة أخطر من

أي حالة طوارئ تُفرض عليهم، والبلبلة التي تصيب القبطان هي الأخطر، هذا ما تعلموه.

الجَلَد. لا يحتاج إلى نوم، بدأ من جديد يتعلم عبارات وكلمات، كأنه بحار مبتدئ. بدايات الأوامر مثلاً: مستر بيتشاي، من فضلك أؤمر بـ... مستر باك، من لطفك، هل.... كيربي، عليك فوراً أن....

راح يتأمل ثانيةً في النظرة الثابتة. كانت، وستظل، نظرة خطيرة. لكن إذا كانت تلك النظرة ليست في خدمة الحرب، وإذا استخدمت على نحو نادر فحسب، عندها لن يكون بعد عبداً للسرعة، بل سيمتلك القوة التي تميز أي قائد جيد، والتي تتيح له عموماً أن يركز قدراته على دراسة القضايا المنفصلة، وعلى الحُلم. البطء يحوز الشرف، أما السرعة فهي في الخدمة. النظرة الشاملة ليست نظرة جيدة؛ لأنها لا ترى تفاصيل كثيرة. حضور الذهن – وقد أصبح قاعدة- لا يخلق حاضراً ولا وجهة نظر. راهن جون على شرود الذهن، وكان متأكداً من موقفه. فكر في وضع نظام يعيش وفقه المرء ويقود به السفن. قد يبدأ معه – جون فرانكلين- عصر جديد؟ 74 درجة، 25 دقيقة. كانوا قد وصلوا إلى مستوى جزيرة الدب.

بعد خط العرض 75 درجة شمالاً بدأ انهمار الثلوج. من باب كابينته راح جون يتشمم الهواء، موجهاً نظرة إلى السطح الخلفي المغطى بنثار الثلوج البيضاء. كهذه تماماً كانت رائحة الثلج عندما رآه أول مرة في حياته. ألقى حوله نظرة عابرة، ثم تجرأ وخرج من كابينته، وبدأ رقصة متثاقلة مثل رقصة الدببة، حتى يرى الآثار التي ستتركها قدماه. شعر بنفسه شاباً فتياً حتى إنه شرع فوراً في التفكير: ربما كان حقاً كذلك!

من أين أعرف إذن، قال لنفسه، ما إذا كانت حياتي فوق الثلاثين ستكون

مثل الآخرين؟ إذا كنت أسير متأخراً مثل ساعة؛ فسأحتاج إلى وقت أطول حتى نهاية عمري. إذن، ربما ما زلتُ في العشرين. أنهى رقصة الدببة فجأة؛ إذ إنه لاحظ ضابط الصف باك الذي كان يحدق فيه من الصاري الكبير بنظرة جادة، تكاد تكون محذرة. أراد تجاهله، لكنه لم يستطع سوى تأمُل آثار قدميه مرة أخرى بعيني باك، وأن يتخيل حركته الراقصة. وجد نفسه يضحك ثم نظر إلى باك مرة أخرى. ضحك هو أيضاً كاشفاً عن أسنان بيضاء. فتى وسيم.

- الثلج رائع، سير!

كلا، لم يستشف من عبارته أي سخرية. بالرغم من ذلك! قطب وجهه واكتسب ثانية ملامح القبطان، ثم تحول عنه بفظاظة، وسار إلى كابينته مشوش الذهن بعض الشيء.

خطرت على باله المغناطيسية القطبية. لكن كيف السبيل إلى قياسها؟

أصبح الطقس الآن بارداً برودة خطيرة. تجمدت الحبال الثابتة والصواري، أما الحبال المتحركة فتيبست للغاية؛ حتى إنه لم يعد ممكناً التفرقة بينها وبين الحبال الثابتة. كان على البحارة ليس فقط ضخ المياه خارج السفينة، بل أيضاً ضرب الحبال بالعصي؛ كي تحتفظ بليونتها. تحولت كل المناورات الشراعية إلى مغامرات، وكانت البرودة تزداد يوماً بعد يوم. كل فرد كان يسعل سعالاً يحطم القلب. أما جون فقد تعامل باستخفاف مع الأمر.

راح يفحص الثلوج، ويدون في دفتر العقوبات - فلم تحدث مخالفات بعد- وصف الأشكال المختلفة لبلورات الثلج. كتب: «الثلج - مبدئياً- سداسي الزوايا». فالبحث العلمي هو في خاتمة المطاف هدف الرحلة.

بسرور راح يفكر في وجوه أمراء البحر عندما يصل إليهم أخيراً، وعبر طرق ملتوية طويلة في روسيا المقدسة، دفتر عقوبات «ترنت».

أول مرة تبحر السفينة عبر الكتل الجليدية الانجرافية. على جانبي السفينة راحت القطع الجليدية تطقطق وتتكسر.

ما كان أحد يريد أن ينام. ما كان أحد معتاداً على أن يعد هذا الشيء المُضاء ليلاً. سطعت الشمس المنخفضة على الأشرعة البيضاء، وتلألأ الجليد مثل أحجار الماس والزمرد، ونمت فوق الجليد مدينة متجمدة، وتفتحت عليها أشكال تتسم بالجرأة. كادوا يستغنون عن اللغة البحرية: كانوا يبحرون من «الكنيسة» حتى «القلعة»، ثم ساروا قاصدين «المغارة» ومارين بـ«الجسر». كان الجليد يرقد تحت سطح المياه أيضاً، ويعكس ضوءاً، والبحر مغلف ببياض كالكريمة، وزعنفيات الأقدام تسبح في مياه ساطعة كالحليب.

تسلق الطاقم القوائم العرضية، محملقين في الكتل الجليدية البراقة التي كانت تتدافع في المياه التي تخلفها السفينة وراءها، كأنها تريد أن تلحق بالسفينة. قرب منتصف الليل هبطت الشمس، حمراء ومشوهة بشكل غريب، أكبر موزة في العالم. إنها لم تهبط حقاً - لقد اختبأت فحسب فترة قصيرة، وأخذت حماماً، ثم ظهرت مرة أخرى؛ كي تجفف نفسها.

قال بيتشاي:

- كل هذا جميل وجيد، ولكن كيف نجعل البحارة الذين ليسوا في الخدمة ينامون؟

هذه السماء ذات مساء أبدي، وظلال عملاقة. عندما تتصاعد سحابات الضباب، تتحول إلى سحب تميل إلى الحمرة، تغير الألوان كلها وصولاً إلى الأفق الشمالي.

نظر جون إلى الجليد، وتفحص الأشكال، وحاول أن يفهم ما تعنيه. باستطاعة البحر أن يتجاوز نفسه، بقدرته الذاتية، وهنا البرهان. هنا وجد ما تعنيه أحلامه.

قضى ساعة بعد أخرى منهمكاً في رسم أشكال الجبال الجليدية في دفتر العقوبات. وسجل ألوانها أيضاً: «الأخضر يساراً، والأحمر يميناً، وبعد عشر دقائق تنقلب الآية». حاول أن يسمي ما يراه، لكنه لم يوفق كثيراً. ما يراه يشبه الموسيقى التي يجب على المرء أن يدونها في نوتة. البحر المتموج تموجاً رقيقاً كان يتلاعب بالأشكال الجليدية ويحملها، كأنه ميزان موسيقي، والأشكال نفسها كانت تتسم بهارمونية نغمات الموسيقا، رغم تشظيها وتشققها. كانت تبدو هادئة، أبدية، مستحيل أن يكون شيء كهذا قبيحاً. السلام يعم المكان هنا. وفي الخلف، بعيداً، في مكان ما في الجنوب، كانت البشرية تتسبب في بؤس البشرية. في لندن كان للزمن سلطة آمرة ناهية، على كل إنسان أن يتكيف معها.

عندما اجتازوا خط العرض 81 درجة، تحولت القطع الجليدية إلى مساحات كبيرة متماسكة، وتحولت الأخيرة إلى جزر. ومع هبوب أجمل رياح جانبية توقفت «ترنت»، ولم تتحرك من مكانها قيد أنملة. «لماذا لا تتقدم السفينة؟»، صاح ريد من أسفل، وبعدئذٍ بدقائق صعد كيربي، مساعد الملاح، إلى السطح متسائلاً: «لماذا لا نسير؟».

أصاب الانتظار الطاقم بالقلق، مع أنه لم تكن ثمة مشكلة إطلاقاً.

وفي الانتظار، ربما، حتى تنساب السفينتان معاً، مع الحقل الجليدي، في الاتجاه الصحيح. أتتهم الإشارة في تلك اللحظة من «دوروثيا». أمرَ باكَن بالتالي: «تكسير الجليد، وجر السفينة!».

حاول عشرة رجال بالمعاول والمجارف أن يفتحوا طريقاً في الجليد أمام قوس السفينة، وتعلق عشرة رجال آخرون بالحبال، وهبطوا على الجليد إلى بعد يساوي ضعف طول السفينة. بعد عدة ساعات غلبهم جميعاً الإنهاك، وفي النهاية، وحتى لا ينفجرون في الولولة، راحوا يضحكون بصبيانية بلا سبب أمام البحارة الذين ظلوا على ظهر السفينة. لم يكن كل هذا الجهد إلا لتهدئة قلقهم وقلق باكَن. لقد فعلوا أكثر الأشياء عبثية لمجرد أن يشعروا بأن السفينة ستواصل سيرها.

وماذا لو دفعت حقول الجليد السفينة في اتجاه الجنوب بدلاً من الشمال؟ عندئذ سيكون السؤال المطروح، هو: هل سيلاحظ باكَن ذلك أساساً؟ إذ إنه يُبحر «وفق إحساسه».

أصدر جون أوامره بإدخال السرور إلى نفوس البحارة الذين يشدون السفينة بالموسيقى، على الأقل. سار البحار غيلبرت إلى الأمام، وانطلق يعزف على الكمان. كان هو الرجل المناسب تماماً لهذه المهمة. صحيح أن عزفه الوتري كان يتضمن عدداً معيناً من النغمات المختلفة، لكنها لم تكن جذابة إلى حد أن يقف المرء ليصغي إليها.

أمر غريب: كلما اقترب جون من الهدف، نما شعوره بأنه لم يعد محتاجاً إليه. السكون الشامل، اللازمنية المطلقة، ماذا يريد أن يفعل بذلك حقاً؟ كان ربّاناً ولديه سفينة، لم يعد يريد أن يكون قطعة من الساحل، ولا صخرة على الضفة تتطلع إلى آلاف السنين، ولا تتحمل مسؤولية شيء.

التوقيت كان ضرورياً كمقاييس الطول والوزن، إذ يجب أن توزع السلع والعمل توزيعاً عادلاً في العالم. لا بد من قلب الساعة الرملية، ودق ناقوس السفينة كل نصف ساعة حتى لا يضخ كيربي المياه فترة أطول من سبينك، وحتى لا يرتجف باك برداً فترة أطول من ريد. لن يختلف هذا الوضع في القطب، وكان جون راضياً عن ذلك، لأنه كان راضياً عن كل شيء، ربما باستثناء تولي باكَن القيادة العليا.

كان يشعر بانجذاب إلى القطب، انجذاب حتمي، لكن ليس لأنه يريد أن يبدأ كل شيء من جديد من هناك. لقد بدأ بالفعل! الهدف مهم للاهتداء إلى الطريق. وهو قد اهتدى إليه، ويسير عليه، وأصبح القطب من جديد مصطلحاً جغرافياً. لكنه شعر باشتياق وحيد: أن يظل مسافراً، كما هو الوضع الآن، في رحلة استكشاف، إلى أن تنتهي الحياة. نظام فرانكليني للحياة والإبحار.

حسبَ باكَن موقع السفينة. وفعل فرانكلين ذلك أيضاً. توصل باكَن إلى الدرجة 81 والدقيقة 31، أما فرانكلين فقد توصل إلى الدرجة 80 والدقيقة 37. بوجه أكثر عبوساً أعاد باكَن الحساب، واقترب من نتيجة جون، باستثناء بضعة دقائق، تشبث بها حفظاً لماء وجهه فحسب. على ما يبدو: إن الجليد يتحرك ناحية الجنوب على نحو أسرع من قدرتهم على تكسير الجليد في الشمال. ثم انساب حقلان جليديان ضخمان في الاتجاه نفسه، وضيقا الخناق على «دوروثيا» إلى أن طقطقت الألواح الخشبية في السفينة، بل لقد ارتفعت فوقهما. بعد ذلك بقليل حدث شيء مشابه لـ«ترنت»، وإنْ على نحو أخف. لم تعد السفينتان قادرتين على الحركة، كأن أحداً ثبتهما بالمسامير. ومن الخلف -كأن الجليد يتهكم- اقترب جبل جليدي منهم شيئاً فشيئاً.

قال سبينك:

– أود أن أعرف كيف يحدث ذلك. ربما يشد أحدهم الجبل من أسفل.

أشار إلى البحر، وكان يقصد المداعبة، لكنهم جميعاً فكروا مرة أخرى في الحوت وحيد القرن، وصمتوا.

وعموماً، كان السكون شاملاً كما لم يكن من قبل قط، فالسفينة لم تتحرك ولا بوصة إلى الأمام. وفجأة اندفع غيلفيلان، طبيب السفينة، خارجاً من حجرته، صائحاً:

– أعتقد أن المياه تنساب تحت سريري!

هبط فرانكلين الدرج مع النجار ليرى الموضع. تحت كابينة غيلفيلان كانت قاعة تخزين المشروبات الروحية. «لا يمكن أن ينساب أي شيء هنا»، قال القائد بحسم. أنصتوا في حجرة الروم: نعم، هنا ينساب شيء! فحص المشرف على المؤن المخزن، لم ينقص شيء. وهكذا وجدوا الثقب.

أحد عمال الترسانة نزع مصمالاً صدئاً، وبدلاً من أن يضع آخر جديداً، غطى الفجوة ببعض القطران فحسب. لم يمنع القطران تسرب المياه، لكنه حجب الثقب عن الرؤية.

عندما سُدت الفجوة في «ترنت»، لم يتسرب سوى القليل من المقدمة. بعد ساعات تجمعوا ثانية؛ ليتأكدوا من أن السفينة أصبحت تسبح الآن في المياه دون عوائق.

فعل الجليد ما شاء.

رأوا نوارس قطبية تطير في الوديان المتموجة بحثاً عن أسماك، كانت على ارتفاع منخفض وتطير بسرعة كأنها رصاصة في ماسورة البندقية. على

الألواح الخشبية في أرضية سطح السفينة تمددت في الضوء المنخفض أسماك القديات، البراقة كبلورات ذهبية، كأنها كنز ثمين. رأوا دببة، أكوام من الفراء الأبيض، وقد جذبها دخان زيت الحوت المشتعل انجذاباً لا يوقفه شيء، بخطاً هادئة كانت تقترب بوتيرة متسارعة عبر الهضاب الثلجية والبرك، لا شيء كان بمقدوره إيقافها.

في مرة، عندما كانوا يبحرون بالقارب، حاول قطيع من حيوانات الفظ أن يقلب القارب بأنيابه البارزة وجماجمه المستديرة، هجوم جماعي غاضب. وعندما وقفوا بعدئذٍ بقليل على جزيرة جليدية صغيرة، حاولت الحيوانات بثقلها أن تضغط على حافتها الأخرى، كأنها تدعو البحارة إلى الزحلقة التي كانت ستنتهي على أنيابها البارزة. ببنادقهم أطلق البحارة على الحيوانات النار، لكن القطيع لم يسبح مبتعداً ابتعاداً نهائياً؛ إلا بعد مصرع زعيم القطيع ثقيل الوزن.

التجوال التالي أضحى أكثر خطورة؛ لأن ضباباً كثيفاً ساد المنطقة، حتى إن كل رجل كان عليه أن يمسك بسترة الآخر. أرادوا تتبع آثار أقدامهم؛ ليعودوا إلى السفينة، وراح جون فرانكلين يراقب الاتجاه بالبوصلة. لفت أنظارهم أن الآثار جديدة تماماً، كما أنها أضحت أكثر عدداً. حسب البوصلة والحساب الزمني كان على المجموعة أن تكون وصلت إلى السفينة منذ فترة طويلة.

ضلوا الطريق؛ إذ إنهم كانوا يسيرون في دائرة.

أمر جون ببناء مخيم اضطراري من ألواح الجليد. لم يُخفِ ريد رغبته في مواصلة السير في الاتجاه السابق:

– هكذا نحتفظ بحرارة أجسادنا، وسنصل إلى مكان ما!

رد فرانكلين بلطف:

- إنني أتمهل قبل أن أرتكب خطأ.

أمر الطاقم كله بأن يرتدوا ملابس ثقيلة قدر الإمكان، وأن يجلسوا حول القنديل الذي يضيء بزيت الحوت. كانت البنادق معمرة لاستخدامها في حالة اقتراب دب منهم.

أقعى جون وأخذ يفكر. كان يقابل كل ما يقوله الآخرون له - اقتراحات، ونظريات، وأسئلة- بإيماءة فحسب، ويواصل تفكيره.

أزاح جون بعيداً كل الأسئلة التي فرضت نفسها، حتى عندما همس ريد في اتجاه باك قائلاً:

- كنت محقاً في موضوع «الإعاقة». إنه يحتاج فقط إلى المزيد من الوقت.

بعد برهة سأل ريد:

- هل سننتظر هنا ببساطة، سير؟

لكن جون لم يكن قد انتهى من التفكير. حتى إذا كان الموت يقف متحفزاً، ليس هذا سبباً لإنهاء التفكير قبل أن يصل إلى نتيجة. وأخيراً نهض، وقال:

- مستر باك، عليك إطلاق رصاصة كل ثلاث دقائق، وإجمالاً ثلاثين طلقة. بعد ذلك تطلق الرصاص كل عشر دقائق مدة ثلاث ساعات، وبعدئذٍ كل ساعة مرة، مدة يومين. كرر ما قلته!

- ألن نكون متنا عندئذ، سير؟

- ممكن. لكن حتى ذلك الحين سنطلق الرصاص. من فضلك، أكِّد ما قلت!

تهته باك مكرراً ما قيل. وعندما لم يعد أحد يتوقع شرحاً، قال جون:

- الحقل الجليدي كله يدور. هذا هو التفسير الوحيد. ولهذا نسير في دائرة، حتى إن كنا، حسب البوصلة، نسير دائماً في الاتجاه نفسه. كنا سنلاحظ ذلك فوراً، لو كانت هناك رياح.

بعد أربع ساعات سمعوا عبر الضباب دوياً خافتاً لطلقة، ثم طلقة بعد أخرى رداً على طلقاتهم. بعد ساعة سمعوا أصواتاً تنادي، وفي النهاية رأوا رجالاً مع حبال، وخلفهم، على بعد أقل من مئة قدم، مقدمة «ترنت» البارز.

«حظك من السماء، سير!»، قال باك بارتياح ووقاحة، لكن كلامه لم يكن ينم عن أي استخفاف، على العكس. تقلص وجه ريد. قال باك له:

- لو كنا سمعنا كلامك، لكنا الآن في مكان ما، لكن في صورة ألواح من الجليد!

صمت ريد. وفجأة تحرك، ودهس بقوة على ندفة ثلج. تعجب جون. كيف يمكن للمرء أن يدهس ندفة ثلج؟ أم أن ثمة شيئاً آخر؟

في الضوء الساطع ومن الصاري الكبير كان بالإمكان في أيام أخرى إلقاء نظرة شاملة على هذه المتاهة. من هناك كان بمقدورهم أيضاً أن يخطئوا تماماً طريقهم إلى السفينة، رغم سيرهم في الاتجاه «الصحيح». كانوا سيصلون إلى مكان ما في الجانب الآخر، حيث لا يبحث عنهم أحد. كان ذلك شَركاً قاتلاً، لكن جون فرانكلين لم يطأه.

قال لنفسه: الوضع أسهل الآن بالنسبة إلي، ولم تعد ثمة مشكلة مع باك. لقد تعلم ملوك فناء المدرسة أن يصغوا إلي. ما كاد يفكر في ذلك حتى أدرك: باك يذكّره بتوم باركر، زميله في المدرسة قبل عشرين عاماً.

لم يصلوا حتى إلى خط العرض 82 درجة، ومع ذلك أراد باكَن أن يستديروا عائدين:

- الأفضل لنا أن نبحث عن ميناء مَحمي ونصلح كل شيء.

«الأفضل لنا» - لاحظ جون استخدام هذه العبارة غير المألوفة. شعر بأن من واجبه أن يعارضه:

- الصيف القطبي سيكون قد مرّ قبل أن ننتهي من الإصلاحات. والأضرار ليست كبيرة إلى هذا الحد. فلنقم بمحاولة أخيرة.

- أتريد أن تلعب دور المِقدام الجَسور؟

- سير، لم نكتشف شيئاً بعد، ولم نبرهن على شيء بعد.

رد باكَن قائلاً:

- أريد أن أقول لك شيئاً! أعتقد أن ما تريد البرهنة عليه شيء شخصي. لقد راقبتك. إنك تريد البرهنة على أنك لست جباناً. ربما يكون الجبن مشكلتك.

رأى جون أن عليه تجاهل ملاحظات كهذه:

- محاولة وحيدة، سير. لم يعد لدينا الكثير من الوقت، لكن البحر القطبي المفتوح لا يمكن أن يكون بعيداً جداً.

- فلتذهب إلى الشيطان! وإذا هبت عاصفة؟

- عندئذ سنكون آمنين ومَحميين في المجرى الملاحي. علينا أن نواصل المحاولة في اتجاه الغرب.

تردد باكَن. أوشك الصيف على الانتهاء، هذه حقيقة.

- سأقرر أنا ذلك.

أبحروا طوال خمسة أيام على طول الجدار الجليدي في اتجاه الشمال الغربي، في الأمام «ترنت»، وبعدها بربع ميل «دوروثيا». نظر جون في المنظار:

- السفينتان قريبتان قرباً بالغاً من الجليد. إذا توقفت الريح، فستسيران مع الأمواج في اتجاه الساحل.

أومأ بيتشاي:

- البحارة يشعرون بالملل! يريدون مشاهدة زعنفيات الأقدام. مع أن الأمر لا يبدو جيداً في الجانب المواجه للريح.

أمر جون بتقليص مساحة الأشرعة إلى الحد الأدنى. على سبيل الاحتياط فحسب.

صاح غيلبرت:

- أتعرفون ما هو أفضل شيء؟ من المقرر أن نصل إلى جزر ساندويتش خلال ستة أسابيع، الباحثون ينتظروننا بالفعل!

- والفتيات.

أضاف كيربي. إنه دائم التحدث عن الفتيات. أما مِن عاصفة رحيمة تنتزع هذه الكلمة من فمه؟

هبت الرياح عليهم فجأة كأنها كانت تتربص بهم. وخلف غيوم العاصفة التي كانت تلاحق بعضها بعضاً، كانت السماء الهادئة والفضية، ما زالت تواصل ابتسامها. وهذا أيضاً ما جعل العاصفة تبدو كهجوم غادر.

قلق واضطراب. تغيير المسار إلى: «الانحراف مع الريح، والابتعاد عن الجليد!» هل سننجو؟ صلوات سريعة. في تلك اللحظة صرخ

عديدون في نَفس واحد: «سقط رجل في المياه!»، أطارت الريح فجأة الطبيب غيلفلان، وألقت به في البحر. ما العمل الآن؟ هناك قاعدتان أساسيتان، وكل منهما تُبطِل الأخرى: عدم التوجه أبداً إلى الساحل في العاصفة، ثم: ملاحظة الرجل الذي سقط في المياه بشكل دائم. رأى جون أنه لا يستطيع هنا سوى اتخاذ قرار سريع، فهو كان قد فكر مسبقاً في مثل هذه الحالات أيضاً. أبقوا الرجل تحت الملاحظة! إنزال قارب فارغ إلى المياه، إبطاء السرعة! فقدان فظيع للوقت والسرعة. أشار أحدهم إلى الساحل الجليدي: كانت «دوروثيا» راقدة حقاً عاجزة عند الجدار، وبالدفع والمناورة الدائرية تحاول التخلص من كتلتين جليديتين. لم تعد تستطيع الحركة، ضيّق الجليد الخناق عليها وحطمها. خلال سويعات لن تكون سوى أجزاء خشبية مهترئة، آمين. لم تستطع مقاومة العاصفة.

أنقذوا جسد غيلفلان، لكن هل ما زال حياً؟ معلقاً في الحبل ألقى سبينك نفسه عليه، وأحضره إلى السفينة دون أن يتوقف عن الضحك. كل إنسان يستمد القوة من شيء مختلف. سبينك يجد نفسه يضحك عندما يخاطر بحياته. تنفس غيلفلان مرة أخرى. والآن، ما العمل؟

بالقارب إلى «دوروثيا»؟ هذا انتحار مؤكد. كلا، الهرب من هنا، طالما الظروف تسمح، هكذا كانوا يصرخون جميعاً. لكن جون فرانكلين كان لا يزال يتذكر الجمل التي حفظها. «عليك ألا تخجل أبداً مثل القبطان بالمر». مرت خمس عشرة سنة على ذلك. آنذاك اختفت «بريدج ووتر» سريعاً دون أن تترك أثراً، لا أحد نجا. عدالة البحر فظيعة، وعلى المرء أن يعد لها العدة.

ظهرت أسئلة، وتكاثرت، وأضحت أكثر إلحاحاً. أخذ فرانكلين يفكر دون أن يجيب. البِحار التي تطارد بعضها بعضاً لم تكن ببساطة بِحاراً: كانت تضم أنقاضاً من الجليد، في حجم قارب كبير، وكانت تضرب

السفينة من الجانب في اتجاه العاصفة. لم يمر وقت طويل حتى كان واضحاً: أن «ترنت» تحتاج إلى معجزة حتى تواصل سيرها. لكن جون لا يؤمن بالمعجزات، إنها شيء للأطفال.

تأزم الموقف، حتى بيتشاي كان عصبياً: بالقبطان البطيء ستغرق السفينة كلها. لكن لماذا ظل فرانكلين محافظاً على هدوئه؟ ماذا يظن؟ لماذا يحدق في الساحل، عن أي شيء يبحث بمنظاره؟

صاح جون:

- هناك! علينا أن ندخل إلى هناك يا مستر بيتشاي!

ماذا يقصد؟ وسط الكتل الجليدية؟ طوعاً؟

- تماماً!

أمسك جون بكتفي بيتشاي، وثبته في مكانه، ثم صرخ في مواجهة العاصفة:

- المنطق! المنطق! وسط الجليد المتماسك سنكون آمنين. الحل الوحيد!

وبالفعل، لقد انفتح أمامهم طريق، مضيق بحري، لا يكاد يزيد كثيراً عن عرض السفينة. لقد رآه القائد، إلى هذا الحد كان يتمتع بالهدوء. والآن عليهم الدخول إلى هناك. ولكن ذلك متعذر بالطبع. قبل الوصول إلى المضيق بمسافة تقدر بضعف طول السفينة ضربت الدفةَ كتلةٌ جليدية ضخمة، وقبل الهدف أطاحت موجة هائلة ثقيلة بـ«ترنت»، وأبعدتها عن المضيق. وبعد ذلك مباشرة صدرت طقطقة من الجانب الأيمن للسفينة إثر ارتطامها بكتلة جليدية صماء. سقط الرجال كلهم دون أن يستطيع أحد أن يتشبث بشيء، كأن أحداً سحب البساط من تحت أقدامهم. صاحبَ ذلك

صوت بشع: دق جرس السفينة كأنه يعلن موت أحد البحارة. نهض جون متشبثاً بما وجده، ثم أشار إلى أعلى الصاري الأمامي، وصاح:

- انزلوا الأشرعة المطوية!

نظروا جميعاً إليه، كأنهم لاحظوا عليه بوادر مرض عقلي. أسرعَ في اتجاههم البحر الجليدي التالي، وضرب مجدداً جدار السفينة التي أصبحت مثل بيضة في المقلاة. انثنت الصواري كأنها سيقان نبات. وعلى أحد ما الآن أن يتسلق الصاري، ماذا يقصد بذلك؟ «إنزال الأشرعة؟!» دقت أجراس السفينة كأن الشيطان مسها. بالطبع راحت تدق! لقد انتهى أيضاً كل شيء! لن تصمت قبل أن يموتوا جميعاً. تشنجت أجساد الرجال، ولم يعد أحد يتحرك. البحر الجليدي التالي، المشهد نفسه. هذه السفينة مصيرها الضياع.

مع الوقت كان جون فرانكلين يزداد غرابة. أمسك الآن كتفه اليسرى بيده اليمنى، وأحكم قبضته ثم راح بكل قوته يشد كتفيه. هل يريد أن ينزع رتبته، أم يمزق نفسه؟ لقد جُن على كل حال، وها هو الدليل! راح غيلبرت يسب ويلعن، بينما أخذ كيربي يصلي، كلهم كانوا يصلون. هل سيتحدث كيربي مرة أخرى عن البنات؟

قطع فرانكلين كُماً من السترة الرسمية، وزحف إلى الناقوس، وبين عاصفتين مدويتين من قرع الأجراس قال للضابط الأول:

- مستر بيتشاي، من فضلك، اجعلهم ينزلون الأشرعة على الصاري الأمامي.

ثم ربط قماش السترة السميك حول مطرقة الناقوس، وعقده وشد القماش بقوة، كأن شخصاً يريد أن يخنق فيلاً.

- الآن سيعم الهدوء!

قال راضياً كأنه بذلك كتم أنفاس العاصفة أيضاً. فجأة شعر الجميع بشيء كالأمان. تجرأ الرجال الأكثر جسارة على الصعود إلى أعلى الصاري الأمامي وأنزلوا الأشرعة. من أعلى رأوا ما أدركه جون: انزلق جزء من قوس «ترنت» في المضيق، وبإمكانهم، إذا أنزلوا كل الأشرعة على الصاري الأمامي، أن يمروا بالسفينة، إذا تحركت بين موجتين عاتيتين، وسارت بعيداً عن الجدار الجليدي. انتزع آخرون الشراع المتبقي على الصاري الكبير، ولم يفقد أحد توازنه. وعندما انحسر البحر الجليدي قبل أن تتهيأ السفينة للمد الفظيع من جديد، انحرفت «ترنت»، حتى دون دفة، انحرافاً ليناً وطيّعاً، وتخلصت من قبضة العاصفة التي دفعت بالسفينة إلى جبل جليدي، وألقت العاصفة ببعض الأنقاض الجليدية على قوس السفينة المهشمة، ومُزِّقَ الشراع تمزيقاً. بصرير عال انحشر القوس بين الجدران الزجاجية، ثم شقت السفينة طريقها ببطء. وفي الختام وقفت السفينة ساكنة. لم يكد أحد يشعر بالأمواج، والريح اختفت دون أن تترك أثراً. أين بقيت إذن؟

والآن تم استخدام الأكياس الواقية المعدة سلفاً، وهي أكياس من جلد حيوان الفظ محشوة ومنتفخة؛ لتحمي السفينة من الاحتكاكات والاصطدامات.

خرج الطباخ، وهو رجل له ساق خشبية، من مطبخ السفينة وظهر على سطح السفينة بوجه شاحب:

- هل وصلنا إلى البر؟ أعلينا أن نهبط من السفينة؟

كيف يمكن مساعدة «دوروثيا»؟ لا بد، بدايةً، مِن الصعود إليها

عبر الجدران الزجاجية! قفز الأول من عارضة القلع الأمامي عبر حافة الجليد، سيينك طبعاً، وهو يقهقه عالياً. ركّب بكرة رفع أثقال نقل الرجال والمعدات والحبال، لا سيما حبال المرساة في «ترنت» كافة. مرة أخرى، كان لدى جون فرانكلين خطة، لا شك في ذلك. لم يجد أحد ضرورة لطرح أي أسئلة. بيتشاي وحده – الذي وجب عليه البقاء في السفينة– قال باقتضاب:

– حظاً سعيداً، سير! أراهن أنك ستنقذ الجميع من حطام السفينة.

رد جون:

– لا، سنصل بالسفينة إلى وضع آمن. على بعد مئة خطوة من قوس السفينة ثمة مضيق مثل مضيقنا.

كان باك يصغي، فسأله:

– ومن أين عرفت ذلك؟

أجاب جون ببطء متعمد:

– سير. يخاطبونني بـ«سير»! لقد رأيت المضيق.

طوال نصف ساعة ظلوا يشقون طريقهم عبر الهضبة الجليدية المتصدعة، وعندئذ وصلوا إلى المضيق أعلى «دوروثيا». في الأسفل لا تزال السفينة تحاول التقدم في مواجهة الجدار الجليدي، وقد أحاطت بها منذ وقت طويل أنقاض عوارض الأشرعة وأحد قواربها. تُرى، كم شخصاً قضى نحبه حتى الآن؟

باستعجال كبير سُحِب على البكرة حبلُ مرساة «دوروثيا» حتى نهايته، وبعدئذٍ –بفترة بسيطة– غُرزت في الجليد دعامة في القمة الضخمة على الجانب الآخر من المضيق. كان من الجيد أن باكَن فهم المقصود في لمح

البصر. ضُفرت حبال المرساة مكونة حبلاً واحداً، ورُبط في أسفل الصاري الأمامي الكبير، ثم سُحبت السفينة من الجانب الآخر في الجليد بواسطة الواقفين على الدعامة. هدأت العاصفة قليلاً، لكن الأمواج ظلت فظيعة كما هي.

وقف خمسة وعشرون رجلاً في الحفر التي صنعوها بالفؤوس، وبكل جهدهم شدوا الحبل. لم تتحرك السفينة من مكانها إلا بالكاد، بوصات قليلة فحسب. قسم جون الرجال إلى مجموعتين، وأخرج الساعة من جيبه. كل مجموعة كانت تبذل أقصى جهدها مدة عشر دقائق، ثم تأتي الأخرى. مَن يترك الحبل، كان يقع كأنه فاقد الوعي. تقيأ بعضهم. على الأرجح كانت السفينة تزداد ثقلاً بسبب المياه المتدفقة إليها. أمر جون بإعداد كل شيء لإنقاذ الأحياء من حطام السفينة، أما الطاقم المنهك فكان يرى: أن من الأفضل البدء بذلك الآن.

بوجه شاحب قال كيربي لاهثاً:

– مرت ساعتان! علينا أن نتخلى عن السفينة.

رد ريد وهو يلهث أيضاً:

– ليس لديه إحساس بالزمن!

لو كان يستطيع التنفس؛ لقال أكثر. بعد ساعة أخرى لم يعد هو أيضاً يستطيع سوى التفكير في الجملة الأولى، لم يعد أحد قادراً على الكلام. طوال الوقت كان جون يشد الحبل معهم رغم أن ذلك لا يليق بضابط. لكنه كان يشعر بالبرد في ذراعه العارية.

وفجأة تحررت السفينة! شيئاً فشيئاً بدأت تتزحزح إلى الأمام في مياه المضيق. راح باكَن يهيئ الأشرعة في الأمام، وعندما رقدت «دوروثيا» أمام

الثغرة، فَرَدَ الأشرعة. ببطء تهادت «البريغ» شبه المحطمة عبر المضيق. كانت تشبه بالأحرى إسفنجة مشبعة بالماء أكثر منها سفينة ملكية.

النجاة! لم يفقدوا سوى قارب وحيد، لكن تم إنقاذ سفينتين، وكل الرجال في صحة جيدة.

سار باك إلى جون فرانكلين، وقال له:

- سير، ألتمس منك العذر. إننا مدينون لك بحياتنا.

تطلع جون إليه، وبعد كل هذا الجهد لم يستطع بسرعة أن يتخلص من سحنة القبطان وتجعيدات وجهه. لماذا يلتمس العذر؟ لتوم باركر، قال لنفسه. فكرة غريبة.

كقائد للسفينة لم يكن في حاجة إلى الاستفسار، إذا لم يفهم شيئاً. يستطيع أن يختار ما يريد أن يعرفه، وأسباب باك ودوافعه ليست مما يريد أن يعرفه. اضطرب باك وأراد الانصراف. لكن جون، بدلاً من أن يرد عليه، وضع يديه حول كتفيه ببساطة واحتضنه.

في تلك الأثناء كان بيتشاي قد أمّن «ترنت»، وسد أولى الثقوب فيها بخمسة رجال فقط. احتضنه جون كذلك.

أراد المشرف على الأشرعة أن يفك كُمّ سترة جون من ناقوس السفينة حتى يخيطه مرة أخرى. لكنه تخيل أن العقدة ستكون أسهل من ذلك. لقد احتاج إلى نحو ربع ساعة.

ما أكثر ما تستطيع عاصفة كهذه أن تغيره! فجأة لم يعد ريد يتحدث مع باك، وإذا حدث فبنبرة باردة ومتهكمة. في بعض الأحيان كان يختلي بنفسه، وعندما يعود، كان يبدو عليه، كأنه كان يبكي. على ما يظهر: إن سبينك يفهمه. حكى للشاب حكاية طويلة، له وحده. كانت الحكاية تدور حول ما

مرّ به لدى أهالي باتاغونيا، أولئك العمالقة جنوبي أمريكا الجنوبية، الذين يستطيعون أن يمسكوا بقرون عدة ثيران في الوقت نفسه، وتسود لديهم المساواة في الحب، لا يفضلون أحداً على أحد، الحب مشاع مثل الهواء الذي نتنفسه. غير أن ذلك تحديداً بدا كأنه يثير الهم لدى ريد؛ إذ اغرورقت عيناه بدموع حقيقية! لقد نجا، ونجت السفن والزملاء، لكنه يبكي؛ لأنه بالتأكيد يظن: أن أحداً ما يحب أحداً آخر.

قال بيتشاي:

- يبدو أن أحد ضباط الصف خبير بهذه الأمور!

رد فرانكلين:

- اعطوه عملاً كثيراً، عليه ألا يبكي، بل أن يتعلم مهنة.

تحديد الموقع أسفر عن أنهم تجاوزوا خط العرض الثاني والثمانين.

أخرج جون مقالة د. أورم عن التلميذ ف. ليقرأها. لم يعد تلميذاً، ويستطيع قراءتها الآن.

تشوق للاطلاع عليها. «نشأة الفرد عبر السرعة». كان يخشى دائماً أن يجد في المخطوطة شيئاً عن مستقبله. الآن، كان يأمل ذلك؛ إذ لن يكون هذا المستقبل شيئاً سيئاً بعد الآن.

استخدم د. أورم جملاً صعبة، مثل: «اختلاف البشر، في حالة اختلافهم، عبر درجة كمال البصر لديهم، وبالقياس إلى أي مجموعة من الظواهر الفردية يمكن اختيارها». لم يُرجِع د. أورم الاختلاف إلى صفات آلية للعين ولا للأذن مثلاً، بل إلى المخ: «التلميذ ف. بطيء؛ لأنه يجد نفسه مرغماً على النظر مطولاً إلى كل ما يلفت انتباهه. الصورة التي تلتقطها عينه تبقى ثابتة من أجل الفحص الدقيق، أما الصور التالية فتعبر دون أن يراها.

يضحي التلميذ ف. بالصورة الكاملة من أجل تفصيلة من التفاصيل، ومن أجلها يستخدم عقله كله، يستغرق الأمر وقتاً إلى أن يخلو مكان للصورة التالية. ولهذا، فإن البطيء لا يمكن أن يتابع التطورات السريعة».

قال جون لنفسه: لكني أعاني من عمى النظرة الثابتة، لماذا لم يذكر ذلك؟

«لكنه يستطيع أن يدرك بشكل أفضل الفرادة، والتطورات التدريجية أيضاً».

بعد ذلك كتب د. أورم عن «الإسراع وخيم العواقب كسمةٍ لهذا العصر»: اقترح قياس سرعة كل الأفراد بأجهزة، ثم تحديد المهام التي تناسب كل فرد على وجه الخصوص. ثمة «مهن شمولية» و«مهن تفصيلية». يمكن الاستغناء عن جهود كثيرة ومعاناة لا طائل من ورائها؛ إذا قسنا السرعة في الوقت المناسب. ومنذ المرحلة المدرسية من الممكن إنشاء أقسام خاصة للأطفال الذين يتسمون بالسرعة، وأخرى لمن يتسم بالبطء.

«يجب أن نترك كل فرد حسب مقياسه الزمني الخاص والفريد، السريع يظل سريعاً، والبطيء بطيئاً. السريع يمكن أن يتولى المهن الشمولية التي تتعرض إلى الإسراع الذي يفرضه العصر: سيتحمل السريع ذلك على نحو جيد، وسيقوم بعمله على خير وجه، مثل مهنة الحوذي أو النائب في البرلمان. أما البطيء فيجب تعليمه المهن التفصيلية، مثل الحرف اليدوية والطب والرسم. من موقع المنزوي سيكون بمقدوره أن يتتبع التحول التدريجي على أفضل وجه، وأن يقيّم بدقة عمل السريع وعمل الحاكم قياساً على النتيجة».

فكر جون: لو قرأت فلورا ريد هذا الكلام؛ لكان غضبها فائقاً. لا

حرف عن المساواة! لكنه كان متسرعاً؛ إذ بعد سطور قليلة انطلق د. أورم من نظريته هذه تحديداً إلى حق الانتخاب العام. على الشعب الإنكليزي –وربما البطيئون فحسب، والنساء أيضاً!– أن يختار كل أربع سنوات الأفضل بين الذين أثبتوا سرعتهم، وبذلك تُنتخب حكومة جديدة.

كانت حجة د. أورم كالتالي: «البطيء تحديداً يعرف بعد أربع سنوات كيف يقيم تقييماً صائباً ما الذي تغير، وكيف أثّر ذلك عليه».

تمعن جون في التفكير طويلاً، ثم أزاح المقالة جانباً. «كلا!»، قال بفخر وحزن في آن واحد. «إن كل ذلك من بنات أفكاره!».

لو عرف المعلم ما يستطيعه جون الآن وما يفعله؛ لكتبَ كل شيء على نحو مختلف. إذا كان بمقدور شخص بطيء، خلافاً للشروط، أن يتعايش مع مهنة سريعة، فهو عندئذ أفضل من الآخرين.

عاد مرة أخرى إلى النظام الفرانكليني. في كتاب العقوبات كان قد كتب وجهة نظره الأولى في الموضوع:

«أنا القائد، ولا أسمح لأحد أبداً بالشك في ذلك، ولن أسمح لنفسي خصوصاً بذلك. يجب على الجميع أن يتأقلموا مع سرعتي أنا؛ لأنها أبطأ سرعة. لن تعود حالة الأمن والنظام إلى السفينة؛ إلا إذا استطعت تحقيق احترامهم في هذه النقطة. أنا صديق لذاتي. إنني آخذ على محمل الجد ما أفكر فيه وما أشعر به. الوقت الذي أحتاج إليه من أجل ذلك، ليس وقتاً ضائعاً أبداً. الشيء نفسه أتيحه للآخرين أيضاً. بقدر الإمكان ينبغي تجاهل نفاد الصبر والخوف، أما الذعر فهو ممنوع منعاً باتاً. في حالة تحطم السفينة يجب أولاً إنقاذ التالي: **الخرائط، والملاحظات، والتقارير، والصور**».

كل يوم تقريباً كان يضيف جملاً أخرى إلى ما كتبه. آخر جملة أضافها

هي: «العمل البطيء هو العمل الأهم. كافة القرارات العادية والسريعة هي من مهمة الضابط الأول».

أبحروا عائدين إلى إنكلترا بسفينتين عانوا في إصلاحهما، وكانوا سعداء بالوصول أساساً. العمل على المضخات كان أكثر مشقة منه في رحلة الذهاب.

ربما كان البحر المفتوح عند القطب الشمالي مجرد خرافة. لكن جون اعتبر ذلك أمراً لم تتم البرهنة عليه بعد.

استقبلتهم لندن بتهليل وابتهاج عظيم. كان الجميع يعتقدون فعلاً: أنهم عائدون من جزر ساندويتش مباشرة.

قدم باكَن وفرانكلين للسير جون بارو في الإدارة البحرية التقرير الأول عن الرحلة. انهال باكَن بالمديح على جون الذي لم يكد يعرف أين ينظر خلال ذلك.

سأله بارو:

– والآن، مستر باكَن؟ بالتأكيد تريد العودة إلى الجليد بأسرع ما يمكن.

«ليس بالضرورة»، رد باكَن، ثم أضاف:

– يستغرق الإبحار والدوران في هذه المنطقة فترة تكاد تكون أبدية، لذلك، على المرء أن يحب صحبة الرجال أكثر مني.

– وأنت، مستر فرانكلين؟

راح جون يفكر في ملاحظة باكَن الأخيرة، شعر ببعض الذعر؛ لأن سؤال بارو حصل بذلك على دلالة أخرى احتاج للرد عليها وقتاً أطول. لذلك اكتفى بالقول مرتبكاً:

- طبعاً. أنا بالتأكيد!

- جيييد!

قالها بارو مسروراً وهو يمط الكلمة، ثم أضاف:

- إذن لدي على الأرجح تكليفاً جديداً لك بقيادة سفينة.

في عصر اليوم نفسه زار جون فرانكلين إليانور بوردن، وقدم لها عرضاً للزواج بجمل أعدها بعناية. شعرت بالحرج والزهو في آن معاً، لكنها غيرت الموضوع وسألته عن المغناطيسية القطبية:

- في الحقيقة كنت أتوقع أخباراً جديدة بهذا الشأن فقط.

ما كان في جعبة جون فيما يتعلق بالمغناطيسية لم يبدُ حتى في عينيه مُرضياً. لذلك عاد ليتحدث عن طلبه. نظرت إليانور إليه فجأة نظرة شخص بالغ، وقالت:

- أعتقد أنك تريد البرهنة على شيء ما.

رفضت طلبه بداية، «بدافع من البطء»، مثلما قالت. تأمل جون ما قالته، وأعجبه ذلك جداً. في المساء وجد نفسه عند إحدى عاهرات الميناء غاليات السعر التي أرادت أن تعرف من جون في البداية - بدلاً من أن تتركه يبرهن على أهم شيء لديه- كل شيء عن شبه جزيرة كامشاتكا وزميلاتها هناك. راحت تحثه على الكلام مرة بعد أخرى:

- بالطبع كنتَ هناك! بالطبع كنتَ هناك، لكنك لا تريد أن تحكي لي! إنك عنيد مثل كل الضباط!

الفصل الثالث عشر

رحلة نهرية إلى ساحل المنطقة القطبية الشمالية

في هذه المرة كان جون فرانكلين وحده قائد البعثة الاستكشافية، لكنه لم يكن قبطان سفينة، إذ تقرر أن تكون الرحلة برية. سافر معه الطبيب الدكتور ريتشاردسون، وضابطا الصف: باك، وهوود، وكذلك البحار هيبورن. ومن شركات تجارة الفراء الملكية في كندا سيحصلون على حمالين ومرشدين وصيادين والمؤن الغذائية.

في الأحد السادس بعد عيد القيامة في عام 1819 غادروا مرسى غرافسند على ظهر «برنس أوف ويلز»، وهي سفينة صغيرة تابعة لشركة خليج هدسون. استعد جون لكل شيء يمكن أن يهتدي إليه الخيال. لقد تدرب حتى على السير، وقاس متوسط طول خطواته بين علامتي طريق في لندن، ووضع بوصلته في خاتم الإبهام الذي يمكن فتحه، وبهذا كان بإمكانه السير تجاه علامات الطريق بذراع ممدودة وبوصلة مفتوحة. كل فرد منهم كان يحمل مطواة ومثقاباً كبيراً وآخر صغيراً، وصفارة لإرسال الإشارات في حالة الطوارئ، وأيضاً سلكاً لتثبيت أحذية السير في الثلوج،

وكذلك -بناء على نصيحة ساعي بريد يمتطي حصاناً- جوارب من صوف الغنم، وسترات سفلية وسراويل داخلية طويلة تصل حتى الكاحل، كانت تسبب هرشاً فظيعاً.

كان جون سعيداً؛ لأن في البعثة شخصاً يعرفه: جورج باك. لقد تقدم طواعية معلناً استعداده لأن يبقى على ولائه لفرانكلين، في السراء والضراء. مثل هذه العبارات كانت تربك جون، لكن كان من الجيد أن يستطيع الاعتماد على رجل سريع مثله. كان عازماً على جعل باك ضابطه الأول، وإن بشكل غير رسمي، الضابط الذي يقرر القرارات السريعة «العادية». بالطبع لا بد من أن يثبت كفاءته أولاً. وماذا عن الآخرين. راح جون يراقبهم بدقة؛ لأنه أراد أن يطبق النظام الذي توصل إليه في السفينة «ترنت» على كل المرتحلين الجدد معه.

- كان بإمكان قبطان بلوسوم أن يظل إنساناً سعيداً، وأن تظل بلوسوم سفينة سعيدة، لو لم يُعيَن قبطاناً لها؛ لأنه ليس قبطاناً!

توقف د. ريتشاردسون عن الكلام، وسحب نفَساً من غليونه المكدس بالتبغ أكثر من اللازم والمشتعل اشتعالاً ضئيلاً، إلى أن أضاء وجهه النحيل ضوء يميل إلى الحمرة، وبدت سحب الدخان كأنها تحجب ضوء المساء الضعيف الذي يتسلل من نافذة مطعم السفينة. نعم، سفينة بلوسوم! لقد شارك د. ريتشاردسون في هذه الرحلة الفظيعة كطبيب على ظهر السفينة، وهو يحكي كل شيء بالتفصيل الممل. غير أن فرانكلين كان يتساءل: لماذا؟

- القبطان الضعيف قد يؤثر عليه أي شخص يطلق عليه قبطاناً قوياً. إنه يصغي إلى كل أنواع النفاق والتزلف والوساوس؛ لأن الحقيقة هي عدوه.

كان هناك مسؤول ماكر عن التموين والإمدادات، اسمه كاتليواي، يحب التجسس على الآخرين ثم نشر المعلومات التي توصل إليها. فإذا لم يسمع شيئاً صالحاً للاستخدام، نسج من أكاذيبه شيئاً. لكن القبطان كان يصدقه. ولذلك أمر باعتقال ملازمين بزعم عدم ولائهما. وعندما رفع دعوى أمام المحكمة الحربية، فإنها لم تحكم على الضابطين بل عليه شخصياً، أما البحار الذي شهّر بهما فقد عوقب بإرساله إلى بلد فان ديمن. فكر جون في الجزيرة جنوبي أستراليا التي دار ماثيو حولها مستكشفاً ذات يوم. عقوبة ليست بالسيئة، قال لنفسه، أن يعمل المرء في الهواء الطلق، وأن يساعد في تمدن بلد. كان هذا هو تصوره لما يحدث مع المُدانين المرسلين إلى هناك.

– ولماذا كان هذا القبطان ضعيفاً؟

تساءل ريتشاردسون، وفوراً أجاب بنفسه:

– لأنه حُرم من بركات الإيمان. مَن لا يدع الرب يقود خطاه، لا يستطيع قيادة سفينة.

ومرة أخرى انهمك في إشعال غليونه، ربما لأنه كان يبحث عن سبب حتى لا ينظر إلى جون، بينما كانت الحكاية تترك تأثيرها عليه، وهو ما حدث. قال جون لنفسه: ينتظر مني أن أقول رأيي. لكنه التزم الحذر. إذا كان هذا الريتشاردسون تقياً ورعاً؛ فلن يكون من السهل التعامل معه. إنه يستمد السلطة من الله؛ هذا أمر يمثل خطورة على النظام الفرانكليني. هناك تأويلات أكثر من اللازم لما يريده الله. كان جون يعتبر الدين مفيداً في العموم، إذا كان هدفه الحفاظ على العقل والنظام. أما غلاة الرائين والمؤمنين فقد كانوا يجعلون صدره ينقبض. لذلك لم يقل سوى:

- قيادة سفينة تعني علم الملاحة. لا أعرف أكثر من ذلك.

يجب على البعثة أن تصل إلى الحافة الشمالية للقارة، ثم تتجه شرقاً على طول الساحل المجهول، لتتوغل حتى تصل إلى خليج الصدة، حيث سيكون قبطان يدعى باري في انتظارهم مع سفينته. إذا نجحت الرحلة، فسيكونون قد اكتشفوا الممر الشمالي الغربي الذي تبحث عنه أوروبا منذ ما يزيد عن قرنين. وستكون المكافأة عن ذلك سخية: عشرين ألف جنيه إسترليني!. «الخليج الحاسم» إذن الذي ينفتح على قناة: لم يحد جون يوماً عن هذا الحلم منذ الرحلة الأسترالية. فضلاً عن ذلك، تنتظر الإدارة البحرية وصفاً دقيقاً لكل من يقابلونه من قبائل هندية حمراء وقبائل الإسكيمو. مطلوب إظهار اللطف، ومن الممكن ممارسة المقايضة، الخمر مقابل الفراء، أما الأسلحة النارية فلا. المهم هو أن يعتاد البدائيون على تزويد السفن العالقة في الممر البحري بالطعام في حالة الطوارئ، على ألا يضرهم ذلك.

بلا اكتراث قال باك:

- سيتضررون في كل حال، المأمول ألا يلاحظوا ذلك طالما نعتمد عليهم!

أقصر الجمل كان يقولها هيبورن، وهو إسكتلندي من نواحي أدنبره. قال: «ستتصرف!». منذ طفولته وهيبورن يركب البحر. بعد أن تحطمت سفينته الشراعية التي كانت تطوف حول الصين، انتشلته سفينة حربية، ثم أُجبر على الاشتراك في سلاح البحرية. حاول الانشقاق أربع مرات. لكنه تقدم للالتحاق بهذه البعثة طواعية هو أيضاً. لماذا؟ هذا ما لا يعرفه أحد سواه.

في ميناء سترومنس في جزر أوركني وجدوا البريغ «هارموني» في انتظارهم، وهي سفينة تتبع الكنيسة المورافية. نقل قارب بمجاديف فرانكلين وباك وريتشاردسون إلى السفينة، ثم عاينوها. قابلوا هناك بعض الإسكيمو الذين تزوجوا تواً -مسيحيين بالطبع- ومبشراً لوثرياً كان يهمّ بتعليمهم الصلاة على نحو أفضل. لم يكن يفهم إلا الألمانية ولغة الإنويت. بدون مترجم لم يكن ثمة سبيل للتفاهم. «الإنويت»: هكذا كان الإسكيمو يطلقون على أنفسهم. وتعني الكلمة «الناس». تركوا الانطباع بأنهم متواضعون، واتسموا كذلك بالنظافة واللطف. عن ذلك قال ريتشاردسون: إن بركات الدين واضحة عليهم، المرء يراها في أعينهم.

ابتسم باك. لكن هذا ما كان يفعله كثيراً. كان يبتسم؛ لأنه معجب بنفسه، ولأنه يريد أن يعجب الآخرين، لا سيما فرانكلين. كان جون يحدس بذلك. ولكن، إذا كان باك قادراً على الإنجاز، وإذا كان يساهم في إشاعة أجواء من الثقة والتفاؤل، فأهلاً وسهلاً به. كانت الأجواء طيبة.

بعد الارتطام بجبل جليدي حطم الدفة، رست «برنس أوف ويلز» في النهاية عند مصنع يورك على الساحل الغربي لخليج هدسون.

على اليابسة كانت هناك أسماء ووجوه جديدة ينبغي أن تحفظها الذاكرة: فرنسيون، وهنود حمر، وموظفو شركة الفراء، وكذلك رائد من الشركة الملكية للهندسة يدعى باي، كان يفحص إمكانية حفر نظام قنوات، يبدأ من هذا المكان ويصل حتى البحيرات العظمى. كما حكى لهم عن «فرونتيناك»، وهو قارب بخاري يبحر في البحيرة العظمى بين البحيرات الخمس، ويطلق سحباً من الدخان الأسود. الهندسة تنتصر في كل مكان، وهو رجل الهندسة!

– أيها السادة، إذا لم تجدوا الممر الشمالي الغربي، فسأحفر قناة بحمولة المتفجرات التي ستحملها مئات من السفن.

باي هذا، يا له من رجل! لم يحبه جون كثيراً. أجاب باقتضاب:

– سيكون من الصعب العثور على قباطنة وبحارة لسفن مثل هذه المهمة.

بعد أيام قليلة فحسب انطلقوا، إذ كانوا في سبتمبر، وكان فرانكلين يريد المضي قدماً بقدر الإمكان قبل حلول الشتاء. ساروا عكس التيار مع بعض من الهنود الحمر وصيادي الحيوانات بهدف الحصول على الفراء من الكنديين ذوي الأصل الفرنسي، وسلكوا الأنهار والبحيرات حتى وصلوا إلى بحيرة وينيبيغ، ثم عبر نهر ساسكاتشوان حتى نقطة التجارة كامبرلاند هاوس. وكانت برفقتهم نساء أيضاً.

أطلق صيادو الحيوانات على أنفسهم اسم «رحالة»، وكانوا لا يتحدثون سوى الفرنسية. لم يعاملوا أحداً بلطف، أو كانوا على أقصى تقدير لطفاء مع كلابهم فحسب. كانت بحوزة فرانسوا ساماندريه امرأتان، كان طيلة الرحلة يعيرهما للزملاء مقابل المال. اثنان آخران من الرحالة كانا يتشاركان في امرأة واحدة. بلا شك نالت هذه المرأة ضعف الضرب الذي نالته الأخريات. كان السُكر يفجر دائماً غضباً لا نهائياً على كل شيء في نفوس هؤلاء الرجال متبلدي المشاعر: على أنفسهم، وعلى النساء، وعلى الزوارق، وحتى على الكلاب. ذات صباح جمع جون الفريق كله وأوضح أنه سيطرد من السفينة أي شخص يضرب الآخرين أو يتشاجر معهم. وعندما قام بذلك في إحدى الحالات فعلاً، تحسن الوضع قليلاً.

كانوا يتغذون على البيميكان، وهو خليط من الدهن وقطع اللحم،

مضافاً إليه سكر وتوت بري، طعام غريب كاللزقة، لكنه يمنح طاقة. وكان الطعام ملفوفاً في جلد الثيران ومحفوظاً في صناديق، كل صندوق يسع ثمانين رطلاً.

وعموماً: الأثقال، وحملها! تحتم عليهم في كثير من الأحيان أن يسحبوا الزوارق من الجانب، ليصعدوا بها أحد الشلالات دون مقابض أو وسائل مساعدة. الصراع مع التيار وحده كان يخلّف ألماً في الأكتاف، وفوق ذلك كانت الرطوبة والبرودة تفعلان مفعولهما. بعباراته التقية لم يكن بمقدور الدكتور أن يفعل شيئاً. لكن كانت بحوزته مراهم جيدة أيضاً.

باك مجتهد، لكنه متعجل للغاية. بالتأكيد، لم تسر الأمور بسرعة كبيرة، لكن على المرء أن يتأقلم مع ذلك. كان الرحالة في نهاية كل ساعة يستريحون ويدخنون الغليون. فليفعلوا، إذا كانوا يحتاجون إلى ذلك. كانوا يقيسون طول المسافات في النهر بعدد المرات التي دخنوا فيها الغليون. وطبعاً، كان لا بد أن يدخنوا، وإلا لم يكن المقياس صحيحاً.

وعندما ساروا مرةً في اتجاه التيار، على صفحة نهر إيشيامامز، واستطاعوا أن يتقدموا بشكل جيد، امتنع الهنود الحمر فجأة عن مواصلة الإبحار: لم تلحق أرواحهم بعد بأجسادهم، وينبغي عليهم الانتظار.

كان جون يتفهم إلحاح باك، لكنه نبهه في حديث شخصي إلى ضرورة الالتزام بعادات هذه المناطق. فضلاً عن ذلك لم يكن باك يستطيع تحمل الملل، وكان بصورة خاصة يريد أن يتجنب بأي ثمن أن يغدو مملاً. كان رجل المسامرة، يبحث دوماً عن نكتة يلقيها حتى لو كانت تُدمي السامعين. لم يدرك: أن المهم في رحلات طويلة كهذه، هو بالأحرى السلوك العادل تجاه الآخرين.

بدأ جون يستلطف صف الضابط الآخر، روبرت هوود، أكثر بكثير من باك.

كان هوود، مثل باك، متمرناً على الرسم والتلوين، وكان عليه أن يرسم رسوماً تخطيطية لكل ما يمكن أن يكون مهماً. ولكن: ما هو المهم؟ كان هوود إنساناً حالماً هادئاً. لم يكن يهتم بهدف الرحلة الأساسي، بل بكل ما يثير خياله: انعكاسات الأضواء على المياه الضحلة في أحد منعطفات النهر، والأنف الغني بالتجعيدات لدى أحد الرحالة، وشكل سرب الطيور. كثيراً ما كان باك يسخر منه، وكانت طيبة هوود تدفعه إلى مزيد من السخرية. أدرك جون أن هوود ليس بالرجل السريع الذي يصلح ليكون ضابطاً أول. لكن من بين الجميع كان هو أكثرهم شبهاً به، ولهذا كان يؤمن بقدراته أكثر من أي أحد.

في نهاية أكتوبر وصلوا إلى كامبرلاند هاوس. عليهم البقاء هنا؛ لأن الأنهار الصغيرة تجمدت بالفعل. أمر الحاكم المحلي التابع للشركة بإعطائهم مبنى لم يكتمل بناؤه، وكان عليهم الانتهاء من تشييده، ثم إعداده كي يقضوا الشتاء فيه. بنى هوود المدفأة، فهو خبير بذلك. «إنه مشعل نيران»، هكذا كان يقول عنه الهنود «الكري»(*) الذين كانوا يكنون تقديراً خاصاً له من بين كل الأوروبيين. فيما عدا ذلك لم يكونوا يقدرون الرجل الأبيض كثيراً. رصاص البنادق ألحق بقبيلتهم، التي كانت يوماً ذات نفوذ، خسائر فادحة، ثم قضى الخمر بلا رحمة على ما تبقى من القبيلة.

أحد «الكري» قال لروبرت هوود:

– ستزداد سلطة البِيض مع الأيام أكثر فأكثر، ولن يستطيع أحد إيقافهم.

(*) Crees اسم يطلق على مجموعة من السكان الأصليين في أمريكا الشمالية.

ولن يهلكوا إلا بعد أن يدمروا كل شيء. عندئذ سيطردهم محاربو قوس قزح العظيم ويعيدون كل شيء إلى ما كان عليه.

رد هوود بهدوء:

- أنا لا أدمر شيئاً، إنني لا أريد حتى أن أترك آثاراً. بعض الصور على أقصى تقدير.

وهكذا كانوا يجلسون في كل مساء حول نيران المدفأة: الطبيب ذو الوجه الجلدي يقرأ في الإنجيل، وهيبورن الثقيل الناعس، وهوود النحيل الذي كان دائماً يرمش بعينيه، ويفتح فمه عندما يستغرق في التفكير، دون أن يقول كلمة واحدة.

اتضح مع الوقت أن لا أحد يستلطف جورج باك حقاً. سرعان ما أصبح الجميع ضد الإنسان الوسيم الذي يريد مفاجأة الجميع، دون أن يقول أحد ذلك صراحة. ولهذا تحديداً اقترب أكثر من جون. كان يوصل الأخبار، ويبدي إعجابه، متشوقاً إلى أن يمدحه أحد. كان الأمر شبيهاً بصفقة: مقابل الإعجاب الذي يبديه يريد أن يحصل على شيء. لكن تقدير فرانكلين كان للأفعال فحسب؛ لذلك كانت عصبية باك تزداد يوماً بعد يوم. لم يكن من الممكن فعل أشياء عظيمة في هذا المخيم الشتوي.

عندما كانوا في طريقهم لتلبية دعوة الشاي التي وجهها مدير الشركة المحلي، قال باك له وسط خشخشة خطواتهما فوق الثلوج:

- الواقع أنني أحبك. إذا كانت هذه مشكلة، فهي بالتأكيد ليست كارثة.

قالها هكذا مازحاً! لاحظ جون ساخطاً احمرار أذنيه، وراح يفكر في إجابة تنهي كل شيء بضربة واحدة. لكن ذلك لن يؤدي إلى شيء. يعرف

جون مخه. لدى ردود الفعل الأسرع من اللازم بالنسبة إليه سيرتبك. الهدوء والحذر إذن!

خشخشت الخطوات، وتحولت الأنفاس إلى ما يشبه الضباب. كانا قد وصلا تقريباً إلى المنزل الخشبي لمدير الشركة. قال جون:

- بالتأكيد ليست كارثة، ولكنني أفضل أن يثمر ذلك شيئاً خيّراً. إنك تغالي في المبالغة يا مستر باك. ألا بد من ذلك؟ أبطأ من خطواته إذ كان باب المضيف يقترب اقتراباً لا تصلح معه إلقاء مثل هذه العبارات. تذكر عبارة حفظها عن الراعي في سبيلسبي: ثمة مئة في المئة تقع بين المبالغة والتهوين. غير أن الراعي نفسه لم يلتزم بجملته.

بآذان حمراء وصلا عند مستر ويليامز. شاي هندي، وبسكويت جاف، وبلوبيف. لكن لا أخبار جيدة عن تموين البعثة.

في طريق العودة فكر جون، فيما إذا كان على جزء صغير من الطاقم أن يسبقهم بالسفر في الشتاء إلى قلعة تشيبوايان، حتى يشتروا المؤن من محطات تجارة الفراء.

بحماسة وافقه باك على رأيه:

- نحن الاثنان، سير!

ولكن عندما اقترب يوم السفر، عين جون هيبورن إضافة إلى باك؛ ليرافقاه. خاب أمل باك، ولم يعد شخصاً مسلياً فترة. لم تكن العدالة والعقلانية تشبعان جوع باك. لكن لم يكن بمقدور القائد أن يقرر شيئاً آخر. وهكذا سار القدر في طريقه.

غادروا كامبرلاند هاوس في الخامس عشر من يناير 1820، بعد أن ارتدى كل منهم حذاء الجليد. رافقهم اثنان من الرحالة، وزلاقتان تجرهما

كلاب ويقودهما هنديان. كانت الزلاقتان تكتظان بمواد الغذاء إلى درجة أن جهاز السدس لم يكد يجد مكاناً فوقها. كان يجب تحديد طريق الكلاب في الثلوج الكثيفة؛ وإلا راحت تتقافز وتشاكس بعضها بعضاً.

ساروا طيلة أيام وأسابيع عبر غابات متشعبة بأشجار عملاقة، كانت الرياح تصفر وهي تمر بين هاماتها. كان من الممكن أن يكون ذلك جميلاً، لو لم يكونوا يرتدون أحذية الجليد! إنها تكفير عن كل ما اقترفه الإنسان من سيئات طوال حياته. كانوا يمشون بالأحذية ذات الرقبة الطويلة، كأن أقدامهم أقدام بط ضخمة مصنوعة من الخشب والقش، وكل كيلو من وزن الإنسان كان يبدو مثل قنطار؛ عندما يتجمد الثلج حول الأقدام. تصميم الإنسان لا يتناسب مع أحذية الجليد: كان لا بد من وجود مسافة أكبر كثيراً بين الكاحلين! بعد أميال قليلة فحسب أصبح الألم مقيماً؛ إذ كانت دائماً نفس النقطة التي تتلقى ضربات حافة قدم البطة. حذرهم جون قائلاً:

-أبطئوا السير، عندئذ تدخرون قواكم!

كان باك قوياً، ومنتعشاً، وسريعاً. أسرع من اللازم! ربما كان يريد في كل فرصة ممكنة أن يظهر أنه يتحمل أكثر من جون. كان ذلك نبع القوة لديه، نبع مريب، لكنه فعّال.

أسرعَ باك وتقدمهم! ثم انتظر نافد الصبر! أمسك بزمام المبادرة! بدت ابتسامته لجون كأنها تزداد نَهماً مع مرور الوقت. سأله جون:

- لمَ السرعة؟ الطريق طويل.

- ولهذا!

أجاب باك بوقاحة وابتسم ابتسامة صفراء. كان غيظ هيبورن واضحاً، لكنه أقل رتبة، لذلك كظم غيظه ولم يقل شيئاً. وعموماً كان باك يعطيه

الشعور بأنه عائق في طريقه. مع أن جون هو الذي أبطأ إيقاع الرحلة عن عمد.

سدد الرحالة نظرات مستقيمة وهم مستغرقون في أفكارهم، ولم ينطقوا بكلمة. كان بمقدورهم أن يسايروا باك، لكن الرحلة كانت بالنسبة إليهم عملاً مأجوراً، وبذل الجهد الإضافي فيها ليس أمراً بديهياً. فضلاً عن ذلك كانوا يفرقون جيداً بين القائد وبين ضابط الصف.

عندما توقفوا لاستراحة، رغم أن باك كان يتقدمهم كثيراً، قال هيبورن لرئيسه عَرَضاً:

- يريد أن يظهر لنا قدراته!

ثم دهن كاحله المنهك بمرهم، كأن شيئاً لم يحدث، أما جون فرانكلين فقد راح ينظر طويلاً في البوصلة والسدس إلى أن أجاب:

- القوة قد تكون شيئاً آخر غير السرعة.

ثم انهمك في تحديد الوجهة بالأسطرلاب.

كان جون هو الذي يحدد الاستراحات، حتى إذا لم يكن هو نفسه في حاجة إليها. الملاح ليس في حاجة إلى الاستراحة، لكن الاستراحة في حاجة إلى الملاح. كان باك عملاقاً في طموحه، لكنه قزم في الزمن، إذا سار أي شيء ببطء.

وصلوا في نهاية مارس إلى قلعة تشيبوايان. ذهب جون فوراً إلى ممثلي شركة الفراء، حتى يسأل عن المؤن المخصصة لهم. كان الأمر مثلما خشي تماماً: الكثير من اللطف، والكثير من الوعود الفارغة، لكن لا مؤن في أي مكان. عندما ألحّ في الأمر: أصبح اللطف أكثر برودة، والتهكم أكثر وضوحاً. «هذا هو كل ما في وسعي»، هكذا وصف الحاكم سيمبسون

جهوده من أجل البعثة. لكن ذلك لم يكن للأسف كثيراً، بل كان تقريباً، على نحو مهين ووحشي، لا شيء. أحالته شركة خليج هدسون إلى شركة الشمال الغربي، وأحالته الأخيرة إلى شركة خليج هدسون. من الواضح أن كل شركة تشن حرباً شعواء على الأخرى. كل شركة تريد تجنب الخسائر؛ ولذا لا تريد المساهمة في البعثة بقدر أكبر من الأخرى. لم تكن أوامر حكام لندن في هذه البلاد الشاسعة سوى حبر على ورق. إلى ذلك: إن تجار الفراء والموظفين لم يكونوا يقدرون مطلقاً ضباط البحرية، عاشقي السفر. في نظرهم لم يكن هؤلاء سوى أبطال مساكين جهلاء. أيريدون الحج إلى الساحل الشمالي سيراً على الأقدام، وبزوارق مصنوعة من قشرة أشجار البتولا؟ «لن يصلوا أبداً إلى البحر القطبي!»، هذا ما قاله أحدهم على مسمع من باك. «ولو وصلوا، فستمحوهم من الوجود محواً أول غارة يشنها الإسكيمو عليهم. لمَ إذن ينبغي عليهم أن يعطوهم مؤناً، إذا كانت مؤنهم هم أنفسهم محدودة؟».

أما جون فسمع مزحة كان المقصود أن تعترف بقدره، وإنْ على نحو فظ، لكن من المرجح أن لها خلفية أخرى: «إنك تعمل في البحرية قبل معركة طرف الغار، سوف تنجح في مسعاك! إن لم يكن برأسك، فبشخصيتك!».

تنامى غضب باك. لم يقدر على رؤية فرانكلين وهو - بداية- يَقْبَل بأدب ردود الحكام المحليين، قبل أن يوجه المزيد من الأسئلة. لاحظ باك أنهم يسخرون من فرانكلين، وعلى الأرجح كان يخشى أن ينال نصيبه من ذلك. لما اختليا بنفسيهما، ألقى خطبة غاضبة كبيرة، كأنه هو جون فرانكلين، وكأنه يتحدث أمام الموظف المسؤول. عدة مرات قال الجملة

التالية: «لقد كشفنا اللعبة!»، كان على جون أن يسمع ذلك أيضاً. حاول أن يهدئ باك:

- عليك أن تكون مستعداً أيضاً للعب مباريات قد تخسرها. لا أهمية لتهكمهم علينا. لم أمر في حياتي كلها بخبرة أخرى. لكن الأمر لن يظل هكذا أبداً.

صاح باك:

- لكنك أطيب من اللازم! تسمح لهم بالكثير جداً!

أومأ جون، وفكر في ذلك، ثم قال:

- إنني أكبرك بعشر سنوات. لقد تعلمت أن أبدو غبياً إلى أن أتصرف بذكاء. أو إلى أن يبدو الآخرون أكثر غباء مني. صدقني!

كان من الصعب مواساة باك. حدس جون بأن شيئاً آخر في الحقيقة هو ما يشغله، وليس ما ينطق به.

كان يفضل أن يتجاذب أطراف الحديث مع شخص مثل هيبورن؛ فهو رجل مستقيم ولا يتذمر، ومعه يطيب له الكلام دائماً. وحتى إذا لم يتفوه هيبورن طوال أيام بكلمة واحدة، فقد كان كل شيء يظل على ما يرام.

يشبه القائد الطبيب: كان يفضل التعامل مع الأصحاء، لكن عليه أن يقضي معظم وقته مع المرضى، وكلما اشتد المرض، طال الوقت الذي يقضيه معهم.

في يونيو لحق بهما ريتشاردسون وهوود بالزوارق عبر الطرق المائية. في مفاوضات لا تنتهي استطاع جون أن يغيّر رأي الموظفين، وربما يكون باك قد تعلم خلال ذلك شيئاً. اتبع تكتيكاً يستنزف قدرات الخصم: تهذيب

مفرط، مع تكرار دائم للحجج نفسها، وتجاهل تام لأي إحساس بالزمن. لم يتهم أي شخص بأنه في الحقيقة لا يريد أن يفعل شيئاً من أجل البعثة. كان جون يرفض إنهاء التزلف بالاتهامات: وكان يعرف أنه قادر على لعب هذه اللعبة فترة أطول من الآخرين. ظل بإصرار يعامل سيمبسون، هذا الوغد، على أنه صديق وراعٍ، ومن خلال ذلك سبب له الإزعاج، إلى درجة أنه وضع تحت تصرفه فجأة مؤناً تكفي أسابيع، ونحو عشرة رحّالة. وتقرر إرسال ضعف كمية المواد الغذائية إلى قلعة بروفيدنس، وحصل جون على تأكيد مكتوب بذلك. بمصافحة قوية، ودون أن يرف له جفن، أكد لسيمبسون أن موقفه النبيل والإنساني سيُقابل بمديح عظيم في إنكلترا.

أبحروا الآن شمالاً، عكس اتجاه تيار نهر العبيد(*)، في طريقهم إلى الساحل. لم تكن المسافة بين قلعة تشيبوايان حتى قلعة بروفيدنس الواقعة على بحيرة العبيد الكبرى تتجاوز تسعين غليوناً. احتاجوا إلى يومين لعبور البحيرة، وكانوا في معظم الأحيان بعيدين عن الساحل تماماً. أجبرتهم رياح قوية على الالتجاء إلى جزيرة. كان ذلك تمهيداً للرحلة بالزورق التي ينوون القيام بها في البحر القطبي. تقع قلعة بروفيدنس على الضفة الشمالية، على خليج يكوّن طرفه الأقصى مصب نهر «السكاكين الصفراء»(**). نقطة التموين كانت تتبع شركة الشمال الغربي التي وفرت للبعثة، على كل حال، موظفاً يدعى فنتسل، فريدريش فنتسل، وهو ألماني يتحدث بعض لهجات الهنود الحمر. إذا لم يوفقوا في الحصول على دعم الهنود الحمر؛

(*) هو نهر يبلغ طوله نحو 435 كم، يمتد من وسط كندا حتى الجزء الشمالي الغربي.
(**) نهر السكاكين الصفراء، ونهر السكاكين الحمراء: اسمان أطلقهما تجار الفراء على النهرين هناك نظراً لاحتوائهما على خام النحاس.

فسيتحتم عليهم إنهاء الرحلة، لأن المؤن لا تكفي، ويجب عليهم الحصول على غذاء عبر استمرارهم في الصيد. الهنود الحمر وحدهم خبراء في صيد المنطقة، وبارعون في الصيد إلى درجة أن بإمكانهم إعالة آخرين معهم. وعدهم فنتسل بأن يرتب لقاء مع رئيس قبيلة الهنود الحمر المسؤولة عن مناجم النحاس، وهو مدين لشركة الشمال الغربي، لذا ربما يمكن اكتسابه كمحارب في صفهم، إذا قدموا له بعض الوعود.

بقلق لاحظ فرانكلين: أنه غدا أكثر عصبية، وأصبح من السهل استثارته كلما اقترب موعد مقابلة الهنود الحمر. كل شيء يتوقف عليهم، وهو لا يكاد يعرف عنهم شيئاً! كان لديه مترجمان للغة الأتابَسكية: بيير سان جيرمان، وجان بابتيست آدم. بدا فنتسل متبحراً في العلم، لكن طريقة كلامه الموسوعية كانت متعبة، كأنه يقوم بجمع مادة لاستخدامها في دائرة معارف: يتسم «التسانتا هوت دينيه» بروح قتالية أعلى، كما أنهم مدعاة لثقة أكبر من «التالين تشا دينيه» الذين يسكنون المناطق الشمالية، ويطلقون عليهم في المعتاد «هنود ضلوع الكلب». الأتابَسكية هي إحدى أصعب لهجات الهنود الحمر، ربما باستثناء لغة شعوب الكيناي التي لا أود أن أتطرق إليها هنا بالتفصيل.

مثل هذه الجمل كانت تزيد من قلق جون فحسب.

يدعى زعيم القبيلة أكايتشو وهو ما يعني تقريباً «قدم كبيرة». ويقال إنه إنسان رزين، وهذا شيء جدير بالترحيب: قبل خمسين سنة رافق هنود مناجم النحاس تاجر فراء يدعى هيرنه حتى ساحل البحر الجليدي، ولم يستطع التاجر أن يحول دون أن ينفذوا مذبحة بشعة بحق الإسكيمو الذين يعيشون هناك.

أبصر جون الهنود الحمر يأتون عبر البحيرة في زوارقهم التي شكلت

صفاً طويلاً. خلفه كانت الخيام منصوبة عند القلعة، الراية ترفرف، وبجانبه وقف الضباط وهيبورن بالزي الرسمي. حسب أوامر جون، كانوا قد وضعوا النياشين والأوسمة على صدورهم. أما هو فلم يضع شيئاً. حدسه الفطري لمكانته كزعيم للمجموعة، قال له: إنه يستطيع الاستغناء عن أشياء كهذه.

هبط أكايتشو من الزورق في المقدمة، ودون أن يلتفت يمنة أو يسرة خطا ببطء في اتجاه الإنكليز، وفوراً شعر جون بأن عليه أن يأخذ هذا الشخص مأخذ الجد التام. لم يكن هذا رجلاً يأمر محاربيه بالإغارة على الإسكيمو وقطع أياديهم وأقدامهم. إن مَن يتحرك هكذا، سيلتزم بكلمته أيضاً.

لم يكن زعيم القبيلة يضع زينة من الريش، على عكس محاربيه. حذاء خفيف بلا كعب، سروال أزرق طويل، وفوقه قميص واسع، وعلى كل كتف شريطان متعامدان، وحزام، وقنينة محشوة بالبارود. ومن كتفيه انساب معطف من فراء القندس يصل حتى الأرض.

لم ينطق بكلمة بعد. جلس ساكناً، وراح يدخن الغليون الذي قُدِم إليه، ويرتشف من كأس الروم الذي وضع أمامه رشفات صغيرة، لم تكد تُنقص من الكأس شيئاً، ثم أعطاه إلى مرافقيه.

وأخيراً شرع يتحدث، وتولى سان جيرمان الترجمة.

عبّر عن سروره في رؤية مثل هذا العدد الكبير من زعماء البِيض، وأبدى استعداده لمرافقتهم مع قبيلته إلى الشمال، بالرغم من أن أمله قد خاب؛ إذ قيل له: إن بحوزة البِيض مواد سحرية قوية، وطبيباً عظيماً يحيي الموتى؛ لذا كان مبتهجاً لرؤية أقاربه المتوفين مرة أخرى والتحدث معهم. لكن، قبل أيام قال له مستر فنتسل: إن ذلك غير ممكن. والآن يخامره شعور بأن

أصدقاءه وإخوته قد ماتوا مرة ثانية. لكنه يريد نسيان ذلك، وأن يسمع ما يعتزم الزعماء البِيض القيام به.

أعد جون رده في وقت لا يقل عن الوقت الذي احتاج إليه أكايتشو لإعداد كلامه، وكان حريصاً على أن يتحدث ببطء أكثر منه:

– إنني أشعر بالسعادة لرؤية الزعيم الكبير الذي سمعت عنه أشياء كثيرة طيبة.

بدأ سان جيرمان يترجم. بدا لجون أن المترجم يحتاج لترجمة النص الهندي على الأقل إلى أربعة أضعاف الوقت الذي قيل فيه النص الإنكليزي. لفت انتباهه أيضاً: أن أكايتشو قد انحنى انحناءة خفيفة عدة مرات. كان عجيباً كيف تتحول عدة كلمات إنكليزية إلى كلمات هندية كثيرة جداً.

– لقد أرسلني الزعيم الأكبر في المسكونة؛ لأن كل شعوب العالم، سواء كانت بيضاء أم حمراء أم سوداء أم صفراء، هم أبناؤه، وهم يحبونه ويمجدونه. كله خيرات هو، لكن لديه أيضاً السلطة لإكراه البشر. غير أنه ليس في حاجة إليها مطلقاً؛ لأن الجميع يعرف قدر عظمته وحكمته.

احتاج سان جيرمان للترجمة، هذه المرة ربع الوقت، على أقصى تقدير، الذي تحدث فيه جون. ظل جون – بإحساسه بالوقت الذي تستغرقه الأشياء– صامتاً، وانهمك في التفكير.

– مستر فنتسل، هل ترجمت ترجمة صحيحة؟

قال الألماني:

– معذرة، سيرا لكن اللغة الأتابسكية هي حقاً بالغة....

قاطعه جون:

- مستر هيبورن، من فضلك أحضر الكرونوميتر الخاص بباركينسون، المزود بعقرب الثواني.

ثم ألزم سان جيرمان بألا تستمر الترجمة وقتاً أطول ولا أقصر من الوقت الذي يحتاج إليه فرانكلين في نطق الأصل. راقب هيبورن ذلك. والنتيجة: نجح الأمر!

لم يغير أكايتشو جلسته، ظل ساكناً، لكن عينيه وَشَتَا بأن ما حدث ولّد لديه سروراً عظيماً.

واصل جون كلامه. إن الزعيم الأبيض الأكبر يود أن يرسل إلى أبنائه من الهنود الحمر أشياء جميلة أكثر مما سبق؛ ولذا يجب العثور في البحر الجليدي على مكان تستطيع فيه أكبر سفن الأرض أن ترسو. كما يريد الزعيم الأعلى أن يعرف أكثر عن البلاد والهنود الحمر والإسكيمو. إن مما يؤلمه للغاية أن الهنود الحمر لا يعيشون في سلام مع الإسكيمو الذين يعدهم أبناءه كذلك. وفي الختام فاتح جون الهندي الأحمر، بأنه لم يعد لديهم سوى القليل من المؤن. إنه يود اقتسامها معهم، لكن بعد ذلك يتوقف كل شيء على اجتهاد الهنود الحمر في الصيد. وسوف يعطيهم ذخيرة في مقابل ذلك.

أدرك أكايتشو أن جون يعتبر الصلح مع الإسكيمو شيئاً مهماً للغاية. اعترف أن حروباً اندلعت بينهما، وأن القبيلة الآن تشعر بشوق جارف إلى السلام. لكن للأسف، يتسم الإسكيمو بالغدر الشديد، ولا يوثق بهم.

عندما تمعن جون بعد الظهر في الحديث، وفي كافة التفاصيل التي تفاوضوا عليها، شعر بالسعادة، ليس فقط بسبب نجاح البعثة، بل أيضاً بسبب الطريقة التي حدث بها النجاح. واعتبر ذلك برهاناً على أن السلام

ينشأ في كل مكان يقترب فيه البشر من بعضهم بعضاً ببطء، لا بسرعة. كان ذلك استنتاجاً مهماً بالنسبة إلى النظام الفرانكليني، وبالنسبة إلى شرف البشرية. احتسى جون جرعة روم في صحة ذلك.

لفت انتباهه أيضاً: أن أكايتشو عرف فوراً أنه هو الأعلى رتبة، فجلس أمامه، رغم أن جون لم يكن يجلس في المنتصف. سأل سان جيرمان عن ذلك، فأجاب:

– كان من رأي الزعيم أنك عشت حيوات متعددة، سير: بسبب الندبة على جبهتك، وبسبب – معذرة، بسبب... «ثروة الوقت لديك». مَن يتسم بالخلود، لا بد أن يكون الرئيس. إلى هذا الحد يصل غباء الهنود الحمر!

سدد جون نظرة عابسة إلى المترجم، ثم قال:

– ومن أين تعرف أن الزعيم مخطئ في رأيه؟

في الثاني من أغسطس ركبوا الزوارق: ما يزيد عن عشرين رجلاً، ونحو عشرة آخرين من نساء الهنود الحمر وأطفالهم.

في تلك الأثناء حفظ جون فرانكلين عن ظهر قلب أسماء الرحالة المرافقين: بلتير، وكريديت، وفيلان، الطِوال. وبيرول، وساماندر، وبوبارلان، القِصار. أبدى عقل جون مقاومة طويلة إلى أن قَبِلَ حفظ اسم بينوا، ويرجع ذلك إلى أن الأخير كان يوجه نظرات مفعمة بالسوداوية. تحدث جون معه. لم يكن كندياً من أصل فرنسي، بل فرنسياً من قرية تدعى «سانت يرييه لا بيرش» بالقرب من ليموج، وما زال بعد مرور عشر سنوات يعاني من الحنين إلى الوطن. وهكذا يحتفظ المرء باسم بسيط عبر إقامة صلة بينه وبين اسم آخر معقد.

جان بابتيست وسولومون بيلانغر كانا أخوين، لا يحب أحدهما

الآخر. وهناك بيلانغر آخر يعمل بحاراً، لقي نحبه في معركة طرف الغار. «قناص؟»، سأل جون وهو يقضم قطعة من الخبز الجاف، لكنه لم يمضغه حتى ينصت إلى الإجابة. «كلا، مدفعجي»، أجاب سولومون. واصل جون مضغه بعد ذلك.

يتحدر فينشنتسو فونتانو من البندقية. الهندي الأمريكي الوحيد بين الرحالة كان مايكل تيرواوتيه، وهو من الإيروكواس، من قبيلة موهاوك.

من هنود مناجم النحاس احتفظت ذاكرته، إلى جانب أكايتشو، بمقتفي الأثر ذي الأنف المتورم المدعو كِسكاره. كانت لديه ابنة في التاسعة عشرة، جميلة جمالاً باهراً، ظلت بسهولة حاضرة في ذهن كل رجل من رجال البعثة. كان د. ريتشاردسون الرزين تحديداً هو أول مَن صوب نظرته إلى ركبتيها مسحوراً، ثم همهم شيئاً شبيهاً بـ«مخلوق سماوي»، وراح على مرأى من الجميع يتشرب بعينيه خطوط فخذها. وبالحق الذي يكتسبه المكتشف لنفسه؛ أطلق على الفتاة اسماً يتوافق مع ما يراه: «الآنسة ذات الجورب الأخضر». أما البحار هوود بحسه الذي يهتم بالتفاصيل، فقد تعلق بذات الجورب الأخضر بشدة، فلم يعد يرى سواها، وقد بدت له مختلفة في كل حركة من حركاتها: الأنف الجسور، والشعر الأسود، والخط الذي يصل الفك والأذن، المفعم بالكبرياء. اكتظت كراسة الرسم الخاصة بهوود برسومات كهذه. أما الأنهار والجبال فلم يعد لها وجود بالنسبة إلى عينيه.

سارت زوارقهم طوال أيام عكس تيار نهر السكاكين الصفراء. بدأ جون يشعر بالقلق؛ لأن الهنود الحمر لم يصطادوا بما فيه الكفاية، ولبقاء نصف أفراد القبيلة مع زعيمها، خلافاً للاتفاق، واستهلاكهم قدراً كبيراً من المؤن.

وعندما ادعى أكايتشو أنهم فقدوا كل الذخيرة التي حصلوا عليها، عندما انقلب أحد الزوارق، عرف جون عندئذ: أن الغضب لن يفيد شيئاً. كان النظام الذي وضعه يفرض عليه أن يصدق ما يقوله أي شخص. قام بترشيد استهلاك الذخيرة الموجودة، وأمر بألا يصرف من البارود والرصاص، إلا ما يكفي لكل رحلة صيد. وعلى الصيادين في المساء تسليم الطرائد أو الرصاص. لم يعجب ذلك أكايتشو، لكن جون تلا عليه القاعدة الجديدة بهدوء وإصرار كبيرين، فلم يشعر بالإهانة.

النظر إلى الطبيعة يمنح قوة، بل يساعد في التغلب على الإرهاق والجوع وبثور الأقدام. هكذا كانت العين على الأقل تبحث عن الغذاء، إذا لم تكن مطاردة الحيوانات البرية وصيد الأسماك بالشباك يجلبان شيئاً ذا بال. عشرة من حيوانات الرنة، وثلاثون من أسماك الشبوط، هذه حصيلة جيدة. طائران من فصيلة الحجل الرمادي، وثماني سمكات من أسماك القوبيون، هذه حصيلة سيئة. ثلاثون رجلاً يعملون عملاً شاقاً، يستهلكون الكثير من الطعام. كان الرحالة يتحملون العبء الأساسي عند نقل الزوارق عبر الشلالات. لذا كانوا هم أول من سئموا الطبيعة هنا. الأنهار جميلة إذا كانت رحبة وتنساب بوداعة. الغابات ساحرة إذا كان بها آثار حيوانات الرنة.

ظل الطعام شحيحاً؛ فاندلع تمرد صريح. أصغى جون إلى الرحالة طوال نصف ساعة دون أن ينطق بكلمة، ثم أوضح أنه يعرف جيداً: أنه يكاد يطلب منهم ما يفوق قدرة البشر. مَن لا يجد في نفسه القدرة على ذلك، فليرجع بهدوء إلى بيته، ولن يحمل أحد ضغينة تجاهه لحظة واحدة. «ليست هذه رحلة كأي رحلة»، قال جون مقطباً جبينه؛ لأنه تذكر أن نلسون بدأ خطبته

على سطح «بلروفون» بالكلمات نفسها. كان للكلمات تأثيرها على كل حال: رغم فظاظتهم، ورغم الخمر، كان الرحالة يشبهون الفرنسيين. لو كان لامهم؛ لذهبوا. أما هكذا، فقد أصبح الأمر يتعلق بالشرف. انهمكوا ثانية في القيام بأعمالهم.

عاب أكايتشو على البعثة: أنها لا تتقدم إلا ببطء بالغ؛ بسبب ثقل الهدايا التي يحملونها من أجل الإسكيمو عديمي النفع. وحذّر من أن الشتاء قد يبدأ مبكراً جداً: من الآن تغطي طبقة رقيقة من الجليد سطح المياه في أفرع الأنهار الراكدة، مع أنهم ما زالوا في منتصف أغسطس.

كان هوود واقعاً في حب ذات الجورب الأخضر، إلى درجة أنه كان يواجه صعوبة في أداء خدمته. بدا أنه لا يفكر طوال اليوم إلا في كيفية الاقتراب منها، أو لمس إصبعها الصغيرة على الأقل. متهكماً قال باك:

– إذا سار الأمر على هذا النحو، فسيموت عشقاً. إنه يحترق أمام أعيننا، ولا بد أن نطفئ النيران قبل فوات الأوان!

كان سلوك باك يتغير من يوم إلى آخر، ودائماً إلى الأسوأ. بدأ يصرخ في وجه البحارة. وكان يتحدث عن فرانكلين خلف ظهره، ألمَحَ هيبورن إلى شيء كهذا. كان يعد الهنود الحمر غير جديرين بالثقة، ولصوصاً وكذابين، وكان يُظهر ذلك بوضوح متزايد. أما أسوأ شيء؛ فهو: أنه كان يتحدث على نحو بذيء لا يطاق عن المزايا المرئية وغير المرئية لذات الجورب الأخضر، وعن أنه سيعلّم هوود كيف يتصرف معها.

عندما تحدث جون معه طالباً منه أن يحترم مشاعر هوود من أجل الرحلة، نظر إليه باك نظرة وقحة، وقال:

– أحترم مشاعره؟ يا لها من نصيحة جيدة منك، سير، شكراً جزيلاً!

هذا ما كنت أخشاه، قال جون لنفسه. في البداية يحبني، والآن يكرهني. ليس ثمة حدود بين المشاعر اللائقة وغير اللائقة، الأمر يبعث على الحزن وينذر بالخطر. لكنه قادر على الرسم! جلست أمامه ليرسمها، فرسم صورة رائعة جلبت هماً عظيماً لأبيها كِسكاره الذي قال:

- إنها أجمل من اللازم؛ إذا رآها الزعيم الكبير للبِيض، فسيشتهيها لنفسه!

عن فنتسل قال باك:

- إنه ألماني حقاً! المرء يرى أمثاله في كل مكان في العالم، يقفون ويستغرقون في التفكير، لماذا لا يستطيعون التصرف مثل الآخرين. وفي الغالب يحاولون البرهنة على أن السبب يكمن في ذكائهم، ثم يشرعون في إلقاء المحاضرات التعليمية على البشر!

منذ فترة طويلة لم يعد جون يعقّب على كل ملحوظة يقولها باك، ضابطه الأول السري يدعى الآن هيبورن. لكنه رد عليه هذه المرة:

- إنها مشكلة البطء يا مستر باك! وفنتسل يعرف حقاً الكثير.

عند بحيرة، أطلق عليها الهنود الحمر «بحيرة الشتاء»، مكث المسافرون عدة أيام، وبنوا كوخاً خشبياً كنقطة ارتكاز لرحلة عودة محتملة عبر هذا الطريق، ومن أجل الرحلة الطويلة عبر نهر منجم النحاس اصطادوا حيوانات برية، لحفظ لحمها بالتمليح أو لتحويله إلى بيميكان. أمسى الصقيع الليلي أكثر صرامة. ذات صباح أعلن أكاينشو أنه يعارض مواصلة الرحلة إلى الشمال في هذا الموسم:

- ليواصل الزعماء البِيض إذا شاؤوا، وسيرافقهم بعض محاربيّ

الشبان حتى لا يموتوا وحدهم. ولكن بمجرد أن يعتلوا الزوارق، سيبكي عليهم شعبي بحسبانهم جميعاً من الأموات.

أشار جون بحذر إلى الفارق بين هذه الكلمات، وتلك التي نطق بها الزعيم في قلعة بروفيدينس. بخيلاء رد أكايتشو:

- إنني أبتلع ما قلته من قبل. كانت تلك كلمات للصيف والخريف، نحن الآن في الشتاء.

أرغى باك وأزبد بسبب هؤلاء «البدائيين ناقضي العهد». حتى ريتشاردسون بدأ يتحدث ثانية عن الثقافة المسيحية التي يحتاج إليها هؤلاء البدائيون أشد الاحتياج. كان جون يود أن يعبر نهر منجم النحاس، وربما أن يصل حتى إلى البحر، غير أنه ظل يفكر في الأمر طوال الليل قبل أن يقول أي شيء.

في الصباح أدرك أن أكايتشو محق، عندما يخشى وقوع الكارثة في منطقة يقل فيها الخشب والطرائد. هناك، بالأعالي، لاقى هنود حمر حتفهم جوعاً وبرداً. لقد أخبره فنتسل عن موت أفراد مخيم بأكمله.

أوضح جون للزعيم بأنه مسرور لسماع نصيحته الودية والحكيمة. سيقضون الشتاء في المنطقة. انحنى أكايتشو أمامه راضياً، كأنه لم ينتظر شيئاً آخر. لكنه في الحقيقة كان سعيداً غاية السعادة؛ لأن جون استجاب له، بل لقد أصبح من البهجة ثرثاراً. عرف جون أنه يتمتع باحترام كبير لدى الهنود الحمر؛ لأنه يتحدث كثيراً مع أرواح الموتى. لقد راقبوه وهو يمعن في التفكير، ويضحك بلا سبب ظاهر، ويحرك شفتيه.

مُنح الكوخ الخشبي اسم «قلعة إنتربرايز». وكان من المؤكد أنه سيكون ملاذهم ثمانية شهور على الأقل.

وأدرك الضباط أخيراً: لماذا أطلق الهنود الحمر على البحيرة قبل أربعة أيام «بحيرة الشتاء».

عمداً بدأ باك يخطبُ ودّ ذات الجورب الأخضر بفظاظة ووقاحة. على ما يبدو يريد مرة أخرى البرهنة على شيء. استطاع هوود في تلك الأثناء أن يمسك يدها بين الحين والآخر، وينظر في عينيها، دون أن يستجيب لإلحاح باك في أن يقوم بخطوات أسرع. خمّن جون أن حديثاً جرى بين هوود وباك، غير أنه -إذا كان قد حدث- لم يثمر نجاحاً. لم يكفّ باك عن لمس ذات الجورب الأخضر؛ كي يظهر لها ما يقصده تحديداً بعبارات المجاملة. كان يجعلها تضحك أحياناً، لكن جون كان شبه متأكد من أنها بالأحرى تحتقر باك.

ذات مساء أخبره هيبورن: أن السيد باك والسيد هوود قد اتفقا على مبارزة في الفجر. لم يشك جون في جدية هوود، أما باك فكان ذا تدريب جيد يسمح له بالتمادي في غيه. أصدر جون أوامره إلى هيبورن؛ كي يحشو فوهة مسدسات السيدين بالبيميكان خلال قيامه بجولته مع الكلاب. ثم تحدث مع كل منهما على انفراد، فتعهدا بالتزام العقل. رغم ذلك نفذ هيبورن الأمر، بنجاح: على الأقل طائر من فصيلة الحجل الرمادي أصبح في اليوم التالي يدين له بحياته.

اهتدى جون فرانكلين إلى فكرة ممتازة، هي: أن يرسل باك مع فنتسل إلى قلعة بروفيدينس؛ كي يحضرا شحنة المؤن الموعودة. سافرا متذمرين. وفجأة ساد السلام في قلعة إنتربرايز.

كان الهنود الحمر يخرجون إلى الصيد. أما النساء فكن يخِطن

ثياب الشتاء. وشيد هوود -في الأوقات التي منحته إياها ذات الجورب الأخضر- فرناً رائعاً يحرق خشباً أقل مما تحرق المدفأة المفتوحة.

ازداد عشق هوود للفتاة الهندية ضراوة واشتعالاً. دموع البهجة كانت تترقرق في عينيه عندما يراها بعد ساعات قليلة من فراقهما، وفي بعض الأحيان لم يكن أحد يراهما طوال أيام. لم يتحدث أكايتشو وفرانكلين بكلمة عن الأمر. كانا يعتبران الحدث فريداً، ولا يمكن محوه بالحجج المألوفة. لكنهما كانا يتبادلان الحديث حول موضوعات أخرى كثيرة: عن البوصلة، والنجوم، والإشارات التي يتفاهم بها البِيض عبر الزوارق الضخمة، وعن الأعياد والأساطير الهندية. قام جون بتسجيل هذا الشيء أو ذاك. قطع الرحالة حطباً وشيدوا كوخاً ثانياً. لكنه أصبح بارداً بسرعة رهيبة، كان الحق مع أكايتشو.

وهكذا مضت أسابيع. من حين إلى آخر كان جون يجلس أمام الكوخ، وقد لف وجهه بقماش سميك، ناظراً إلى العاصفة الخريفية وهي تنفخ الأوراق الأخيرة من الغصون، فتهوي كلها. انتقى جون ورقة معينة، وانتظر حتى سقطت. كان ذلك يمنحه ساعات كثيرة، يستطيع فيها أن يطلق العنان لأفكاره بلا هدف ولا استعجال. أحضر له أحد المحاربين البريد من قلعة بروفيدينس. لم يجد باك وفنتسل المؤن هناك، وكانا في طريقهما إلى جزيرة «ثور المسك»: من المفروض أنها هناك. ثمة رسالة أيضاً من إليانور: «إلى النقيب فرانكلين، قائد البعثة البرية إلى بحر الشمال، تسلم له في خليج هدسون، أو في أي مكان آخر». إليانور الرقيقة الطيبة! رآها جون أمام عينيه، وهي تتحدث طيلة الوقت، مع كل إنسان، عن كل شيء. العالَم بالنسبة إليها لغة، ولهذا فهي ترى: أن عليها أن تتحدث كثيراً. لكن إليانور كانت في مزاج رائق دائماً، وبلا خبث، ربما كانت هي حقاً

المرأة الجديرة بأن يتزوجها. وهي ستتحمل أيضاً سنوات عديدة من غياب قرينها، فلديها ما يشغلها مثل الجمعية الملكية والدائرة الأدبية. بالتأكيد، هناك نساء أخريات: جين غريفين مثلاً، صديقة إليانور. كانت تشبهها في حب الاستطلاع والقراءة، لكن ساقيها أطول، وهي لا تنظم الشعر. عندما لاحظ جون أن أفكاره تود التريث عند ساقيها، أزاح جين غريفين كلها من رأسه. من السهل أن يشعر المرء هنا في البرية بالضيق: الفراش كان من البوص وجلد الحيوانات، ويصدر طقطقة مع كل حركة. كان الجميع يعاني بين الحين والآخر معاناة كبيرة، باستثناء هوود. لم يبق للمرء سوى الصيد، وحده في الغابة. لكن الرب والهنود الحمر يرون كل شيء. ذات مرة عاد هيبورن من الصيد بلا قنص، وأعلن أنه لم ير شيئاً. عندئذ قال كسكاره ذو الأنف المتورمة لسان جيرمان:

– كانت هناك طرائد، لكن ما كان في يد الرجل الأبيض –ربما– ليس بندقية.

ولأن اللياقة ليست من نقاط القوة لدى سان جيرمان، فقد أبلغ هيبورن بما قيل، فغضب في البداية، لكنه وجد نفسه يضحك في الختام.

تناول جون رسالة إليانور مرة أخرى. طلبت منه أن يرى ما إذا كان يمكن المقارنة بين مفهوم الواحدية لدى الهنود الحمر ولدى اللورد شافتسبري. أعقب ذلك فقرة عن تعاليم شافتسبري. ثم عرجت مرة أخرى إلى نظرية انصهار الجليد القطبي: الطقس الذي يزداد جفافاً في السنوات الأخيرة، يؤيد للغاية هذه النظرية. بين جسر لندن وجسر بلاكفرايرز، هذا ما قرأه جون: جف نهر التيمز في هذا الشتاء، حتى استطاع الناس عبوره سيراً على الأقدام، ووجدوا أشياء عجيبة، ألقى بها –على مدار القرون– البحارة خوفاً من تفتيش رجال الجمارك، ومن بينها جرن معمودية فضي،

كاثوليكي جداً في مظهره. قرب نهاية رسالتها كتبت: «قبل أربعة عشر يوماً نظم آل تومسون حفلة راقصة. آه لو كنت معنا، عزيزي النقيب!». كانت إليانور تعشق الرقصة الرباعية، وتؤديها دائماً بحب. أما جون فكان يعشق عدم الرقص.

في المساء كان جون يتحدث، في تلك الفترة، مع ريتشاردسون بشكل متزايد. كان الدكتور تقياً ورعاً، لكنه لم يكن إنساناً سيئاً. كان يود معرفة الحقيقة. فإذا قالها المرء له، كان يبدي تسامحاً. صحيح أنه كان مقتنعاً اقتناعاً راسخاً: أن جون الشكاك سيهتدي يوماً ما إلى طريق الإيمان، غير أنه كان يحاول ذلك عبر الأسئلة والإصغاء، وهي طريقة ليست بالسيئة مع جون، إذا تمتع المرء بالصبر. مساء يوم الإثنين سأله ريتشاردسون:

- ألا تشعر بالخوف من الفراغ؟

ظل جون يفكر صامتاً حتى يوم الثلاثاء. فسأله الطبيبُ:

- إذا كان للحب وجود، ألا ينبغي أن تكون هناك أيضاً ذروة ونتاج للحب؟

عندئذ أجاب جون عن سؤال الأمس قائلاً:

- إنني لا أشعر بالخوف من ذلك؛ لأنني لا أتخيل الفراغ داخلي سوى هدوء عظيم. أما عن الحب فصمت مرة أخرى، إلى حين. مساء الأربعاء تحدثا طويلاً جداً، إذ دار الكلام عن الحياة الأبدية. تحدث ريتشاردسون من منطلق رؤية الناس الذين فقدهم مرة أخرى. أثار ذلك اهتمام جون البالغ، حتى إنه نسي تماماً إجابته عن الحب الذي بدا له أن ذروته -بالنظر إلى هوود- هي في المرض، لا في الرب. قال جون:

- ثمة بشر في حالة ذهاب. وآخرون في حالة مجيء. ما يجيء سريعاً،

يمضي سريعاً أيضاً. الأمر يشبه أن تلقي نظرة من شباك العربة، لا شيء ولا أحد يبقى في مكانه. لا أعرف أكثر من ذلك.

- ولهذا هناك الحياة الأبدية.

أجاب جون:

- لا أتشوق إلى الحياة الأبدية، إنني أفتقد السنوات بين العشرين والثلاثين. لو لم تكن الحرب، لكنت ربما اكتشفت أشياء كثيرة.

قال ذلك بلا مرارة؛ لأن الاكتشافات قد تتم كلها في المستقبل.

وشيئاً فشيئاً، وعندما كان ينظر إلى الشجرة التي تطايرت أوراقها، كان يتذكر ثانية أسماء ووجوهاً قديمة. سمع ريتشاردسون بعض الأشياء عن ماري روز وشيرارد لوند ووستول وسيموندس ود. أورم.

واساه ريتشاردسون قائلاً:

- ستراهم ثانية! بالتأكيد، مثلما هو مؤكد أن المتوازيين يتلاقيان في اللانهاية.

اعترض جون قائلاً:

- هذا إذا تتبعهما المرء في الاتجاه الصحيح فقط، إذ إنهما لن يتلاقيا على الجانب الآخر.

ثم جاءت اللحظة التي شرح فيها للطبيب أيضاً النظام الفرانكليني، فأجاب الثاني:

- جيد جداً، لكن لا يكفي أن تستمد القوة من البطء. إنها طريقة فحسب، أما الرب فهو أكثر من مجرد طريقة. وستحتاج إليه أنت أيضاً، ربما خلال هذه الرحلة.

تذكر جون بيتاً شعرياً مكتوباً على الجرس الكبير العتيق في كنيسة

سانت جيمس في سيلسبي الذي انكسر في العام الماضي. ولأنه لم يرد أن يترك الطبيب دون إجابة، تلا البيت:

تنساب في الساعة الرمال
والأرض تدور
استيقظ من خطاياك
أيها النائم.

لم يعلم لماذا تذكر هذا البيت. ولكن عندما قاله للطبيب، استغرق كلاهما في النوم أخيراً.

بعد أربعة أشهر عاد باك وفنتسل. لم يصلا إلى شيء، وأخذ كل منهما يكيل الاتهامات للآخر. لم يجدا أي شيء من الأغذية الموعودة في قلعة بروفيدنس، وفي جزيرة «ثور المسك»، في بحيرة العبيد العظمى، كانت هناك بضعة أكياس من الدقيق والسكر فحسب، وأيضاً العديد من قوارير الخمر المقطر التي استُهلك بعضها. على كلٍ، لقد قابلا هناك المترجمَيْن من الإسكيمو كما كان مخططاً.

حاول باك بطريقته أن يحصل على مؤن في قلعة بروفيدنس. أما فنتسل، هكذا قال باك، فلم يؤازره:

– لقد أبدى تفاهماً للمحنة التي يمر بها تجار الفراء أكثر من تفهمه لوضعنا. لم يبذل أي جهد من أجلنا!

عارضه فنتسل قائلاً:

– لقد أخذ مستر باك يصرخ في وجوه السادة المسؤولين هناك. وبهذه الطريقة لا يصل المرء إلى أي شيء!

إذا بذل الهنود الحمر جهداً أكبر في الصيد، فربما يمكن الحصول على مؤونة كافية للرحلة.

تزايد انصهار الثلوج، وكانت البحيرة تغني وتصدح: لقد حل شهر مايو.

ما زال هوود يحب ذات الجورب الأخضر التي أصبحت حاملاً. مِن مَن؟ ثمة رأي آخر غير رأي هوود في هذا الموضوع.

كان لمترجمي الإسكيمو أنفان أفطسان، وشعر غزير، وجسدان نحيفان قويان، وكان اسمهما: تاتانوياك، وهوتوروك. ما يعني تقريباً: بطن، وأذن. ولأن اسمهما كان صعب النطق على الجميع، أطلق عليهما جون «أغسطس» و«يونيوس». لم يكونا من صيادي الطرائد المهرة، لكنهما كانا بارعين في صيد الأسماك، كأنهما كانا يشمان الأسماك -حتى- عبر أكثر طبقات الجليد سمكاً.

في الرابع عشر من يونيو أصبحت الأنهار والبحيرات صالحة للملاحة؛ فقرر جون مواصلة الرحلة. جمعت كافة الخرائط والرسوم في غرفة جانبية مقفولة في الكوخ. سمّر هيبورن على الباب رسماً: قبضة مهددة مرفوعة عالياً، تمسك بخنجر يلمع بلون يميل إلى الزرقة. ولأن المعتاد هنا في الشمال أن يستخدم أي شخص، سواء من الهنود الحمر أو من البِيض، أي كوخ، كان لا بد من حماية الخرائط بطريقة من الطرق. أكايتشو أيضاً كان يرى أن الرسمة أكثر فائدة في ذلك من القفل.

كان ذلك أول يوم دافئ، بل أصبح حاراً إلى درجة أنهم جميعاً تصببوا عرقاً. أحاطت بالمجموعة سحب من البعوض والفواصد وذباب الخيل، حتى إنهم ظنوا أنهم يسيرون في الظل. لم يقدر أحد على أن يفسر من أين

أتت كل هذه الحشرات بمثل هذه السرعة، ومن أين عرفت أن بإمكانها أن تمص دم البشر. تورمت فوراً كل المناطق العارية في أجسادهم، وبدأت تنزف. لطم هيبورن نفسه دون أن يصيب إحدى هذه الحشرات التي سامتهم العذاب، ثم سأل غاضباً:

- ماذا تفعل هذه الحشرات إذا لم تمر بها بعثة استكشافية؟!

كان لا بد في البداية من سحب الزوارق المحملة بأحمال ثقيلة على الثلوج والجليد، لذا لم يتقدموا في اليوم الأول سوى خمسة أميال. كان البرد في الليل قارساً، حتى إنهم جميعاً لم يستطيعوا النوم. مرتعداً من الصقيع صاح هيبورن وسط ظلام الخيمة:

- لن تنجو الحشرات اللعينة من هذا الصقيع!

لكنه كان مخطئاً.

لم ترافقهم ذات الجورب الأخضر، وظلت مع القبيلة. كما تخلف أحد المحاربين الخاصين بأكايتشو بسببها. عرف الجميع ذلك باستثناء هوود. حتى جون.

تحدث هوود عن عودته بعد انتهاء الرحلة؛ كي يعيش مع ذات الجورب الأخضر، في قلعة بروفيدينس، أو في أي مكان آخر. أومؤوا جميعاً وصمتوا. حتى باك لم يفتح فمه.

مرة أخرى أثار جون فرانكلين إعجاب الهنود الحمر؛ لأنه لم يقتل حشرة واحدة. عندما قرصته واحدة في أثناء وقوفه أمام جهاز السدس، نفخ فيها بوداعه من على ظهر يده قائلاً:

- في العالم مكان يكفي لكلينا.

فسأل أكايتشو فنتسل:

- لماذا يفعل ذلك؟

طرح فنتسل السؤال على جون، فأجاب:

- إنني لا أستطيع أن آكلها، ولا أن أنتصر عليها.

فهمس باك وراء ظهر جون:

- صحيح، لن يستطيع أبداً أن يمسك ببعوضة!

سمع فنتسل ما قاله باك، ونقله إلى جون. لم يكن جون متأكداً ما إذا كان باك سينقل إليه سراً أيضاً كل ما يقوله فنتسل، وكلاهما لن يفهم أبداً عدم اكتراثه بذلك.

لم يفت أكايتشو شيء. لا خيبة أمل جون بسبب شركة تجارة الفراء، ولا حماقات باك، ولا التوتر في المجموعة. ذات يوم قال:

- الذئاب مختلفة عن البشر. إنها تحب بعضها بعضاً، تتلامس عن طريق الخطم، وتطعم بعضها بعضاً.

تولى آدم الترجمة. شعر جون ببعض القلق. لم يكن بمقدوره الرد على أكايتشو دون الحديث مطولاً، أو مختصراً، عن رفاقه في الرحلة. انحنى جون أمامه ولم يقل شيئاً. وفي المساء كانت لديه الإجابة:

- لقد فكرت في الذئاب طويلاً. إن لديها ميزة، وهي أنها لا تستطيع أن تتحدث عن بعضها بعضاً.

انحنى أكايتشو أمامه هذه المرة.

بعد أربعة أسابيع كانوا على وشك الوصول إلى مصب نهر منجم النحاس. من هنا فصاعداً، كان من الممكن أن يقابلوا في أي وقت

الإسكيمو الذين يستخرجون النحاس من ضفة النهر. فضّل أكايتشو أن يواصل مع قبيلته التجول في اتجاه الجنوب. لم يكن هو نفسه متأكداً من سلوك محاربيه تجاه الإسكيمو.

- إنهم يقولون عنا: إن الواحد منا نصف إنسان ونصف كلب. في حين أنهم يشربون الدماء، ويأكلون الديدان والفئران المجففة. الأفضل لنا أن نعود من حيث أتينا. من الآن عليكم أن تطعموا أنفسكم بأنفسكم.

تم الاتفاق على أن يذهب معهم فنتسل حتى يقوم بتزويد قلعة بروفيدينس بالمؤن والذخيرة، إذا فشلت البعثة، ولم تصل سفينة باري.

أراد هوود أن يعرف من أكايتشو: أين ستكون القبيلة في ربيع العام المقبل. أشار أكايتشو له بملامح لا يُستشف منها شيء إلى المنطقة جنوبي بحيرة الدب العظمى. صافحه كسكاره قائلاً:

- إذا شعرتم بالجوع، ينبغي عليكم أن تكثروا من الشرب، وإلا متم!

ها هي تظهر ثانية: صفحة مياه البحيرة التي تشبه جلد الفيل المتغضن! قريباً ستبحر في صف طويل سفن شركة الهند الشرقية والسفن المتجهة إلى أستراليا وسان فرانسيسكو وبنما وجزر ساندويتش. ولكن في الحقيقة: هل تهم جون سفن الركاب؟ وجد نفسه يضحك. كان في مزاج رائق.

ساد السكون على الهضبة. من قمتها التي نمت عليها نباتات طحلبية أرسل الرجال أبصارهم إلى البحر عبر مصب نهر منجم النحاس. من بعيد تراءت لهم جزيرتان مسطحتان تغطيهما الثلوج على خلفية سماء وردية رقيقة، أم أن ما رأوه هو الجليد؟ بدا الهواء نقياً، لا أثر للحشرات. لم يسمعا أي صوت، باستثناء خشخشة ثيابهم وطقطقة عظامهم.

امتدت أمام عيني جون منطقة مجهولة، وادعة، لا يحدها حد، مثل

حديقة الأب قبل عقود. والبحر الراسخ. آلاف الأساطيل لم تترك فيه أثراً. في كل يوم يبدو البحر في مظهر مختلف، ومع ذلك يبقى هو ذاته إلى أبد الآبدين. طالما بقي البحر، ظل البؤس بعيداً عن العالم.

تحطمت أحلام جون فجأة؛ إذ دخل الرحالة إليه، وأعلنوا قرارهم: أنهم لن يركبوا البحر بزوارق متهالكة. بالتأكيد كان ريتشاردسون يعرف أن هناك في الأعلى يد تحمي الجميع. دمدم هيبورن:

- هل أنتم رجال أم لا؟

سمع جون كل ذلك بنصف أذن. ولأنه كان يحترم الرحالة، ظلوا ينتظرون ما يقوله هو. نظر بعيداً وأعد عباراته. عندئذ استدار ونظر إلى سولومون بيلانغر.

- إنها ليست نزهة. لكن المخاطر التي تركناها خلفنا أكثر بكثير من المخاطر التي تنتظرنا.

ألقى مرة أخرى نظرة إلى البحر، وقال في السكون السائد، كأنه يتحدث مع نفسه:

- وإلا لن نستطيع استكمال ما بدأناه. هذا جزء من رحلتنا.

قال سولومون بيلانغر عندئذ: إن عليهم إذن أن يفعلوا ذلك. اكفهر وجه باك. أما بقية البريطانيين فأبدوا إعجابهم الصريح بجون. شرعوا يعدون العدة للرحيل.

بدا أن باك يضمر شيئاً لا يستطيع التخلص منه، ربما كان رغبة في التهكم، أو رأياً شريراً، أو غضباً. لكن، لم يكن هناك شخص ينتظر سماع رأيه، شخص يشبهه. لذلك كان كل ما قاله في الختام، كأنه يعتذر لهوود:

- لا أحب مثل هذه الخطب. إنه يتصرف كأنه قديس ينبغي على كل إنسان أن يساعده، كأنه نيلسون!

الفصل الرابع عشر

جوع وموت



امتلأ الحقل بالعظام والجماجم مثل أحجار تستقر وسط الطحالب، وبالشقوق التي خلفتها نصال بَلطات محاربي الهنود الحمر: هذا هو مكان «الشلال الدموي»، حيث لم يستطع صَمويل هيرن أن يمنع وقوع الكارثة قبل خمسين عاماً(*).

كان جون فرانكلين يعلم أنه يحتاج إلى الإسكيمو. لكنه كان يخشى ألا يكونوا قد تجاوزوا حتى اليوم الكارثة التي حدثت آنذاك. حيثُ لا يسجل الإنسان شيئاً، يظل الماضي مصدراً للمخاطر. كثيراً ما كان يخطر على باله الآن القتلى على أرض ميناء كوبنهاغن.

«السلوك مثل جنتلمان»، «تجاهل الخوف»: ما أقل ما قدمت له مثل هذه الجمل العون منذ أن أصبح قائداً!

(*) صَمويل هيرن (1745–1792): مستكشف إنكليزي وتاجر فراء وكاتب، وهو أول أوروبي يقوم برحلة برية عبر شمال كندا إلى المحيط المتجمد الشمالي. أما «الشلالات الدموية» فتقع في كندا، على بعد 15 كم شمالي مصب نهر منجم النحاس في المحيط المتجمد الشمالي.

بإمكان المرء اكتساب ثقة اثنين أو ثلاثة من السكان الأصليين يقتربون ببطء. المشكلة كانت في ظهور قبيلة بأكملها فجأة، أو عندما لا يجيء أحد مطلقاً.

كان الخليج خاوياً، حتى من الطيور. أمسك جون قائمة بالأسماء المُعدة للجبال والأنهار والرؤوس(*) والخلجان: فليندرز، بارو، بانكس، أسماء المسافرين البريطانيين معه، والمسافرين مع بيرنس، قائد سريّة خليج هدسون. آه من الأسماء! إذا تضوروا هنا جوعاً أو قُتلوا، لن يبقى اسم من الأسماء على الصخور. غير أنها تساعده الآن للتغلب على قلقه. لقد ذهب مع أتباعه إلى مقر الجماجم مثلما سار قبل ذلك مع الصيدلاني إلى أرض معركة وينسبي. أراد أن يفهم ماذا يحدث عند لقاء الإسكيمو. أما بالنسبة إلى باك فقد كان واضحاً: أن العظام القديمة ليست إلا دليلاً على أن بإمكانهم أن يقضوا على الإسكيمو؛ إذا زادت وقاحتهم عن الحد.

فجأة تسمرت عينا هيبورن على البحر:

- يا إلهي، لقد وصلوا!

على هامش مدى بصره لم يلحظ جون إلا أن الخليج أظلم بعض الشيء. استدار.

زهاء مئة زورق من نوع الكاياك كانت في طريقها إليهم، ومعها عديد من القوارب غير المسقوفة الأكبر حجماً. اقتربوا منهم بلا صوت تقريباً، كأنهم صيادون يقتربون من الفريسة بخفة، وعلى أطراف أصابعهم. ركض البِيض بأقصى سرعة إلى أسلحتهم، فصاح جون:

(*) الرأس (بالإنكليزية cape): نتوء صخري يبرز من الساحل، ويتوغل في البحر، مثل رأس الرجاء الصالح.

- عمّروا الأسلحة، وأعدوها للإطلاق، لكن: ولا طلقة، ولا حتى طلقة تحذيرية، ولا رصاصة تُطلق سهواً، وإلا فقدنا كل شيء.

على ما يبدو تتبع الإسكيمو كل حركة؛ إذ استدارت القوارب نحو تسعين درجة، بحركة متزامنة، كأنها سرب من الأسماك، واتجهت إلى لسان في البحر يبعد عن البريطانيين بنحو أربعمئة ياردة.

بهدوء قال جون:

- سأسير وحدي مع أغسطس. إذا حدث لي شيء، فسيتولى الدكتور ريتشاردسون القيادة.

سأله باك:

- وإذا أسروك، لكي يتمكنوا منا ثم يقتلونا جميعاً في النهاية؟

أجاب جون:

- علينا اكتساب أشباحهم لصالحنا.

ثم أضاف:

- افعل ما أقوله فحسب!

تلقى أغسطس تعليمات بأن يسير خلف جون بخطوتين. كانت خطواتهما بطيئة مثلما كان أكايتشو يسير في قلعة بروفيدنس، وربما حتى أبطأ. من أكايتشو وماثيو فليندرز تعلم جون الصفات التي يجب أن يتسم بها الزعيم.

في تلك الأثناء كان الإسكيمو يقفون على اليابسة، وبدوا كأنهم قطيع من الحيوانات ذات الفراء الثقيل التي تقف بلا حراك وتتشمم الأجواء، وكلها تحملق في اتجاه واحد. علا الوشم بعض الوجوه، الشعر أسود. سيكون من الصعب، قال جون لنفسه، أن يميز الواحد عن الآخر.

توقف الآن ممسكاً بذراع أغسطس. عدّ بصوت خافت إلى عشرين، ثم قال:

- ابدأ بالخطبة!

كان أغسطس يعرف ما يجب أن يقوله. حرص جون على أن يحفظ الجمل عن ظهر قلب، وقام بمساعدة يونيوس بفحص صحتها: نوايا سلمية، هدايا، تبادل الطعام مقابل «أشياء جيدة»، وما إذا كانوا رأوا سفينة كبيرة عند شروق الشمس. وتكرار كلمة «سلام» المرة بعد الأخرى.

عندما توقف أغسطس، رفع رجال الإسكيمو أذرعهم في الهواء، وصفقوا فوق رؤوسهم، كأنهم جمهور أوبرا متحمس لما شاهده. اللعنة، ماذا يعني التصفيق في هذه المنطقة؟ ربما لا يعني الاستحسان مطلقاً! بصوت جهوري وبإيقاع منتظم صاحوا جميعاً:

- طايما، طايما!

المأمول ألا تعني الكلمة الثأر. فكر جون في الموت أو المجد والخبز أو الدم. لم يكن بمقدوره سؤال أغسطس؛ إذ إنه محاط بالإسكيمو المصفقين. كما أنه لم يكن يريد السير وراءه. كان يعرف أن كل شيء يتوقف الآن على مكانته ووقاره. وهكذا ظل واقفاً، وبمرح واعتزاز راح يسمع كلمة «طايما» التي راحت تعلو شيئاً فشيئاً، كأنهم يبايعونه بها، وتشبث بأمله في ألا تعني سوى «مرحباً».

«طايما» تعني «السلام»!

سُلمت الهدايا: طنجرتان وسكينتان. ثم بدأت المقايضة. عرض الإسكيمو سهاماً وأقواساً، رماحاً ونظارات شمسية من الخشب، وكانوا يريدون الحصول على كل ما يرونه من أجهزة وأشياء معدنية. ثم شرعوا

يأخذون بأنفسهم ما يحتاجون إليه. بابتسامة لطيفة تزاحموا حول كل شيء، وسرقوا من باك مسدسه، ومن هيبورن معطفه. أراد باك أن ينتزع منهم المسدس، غير أنهم صاحوا عالياً: «طايما»، وتشبثوا به.

جلس جون دون حراك كالطود الشامخ. كان يعلم أنه لن يستطيع حماية نفسه مطلقاً من الأصابع السريعة؛ لذا أمر هيبورن بالحضور إليه. كان أحد الإسكيمو يحاول في تلك اللحظة نزع أحد أزرار سترته الرسمية. تابعه جون بانتباه فحسب. ضربه هيبورن على أصابعه، وأشار على هوود الذي يستطيع عنده استبدال الأزرار. نجحت الخطة برهة.

اختلط الحابل بالنابل في تلك اللحظات، ولم يكن من الممكن السيطرة على الوضع إلا بالانتظار. حدس جون بأن مصير البعثة سينتهي تماماً؛ إذا نهض الآن، أو إذا أبدى قلقه أو صرخ بأوامر. بالإضافة إلى ذلك كان الإسكيمو يعلمون بدقة تامة ماذا تعني البنادق والمسدسات. عندما يقترب أحد البِيض من سلاحه مجرد اقتراب، يعترضه فوراً عدد منهم، ويهتفون جماعةً: «طايما، طايما»، ويدقون بكفوفهم بوداعة على الجانب الأيسر من الصدر في إيقاع واحد.

بحث هوود عن حبل، وربط جيداً الصندوق الذي يضم الأدوات الفلكية ووضعه تحت فخذه، وبذا لن يستطيع أحد أن يسرق هذه الأجهزة دون أن يجره جراً. ثم سحب كراسته وشرع يرسم إحدى النساء. بذل جهداً كبيراً؛ ليرسم عينيها والوشم على وجهها وعظام جبهتها. تجمع آخرون من الإسكيمو خلفه، ونظروا من وراء كتفيه، وأخبروا المرأة التي وقفت كموديل أي جزء من جسمها يُرسم في تلك اللحظة. طواعية عرضت المرأة على هوود كل ما اعتقدت أنه يحتاج إلى دقة خاصة: الأسنان، واللسان، والأذن اليمنى واليسرى، واليدين، والقدمين. نشأت صورة غريبة؛ إذ لم

تكوِّن التفاصيل الشكل المعهود. لكنها راقت للإسكيمو للغاية، وقفوا منحنين وأداروا الرأس يمنة ويسرة؛ كي يتأملوا كل دقائق الصورة. اقتربوا كلهم تقريباً؛ كي يتفرجوا عليها. عندما انتهى هوود من الرسم، أهداه إلى الموديل، وقبلها على يديها. كادت المرأة تتحجر من الفرحة، وما لبثت أن قفزت في الهواء.

والآن جاء الساحر. برأس أحد الدببة وفروه سار على أربع مزمجراً ومتنهداً، ثم دار عدة مرات حول البِيض. لم يقل أغسطس غير أنه ساحر الدببة. من الممكن أن يعني ذلك شراً؛ لأن الساحر يرى أن الرسوم خطيرة جداً. وفجأة عدا الإسكيمو كلهم، وركضوا إلى القوارب، ثم جذفوا بسرعة كبيرة مبتعدين عن المكان. تركوا أشياء عديدة خلفهم كانوا قد استولوا عليها قبل ذلك بالخداع والحيلة، بما فيها أشياء اقتنوها بالمقايضة. تركت المرأة صورتها على الأرض، غير أنها مدت يدها إلى المِنقلة التي يستخدمها هوود في القياس. لكنها غيرت رأيها في اللحظة الأخيرة، وأرجعت المنقلة إلى مكانها، وفضلت أخذ صورتها. قفزت في القارب الأخير المفتوح الذي لم يكن يقل سوى النساء. وفي غضون دقائق قليلة خلا الخليج من القوارب مثلما كان في الصباح.

قال ريتشاردسون:

– نجونا، لكننا فشلنا رغم ذلك. لن نحصل منهم على طعام.

قال أغسطس مؤكداً:

– لا يريدون أن تكون لهم أي علاقة بنا. إنهم إنويت من الساحل الغربي. صيفاً يسكنون في أكواخ من الخشب الذي يجرفه التيار، وشتاء في كرات من الجليد، لكن دائماً على اليابسة. وكثيراً ما مروا بخبرات سيئة

مع البِيض. كانوا ينوون قتلنا، لكن أرواحاً قوية جداً كانت في صفنا. روح الدب أراد التهامنا، لكن المرأة العظيمة التي تعيش تحت البحر، لم تسمح بأن يحدث لنا مكروه.

رد جون:

- علينا إذن أن ننطلق إلى عمق البحر، هناك ستحمينا على نحو أفضل.

في الحادي والعشرين من أغسطس نصبوا خيامهم عند بوينت تورناغين. أمست مشاكلهم أكبر من ذي قبل.

باتهورست إنلت أيضاً لم تكن هي الطريق المائي الذي يبحثون عنه، والمؤدي إلى خليج هدسون. لم يكن سوى خليج، يصل المرء إلى نهايته سريعاً: خمسة أيام للدخول، وخمسة أيام للخروج من الضفة الأخرى، وعلى هذا ما لبث أن انقضى نصف شهر أغسطس. بعد خيبة الأمل هذه أبحروا على طول الساحل في اتجاه الشرق، إلى أن تخلوا في النهاية عن أي أمل في اللحاق بسفينة باري قبل مجيء الشتاء. على الأقدام ساروا إلى شبه جزيرة كِنت حتى وصلوا إلى اللسان الكبير الممتد في البحر، فأطلقوا عليه: Point Turnagain؛ أي: نقطة الاستدارة والعودة من جديد نهائياً.

عانوا الجوع.

ولا حتى صيد الأسماك وفر لهم ما يسد الرمق، ناهيك عن صيد الطرائد.

لو كان لديهم وقت، لتعلموا من الإسكيمو المعلومات الضرورية عن أماكن تجمع الأسماك وزعنفيات الأقدام! ليست المنطقة موطناً لأغسطس ويونيوس. أو لو كانت لديهم أسلحة نارية أفضل وأبعد مدى: في هذه

البرية الجرداء ليس ثمة ساتر ولا غطاء للاقتراب المتسلل من الحيوانات، إذا رأوا أحدها أساساً.

لم يكن هذا هو الساحل القطبي الشمالي كما تخيلوه. لم يتوقعوا صمت الأموات، بل أن يقابلوا حيوانات الفقمة والفظ على القطع الجليدية العائمة وفوق الصخور، ودببة قطبية تتأرجح على التلال، وأجراف تتزاحم عليها طيور الأوك والطيور الكبيرة الأخرى، وبحراً مشتعلاً من الزهور الحمراء، باختصار: سيمفونية للعين.

أراد جون تسمية اللسان البحري على اسم ويلبرفورس، ذلك المكافح من أجل إلغاء العبودية. لكن الأمر مستحيل الآن، بعد أن استداروا للعودة. هذا الرجل الخيّر يستحق شيئاً أفضل من مجرد بروز في اليابسة يشير إلى النهاية أيضاً.

أول مرة منذ فترة طويلة يشعر الرحالة بالسعادة؛ إذ إنهم عادوا إلى اليابسة. أما مترجما الإسكيمو فقد سيطر عليهما الهم: عندما يتوغلون في اليابسة، لن يعود بمقدور المرأة التي تعيش تحت البحر أن تشملهم بالحماية.

- كان بإمكان قبطان بلوسوم أن يظل إنساناً سعيداً، وأن تظل بلوسوم سفينة سعيدة، لو لم.... هل حكيت الحكاية من قبل؟ يا إلهي، إن الجوع يصيب المرء بالخرف!

ثم صمت ريتشاردسون.

ثمة فجوات في الذاكرة الآن، ولم تعد قواهم تكفي للتأمل ولا لتبادل أحاديث ذات أهمية. الشيء الوحيد الأقوى من الجوع هو القدرة على التخيل غير المحدود. في قلعة إنتربرايز سيكون في انتظارهم: بيميكان

لذيذ، ولحوم الرنة المجففة، والروم، والتبغ، والشاي، والبسكويت. تحدث هوود عن ذات الجورب الأخضر. لا بد أنها وصلت إلى هناك.

التقدم فحسب، تجاه الجنوب الغربي، إلى أن يصلوا إلى القلعة! طردَ الجوعُ كلَ الهموم الأخرى: لم يهتز للرحالة جفن، عندما فاجأت القوارب وسط البحر، لدى عبور خليج كورونيشن، عاصفة عاتية آتية من الخلف. كافحوا طيلة النهار حتى يَحولوا دون انحراف الزوارق الخفيفة عن مسارها، وقرب المساء طاردتهم العاصفة بسرعة منُذرة بالخطر، ودفعت بهم تجاه الساحل الصخري. ظن البحارة أن هذه هي النهاية، أما الرحالة فقد رأوا اليابسة، أخيراً اليابسة، مخيمات ووجبات دسمة. جلس جون بثبات مسجلاً بعناية كل جزيرة يمرون بها يميناً ويساراً، أما هوود فقد انحنى على كراسته، وراح وسط الأمواج والزبد يرسم التكوينات الصخرية. كان جون قد قال قبلئذٍ:

– الخرائط، والملاحظات، والتقارير، والصور! إذا بدأنا في التفكير في اللحم والحطب فحسب، فلن نتقدم كثيراً.

الشيء نفسه ينطبق على العاصفة. وعلى هذا تحمل كل فرد منهم، وكل بطريقته، الوضع حتى الوصول إلى الخليج الحامي الذي لم يعد أي عقل يتوقع مجيئه، ولم تكد أي عين تراه. هبطوا في الضباب والظلام، وحيث ساروا أو وقفوا، كانت أقدامهم تخذلهم.

في الحلم رأى جون صور العاصفة والإنقاذ، وجهاز تقليب الصور المصمم حديثاً الذي يعمل على نحو ممتاز، كان الجهاز يسقط على الجدار كل هذه الصور. حاول أن يحفظ تصميم الجهاز، لكنه في الصباح لم يستطع أن يعيد تكوينه. غير أنه شعر بالقوة مرة أخرى: إن نومه يكون عميقاً للغاية عندما يحلم بالماكينات.

بعد عدة أيام، عند مصب أحد الأنهار أطلق عليه جون اسم «هوود»، أنزلوا كل الأثقال التي لا يحتاجون إليها -وهي خصوصاً الهدايا المتبقية- ووضعوها على تل، وبنوا فوقها هرماً حجرياً غرزوا فيه العلم الإنكليزي. كان هدفهم أن يقابل الإسكيمو، على الأقل من سيأتي بعدهم، بلطف وود. ثم أبحروا عكس تيار نهار هوود إلى أن أجبرهم شلال ضخم على التوقف. بين القمم الصخرية والصخور العريضة التي برزت سامقة كأنها جدار، كانت المياه تنساب هابطة، مكان وحيد يخلو من الشجر يتسم بجمال احتفالي. كان ذلك مكاناً جيداً لاسم محرر العبيد، والقطب المضاد لشلال هيرن الدموي، سجّل جون على الخريطة اسم فيلبرفورس راضياً.

أصبح الطقس أكثر برودة، لم يرَ أحد حيوانات برية في أي مكان، ولا آثاراً لها. لم يعد في جعبتهم شيء من البيميكان. أشار يونيوس إلى الصخور: على الجدار الصخري نمت طحالب لزجة يمكن أكلها. طعمها فظيع، لكنها أفضل من لا شيء. في الليل رقدوا جميعاً مستيقظين في الخيمة. لاحظوا أن أكل الطحالب يدفع المرء إلى التقيؤ، ويصيب بالإسهال. كان هوود أكثرهم معاناة؛ إذ لم تحتفظ معدته بشيء.

في اليوم التالي، في الثامن والعشرين من أغسطس، مرة أخرى لم يصطادوا سوى سمكتين وطائر الحجل الرمادي، وكيسين ممتلئين بطحالب الصخور. أطلق الرحالة عليها «أحشاء الصخور».

أمر جون ببناء زورقين صغيرين من الزوارق الكبيرة، ليكونا سهلي الحمل، ويكفيا لعبور النهر. بعد ذلك كان أمامهما طريق طوله ميلان، وعر للغاية. وهكذا انتهى هذا اليوم. كانت السماء تثلج.

لم يكن ثمة صياد ماهر بين الإنكليز. جون ليس سريعاً، وباك ليس صبوراً بدرجة كافية، وهوود سيئ التصويب، والطبيب قصير النظر. هيبورن وحده كان يحالفه الحظ بين حين وآخر. لولا كريديت وفيلان وسولومون بيلانغر ومايكل تيرواوتيه والمترجمين؛ لماتوا جوعاً، هذه حقيقة. ولكن كلما زادت مهارة أحد الرحالة في الصيد، زاد ميله في الفترة الأخيرة إلى تجاهل الأوامر الصادرة إليه. كانوا يمكثون بعيداً عن المخيم طيلة أيام وليال، ويمتنعون عن إيضاح عدد الطلقات التي أطلقوها، أو التي تبقت معهم، ويأكلون خفية وحدهم بعض الطرائد التي اصطادوها. وحده سولومون بيلانغر ظل شريفاً مستقيماً.

عَرضاً قال باك:

– الأمور تسير الآن وفق نظام آخر، معهم أسلحة وذخيرة، وليس معنا سوى السدس والبوصلة، وبهما لا يستطيع أحد منع الآخرين من السرقة.

رد جون:

– النظام يعمل بكفاءة، كل فرد يعلم أنه بدوننا، نحن الملاحين، لن يجتاز هذه الرحلة حياً. فإذا اجتازها، فهو يفضل أن يكون رجلاً شريفاً عند انتهائها.

عندما ادعى بيرول: أنه لم يأخذ معه سوى كمية محدودة من البارود والرصاص، أعطاه باك الحق رغم أن كل الأدلة تنطق بعكس ذلك. أثار الريبة مرة أخرى: أي لعبة يلعبها؟ هل يتملق الرحالة؟ هل يعتبر الخضوع أفضل من الهزيمة الصريحة مادام لا يستطيع الانتصار؟ هل يريد أن ينجو بذلك من انتفاضة دموية في حال وقوعها؛ وذلك بتقديم نفسه كشاهد زور من الآن؟

عض جون على نواجذه. أراد أن يزحزح الفكرة من عقله. يفترض نظامه ألا يُعد شيء كهذا ممكناً قبل أن يصبح حقيقة. وبالرغم من أنه كان يشعر بالخجل الشديد، فقد ظل على شكوكه كنوع من الاحتياط.

الأول من سبتمبر. أمسى مرض هوود الآن شديداً. من سوء حظه أن معدته لم تتحمل «أحشاء الصخور». وهكذا أخذت قواه تنهار أكثر من الآخرين، ليس فقط بسبب ضعف مناعة جسده، بل أيضاً بسبب الجوع.

ازداد البرد قسوة. ندف الثلج السميكة التي بدت جميلة، أضحت الآن محض غبار أبيض جاف يتسلل تحت الملابس. في الليل كانت الأغطية المتجمدة تحتاج إلى أكثر من ساعة، حتى تصبح دافئة بما يسمح بشيء يشبه النوم. كانوا يضعون أحذيتهم ذوات الرقاب الطويلة تحت أجسادهم حتى لا يضطروا في اليوم التالي إلى تدفئتها قبل أن يرتدوها؛ إذ إن ذلك يتطلب نيراناً؛ أي حطباً يجب على المرء أن يجده أولاً.

خلّف الجوع نوعاً من البطء لم يكن بصيراً، بل أعمى. صحيح أنهم ما زالوا يتقدمون، وما زالوا يحاولون أن يظهروا بمظهر لطيف ومتفائل، لكنهم كانوا يرتكبون أخطاء حتى في أكثر الأمور بديهية. انطلق بهم الزورق عبر النهر دون أن يأخذوا معهم شيئاً. راحوا يحملقون في حافة الشلال المقترب دون أن يبادروا بالفعل. تشبه حالتهم تلك المرحلة المتأخرة من السُكر، حين تنقلب النشوة إلى بؤس. ولا قطعة من لحم الحيوانات البرية. حتى الطحالب الصخرية لم يعد من السهل العثور عليها؛ إذ يجب على المرء أن يحفر تحت الجليد كي يجدها. عثروا على بقايا وجبة التهمها أحد الذئاب، وعظام شبه متعفنة لأحد حيوانات الرنة، وضعوها على النيران إلى أن اسودت؛ كي يأكلوها. لكن يونيوس قال:

– لن ينفع ذلك. علينا أن نعد منها شوربة.

اقترح جون أن يحاولوا ذلك، لكن الآخرين قالوا: إنهم بريدون أن يشعروا بشيء تحت أسنانهم. شوربة! ماذا يعرف الإسكيمو عن المعدة الإنكليزية أو الفرنسية! رضخ جون لهم. حسب أن المعنويات أهم من تجربة الحساء. شعر يونيوس بالإهانة. واختفى نهائياً ومعه خمسون طلقة من الذخيرة.

المعنويات تتجلى أيضاً في السير. في الحقيقة كانت معنوياتهم تتقدمهم بعدة أميال. لكن ذلك لم يفدهم كثيراً؛ إذ إن شعورهم بالإعياء كان يسلك سلوكاً شبيهاً.

خطوات، خطوات لا تنتهي فوق بساط ثلجي لا يتخلله شيء سوى الأنهار والبحيرات.

أحياناً كان جون يستغرب أن قدميه ما زالتا تسيران، من تلقاء ذاتهما تقريباً، وأن كعب الحذاء الأيمن يصطدم دوماً بالكاحل الأيسر، وأن العكس لا يحدث أبداً. الإعياء أظهر لكل منهم كيف اعوج جسده. مع الوقت كانت القامة تزداد انحناء. غريب: ألم يولد الإنسان بظهر مستقيم؟! تجمدت اللحى تماماً، وبدون نيران لم يكن ممكناً إعادتها إلى سيرتها الأولى. وهي ثقيلة أيضاً. بمقدور اللحية المتجمدة أن تجعل الرجل ينحني إلى الأمام. تشوشت أفكارهم وراوغتهم، ولم يعد ممكناً الإمساك بها. في بعض الأحيان كان ينفجر غضب أحد الرحالة، غضباً صغيراً طفولياً بلا أي سبب: صرخ بيرول؛ لأنه لا يريد بعد الآن السير وراء ساماندر، والسبب أن سرواله ينثني عند المؤخرة يميناً ويساراً على نحو غبي! وبعدها يواصلون السير المتراخي ساعات بلا كلمة واحدة. وفجأة تنتابهم فكرة أنهم يبتعدون

عن القلعة، بدلاً من أن يسيروا في اتجاهها. ربما يكون مصيرهم قد حُسم منذ فترة طويلة.

من أين يأتي جورج باك بكل هذه القوة؟ هل من العدل أن يُظهِرَ إنسان مغرور ومتقلب المزاج مثله كل هذا الجَلَد؟ في كثير من الأحيان يتميز الإنسان الجميل بقدرات لا يمكن تقديرها بسهولة. إنه عازم على إنقاذ جماله قبل أي شيء، وهذا ما يمنحه التصميم والإصرار على الوصول إلى الهدف.

«أحشاء الصخور» كعشاء. حصل كلٌ على حفنة، بعد ساعات من البحث. والنتيجة؟ تماماً: وجوه مكفهرة.

الرابع عشر من سبتمبر. رأوا عدداً من حيوانات الرنة، لكنهم لم ينجحوا في اصطياد أحدها. وضع مايكل أصابعه المرتعشة من الاضطراب على الزناد، فانطلقت رصاصة قبل الأوان، وضاع كل شيء. بكى مايكل يأساً، وانضم إليه كريديت.

تخلف هوود عنهم، ولم يصل إلى الخيام إلا بعدهم بساعات مستنداً على ريتشاردسون. هناك كانوا قد جمعوا بعض «أحشاء الصخور»، وهو الطعام الذي لم تتحمله معدته. قال مبتسماً:

- لقد استجمعت قواي بعض الشيء.

بمجرد أن قال ذلك، انثنت ركبتاه وسقط على الأرض. لم يُغمَ عليه؛ إذ إن هوود كان فضولياً للغاية، ويريد أن يعلم ما سيأتي. لم يعد يتقن ما يرسمه، هذا صحيح، لكن عقله وعينيه كانت مشغولة بكل شيء ممكن، باستثناء معاناته.

مد بيرول يده إلى متاعه، وأحضر لهوود بقايا من اللحم، قال: إنه

ادخرها من حصته في الأيام الأخيرة. بكى التسعة عشر فرداً جميعاً، حتى باك وهيبورن. ليس من المهم من أين أتى بيرول بهذا اللحم! ها هي تتجلى مرة أخرى، النخوة الإنسانية، برهة قصيرة فحسب، لكنها كانت واضحة للعيان.

قال أغسطس:

- أعتقد أيضاً أن يونيوس سيعود! وسيحضر معه لحماً وفيراً!

- اللحم، نعم!

احتضنوا بعضهم بعضاً، وقد ثملوا من الأمل. قريباً سيكون كل منهم في بيته! إنها محض نزهة!

وهكذا انتهى الرابع عشر من أغسطس. كان يوماً طيباً.

الثالث والعشرون من سبتمبر. أصيب بلتير بنوبة غضب بعدما اشتكى قبل أيام من وزن الزورق، ثم ألقى به على الأرض؛ فانكسرت بعض الألواح الخشبية الرئيسية فيه. كان عليه أن يرفع الزورق ويحمله مرة أخرى. بقليل من الحظ يُمكن إصلاحه.

عندما هبت العاصفة الثلجية، أدار بلتير الزورق حتى تدفعه الريح وتسقطه من يده. تحتم عليهم الآن أن يتخلوا عنه نهائياً. لم يظهر بلتير أدنى قدر من الخجل وهو يعلن انتصاره. حمل جان بابتيست بيلانغر الزورق الآخر، ولكن حتى متى؟

أنبه جون قائلاً:

- نحن على الطريق الصحيح، ولكننا سنضيع بلا زورق.

بعد قليل تأكد جون من أنه ليس على الطريق الصحيح. المغناطيسية في هذه الأماكن لا يوثق بها، كانت الإبرة تتأرجح متهكمة يميناً ويساراً. ثم

جاءت لحظة تعيسة: كان على القائد المتضور جوعاً، أن يخبر أفراد الفريق المتضور جوعاً، أن عليهم أن يغيروا الاتجاه. يتطلب الأمر شجاعة تعني جهداً عظيماً في الوقت الحالي.

- ساعة الحقيقة.

هكذا دمدم باك، وأشاح بصره بعيداً. وفحّ فيلان:

- لقد أخطأ!

- لو كنتم تفهمون الملاحة مثلي؛ فلن تخافوا. الوضع صعب هنا، لكننا نسير بالمنطق والعلم.

صدقوه؛ لأنهم مرغمون على ذلك فحسب. لقد بلغ بهم الوهن حداً جعلهم عاجزين عن الإيمان بأي شيء إيماناً حقيقياً. أصبحوا جميعاً يخشون الموت.

شجاعة هوود كانت مهمة. بدا ضابط الصف مثل ميت، لكن تفاؤله أخجل كلَ من يميل مجرد ميل إلى الشعور بالشفقة على الذات. كان الشعور يخامرهم جميعاً: إذا مات هوود، فلن تكون نهايتهم بعيدة.

وعندما أمر جون عند ضفة البحيرة، أن يكسروا السطح الجليدي، ويصطادوا أسماكاً، اختفت فجأة الشباك كلها. لقد استثقلها الرحالة، وهي الآن ملقاة في مكان ما، خلفهم بأميال عديدة، مدفونة تحت الثلوج.

بعد ساعتين تعثر جان بابتيست بيلانغر مثل ممثل سيئ، قيل له أن يتعثر. أما موضع التعثر فقد اختاره بعناية: كانوا يعبرون منحدراً. تحطم القارب الأخيرا في المساء راحوا يمضغون جلد حيوان رنة متآكلاً، بعد أن أخرجوه من تحت الثلوج بأصابعهم. لم يعد هنا «أحشاء الصخور»، ولا حطب أيضاً.

تحدث جون مع نفسه قائلاً: لو وجدت الآن القط تريم، لقتلته بالرصاص وأكلته. ارتعد، لكنه كان يشعر ببؤس بالغ، يحول دون أن يمنع الفكرة تماماً من أن تجول في خاطره، ولهذا انطلقت في طريقها المعذِّب: لحم القطط، أشهى ما في العالم! حاول جون أن يوجه خياله في مسار آخر: زولتسه من رأس الخنزير. لكن العقل الخائن لم يسايره، لقد جعل طعم الزولتسه يشبه «أحشاء الصخور»، ولحم تريم المسكين مثل فيليه العجل.

في الخامس والعشرين من سبتمبر أكل بعض الرحالة جلد رقبات أحذيتهم، وفي اليوم التالي حاولوا أن يأكلوا نعالهم. هوود أيضاً حاول ذلك. لكنه لم يستطع أن يبلع الكثير. تطلع إلى جون، وبجهد كبير هز كتفيه وهمس:

– صلبة جداً! عندما أشتري المرة القادمة في لندن حذاء برقبة....

كان هوود متماسكاً طيلة النهار، ولكنه في الليل يبدأ بالتحدث على نحو مشوش عن ذات الجورب الأخضر وعن طفله. لديه بنت صغيرة. فتاتان من الهنود الحمر: واحدة كبيرة، والأخرى صغيرة. ثم لا يلبث أن يقول: إنه في حديقة منزله في بركشاير، وهناك يقوم في ضحى مشمس بقص النباتات الشوكية والقرّاص. قال هيبورن معلقاً:

– لا يتحمل المرء سماعه!

في السادس والعشرين من سبتمبر قابلوا نهراً كبيراً.

قوّم جون لسانه الثقيل، ثم همس:

– هذا هو نهر منجم النحاس. علينا عبوره، عندئذ نكون قد وصلنا تقريباً!

لم يصدقوا أن هذا هو حقاً نهر منجم النحاس إلا بعد مرور أكثر من ساعة. لكن، لم يعد لديهم قوارب.

غمغم جون:

- ابنوا طوفاً!

بعد ثلاثة أيام كانوا قد انتهوا مما يشبه الطوف. ولكن كيف يمكنهم الحيلولة دون أن يجرفه التيار لحظة أن ينزلوه إلى النهر؟ كان ريتشاردسون يحسب نفسه سباحاً ماهراً؛ لذلك حاول أن يعبر النهر بمساعدة حبل، وذلك حتى «ينشئ مرسى» مثلما قال. صلى برهة، ثم خلع ثيابه، ولم يُبقِ إلا ملابسه الداخلية، وانطلق ليسبح. لكنه تجمد فوراً. سحبوه بحبل من المياه، وعروه تماماً؛ حتى يدعكوا جسده بالثلج. مرتاعين حملقوا جميعاً في الجسد العاري، من وجوه نحيلة أطلت ثمانية عشر زوجاً من العيون التي تنطق خوفاً. كان سولومون بيلانغر أول من تحدث. قال متنهداً:

- Mon Dieu! Que nous sommes maigres!(*)

اجتاحت بينوا -الرجل المتحدر من سانت يريه لا بيرش- نوبة جديدة من الحنين إلى الوطن؛ فانتحب عالياً، وسرعان ما انخرطوا جميعاً في البكاء من جديد. ربما أمسينا أطفالاً لا يتجاوزون الثالثة من عمرهم، قال جون لنفسه وهو يمسح دموعه. انهمكوا يائسين في دعك جسد ريتشاردسون. عاد إلى وعيه، لكنهم واصلوا الدعك بنشاط، كأنهم يريدون، بآخر ما لديهم من قوة، أن يعيدوا هيئته إلى صورتها الأولى، وأن يضعوا على ضلوعه ما هو أكثر من الثلج والدموع.

(*) بالفرنسية، وتعني: يا إلهي! ما أشد هزالنا!

عاصفة ثلجية. اندفع الطوف الأول مع التيار واختفى في الشلالات. لم ينجحوا في عبور النهر إلا في الرابع من أكتوبر بعد بناء الطوف الثاني. عليهم الآن ألا يفقدوا المزيد من الوقت!

راح جون يكرر:

- لم يبق حتى إنتربرايز سوى أربعين ميلاً. سنصل قريباً، بقي أربعون ميلاً فقط!

لكن، كم من الوقت يحتاج المرء لقطع أربعين ميلاً، إذا كانت قواه خائرة؟ إلى أي حد يستطيع الإنسان أن يكلف نفسه؟ إنها في الحقيقة مهمة الإرادة، أن تأمر الذات بالاستمرار في السير، «نعم للاستمرار في السير! لا للموت!» لكن الإرادة لا تستجيب في كثير من الأحيان، وتتحالف مع الجسد الغبي، وتفحص بدقة الأسباب التي تدعو المرء إلى السقوط فوراً، في النوم والموت. الإرادة فتى قوي، لكنه مغرور، ومن السهل التأثير السريع عليه. فجأة يعلن بعزم وقوة وعناد أبيّ: «ما يحدث هنا فوق طاقة البشر، علينا الآن أن نجد الشجاعة لكي نستريح!». ولكن، بمجرد أن يسمع الجسد المتعب البائس ذلك، لا يتردد كثيراً: إنه يرضخ إلى الجاذبية الأرضية، ويتمدد على الأرض. الجيد أن شيئاً كهذا لا يحدث لدى الجميع في الوقت نفسه!

لم يسقط جون بعد، ولم يتهاوَ، لكنه كان يعلم أنه ما زال يتمتع بالقوة فقط؛ لأنه هو القائد. قال لنفسه: نظامي لا يحميني من ضربات القدر. في بعض الأحيان أكون الرجل المناسب في المكان المناسب، وأحياناً لا أكون، وهذا قد يؤدي بالمرء إلى الموت. كان علينا أن نطهو حساء. كان علينا... إذا لم أنتبه، فـ....

وفجأة رأى مدينة لاوث أمامه، وسط مراع وديعة تحفل بالبقر، من بعيد

التلال والغابات، ورأى حتى الرافعات وهي تتحرك على طول القناة. بعد ذلك ذهب إلى المدينة، شاهد المواطنين وهم يسيرون على جانبي الشارع، وكانوا يتبادلون التحية بلطف، ويحترمون ويفهمون بعضهم بعضاً. خارج المدينة جبل عملاق: إنه هو نفسه! هو وحده الذي يسافر حقاً، وكذلك الجبال الأخرى. وحده هو القائد. كان يمسك بالحبل للآخرين....

عندما عاد إلى وعيه، كان أغسطس يجلس بجواره، ويصفّر لحناً ما.

سأله جون:

- لماذا تصفر؟

أجاب المترجم:

- الصفير يطرد الموت.

نهض جون قائلاً:

- أهكذا إذن؟ كنت أعتقد أني جبل، وأن بإمكان قدميّ أن تسيرا حتى بدوني. أين الآخرون؟ هل ظهر الدكتور أورم؟

نظر أغسطس إليه مذعوراً، ثم استدار جون بعزيمة وإصرار، وواصل السير. لقد عرف الآن ما الذي يخيفه أكثر من أي شيء: أن يصل إلى بحر الجنون، وأن ينقلب هناك ويغرق مثل سفينة سيئة القيادة. حثه الخوف على الإسراع في خطاه أكثر فأكثر. شعر كأن بشائر الجنون قد مدت يدها ناحيته: شعر أنه يؤمن بالشيطان، وأن الموتى قد يطاردونه، وأنهم -لأنه أبطأ منهم- سيلحقون به لا محالة. لم تكن هناك سفن سيئة القيادة فحسب، بل أيضاً سفن سيئة الحظ.

قال لنفسه: إن باك هو الذي يريد أن يدفع بي إلى الجنون. سواء كان ارتيابي فيه محقاً أم لا، إنه يدفع بي إلى الجنون. عليّ أن أتخلص منه.

جهاز سدس، بوصلة، ورسم تخطيطي بموقع قلعة إنتربرايز، وقلعة بروفيدنس، وموقع أهم البحيرات والأنهار، كان ذلك هو ما حصل عليه باك من جون. وزعت الذخيرة: حصل باك على زهاء الخُمس، فهو لم يكن معه سوى أربعة رجال، وقد كانوا أقوى الرجال: سانت جيرمان، وسولومون، وبيلانغر، وبوبارلان، وأغسطس. إضافة إلى ذلك سوف يصل قبل الآخرين بكثير إلى قلعة إنتربرايز حيث تكون المؤن في انتظاره. فليأخذ ما شاء أولاً! وحتى إذا كانت المؤن أقل من المتوقع، وإذا استهلك باك مع رجاله أكثر من اللازم، فإن ذلك أفضل من ثورة معلنة بين من يتسم بالسرعة ومَن يتسم بالبطء.

وهكذا أمكن الحفاظ على النظام: ظل جون القائد الأعلى، وكان بمقدور الآخرين أن يظلوا رجالاً شرفاء.

انطلق باك، وتخلف فرانكلين. كان عليهم على كل حال انتظار ساماندر وفيلان وكريديت الذين ساءت حالتهم أكثر من هوود.

بعد نصف ساعة جاء ساماندر وهو يجر قدميه جراً، وأخبرهم أن الآخرين بقيا راقدين، وأنه لم يستطع أن يحثهما على النهوض.

اقتفى ريتشاردسون أثر ساماندر، ورجع كي يلقي نظرة عليهما، فوجدهما في العراء شبه متجمدين، عاجزين عن الكلام. ولأنه كان واهناً لا يستطيع حمل أحدهما، فقد رجع إلى الآخرين.

التوت قدم فرانكلين، فسار يعرج. مَن لا يزال لديه القوة الكافية؟ حاولوا حث بينوا وبلتير -ما زالا هما الأقوى- على نقل الذين بقوا راقدين، لكن من دون جدوى. على العكس، لقد ألح الرحالة على جون بأن يرسلهم خلف باك، وأن يترك عموماً كل فرد يسير بحسب رغبته. أمسك جون بكتفي بينوا وهزه بأقصى ما يستطيع:

- إنكما لا تعرفان الاتجاه، أتفهم؟ إنكما لا تعرفان الاتجاه!

- سنقتفي آثار مستر باك.

- القليل من الثلوج أو الأمطار ولن تريا شيئاً. عندئذ تكون هذه نهايتكما!

بصعوبة فهم بينوا ذلك، لكنه رفض إحضار المتجمدين برداً:

- عندئذ ستكون هذه نهايتي أنا أيضاً!

خاض جون دقائق صراعاً مع نفسه، ثم قال:

- فلنواصل السير! سنتركهما!

إنها الهزيمة. لم يستطع إنقاذ الرجلين. يا له من قائد! عليه الآن على الأقل أن يحول دون موت البقية بسبب اليأس أو العمى. لكن قدمه تورمت وآلمته على نحو بشع. بدأ يحدس كيف ستنتهي الرحلة بالنسبة إليه.

بعد عدة أميال انهار هوود مغشياً عليه. لم يكن ممكناً حمله؛ لذلك كان على أحدهم أن يظل بجواره. أراد ريتشاردسون أن يفعل ذلك، آملاً أن يرسل جون لهما طعاماً من القلعة، وأن ينقذهما معاً من الموت.

أجاب جون:

- لا! أنا القبطان! وأنا أبطأ منك أيضاً. سأبقى مع هوود، وأنت ستواصل السير مع الآخرين. هناك البوصلة والسدس.

فعل ذلك؛ لأنه لم يعد يستطيع، لذلك فقط. لم يكن ليساير الآخرين، وبدا – وفق الوضع الحالي – لن يعود بإمكانه قيادتهم.

نصبوا خيمة ووضعوا هوود فيها. عندئذ جمع الطبيب بقية الطاقم. قال جون منبهاً إياهم:

- ستبقون معاً! من يتقدم وحده، سيضيع؛ لأنه سيضل الطريق. وسيقود الآخرين –الذين يقتفون أثره– إلى التهلكة. ابقوا معاً!

خطا هيبورن إلى الأمام، وقال:

- سأبقى معك ومع هوود!

استكمل ريتشاردسون المسيرة. بحث جون وهيبورن عن حطب، وعن «أحشاء الصخور» وآثار حيوانات برية. لم يعد أحد يشعر بالجوع، بالضعف فحسب. لم تعد الصحة مهمة الآن، بل النجاة فحسب، بكثير من الحظ.

اصطاد هيبورن حجلاً رمادياً، وقاما بشيه. أطعما هوود معهما الذي بدا أنه يتحسن بعض الشيء. عثرا أيضاً لنفسيهما على كمية صغيرة من «أحشاء الصخور».

بعد يومين ظهر فجأة أمام خيمتهم مايكل الإيروكواسي. لقد طلب الإذن من ريتشاردسون بالرجوع إلى الخيمة مع بيرول وجان بابتيست بيلانغر. للأسف لقد فقدهما في الظلام ولم يجد آثارهما.

تعجب جون، إذ لم يكن ثمة مطر ولا ثلج، والريح ساكنة تماماً.

أضاف مايكل أن فونتانو قد مات أيضاً على الأرجح. لقد سقط خلال عبوره إحدى البحيرات وكسر ساقه. تحتم عليهم أن يتركوه. ولم يستطع أن يعثر عليه خلال عودته.

حالف الحظ مايكل، وعثر على ذئب ميت، على الأرجح قتلته طعنة من قرن أحد حيوانات الرنة، وقد أتى بلحم الذئب معه. التهموه بنهم، وامتدحوا الهندي الأحمر بشدة. طلبَ بلطة حتى يحضر المزيد. عندما انصرف، استغرق جون في التفكير وبدأ يحسب.

- من أين أتى مايكل بكل هذه الذخيرة؟ ليس من المحتمل أن يكون ريتشاردسون قد ترك له كل هذه الكمية. ولماذا يحمل الآن مسدسين؟

عندما عاد مايكل ووضع أمامهم المزيد من لحم الذئب، سأله جون عن المسدس. أجاب مايكل أن بلتير أهداه إياه.

واصلوا الأكل بنهم، وقالوا: إنهم يشعرون أن عظامهم البائسة تستعيد قواها. لكن جون واصل التفكير بجهد كبير: حاول أن يتذكر شيئاً. بعد برهة خرج من الخيمة حتى يستعيد أمام عينيه صوراً باطنية دون إزعاج. عندما عاد، قال:

- لم أنتبه إلى التفاصيل على نحو كاف! أكاد أقسم أنه مسدس بيلانغر.

مذعورين حملق الآخران فيه فوراً.

سألهما مايكل بصوت متوسل:

- أتظنان أنني قتلته؟ ليس صحيحاً!

وفجأة وضع يده على أحد مسدسيه.

قال هيبورن:

- لا، لا، لا أحد يفكر بهذا، لماذا تعتقد ذلك؟

هدأت الكلمات من روع الهندي الأحمر.

لكن لم يعد يريد أحد تناول شيء من لحم الذئب.

طوال أيام لم يسمح مايكل للبريطانيين بأن يتحدثا على انفراد. فإذا فعلا ذلك في حضوره، تحتم عليهما أن يختارا لغة كلغة العبيد: كان عليهما أن يقولا شيئاً يفهمه، ولا يثير ريبته، وفي الوقت نفسه الإنباء بشيء لا يفهمه:

- هل لقيت ذئاب أخرى مصرعها بالطريقة نفسها؟

لم يجرؤ أحد على نطق اسمي بيرول وفونتانو. أو:

– لو فقد حيوان الرنة خوفه من الذئاب، لقتل عدداً أكبر.

لكن مايكل كان يحدس حدساً ضبابياً بما يظنانه ويخشيانه. امتنع عن الذهاب إلى الصيد، وفي كل يوم كان سلوكه أكثر طغياناً من سابقه. أملى عليهما مكان نوم كل منهما. وحتى دون أن يتبادل أحدهما كلمة مع الآخر، كان الرجلان الأبيضان يعرفان: لو كان مايكل يعرف الاتجاه الصحيح، ولو كان يعرف كيف يستخدم البوصلة، لكانا قد انتقلا إلى الرفيق الأعلى منذ فترة طويلة، ليس هذا فحسب، بل لكانا قد أصبحا طعاماً له.

– لمَ لا تذهب إلى الصيد يا مايكل؟

لكنه كان يرفض.

– لا غابة هنا. علينا أن ننطلق فوراً إلى بحيرة الشتاء. يمكننا إحضار مستر هوود فيما بعد.

أمعن جون في التفكير، ثم قال:

– طيب. لكن علينا في البداية أن نجمع غذاء وحطباً له، فهو لا يستطيع الحركة.

راح جون يتصيد فرصة؛ كي يتفق مع هيبورن. وافق مايكل على كلامه. وغادروا جميعاً الخيمة، وساروا في اتجاهات مختلفة.

انهمك جون في قطع الحطب بأعلى صوت ممكن؛ حتى يعرف هيبورن أين مكانه، ثم سمع من اتجاه الخيمة طلقة رصاص. وصل مع هيبورن في الوقت نفسه، فوجد هوود ميتاً بجانب النيران. ثقبت الرصاصة جمجمته وخرجت من الناحية الأخرى. وقف مايكل بجواره.

– مستر هوود كان ينظف بندقيتي، لا بد أن رصاصة انطلقت عندئذ.

دفنوا هوود بصعوبة، وذلك بأن غطوه ببعض الثلوج. لم يعد جون وهيبورن في حاجة إلى التفاهم: لماذا ترك مايكل سلاحه، إذا كان قد انطلق للصيد؟ وكيف فكر هوود مجرد تفكير –وهو شبه غائب عن الوعي– في تنظيف السلاح؟ والأهم: لقد دخلت الرصاصة رأسه من الخلف وخرجت من الأمام: مؤخر الرأس به آثار من سواد البارود. أصبح كل منهما منذ فترة طويلة يحمل مسدسه المعمر دائماً، في متناول اليد.

مات هوود، والآن يمكنهم مواصلة الرحلة. فكوا الخيمة، وحدد جون الاتجاه. حتى المساء لم يسيروا أكثر من ميلين بسبب قدم جون الملتوية. كان طعامهم أجزاء من معطف هوود المصنوع من جلد الجاموس. لم يدعهما مايكل يغيبان عن نظره لحظة واحدة.

طرح مايكل السؤال المرة تلو الأخرى:

– كم ميلاً أمامنا؟ وفي أي اتجاه تقع القلعة؟

قال جون:

– ما زالت بعيدة.

لكن بعد ثلاثة أيام كان لدى مايكل يقين، بأنه رأى صخرة لا تبعد عن قلعة إنتربرايز بأكثر من مسيرة يوم. هز جون رأسه وقال:

– مستحيل.

في صباح اليوم التالي زحف الهندي الأحمر مبكراً خارجاً من الخيمة، وأخذ أسلحته معه. قال: إنه يريد أن يجمع بعض «أحشاء الصخور». لم يكن مستعداً لذلك قط منذ أن تقدمهما في المسير. أجاب جون:

– يسعدني ذلك.

وأضاف هيبورن:

- أنت إنسان طيب، وصديق.

انتظرا إلى أن ابتعدت خطواته في الخارج. قال هيبورن:

- لا يريد سوى أن يعمر سلاحه، فهو فارغ! عندما يعود، ينبغي أن نتصرف بسرعة!

بعناية فائقة راح جون يعمّر مسدسه، كأنه يفعل ذلك مرة أولى في حياته. قال هيبورن:

- لقد أكلنا من اللحم، سنكون شركاءه إذا لم نقتله بسرعة!

أجاب جون:

- أول مرة تقول كلاماً فارغاً يا هيبورن. إنه يريد قتلنا، هذا هو السبب، لسنا في حاجة إلى أسباب أكثر!

لكن هيبورن كان لا يزال يخشى ألا يضغط جون على الزناد فعلاً.

- سأفعل أنا ذلك مكانك يا سير، الأمر أسهل بالنسبة إلي!

مد جون ذراعه على مستوى الكتف في اتجاه المدخل، لكنه أخفى يده خلف بعض المتاع حتى لا يراها مايكل عندما يدخل. باستدارة ضئيلة يمكن تصويب المسدس على رأسه بمجرد ظهوره. على هذا الوضع ظل جون، متخشباً ومترقباً. قال لهيبورن:

- لا، سأفعل ذلك بنفسي. عشر سنوات حرب، ماذا تعتقد أني كنت أفعل خلالها؟ المرء لا يقتل دائماً إلا خطأ.

لم يفهم هيبورن، فسأله:

- خطأ؟ وذراعك يا سير؟

- أستطيع أن أمد ذراعي في الهواء ساعات. أستطيع ذلك منذ أن بلغت الثامنة. سوف يتسلل إلينا ثم ينصت. علينا أن نتحدث بصوت عال كلاماً لا يثير الريبة، وإلا أطلق النار علينا من الخارج عبر جدار الخيمة، إذا لاحظ أننا نوي شيئاً.

- سيكون اليوم يوماً حسناً، سير! أعتقد أن الطقس ملائم أيضاً.

وبصوت خافت أضاف:

- إني أسمعه!

تنحنح جون، وقال:

- إذن، فلننهض يا هيبورن. سأحضر بعض الحطب....

في اللحظة نفسها ظهر مايكل في مدخل الخيمة، وسلاحه على مستوى الخصر، ثم صوّب على جون. انتزع هيبورن سلاحه، فأدار مايكل ماسورة البندقية تجاهه. هذه الصورة ظلت ثابتة في عيني جون. ولم ينتبه إلا عندما أمسك هيبورن بيده وظل متشبثاً بها فترة طويلة. طوال دقائق لم يتبادلا كلمة. ثم تحدث هيبورن:

- لقد أصبته في جبهته، سير. لم يعانِ، بل لم يفهم حتى ما حدث.

أجاب جون:

- لقد استغرقت هذه الرحلة أسبوعاً أطول من اللازم.

في اليوم التالي رأيا القلعة رابضة على ضفاف البحيرة.

في الكوخ الخشبي وجدا أربعة هياكل بشرية حية لا تكاد تستطيع النهوض: د. ريتشاردسون، وآدم، وبلتير، وساماندر. لا مؤن، ولا حتى شيء يقيم الأود! كانوا قد أعملوا سكاكينهم في غطاء من جلد الرنة ملقى

في المكان منذ نصف عام، وأكلوا الأحذية التي حملتهم حتى هنا. سأل جون:

- أين الباقون؟

حاول الطبيب أن يجيب. نصحه جون ألا يتحدث بصوت القبور هذا. تشبث ريتشاردسون بأصابعه التي تشبه أصابع العنكبوت في العرق الخشبي الأوسط ونهض، وحدق في جون بعينين جاحظتين، وبصوت متحشرج قال:

- عليك أولاً أن تسمع نفسك يا مستر فرانكلين!

لم يعثر ريتشاردسون إلا على رسالة من باك. «لا طعام ولا هنود حمر هنا. سأواصل تجاه الجنوب حتى أعثر على بشر. بوبارلان مات، وأغسطس مفقود. باك». كان فنتسل هناك أيضاً، وقد أخذ الخرائط معه، لكنه لم يفِ بوعده، ولم يجمع أي مؤن.

زحف هيبورن خارجاً، وحاول أن يصطاد حيوانات برية. حالفه الحظ وعاد بطائرين من فصيلة الحجل الرمادي. بنهم التهم الرجال الستة اللحم النيء الذي لم يزد عن قضمة لكل منهم. كان ذلك في التاسع والعشرين من أكتوبر.

لم تنته الرحلة بعد.

كان بلتير وساماندر يحتضران. ولم يعد آدم يستطيع النهوض، ولا حتى الزحف. تورم نصفه السفلي، وعانى من آلام شديدة.

جلس الطبيب عند النيران الضئيلة التي أشعلها هيبورن، وراح يقرأ بصوت عال من الإنجيل. كان ذلك أمراً غريباً وعجيباً وجنونياً: لقد جلس رجل في وسط القطب الشمالي، وراح يتلو بصوت متهدج، لا يكاد المرء

يفهمه، جملاً غريبة من كتاب شرقي عتيق، لم يكد المرء يفهم منه شيئاً كذلك. بالرغم من ذلك، كان هذا عزاء للجميع. كان بإمكانه أيضاً أن يطقطق أصابعه عاقداً الأمل على النجاة من خلال ذلك؛ إذا كان هو يؤمن بذلك، فإنه يمنح الآخرين عزاء أيضاً.

على انفراد أطلع جون د. ريتشاردسون على ما حدث. نظر كل منهما بعينين جاحظتين طويلاً في وجه الآخر، وقد مالا إلى الأمام وهما يسعلان، بدا كل منهما مثل السكارى البائسين الطاعنين في العمر في حانات لندن. وأخيراً همس الطبيب:

- لو كنت مكانك، لفعلتها أيضاً يا مستر فرانكلين. ولكن صلِّ الآن، صلِّ!

ناقشا الوضع. لقد شرع كل منهما يفقد رشده ببطء. لكن، كلاهما كان يعلي دائماً من قدرته على التفكير مقارنة بالآخر؛ لذا تحدثا بنبرة مهدئة، وصبور إلى أقصى حد، وبأسلوب بسيط، وكانا يكرران كثيراً كل شيء؛ لأنهما ينسيان ما قالاه بالفعل.

كل شيء متوقف الآن على باك.

في ليلة الأول من نوفمبر توفي ساماندر، وعندما عرف بلتير ذلك، فقد أمله نهائياً، ومات بعده بثلاث ساعات. بلغ الهزال بالآخرين حداً جعلهم عاجزين حتى عن حمل الجثث خارج الكوخ.

حاول هيبورن وجون -وكل منهما لم يعد يتحرك إلا زحفاً- الحصول على بعض «أحشاء الصخور» والحطب، لكنهما كانا يقعان مغشياً عليهما المرة بعد الأخرى، إلى أن عادا بغنيمة بائسة. منذ فترة طويلة كانوا قد بدؤوا

في حرق كل قطعة خشب يستطيعون الاستغناء عنها: الأبواب الداخلية، والأرفف، والألواح الخشبية في الأرضية، وخزانة الملابس.

كان آدم يرقد على فراش الموت. منذ أيام لم يعد يتكلم، ولا حتى يغير من رقدته لتكون أكثر راحة. قال جون:

- سيأتي!

همس ريتشاردسون:

- مَن؟

- باك. جورج باك. ضابط الصف جورج باك. ألا تفهمني يا دكتور؟

توقف عن الكلام؛ لأنه لاحظ أن ريتشاردسون نفسه يتحدث منذ برهة، كلا، كان يفح فحيحاً. ثم راح يكرر ما قاله:

-.... رحيم. وسينتهي كل شيء على أفضل ما يكون.

سأله جون:

- منَ؟

حرك ريتشاردسون رأسه إلى السقف قائلاً:

- العلي القدير.

همس جون:

- لا أعرف. إنك تعلم، أنا....

رقدا ملتحفين ببقايا الفراء، انطفأت النيران، وراحا ينتظران الموت. وفاحت في الأجواء عفونة.

في السابع من نوفمبر وصل أكايتشو، زعيم هنود منجم النحاس، ومعه عشرون مقاتلاً، إلى قلعة إنتربرايز التي غطتها الثلوج تماماً. رغم أن ضابط

الصف جورج باك قد نحل حتى أضحى هيكلاً عظمياً، فإنه نجح بإصرار عظيم في قطع الطريق إلى أن وصل إلى خيام القبيلة، واستغاث بزعيمها. رغم الصقيع القارس وكتل الثلوج التي يستحيل التغلب عليها تقريباً، فقد شق أكايتشو طريقه من بحيرة العبيد حتى بحيرة الشتاء في خمسة أيام فقط، فوجد فرانكلين ود. ريتشاردسون وهيبورن وآدم ما زالوا على قيد الحياة.

في البداية امتنع الهنود الحمر عن دخول الكوخ مادامت جثث الأموات هناك. قالوا: إن مَن لا يدفن ميتاً؛ فهو نفسه ميت، ولا يحتاج إلى مساعدة.

وحده فرانكلين كان قادراً على إدراك المشكلة. احتاج إلى ساعة ونصف حتى يجر الجثامين عبر الباب إلى الخارج، ثم يغطيها ببعض الثلوج بجوار المدخل. وبعدها انهار فاقد الوعي.

قُدم للناجين بيميكان وبعض الشراب. منع الطبيب الآخرين من الأكل بسرعة ومن الإفراط فيه، لكنه هو نفسه لم يستطع الالتزام بتعليماته. لم يمر وقت طويل حتى شعروا بالمغص، ولم ينجُ منه سوى فرانكلين؛ لأنه بعد هذا المجهود الكبير كان يشعر بالوهن إلى درجة أنهم أطعموه، وهو ما حدث بحذر كبير. مكث الهنود الحمر مع الناجين إلى أن انطلقوا معاً بعد عشرة أيام في طريقهم إلى قلعة بروفيدنس.

توفي أحد عشر رجلاً. إضافة إلى البريطانيين الأربعة لم يعش سوى: بينوا، وسولومون بيلانغر، وسان جيرمان، وآدم، وأغسطس الذي ظهر مرة أخرى في الآونة الأخيرة، ولم يكن بمقدوره أن ينقذ أحداً من الموت، ربما، ولا حتى أن ينقذ نفسه. وحده باك مع الهنود الحمر كانوا المنقذين.

قال ريتشاردسون:

– بعد رحلة كهذه، ستمضي بقية العمر بسرعة بالغة.

هموم أخرى كانت تشغل بال فرانكلين. كان من الممكن في رأيه ألا يكلفوه بعد ذلك أبداً برحلة إلى القطب الشمالي، ولا- حتى- بالقيادة عموماً. لا هو وجد الممر الشمالي الغربي، ولا وصلت سفينة بارتي إلى البر. إنهم حتى لم يستطيعوا أن يقيموا علاقات مع الإسكيمو. استغرق جون طوال ليال يفكر في الأخطاء التي أدت إلى موت كل هذا العدد من البشر. كان من الخطأ الاعتماد على فنتسل. لكن ذلك لم يكن كل شيء. أكان عليهم العودة بعد المقابلة الفاشلة مع الإسكيمو؟ كلا. كان بإمكانهم أن يجربوا حظهم مع إسكيمو آخرين. أكان عليه أن يأمر بالقتل الفوري لكل من يُصاب إصابة جسيمة تهدد حياته، أو لكل من يدمر شيئاً حيوياً، أو كل من يسرق أو يختلس؟ كلا. كان نظام «الوفاء مقابل الثقة» سيصل إلى نهايته على نحو أسرع، ولم يكن بالإمكان مطلقاً إيجاد نظام آخر. أكان عليه أن يحضر معه من إنكلترا صيادين أكثر مهارة، أشخاصاً يعرفون كيف ينجو المرء في هذه البرية الباردة؟ ولكن من ينبغي أن يكون هؤلاء؟

قال لريتشاردسون:

- النظام كان صحيحاً، لكن كان علينا أن نتعلم أشياء أكثر في الوقت المناسب. أنا الذي ارتكبت أخطاء. بالرغم من ذلك كان من الممكن أن يحالفنا الحظ، لكنه لم يحالفني. النظام صحيح. أود أن أبرهن في المرة القادمة بشكل أفضل على صحة النظام.

بإيماءة متأملة أجاب ريتشاردسون:

- الأمر مشابه لما حدث لنظامي.

برغم سخريته كانت يتحدث بحب:

- على كل حال، لن أفكر بعد ذلك أبداً في مقارنتك بقبطان سفينة بلوسوم!

واصل فرانكلين أفكاره:

- سيُحبط القادة في الإدارة البحرية لعدم تحقيق أي نجاح. سيظنون أنني لست الرجل المناسب. وهذا صحيح أيضاً.

صمتَ، ثم أضاف:

- لكن، إذا نظرنا إلى كل شيء من وجهة نظر أخرى تماماً، فإنني الرجل المناسب، ولا يمكن الحصول على شخص أفضل. سأساعد قادة الإدارة البحرية على إدراك ذلك.

استجمع فرانكلين شجاعته مرة أخرى. لقد ظل يثق بنفسه حتى في أسوأ اللحظات. لا الخوف ولا اليأس استطاعا أن يصيباه بالشلل. لقد كان أقوى من أي مرحلة سابقة في حياته.

الممر الشمالي الغربي، البحر القطبي المفتوح، القطب الشمالي. سوف يصل في رحلاته القادمة إلى هذه الأهداف الثلاثة، سواء مع الإدارة البحرية أو بدونها، ولن يموت تحت قيادته أحد من الجوع بعد اليوم أبداً، هذا شيء مؤكد كالتاج البريطاني.

الفصل الخامس عشر

الشهرة والمجد

أصبح ميناء الساعة في لندن أبيض. وكثير من الساعات زودت بعقرب الثواني الذي لم يكن يوجد في السابق إلا في كرونوميتر السفن. أصبحت الساعات أكثر دقة، وكذلك البشر. كان جون سيرحب بذلك، لو كانت الثمرة مزيداً من التمهل والاتزان. لكنه لا يلاحظ في كل مكان سوى ضيق الوقت والاستعجال.

أم أن أحداً لم يعد يريد أن يضحي بوقته من أجله هو؟ كلا، لا بد أنها موضة عامة. أصبحت اليد تمتد إلى سلسلة الساعة أكثر منها إلى القبعة. لم يعد أحد تقريباً يسمع سباباً ولا لعنات، لقد حلت محلها صيحة: «لا وقت لدي!».

شعر جون ببعض التعجب. إلى ذلك، شعر بأن لديه شخصياً وقتاً وفيراً، إذ لم يكن في الأفق تكليف جديد بالقيادة.

لقد استقبلوه بالسخرية واللوم. الدكتور براون مقتضب في كلامه، السير جون بارو غاضب حانق، ديفيس غيلبرت، الرئيس الجديد للجمعية الملكية بعد وفاة السير جوزيف، لطيف لطفاً ثلجياً. وحده بيتر مارك روجيه

كان يزوره بين الحين والآخر في شقته؛ كي يتحدث معه عن البصريات والكهرباء والبطء، وعن أفكار جديدة بشأن تصميم الميوتوسكوب. تجنب الحديث عن المغناطيسية، على الأرجح بسبب مغناطيسية القطب الشمالي. المرء يتحمل بصعوبة هذه المشاعر المرهفة. معظم الوقت قضاه جون مستغرقاً في التفكير، وهو يجلس خلف نافذته في «فريث ستريت» رقم 60 في سوهو، مطلقاً العنان لأفكاره حول المسار الممكن للممر الشمالي الغربي، وكيف يستطيع تعويض ما فاته، واستكمال حياته بناء على الدروس المستفادة. في المنزل المواجه له كانت امرأة عجوز تنظف نافذتها عدة مرات في اليوم، وأحياناً -حتى- في الليل؛ كأنها تريد قبل أن تموت، أن تنتهي من شيء واحد لا يستطيع أحد أن يجد فيه عيباً أو نقصاً.

ساعده الخروج إلى الشارع كثيراً. أطلق جون على ذلك: السير إلى سطح السفينة. تجول وسط لندن، ووضع أهدافاً نصب عينيه حتى ينسى برهة الثلوج والجليد والجوع والرحالة الموتى. شاهد المنازل الجديدة: بها عدد نوافذ أقل بسبب الضريبة التي تُجبى على مساحة النوافذ. درس كل الجسور الحديدية: تصدر العربات التي تجرها الخيل ضجيجاً مزعجاً عندما تمر فوقها. ثم وضع ملابس النساء تحت مجهره: الخصر في الملابس هبط إلى منتصف الجسد مرة ثانية، وبدا مشدوداً أكثر. انتفخت التنورات والأكمام، كأن النساء يردن في المستقبل أن يشغلن مكاناً أكبر مما سبق.

كان جون يخرج في الليل أيضاً؛ إذ كثيراً ما جافاه النوم. عدة مرات اعترضته نساء صاخبات عرضن عليه أن يحتسي زجاجات من الجنيفر

على حسابهن. لم يجرؤ قطاع الطرق على الاقتراب منه. امتلأ جسده ثانية، وأصبح قوياً وثقيلاً مثلما كان قبل الرحلة.

في الصباح الباكر، ذات يوم أحد، راقب في هايد بارك سيدين يتبارزان بالمسدسات. كان تصويبهما بائساً، وربما لم يكن عن عمد: بإصابات طفيفة أنهيا المبارزة. في العصر شاهد ثلاثة بحارة سكارى يجدفون قاربهم تحت جسر لندن، لكن الأمواج كانت أقوى منهم. اصطدم القارب بأحد أعمدة الجسر، فتحطم، وغرق الجميع. وفجأة تجمع الناس، وكان لديهم وقت للفرجة! ضيق الوقت لم يكن سوى موضة، وها هنا الدليل.

في أحد الأكشاك، مقابل بنس واحد، يمكنه أن يطالع الصحف واقفاً: اليونانيون ينتفضون في مواجهة الأتراك. الصين تمنع تجارة الأفيون. الباخرة الأولى في سلاح البحرية، تحتم عليه أن يضحك. لا يحتاج المرء إلا إلى ضرب أحد دواليب التجديف بالرصاص، عندئذ ستدور حول نفسها وتصبح هدفاً ممتازاً للعدو. ثم الإصلاح البرلماني! كلمات كثيرة مؤيدة، وأخرى معارضة. ودائماً يدور الكلام حول الاستعجال وحول الزمن: تطبيق إصلاحات سريعة قبل أن يفوت الأوان! خنق الإصلاح بسرعة قبل فوات الأوان!

ذهب جون مرتين إلى آل غريفين. لكن جين الجميلة - هكذا سمع- تقضي معظم أوقات العام في رحلات تثقيفية في مكان ما في أوروبا.

ماذا يفعل؟ أين يبدأ؟

جلس أيضاً في المقاهي. هناك يحصل المرء في كل وقت على حبر وريشة وورق، إذا خطر على باله شيء مهم. لم يخطر على باله شيء، بالرغم من ذلك كان يطلب في كل مرة أدوات الكتابة ويحملق في الورقة

البيضاء، ويفكر: إذا جاءتني فكرة مهمة، سأدونها. إذن، ربما يكون العكس أيضاً صحيحاً: عندما يكون لدي أدوات الكتابة، ستجيء فكرة مهمة. وهذا ما حدث أيضاً، فجأة هبطت الفكرة. تراءت له منهورة، لكن ذلك يزكيها، لا سيما أن ما ينويه يشبه رحلة طويلة. الفكرة هي: الكتابة. عقد جون النية على كتابة كتاب لتبرير ما فعل، كتاب سميك يقنع كل المتشككين في نظامه. ولأنه يعلم أن الإرادة البشرية طائر طليق، دوّن فكرته فوراً. كتب على الورقة البيضاء: «**تقرير عن رحلة إلى سواحل البحر القطبي، ليس أقل من مئة ألف كلمة!**» كان ذلك بمثابة إنقاذ للرحلة في الدقيقة الأخيرة؛ إذ إن رأسه بدأ فوراً في جمع الحجج. على سبيل المثال: جون فرانكلين، إذا كنت تتقن شيئاً، فهو كتابة الكتب!

الكلمات الأولى هي بالتأكيد الأصعب.

«في يوم الأحد، الموافق الثالث والعشرين من مايو 1819، سار رجالنا بكامل عددهم....».

«رجالنا؟». لقد ركبوا السفينة بمحض إرادتهم، وليس لأنهم تابعون لنا. لذا فضل أن يكتب «رفقاء السفر». كلا، «الرجال تحت قيادتي». لكن هذا ليس صحيحاً أيضاً؛ لأن الجملة لا تشمله هو، لقد استقل في الوقت نفسه سفينة «برنس أوف ويلز». «أنا والرجال» لم تعجبه، وكذلك «الرجال وأنا». «صعدنا السفينة كاملي العدد» ليست دقيقة، «مجموعة المسافرين كلها بمن فيهم شخصي»: هذه جملة تنفر من القراءة. «في يوم الأحد، الموافق الثالث والعشرين من مايو 1819، أبحرت السفينة تحت قيادتي....»، نعم، ثم؟

قال الرأس: ألق ما كتبته في القمامة يا جون فرانكلين، ستفقد عقلك

خلال الكتابة! أما الإرادة فراحت تردد برتابة: واصل، واصل! أما جون فقال لنفسه:

– لقد استقر رأيي على نحو عشر كلمات تقريباً!

راحت المرأة تنظف نافذتها، وجون يؤلف كتابه. يوماً بعد يوم. حتى الآن دوّن ما يربو على الخمسين ألف كلمة. وصل حتى اللقاء الأول مع أكايتشو وهنود منجم النحاس. الكتابة منهكة، لكنها مثل الرحلة بالسفينة: إنها تولد طاقات وآمالاً، مطلوبة من أجل ذاتها، غير أنها تكفي أيضاً لأشياء أخرى في الحياة. مَن يكتب كتاباً؛ لن يشعر باليأس على الدوام. وكل إحباطات الصياغة اللغوية يمكن الانتصار عليها بالاجتهاد. في البداية عانى جون كثيراً من التكرار. طوال حياته كان يرفض أن يستخدم للشيء الواحد كلمات كثيرة؛ لذا كان يفرق بين الكلمات اللازمة والكلمات الفائضة عن الحاجة، وكان يجعل قاموسه اللغوي متقشفاً إلى أقصى حد. أما الآن فقد كان يحدث أن تتكرر كلمة عشرات المرات في الصفحة الواحدة، مثل فعل «يوجد» عندما يحصي النباتات القطبية. حتى في الليل كان ينهض مفزوعاً، ويبدأ في البحث عن كلمات متكررة، كأنه يبحث عن حشرات عنيدة تسلبه النوم.

شيء آخر أزعجه في البداية: كلما زادت حماسته لكتابة خبراته الحقيقية، راوغته، وبدا أنها تهرب منه. الأشياء التي خبرها تحولت عبر الصيغ اللغوية إلى شيء، كان حتى هو يراه مثل صورة. ضاعت الألفة، في حين عادت جاذبية الغريب. بعد مرور بعض الوقت شرع جون يرى في ذلك مزية لا عيباً، بالرغم من أن وصف المألوف –بالنسبة إلى هدف الكتاب– يخيب الآمال في الحقيقة.

«صعد الزعيم التل بمشية لائقة، ذات هيبة، من دون أن ينظر يميناً أو يساراً» - ترك جون الجملة على حالها، مع أنه يعرف أنها لا تقول سوى القليل عن مشاعره آنذاك، في تلك اللحظة، عن الموقف الضبابي الذي جعل صدره ينقبض، وعن الأمل الغريب الذي بثه الزعيم في نفس جون من الوهلة الأولى. بالرغم من ذلك كانت جملة يمكن استخدامها؛ لأن كل شخص يستطيع، أو يجب عليه أن يضع فيها مشاعره الخاصة.

وهكذا أثمرت إحباطات الكتابة شيئاً جيداً في النهاية: عمل جديد يتقنه جون؛ لأنه كان يصل به إلى الممكن، ويدع جانباً غير الممكن. عندما كتب نحو خمسة عشر ألف كلمة، كان قد وصل إلى أهدافه:

يجب أن يُكتب الكتاب -إذا كان الهدف منه أن يبرئ ساحة المؤلف- بشكل جيد. هذه مسألة وقت، لا أكثر.

يجب أن يكون بسيطاً؛ حتى يفهم أكبر عدد من الناس كم كانت الرحلة جيدة.

يجب أن يتعدى ثلاثمئة صفحة؛ حتى يمسكه بفخر كل من يقتنيه.

ماتت العجوز. ظلت نافذتها طوال أربعة أيام أكثر نظافة من كافة النوافذ الأخرى، وبفارق واضح. حزن جون، فقد كان يود أن يهديها نسخة من كتابه بعد أن يكمله. مساءً جلس في شقته، وفكر فجأة في أن تقريره قد يضجر القراء. قرر أن يزور إليانور، الشاعرة. أراد أن يسألها كيف يمكنه أن يكتب كتاباً لا يضجر أحداً.

سألته:

- ما مقدار ما كتبت؟

- اثنين وثمانين ألف كلمة وخمسمئة كلمة.

ضحكت وقفزت من مكانها، فأمسك جون تلقائياً خصرها وأوقفها. لم يكن ينبغي أن يفعل ذلك؛ إذ إنها ألزمته في تلك اللحظة بأن يشارك في حلقتها الأدبية يوم الأحد. حاول أن يتملص بكل السبل، تحجج بعمله، وادعى -حتى- أسباباً دينية تمنعه منعاً باتاً من حضور أنشطة أدبية في يوم الأحد، لكن كل ذلك لم يجدِ نفعاً؛ لم تصدق كلمة واحدة مما قاله.

دائرة إليانور كان اسمها «الخبيئة». كانت الأجواء لديها إغريقية جداً. الجدار مكسو بقماش عليه أطلال معابد ومسارح رومانية وأشجار زيتون. أشكال متعرجة وملتفة كانت تزين كل كرسي مبطن، أما رقعة الشطرنج فتربعت على أحد الأعمدة الكورنثية. ولم تغب عن القاعة رؤوس مرمرية عليها أكاليل الغار. عديد من الأعضاء المجتمعين كانوا يودون أن ينتقلوا قريباً إلى الرفيق الأعلى، والأفضل أن يكون ذلك في بلاد الإغريق، أو في روما إذا اضطروا إلى ذلك. أدرك جون ذلك فوراً، فهذا ما كرروه عدة مرات.

تلت عليهم إليانور قصيدة، ثم فعل ذلك شاعر آخر يدعى إليوت، وأخيراً أعطى رجل أصلع، اسمه شارب، الحاضرين شروحاً وتفسيرات قبل القراءة وبعدها. الأرجح أنهم أطلقوا عليه لذلك «شارب المتحاور». بعد القراءة كان أحدهم يقول شيئاً، وقد غلب عليه التأثر، وكل الصامتين تبدو عليهم الموافقة، أو كانوا على الأقل يبحثون دون جدوى عن حجج معارضة لما قيل. قلدهم جون، واستحسن الأمر. كانت القصائد، وكذلك الأحاديث، تدور حول الشعور والمادة. تحدثوا عن الأسس الكهربائية للتعاطف، وعن الجزيئات النارية الموجودة في المادة التي تعطي كل الأشياء طبعها المميز. ثمة نظرية جاءتهم من بريسلاو، تقول: إن قطعة

الماس ما هي إلا حصاة وصلت إلى جوهرها. لا يكفي يوم أحد واحد للتفكير الدقيق بشأن هذه المعارف والتكهنات، ناهيك عن مناقشتها. شعر جون بالسعادة البالغة؛ لأن أحداً لم يسأله عن شيء، غرق في الصمت، وراح يراقب الآخرين بتعجب متزايد؛ إذ لم يستطع أن يصل إلى مصدر هذه الحيوية الكبيرة.

وفي النهاية توصل إليه: لا بد أنها لعبة! كلهم يلعبون اللعبة نفسها، وكل منهم بطريقته.

ثمة أشخاص يتحدثون عن أنفسهم بحماسة وبصوت عال، مثل إليانور. هذا ما يمنحهم حيوية تُصعّب على الآخرين أن يقاطعوهم. وثمة آخرون يقولون في نهاية كل جملة «و»، ولكن قبل أن يستكملوا كلامهم، كانوا لا حول لهم ولا قوة أمام أولئك الذين يعرفون كيف يقتنصون كل فترة صمت، ليتدخلوا بملاحظاتهم قبل الـ«و».

يبدو أن القاعدة الأساسية، هي: الإمساك بزمام الحديث والتحدث أطول فترة ممكنة.

كان مستر إليوت يميل برأسه ميلاً حاداً خلال الإصغاء، حتى إنه كان يشبه ملاحاً يميل قاربه الشراعي بحدة عند هبوب الريح القوية. بعد فترة بدأ يومئ موافقاً، ويزيد من إيماءاته إلى أن يصمت الآخر؛ حتى يحصل على كلمات تعبّر عن الموافقة. لكن ما يجيء بعد ذلك كان انتقاداً. أو ميس تاتل. كانت تبدأ الإصغاء بهامة مرفوعة، لكنها كانت تهبط شيئاً فشيئاً إلى أن تصل إلى ياقة بلوزتها. عندئذ، على أقصى تقدير، كانت تبدأ رغماً عنها في التحدث، سواء انتهى الآخر من كلامه أم لا. وهكذا دخل كل متحدث في سباق مع رأس مس تاتل، واجتهد العصبيون؛ كي يختصروا كلامهم، وقد سيطر عليهم الخوف.

لم يرد جون أن يتحدث، لذلك كان يقف خارج اللعبة، وكان بمقدوره أن يتأملها هادئاً مسترخياً. لكن سرعان ما انتهى الاسترخاء؛ لأن مستر شارب سأله عن مسار رحلته - مرة ثانية، لم يلحظ ذلك إلا بعد أن نبهه الآخرون. وفوراً لم يعد أحد يقول شيئاً، وانتظر الجميع كلمات جون. والآن، كان عليه أن يلقي متعثراً في هذا الصمت المزعج جمله الفقيرة، المفعمة بالتكرار. وكلما شعر بالخجل، نظروا إليه جميعاً نظرات أكثر تعاطفاً. كانوا قد سمعوا بالطبع عن فشله في القطب الشمالي، لكنهم حرصوا على ألا يلاحظ ذلك، وتظاهروا بحب الاستطلاع التام والدهشة. اختصر جون الكلام بقدر الإمكان. ولحسن الحظ انتقل الحديث بعد ذلك إلى شيء آخر: إلى اللحظة، وقدرة الفن على تخليدها، كان الكلام يدور حول الصور المرسومة على المزهريات الإغريقية. أثار ذلك اهتمام جون؛ لأنه كان يستطيع تخيل ثمرة ذلك: عبر تجميد عدة لحظات تنشأ الحركة في الصور! أراد أن يقول ذلك للشعراء، لكنهم لم يتيحوا له الفرصة. أخذ نفساً عميقاً ليلقي جُمَله المعدة بعناية، لكن أحداً لم يلتفت إليه. لم يشفق عليه أحد حتى عندما أظهر أنه يكاد ينفجر علماً؛ لذا، تخلى عن نيته، وراح ينظر في عيني إليانور العسليتين الجميلتين، ويتأمل شعرها الملتف برقة على ظهرها، واكتفى بذلك. باستطاعته هو أيضاً أن يثبّت لحظات من الزمن، وربما على نحو أفضل من أولئك الذين يتحدثون عن ذلك.

بعد أن انصرف آخر الضيوف، ظل جون جالساً بعض الوقت. قالت إليانور:

- إنك تثير اهتمامهم؛ لأنك تستطيع قيادة سفينة. بالإضافة إلى ذلك: إن كل الفنانين يُعجبون بشدة بالأشخاص الذين وقفوا مرة على أعتاب الموت. تكفي الندبة في منتصف الجبهة....

سألها جون:

– هل تعرفين الرسام ويليام وستال؟

– أعرف لوحة رسمها. «هبوب الرياح الموسمية». إنه بلا شك موهوب.

أدرك جون فجأة أنها مثله تماماً تعاني من صعوبات كبيرة في العثور على الكلمة الملائمة. لكن ذلك يترك أثراً مختلفاً لديها، –هذا هو كل شيء: «موهوب»– يا لها من كلمة سقيمة لوصف رجل أو لوحة! إنهم جميعاً لا يعثرون على الكلمات الملائمة، لكنهم يتميزون بالسرعة، ويتعاملون مع هذا العيب على نحو يختلف عنه.

استأذن منصرفاً، وسار مرة أخرى إلى فريث ستريت، وانهمك ثانيةً في الكتابة نهاراً وليلاً. حتى يستطيع المواصلة، ألقى لإرادته بصخرة جديدة تتشبث بها: الجملة الختامية، لقد قرر كيف سينتهي الكتاب.

«وبهذا تنتهي رحلتنا الطويلة، المنهكة، سيئة الطالع، في شمال أمريكا، وقد قطعنا خلالها براً وبحراً خمسة آلاف وخمسمئة وخمسين ميلاً» – بهذا، وليس على أي نحو آخر، ينبغي أن تكون نهاية الكتاب!

عندما يتملك التعب جون، كان يسأل نفسه، ما إذا كان يمكن كتابة الجملة الآن. وكخادم مطيع كان يفحص ما كتب، ولم يكن أمامه سوى أن يقر: ليس بعد!

أتى ما تبقى من عام 1823 بثلاثة أحداث لم يتوقعها أحد:

في أغسطس اقترن جون فرانكلين بإليانور بوردن.

وفي سبتمبر أصدر الناشر موراي الكتاب الذي كتبه جون عن الرحلة. كان كتاباً غالياً: عشرة جنيهات ذهبية للنسخة. بعد ثلاثة أسابيع لم يستطع

موراي أن يطبع ما يكفي من النسخ؛ إذ إن العالم كله أراد أن يقرأ الكتاب. فجأة أصبحوا يضعون جون فرانكلين في عداد العظماء والمستكشفين الشجعان. إنه لم يحاول مطلقاً أن يدافع عن نفسه، بل صور الكارثة بدقة، دون أن يُسقِط شيئاً، بل لقد اعترف حتى بضعفه وقلة حيلته. الإنكليز يحبون ذلك. ساد الاتفاق حول أن مثل هذا الضعف، لا يمكن التغلب عليه إلا عبر الأخلاق الإنسانية.

كانوا يتوقون إلى رؤية فرانكلين ينتصر أو ينهزم دون أن يتغير. أما الشكوك التي تحوم حول علمه وقدراته، فقد بدت تافهة وقصيرة النظر. تلقى التكريم من قادة البحرية ومن العلماء واللوردات، وفي غضون أيام قليلة أصبح كل شخص يدعي معرفته منذ سنوات طويلة. في الشهر نفسه أصبح عضواً في الجمعية الملكية، وسارعت الإدارة البحرية لإعلانه قبطاناً رسمياً.

أما الحدث الثالث فقد: جاء بيتر مارك روجيه؛ ليزوره، ويهنئه. في أثناء الزيارة أخبرَ فرانكلين: أنه ليس بطيئاً على الإطلاق. ولم يكن يوماً بطيئاً، إنه إنسان عادي تماماً!

هذا ما حدث. فجأة أصبح عادياً، وفي الوقت نفسه الأعظم والأفضل. وأضحى، مثل ريتشاردسون، يخشى أن يمر ما بقي من حياته سريعاً من دون أن يترك أثراً.

في كل يوم يستقبل تهاني جديدة، وما أكثر ما يكتبون في الصحف! كل يضعه تحت مجهر الدراسة؛ ليتحقق من كنهه ومن حقيقته.

قال لإليانور:

- إنني لا أصلح إلا للمسافات الطويلة. إذا حدثت فوضى مفاجئة مثل هذه، فلا بد أن أتريث.

انزوى، وأقام في سبيلسبي، لينكولنشاير، وهناك راح يمعن التفكير في كل شيء.

تنتظر إليانور طفلاً. على الأقل لم تكتب الصحف بعد هذا النبأ.

التفكير في الشهرة ليس سهلاً على المشهور؛ إذ يقف هو نفسه عائقاً في الطريق. حتى يستطيع التفكير؛ منع فرانكلين نفسه منعاً باتاً من اعتناق فكرة: أن الشهرة تتعلق بقدراته الحقيقية. إن لها بالأحرى علاقة بلفت الانتباه وإثارة الضجة. بالنسبة إلى أهالي لندن كان فرانكلين هو «الرجل الذي أكل حذاءه»، فإذا رآه شخص، خطر على ذهنه فوراً نكتة جيدة عن الجوع والبرد. نعم، هنا مربط الفرس: كل شخص يفكر في شيء ما عندما يسمع حكايته. لذا لم تُتح له فرصة أكبر للكلام من ذي قبل.

كان مستر إليوت قد قال يوماً: «البطل إنسان سيئ الحظ يتمتع بشخصية قوية. إننا في حاجة، في الوقت الحالي، إلى الأبطال أكثر من أي وقت مضى؛ وذلك كمقابل للماكينات». استغل شارب اللحظة التي توقف فيها عن الكلام ليقول: «تفسير شاذ نوعاً ما! إنه الاقتراب من الموت! البطل إنسان يموت شاباً، أو إنسان نجا بحياته عشر مرات، ثم يخاطر بها في المرة الحادية عشرة. ولأن البشر أصبحوا حديثاً كلهم، ما عدا شخصي، يتحدثون بحماسة عن الموت...». كان فك مس تانل قد تدلى، فقالت بصبر نافد: «جيد، هذا أمر لا نستطيع إذن الفصل فيه. الناس يحبون البطل ببساطة! إذا قلت لي كيف ينشأ الحب، فإنك تعرف كل شيء». كان اهتمام فرانكلين بنشوء الحب أقل من اهتمامه بالإجابة عن السؤال: كيف يستطيع أن يعيش سعيداً مع شهرته الجديدة، الزائدة عن الحد؟

قال لفلورا ريد:

– الشهرة قريبة جداً من التفاهة. وكلاهما لا علاقة له بالمجد.

أجابت فلورا: «لا أحسدك مطلقاً! ماذا ستفعل بالمال؟».

استغرق جون في التفكير:

– أفضّل أن أهبه، لكنني الآن رجل متزوج...

– فعلاً!

–... وبالمناسبة، لا بد أن أجهز سفينة بنفسي؛ إذا لم أحصل على تكليف بالقيادة، بالرغم من كل شيء.

استأذنت فلورا وانصرفت. لديها ما تقوم به.

لم يرق لجون أن يُقال، إن طبيعته ليست بطيئة: إنه في حاجة إلى هذه الصفة الآن أكثر من أي وقت. أصدر روجيه تكليفاً بتصميم ماكينة تشبه تلك التي كان يقيس بها د. أورم السرعة. قال له:

– في الماكينة خطأ. إن نتيجة القياس تتوقف على رأي الشخص الذي يقيسون سرعته. إذا أراد أن يكون بطيئاً، فسوف يرى صورة كاملة لدى أدنى عدد من اللفات. وإذا أراد أن يكون سريعاً، فلن يكون راضياً حتى مع عدد اللفات المرتفع. الأمر متروك له متى يقول: «الآن».

ردّ فرانكلين:

– لكن العديد من الناس راقبوا بطئي، كما أنني لم أستطع أن أكون سريعاً، حتى إذا أردت. لم أستطع قط الإمساك بكرة!

– سيدي القبطان، ليس لدي نظرية بشأن عدم قدرتك على فعل شيء ما. ولا أريد أن أتطاول وأضع نظرية. لا أستطيع أن أقول شيئاً إلا عن السبب المحتمل. هل يزعجك ذلك؟

أجابه فرانكلين:

- لا، إنه أمر غير مهم. أعرف أنني بطيء: برلينغاس! فنار برلينغاس منحني البرهان على أنني أسير أبطأ من الآخرين بدورة.

أثار ذلك فضول روجيه، لكنه لم يحصل على البرهان. ببطء غيّر جون الموضوع، وتجاهل كافة المحاولات للرجوع إليه.

الميوتوسكوب أيضاً -الذي تعمق روجيه في دراسة تصميمه- لم يعد يثير اهتمام فرانكلين مثل السابق. لقد منحته الكتابة وجهات نظر أخرى، لكن كان عليه أن يفكر طويلاً، حتى استطاع أن يشرح ذلك لروجيه:

- إنني مكتشف، والمكتشف هو الشخص الذي يرى كل شيء بنفسه على نحو مباشر، يرى كيف تبدو الأشياء وكيف تتحرك. لا أريد أن أترك جهازاً لتقليب الصور يخدعني.

- أترفض إذن الرسم والأدب أيضاً؟

طلب منه فرانكلين الانتظار، وراح يذرع الغرفة عدة مرات ذهاباً وجيئة. ثم أجاب:

- لا، الرسم والأدب يصوران أيضاً كيف تبدو الأشياء، ووفق أي قواعد تتحرك، لكنهما لا يقولان بأي سرعة يحدث ذلك. وإذا ادعيا ذلك على نحو من الأنحاء، فبإمكان المرء التشكيك فوراً في هذا الادعاء. هذا مهم. على الناس أن يروا بأنفسهم المدة التي تستغرقها الأشياء، وبأي سرعة يتغير الشيء.

أجاب روجيه:

- لا أفهم ذلك. أليست هذه حجة ثقيلة جداً في مواجهة آلة بسيطة لعرض الصور بغرض التسلية؟ سوف أوافقك على كلامك؛ إذا كان مثل

هذا الجهاز يحل تماماً محل المشاهدة الذاتية المباشرة. لكن ذلك لن يصبح ممكناً أبداً.

وقف فرانكلين عند النافذة، ووجد صعوبة في الرد. راح يغلق عينيه ويفتحهما، ويغمغم ويدمدم، ويهز رأسه. شرع عدة مرات في الكلام، لكنه كان يفضل في اللحظة الأخيرة أن يمعن في التفكير ثانية. من حسن حظه أن روجيه كان إنساناً مهذباً جداً.

قال فرانكلين:

- ما المدة التي يستغرقها شيء، وكيف تتغير السرعة فجأة، هذا أمر ليس بالثابت، بل يتوقف على الفرد نفسه. لقد عانيت كثيراً حتى أقبل سرعتي الذاتية، وأقبل الطريقة التي يتحرك بها العالم. مجرد توهم شيء واحد قد يكون خطيراً. مثلاً...

صاح روجيه:

- نعم، أعطني مثالاً!

- عندما يُهاجَم إنسان ويُصارِع... السرعة التي يصيبه بها السيف، وما إذا كانت لديه فرصة أساساً عبر الرؤية والحركة! لا يجوز أن يكون هناك ادعاء بصري حول ذلك، ادعاء يبدو كأنه حقيقة. إذا كانت عيني لا تقيس الحركة على نحو صحيح، فإن هذا القياس ينطبق أيضاً على ذاتي وعلى كل شيء.

كان روجيه هو الذي غيّر الموضوع الآن. كانت هذه الحجج والتأملات في نظره مشوشة ملتوية، وقد تعجب من أن يسمعها من جون فرانكلين تحديداً؛ فهو في المعتاد ليس من أصحاب المبالغات.

اشتد المرض بفرانكلين الأب، وراح يتحدث عن الموت. لكنه أدرك أن ابنه حقق شيئاً. همس قائلاً:

- كما كنت أقول دائماً، الذكي هو من يصل إلى شيء. لكن، كلا الأمرين غير مهم. إننا نبدأ كأثرياء، ثم ننتهي كمتسولين.

جاءت إليانور من لندن. هبطت من العربة وهي ملتفة بملابس فضفاضة. كانت تبدو مريضة وشاحبة. انطلق معها فرانكلين فوراً لزيارة الأب في أولد بولينغبروك.

قال الأب له:

- خسارة أنني لم أعد أستطيع رؤية زوجتك. المهم أنها بصحة جيدة!

كان جون يعشق زوجته، وزاد عشقه من قدرته على الصبر، مما جعله يربح قلب إليانور فترة. كانت تتحدث بحماسة عن رقته. كان يصغي إليها، واكتشف أن بإمكانه تحمل كلامها طيلة أيام؛ طالما ثبّت بصره على وجهها وعلى حركاتها. ثم الموضوع الجديد: الأطفال. كانت تريد أن تنجب عدداً كبيراً من الأطفال، فهي تعتبر ذلك شيئاً رائعاً، عتيقاً، أما حالة الضعف التي تلد كل حياة جديدة، فكانت تنظر إليها على أنها أمر خلّاق «وديني على نحو من الأنحاء». نظر فرانكلين إلى الأمر نظرة أبسط من ذلك، لكنه كان يريد أطفالاً أيضاً. كان العرس مجهداً بعض الشيء. حاول فرانكلين أن يتعلم رقصة «الكادريه». حفظ كل شيء عن ظهر قلب، باستثناء خطوات الرقصة، ودرجات القرابة العائلية. لكن، لم يكن ثمة مفر من كلا الأمرين في حفل زواج. في معظم الوقت لم تُعزَف سوى موسيقى الفالس الفييناوية، وهي أرض بكر تماماً بالنسبة إليه. بدافع من الحب حاول بالرغم من ذلك.

منذ أن نمت شعبية فرانكلين، فتُر حب إليانور. كانت قد نشرت ملحمة

شعرية من عدة أجزاء، مملة بعض الشيء، عن ريتشارد قلب الأسد، غير أن مبيعاتها كانت متوسطة فحسب، رغم أن الباعة في المكتبات كانوا دائماً يقولون: إن الشاعرة هي «زوجة الرجل الذي أكل حذاءه». كل هذا لم يكن جيداً لحب شاعرة. بدأت إليانور تبدي استياءها وتذمرها، ولم تعد تقفز ولا تضحك.

لكنهما الآن ليسا في لندن! كان فرانكلين يأمل أن يربح قلبها هنا إلى الأبد، لنفسه، ولهذه المنطقة الهادئة، ولأهل سبيلسبي وهورنكاسل المجانين. كان يتمنى أن تسكن معه في أولد بولينغبروك، وأن يكبر هنا كل الأطفال الكثيرين الذين ستنجبهم.

لكن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن. كانت لينكولنشاير في عيني إليانور ريفية جداً، واللهجة ثقيلة جداً، والمناخ مضر بالصحة، أما الطبيعة فكانت تراها مرة مسطحة جداً، ومرة مليئة بالمرتفعات. كانت تحب فرانكلين العجوز: «يا له من عجوز لطيف وناضج!»، لكنها لم تكن ترغب على أي حال في السكن هناك. ظلت تسعل إلى أن وافق فرانكلين. ثم جاءت اللحظة التي تشاجرا فيها حول الحب. وعندما اعترف فرانكلين: أن الاكتشاف يهمه ربما أكثر من الحب، وأن أكثر ما يهمه في الحب هو الاكتشاف. عندئذ راحت تتحدث بنبرة مسرحية وشخصية في آن واحد، وهو خليط غير جيد.

– لم يكن ينبغي أن أقترب إلى هذا الحد من البطل الذي انتصر على الجوع والجليد! ما بدا من بعيد كأنه قوة وعزيمة، ليس من قرب سوى منطق وحذلقة.

أخذ فرانكلين يفكر فيما قالته. لم يكن يريد أن يمنعها من الحديث ولا

من الغضب. لكن ماذا إذا كانت تريده أن يكون شخصاً آخر تماماً عما هو عليه؟

- لا بد أن أكون هذا! من دون الاستعداد وقواعد محددة تسود الفوضى في رأسي، قبل أن تصل إلى رأسك.

أجابت إليانور:

- ليس هذا ما أقصده!

أثارت هذه الجملة الهم في نفس فرانكلين، فمنذ الوقت الذي قضاه مع فلورا ريد، كان يعلم تماماً أن الخلاف الذي يقول فيه أحد الطرفين للآخرين: أن ليس هذا هو قصده. هو خلاف يسير في طريق مسدود.

في الأيام التي سبقت رحيلها ازداد سعال إليانور قوة. كانت تطالع «فرانكنشتاين» لماري شيلي، والأسوأ من ذلك أنها باتت لا تتكلم إلا أقل القليل.

وما إن رحلت، حتى مات الأب. كأنه كان ينتظر ذلك فحسب.

كانت الحياة تسير بسرعة فائقة حقاً. عانى فرانكلين من ذلك. «إن نيلَ المجد من أجل شيء لم ينجح، ولم يتم، هو بالتأكيد شيء يمس شرفي». هذا ما كتبه جون فرانكلين إلى السير جون بارو. «إن مهنتي هي إعداد خرائط بحرية جيدة من أجل رخاء كل فرد. لكن ما عداي، لم يستفد أحد من ذلك. أعيش في لندن، وأعطي أحاديث صحفية، وأتحدث دائماً مع أشخاص لا يجمعني بهم سوى المواعيد المتفق عليها. إنني أرجوكم، سير، وبكل تواضع أن تمنحوني تكليفاً جديداً بقيادة سفينة! أعتقد أن بإمكاني العثور على الممر الشمالي الغربي».

حصلت إليانور على الطفل، وجون على تكليف بالقيادة، وكلاهما

في اليوم نفسه. رحلة برية جديدة. ينبغي في هذه المرة أن يصل إلى النهر الكبير شمالي كندا، ومن المصب يواصل الرحلة بقوارب ملائمة في اتجاه الغرب والشرق. التقى فرانكلين فوراً مع ريتشاردسون، وتحدث معه عن الطاقم والمعدات. اشتم جورج باك الأخبار، وأراد أن يشارك مرة أخرى. تشاور فرانكلين وريتشاردسون. كان من رأيهما أنهما يدينان ببعض الأشياء لباك، وأن عليهما ألا يقفا حجر عثرة في طريق مستقبله المهني.

– كونه يحب الرجال، فهذا أمر يخصه. يجب أن يأتي معنا!

تساءل ريتشاردسون: ما إذا كان فرانكلين يستطيع ترك زوجته الساخطة والطفل هكذا بلا تمهيد. لم يقل فرانكلين سوى: «ستسير الأمور». لم يجد فائدة من إخبار ريتشاردسون بكل شيء، ولا أن يشكو إليه حاله. التخطيط والفعل هما وظيفة الصداقة، أي شيء آخر يزيفها فحسب.

أنجبت إليانور طفلة، عُمدت باسم إليانور آنه. جاء الأصدقاء للزيارة. قال فرانكلين: «هذه هي إيلا!». راحت الصغيرة تضرب بقدميها ويديها، وتصرخ على نحو جنوني. على ما يبدو لم تكن تريد أن يصدر أحد أحكاماً بشأنها. ألقى هيبورن نظرة على المهد، ثم تجاسر وعلق قائلاً:

– إنها تبدو مثل القبطان؛ إذا نظر إليه المرء عبر الجانب الآخر من المنظار.

لم يستلطف فرانكلين ما قيل عن ابنته، لكنه صمت. وبعدئذٍ– مباشرة– انغمسوا في ترتيبات الرحلة.

أصيبت إليانور بمرض عضال. جاء الأطباء وانصرفوا، وتضاربت تشخيصاتهم، لكن السعال بقي. لم يُرجع المرضُ الحبّ، لكنه جعل

قلب جون أكثر رقة تجاه الحيل الصغيرة التي لجأت إليها إليانور، والتي لم تفدها كثيراً على كل حال. لم ينجح مسعاها في دفع جون إلى رد فعل باستخدام الاتهامات والإهانات. كان يجلس على فراشها، يصغي إليها بلطف وبشعور من الذنب، لكن تفكيره كان مُركزاً على البيميكان وأحذية الجليد والشلالات ومخزون الشاي.

قبل الوداع بقليل اكتشفت إليانور: أنها قرينة مخلصة لمستكشف مهم، تماهت تماماً مع أهدافه، وأصبحت نداً له عبر عمق إخلاصها. ينبغي ألّا يتخلف بسببها مطلقاً، قالت له، ولا يجوز له في أي ظرف من الظروف أن يضحي بالممر الشمالي الغربي على مذبح الزواج. بجهد شاق راحت تخيط علماً إنكليزيا كبيراً، وتطرزه من على فراش المرض. مرة بعد أخرى كانت الإبرة تسقط منها؛ إذ لم يكن الأمر سهلاً على الإطلاق. عندما انتهت، أمسكت بيد جون، وقالت:

– انطلق يا قلب الأسد! انزع الغطاء عن الراية في أكثر لحظات رحلتك فخراً!

«بسرور»، غمغم جون، «بكل سرور»، وفجأة أدرك بيقين تام: أنه لن يفهم أبداً الحب ولا النساء. تريد النساء شيئاً آخر من العالم. ليس على المرء سوى احترام ذلك.

بعد عدة أيام من صعود جون فرانكلين إلى السفينة في ليفربول مع رفاق الرحلة، توفيت إليانور. لم يعرف وفاتها إلا في كندا، بعد مرور شهور، وبعد أن كتب إلى المتوفاة عدة رسائل معزية ومشجعة. لكنه لم يُفاجأ تقريباً بالخبر الحزين.

كتبت إحدى الصحف: «لقد توفيت من أجل اكتشافات القطب

الشمالي». علق إليوت قائلاً: «لقد ماتت، لكنها عاشت من أجل الأدب!».
أغضب ذلك مستر شارب. «لقد أثبتت أنها عظيمة، سواء ضحى الإنسان بنفسه من أجل القطب الشمالي أم من أجل حرية الإغريق أم من أجل الأدب، فالخلود من نصيبه!». لم تستطع مس تاتل أن تصغي أطول من ذلك: «كانت تحبه، هذا وحده هو المهم!». وانهمكوا في مواصلة الشجار، وراح كلٌ يشرح للآخر ما هو المهم. كانوا يفتقدون إليانور، إليانور الزمن الماضي، الضاحكة التي كانت تعرف كيف تنهي كل شجار بسرعة، وذلك بأن تحكي بحماسة وصوت عال عن نفسها. آه، ما أسرع تحول كل شيء إلى ماض.

كانت الرحلة البرية الثانية، من 1825 إلى 1827، رحلة سهلة وسعيدة مثل حلم طفل في العطلة الصيفية. في هذه الرحلة كانوا قد أتقنوا كل شيء، واستطاعوا أن يتعلموا المزيد. أمر فرانكلين ببناء قوارب جيدة للرحلة النهرية ولاستكشاف السواحل، أما المؤن فكانت متوافرة بكثرة، ولم تنقطع كذلك العلاقات مع نقاط تجارة الفراء قط. لم يكن الخطر يهددهم إلا من جانب الإسكيمو الذين يكنون لهم مشاعر العداوة. لكن ذلك تحديداً كان مصدر سعادتهم القصوى: لم يصادفوا سوى قبائل ردت لهم ما جلبوه معهم: الجسارة والمشاعر الطيبة تجاه الآخر. لم يسجل فرانكلين، ولم يتعلم، إلا ما يراه ويسمعه؛ إذ كان متيقناً من شيء واحد: إذا كان بمقدور الإسكيمو أن يعيشوا هنا، فبإمكان المرء أن يقيم هنا أيضاً؛ إذا عاش مثلهم. انضم أغسطس إلى الطاقم ثانية، وترجم له كل شيء، الأشياء المهمة، والأشياء غير المهمة ظاهرياً. حوّل فرانكلين طريقته في الرؤية إلى طريقة جديدة للتساؤل. لقد اكتشف أنه ليس من المثمر أن يوجه «أسئلة

قيادية» يُجاب عنها بنعم أو لا. مثل هذه الأسئلة يجيب عنها الإسكيمو دائماً بنعم؛ وذلك بدافع من التهذيب المضلل والمعقد. لذا أضحت أهم كلمة لدى فرانكلين هي: كيف.

امتلأ دفتر ملاحظاته: «تعني كلمة «إرنينك» حربة، و«أنغوفاك» هي الرمح الكبير، أما «كابوت» فهي السهم الصغير لاصطياد الطيور، و«نوغيت» السهم الكبير». لكل أداة استخدام؛ فإذا استطاع المرء التعامل معها، كان بإمكانه تعلم أشياء أكثر: التركيز؛ فمن غيره لن يرى المرء شيئاً في هذه المنطقة الطبيعية، ولن يصطاد شيئاً. وألا تصطاد شيئاً معناه: الموت.

من حسن الحظ أيضاً أن باك فهم أخيراً: ما المهم. ربما يكون قد نضج، وربما يكون قد أدرك ببساطة: أن الاكتشاف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمراقبة المتأنية. ليس هذا فحسب: «إذا كنا نتقدم على الإسكيمو بالذكاء والسلاح، فمن الذكاء أن نتفاهم معهم بلا سلاح». اسمعوا، هذه جملة قالها جورج باك، الملازم في سلاح البحرية!

ملابس الإسكيمو: سراويل داخلية من كاوتشوك بدلة غواصي صيد سرطان البحر، وسراويل من فراء الثعالب أو الدببة، وجوارب من فراء الأرانب، وأسرّة من فراء ثيران المسك، إنهم لا يشعرون بالبرد أبداً!

ورغم أنهم أحضروا قواربهم معهم، فقد تعلم البِيض كيف يصنعون قوارب من فراء حيوان الفظ المشقوق ومن العظام. انتبهوا أيضاً إلى طريقة تجميد الفراء ومخزون اللحم في صورة زلاقات. هذا يقلل من الوزن، ويجعل الأمر أسهل بالنسبة إلى الكلاب التي تجر الزلاقات. بسكاكين خشبية كانوا يقطعون قوالب من الجليد، يشيدون بها أكواخاً جليدية تحافظ على الدفء أفضل من أي خيمة عسكرية. وسرعان ما ظهر لهم الكثير مما يحمله الأوربيون معهم في رحلاتهم كأثقال تهدد وجودهم.

ثم جاء اليوم الذي كتب فيه فرانكلين في دفتر يومياته: «في الحقيقة لا يمكن أن نشعر بسعادة أكبر من ذلك».

تكاثر علمهم كأنه متتالية هندسية، واجتاحهم ما يشبه الغرور من كثرة ما رأوه وأدركوه، حتى باتوا كالسكارى. عندما اصطاد باك بالحربة، بعد انتظار ساعات، أول مرة، حيوان فقمة مدَ أنفه نصف ثانية عبر ثقب جليدي، راح يرقص على الجليد بهجة، ثم انزلقت قدمه فوقع على ظهره، لكنه صاح بوجه مشرق: «لقد نجحت!». لقد حاول كثيراً، لكنه لم يوفق. كيف استطاع تعلم ذلك؟ هل بإمكان المرء أن يكون أسرع مما هو فعلاً؟ لحالات الطوارئ كان فرانكلين يستخدم نظرته المحدقة، غير أن تلك النظرة كانت تمنح سرعة الانتقاء، وليس سرعة ردة الفعل. سأله:

– كيف تمكنت من ذلك يا مستر باك؟

– الأمر في غاية السهولة، سير، عليك ألا تفكر في أي شيء آخر غير ما تفعله.

أجاب فرانكلين:

– أستطيع ذلك. لكن التركيز على شيء واحد يعني بالنسبة إليّ: أن كل أفكاري تحوم حوله إلى أن يستوعبه رأسي تماماً.

رد باك:

– هذا تحديداً ليس هو المقصود! يجب أن يشارك جزء صغير من المخ فحسب في التفكير، الجزء المسؤول عن الطعن، حاول مرة!

تردد فرانكلين، ثم أجاب:

– ينبغي أن أتمعن في الأمر أولاً؛ لأرى إن كنت أستطيع ذلك. عندئذ سأحاول.

كان يعرف أنه لن يستطيع أبداً أن يصيب حيواناً من زعنفيات الأقدام في مقتل. لكن ما سمعه، ظل يشغل فكره.

أحضر باك حيوان الفقمة الذي اصطاده إلى الكوخ الجليدي. أكلوا الكبد النيئة، وعرفوا: أن الصياد لا يحصل على شيء من الغنيمة؛ فهو يصطاد من أجل الآخرين. كان ذلك ملائماً للنظام الفرانكليني، أو على الأقل كان الأمر يستحق التفكير.

صحيح أنهم لم يعثروا على الممر الشمالي الغربي، لكن الرحلة كانت بالرغم من ذلك ناجحة: لقد استكشفوا جزءاً كبيراً من الساحل، ورسموا له الخرائط، وكذلك كانت التقارير الإثنوغرافية وفيرة ومتقنة. أصبح مسار الممر الشمالي الغربي واضحاً الآن: من مصب نهر منجم النحاس حتى مضيق برينغ. ولم يبق سوى جزء من خليج هدسون حتى «نقطة العودة».

ما هي «أكثر لحظات الرحلة فخراً»؟ فردَ فرانكلين راية إليانور عند مصب النهر الكبير الذي أطلق عليه اسم المكتشف ماكينزي.

انتوى فرانكلين أن يمنح تقريره عن الرحلة الثانية في الشمال الكندي عنوانَ «القطب الشمالي المشرق». لكن الناشر اعترض بشدة:

– لا أحد يريد أن يسمع شيئاً عن القطب الشمالي المشرق يا مستر فرانكلين! لا بد أن يكون موحشاً ومريعاً حتى تتجلى بطولة المستكشفين على نحو أوضح!

رد فرانكلين:

– لكن هذا ما ينبغي على المكتشف أن يفعله، أن يواصل بحثه إلى أن يكتشف الجوانب المشرقة.

– نعم، لكن ليبق هذا سراً بيننا!

حصل الكتاب على عنوان حيادي: «الرحلة الثانية إلى ساحل البحر القطبي»، ولقي رواجاً حسناً. لكن جون فرانكلين ظل مديناً للرحلة الأولى بالشهرة. مستر موراي كان محقاً: لم يفهم القراء إلا ما اعتقدوا أنهم عرفوه من الكتاب الأول، ولم يكن من الجيد إرباكهم. كان الوقت ضيقاً، والرأي راسخاً، فظل الجديد متوارياً.

ارتفعت سحب البخار في سماء لندن. كانت الآلات والماكينات والتصميمات الحديدية تتكاثر كل يوم. أطلقوا على ذلك «تقدماً». وقد أسهم فيه عديدون، لكن القليلين استفادوا منه. أما الأغلبية فراحت تحملق فيه بعيون لامعة، وباندهاش يقولون: «جنون!». كان التقدم جنوناً، لكنه أسهم في مجد إنكلترا، حتى الذين لم يستفيدوا منه، كانوا يحبون وطنهم.

شخص يدعى برونيل -كان جون قد سمع عنه في بورتسموث- يحفر منذ عام 1825 بآلات ضخمة، حتى يشق نفقاً تحت نهر التيمز. وثمة قاطرات أيضاً، تصل إلى سرعة حصان جيد، رغم أنها تسير على عجلات حديدية ملساء فوق قضبان ملساء، وتجر خلفها عدداً من العربات يصل إلى ثلاث.

شرح تشارلز بابيدج لجون مشروعه: بناء آلة حاسبة عملاقة في حجم منزل، تتكون من جزء يحسب وآخر يطبع. تستطيع الآلة أن تعمل بلا توقف، وتملأ العالم كله بقوائم اللوغاريتمات وجداول الملاحة. عندئذ لن تتسبب أي حسابات في إرهاق العقل البشري! وكل البشر الموهوبين سيتفرغون ثانيةً للتفكير بدلاً من كتابة الأرقام. أعجبت الفكرة فرانكلين. اشتعلت حماسة بابيدج، وراح يحكي بالتفصيل كيف تحسب الآلة على نحو مختلف عن البشر، أسرع بكثير، وبنتائج أكثر دقة! ستستطيع أن

تتوصل إلى معارف جديدة مدهشة تماماً، تتعدى بكثير المعارف الحسابية المعروفة حتى الآن، وقد تستطيع أن تضع مباشرة مشروع قانون للفقراء والضرائب استناداً إلى نتائج الإحصائيات.

جرى الحديث متقطعاً؛ إذ كان على فرانكلين أن يكبح جماح المتكلم مرة بعد أخرى؛ حتى يستطيع أن يستوعب ما يُقال. كان بابيدج رجلاً ضخماً، غضوباً، نافد الصبر، لا يحب النساء ولا الأطفال، ولا أي شيء آخر في العالم سوى أفكاره. استغرق فرانكلين في التفكير وهو يحدق في السروال القصير العتيق الذي يرتديه عالم الرياضيات، حتى يستطيع أن يجد شيئاً يستند عليه في مواجهة كل هذا التقدم. أما هو فهو يرتدي على كل حال سروالاً طويلاً ضيقاً من الطراز الحديث، والقبعة ذات القرنين لم يعد يعتمرها بالعرض، بل -على الموضة- في اتجاه السير.

إذا فهم فرانكلين شيئاً، أطلق العنان لأفكاره حوله. قال مثيراً غضب المخترع: كلا، للآلة حدود. إنها دائماً لا تراعي إلا ما يسمى بـ«أسئلة القيادة»؛ أي تلك الأسئلة التي يُجاب عنها بنعم أو لا. حكى له عن الإسكيمو، وعن استحالة معرفة شيء جديد منهم؛ إذا طرح المرء عليهم أسئلة بديلة.

- لن تستطيع آلتك الدهشة، ولن ترتبك؛ أي: إنها لا تستطيع اكتشاف شيئاً غريباً. هل تعرف الرسام وليام وستال؟

تجاهل بابيدج السؤال، ثم قال بصوت خافت:

- إنك تفكر بسرعة بالغة بالنظر إلى كونك بحاراً!

أجاب فرانكلين:

- كلا، إنني أفكر بصعوبة كبيرة. لكنني لا أكف أبداً عن التفكير. أنت لا تعرف بحارة بما فيه الكفاية!

ظلا صديقين. صحيح أن بابيدج لا يحب إلا أفكاره، لكنه يهتم أيضاً بين الحين والآخر بالناس، طالما كانوا يتمتعون بالشجاعة لمعارضة أفكاره.

خطبَ فرانكلين جين غريفين. كان السبب الجوهري، هو: أنها لم تكن في تلك الفترة في الخارج، ما يمثل استثناء في حياتها، ولأنها كانت قد أعلنت عن بدء رحلتها القادمة. لا أحد يفهم في الأسفار مثلها. كانت تعرف كل القوارب الشراعية التي تعبر بحر المانش بالاسم، وتحول العملات الأوروبية بسرعة البرق إلى الجنيه والشلن. كانت تحصل دائماً على جوازات سفر خاصة تجعل ظهر كل موظف بين كاليه وسان بطرسبرغ ينحني أمامها، وكانت تعرف كيف تجعل بضائع جمركية غير مرئية تماماً عبر دس بضعة عملات فضية ثقيلة في يد الموظفين. قال فرانكلين لها:

- لو كنتِ ملازماً أول، لكنت رائعة!

تتقن جين كل شيء: الحفلات، والعشق، وشغل البيت، وكل موضوعات الموضة، وتغيير لون بشرة الوجه. كانت سريعة، لكنها تفهم في الوفاء. علّق أصدقاء فرانكلين على زواجه قائلين:

- لم يعد يقف الآن شيء في سبيل انطلاقه المهني!

عندما تتحدث، كانت جين تتلاعب بجفنيها، وتغلق الجفن الأيسر مدة أطول من الأيمن، ما يمنح كل ما تقوله شيئاً طريفاً ظريفاً، حتى إذا كانت تقدم العزاء لشخص ما.

أما أكثر ما شغل بال فرانكلين فهو: طريقتها في الرؤية. كان بإمكانها أن تستقبل في آن واحد ظواهرَ مدهشة في كثرتها؛ إذ إنها لا تتعمق في أي شيء منها؛ ولذا كانت جاهزة لاستقبال الشيء التالي فوراً. لكنها لم

تكن تنسى أياً من تلك التفاصيل! بدا الأمر كأنها تحتفظ بكل شيء من أجل الاحتفاظ ذاته، وكأنها تكوّن في رأسها بانوراما مصغرة، ولكن طبق الأصل، من آلاف التفاصيل التي سجلتها عيناها. وهكذا كانت تعشق الجلوس في عربة تجرها الخيل بسرعة، وتنظر خارجاً، وتلتهم بعينيها الطبيعة التهاماً لا يكل ولا يمل.

كان جون يعشق أيضاً السفر بالعربات التي تجرها الخيل، وبالرغم من أن الرؤية لديه مختلفة قليلاً، فإنهما كانا يحبان السفر معاً.

طبقت شهرة فرانكلين الآفاق. قرأت الطبقة البرجوازية الإنكليزية التقريرين اللذين كتبهما عن رحلتي الاستكشاف، وما زالت الحماسة تجتاحها إعجاباً بالبطل الجسور الذي اجتاز الصحراء الجليدية. العمال في الحوض الجاف قبلوه أيضاً كما هو: «إنه يخاطر بحياته، والآخرون يستفيدون من وراء ذلك: إنه مثلنا!». حتى النبلاء امتدحوا فرانكلين، مثل اللورد روتنبورو الذي قال في كلمة أُلقيت خلال وليمة: «إن معدنه إنكليزي أصيل، حتى لو بدأ الصدأ يعلوه، فإنه لا يفنى أبداً! مثل هؤلاء نستطيع إرسالهم إلى كل مكان في العالم!».

كان فرانكلين يعرف إلى أين يريد أن يرسلوه، وكان يفصح عن ذلك أيضاً. لكن فرصته في قيادة سفينة استكشاف أخرى كانت ضئيلة. لقد ضمر بسرعة الاهتمام بالممر الشمالي الغربي؛ لأن من الواضح: أن أهميته شبه معدومة بالنسبة إلى التجارة. تساءل اللورد رئيس الإدارة البحرية محتقراً:

– ماذا نريد من الجليد؟ إننا في حاجة إليك في مهام أكثر أهمية!

ما هي هذه المهام؟ راح فرانكلين ينتظر تكليفه بها.

بمبادرة شخصية حاول فرانكلين أن يعمل في خدمة دول أجنبية تكلفه ببعثات استكشافية للقطب الشمالي؛ فالعلم عالمي، ولا شيء يتعارض مع محاولاته. لكنها لم تكلل بالنجاح. كان عليه أن يجتاز في باريس أحاديث بالفرنسية، بل كان عليه أن يلقي كلمة أيضاً؛ لأن الجمعية الجغرافية منحته ميدالية ذهبية تقديرية. تناول طعام الفطور مع البارون روتشيلد، وطعام العشاء مع لويس فيليب أورليانز. كان الاهتمام عظيماً بشخصه، وقليلاً بخصوص رحلة استكشافية أخرى إلى القطب الشمالي، وابتسامة محتشمة رداً على خبراته مع الإسكيمو. أما أشق عمل قام به فهو احتساء الشاي مع مدام لا دوفين التي قدمت له بسكويتاً فاخراً، كان يود الاستمتاع به بدلاً من ذكرى «أحشاء الصخور»، لو لم يكن عليه في المقابل أن يجيب على أسئلتها الثرثارة.

بثت جين الحماسة في نفسه:

– بطيء أكثر من اللازم؟ لم تعد كذلك! أنظر حولك: إن لديك السرعة التي يلتزم بها كل الشخصيات المهمة عندما تتحرك في مجال الشخصيات الأقل أهمية! الملك أيضاً، وولينغتون، وكذلك بيل يتوقفون قليلاً بعد كل كلمة تقريباً. وعندما لا تفهم هذه الكلمة أو تلك، ولذا تتجاهلها، فإن ذلك يعزز فحسب الانطباع الملكي المتولد.

بالرغم من ذلك، لم يكن فرانكلين يحب ظهوره في الأماكن العامة. كان سعيداً عندما قابل في مملكة بولندا عالماً جغرافياً شاباً يدعى: د.كيغلفيتش. لم يكن يريد شيئاً سوى أن يصبح مكتشفاً، ولهذا كان يعرف ماذا يعني الاكتشاف. كان مقتضباً في كلامه وفظاً، لكنه كان شغوفاً بالعلم وطموحاً إلى أقصى درجة. رغم نحافته كان يذكره ببابيدج الضخم

الصلب. ساعات طويلة كان جون يتحدث معه من دون أن يأتيا على ذكر الإنسانية أو البطولة أو الشخصية، ناهيك عن التربية. أصبح ذلك أمراً نادراً. في سانت بطرسبرغ قابل الإمبراطورة التي سألته عن محتوى كتبه. مع أنها كانت مترجمة إلى الروسية. في أوكسفورد مُنح الدكتوراه الفخرية في القانون، وفي لندن منحه الملك درجة الفروسية، وألحق باسمه لقب: سير جون فرانكلين.

أضحى الآن هو الأعظم، والأفضل، كما لم يعد شاباً. ربما كانوا يكرمونه لمجرد الخلاص منه؟ مقابل مئة حديث مهذب، كان يأتيه عرض جدي وحيد. أبدى صاحب مصنع جِن، يدعى فليكس بوث، استعداده لشراء سفينة وتجهيزها من أجل العثور على الممر الشمالي الغربي؛ إذا تفضل السير جون بإبراز فضل هذا الدعم السخي في تقريره عن الرحلة.

وأخيراً عُرِضَت عليه مهمة من أعلى سلطة! جعلت الرسالة السير جون ينكس الرأس حزناً: عليه أن يصبح قبطان سفينة حربية تبحر إلى شرق آسيا؛ لتهدد الصينيين، كي يحترموا التاج البريطاني مرة أخرى. قال جون لنفسه: وإذا لم يصدق أحد التهديدات، ينبغي عندئذ أن تصبح حقيقة. بأدب التمس السماح له برفض المهمة؛ فهو ليس مهيأ ليكون قائداً عسكرياً، فضلاً عن أنه مقبل على الزواج.

قال الأصدقاء:

– لقد انتهى بذلك مستقبله المهني. من يعارض الحرب، يعارض تقدمه المهني. خطوة غير موفقة على الإطلاق! لماذا لم ينصحه أحد؟

ريتشاردسون فحسب هو الذي شدّ على يده قائلاً: «قد يكون للأمر فائدة. ربما يُكنّ التاج البريطاني لك الآن احتراماً أكبر».

انطلق السير جون مع قرينته -اسمها الآن الليدي فرانكلين- يتمشيان على البحر فوق سد إنغولدملس. كلا، لم يعشقها مثل إليانور. لكنه يحبها. إنها امرأة صادقة تتمتع بذهن صاف، ورفيقة يعتمد عليها، فضلاً عن أنه يحتاج إليها كأم بديلة لصغيرته إيلا، لا أكثر، ولا أقل أيضاً. تحدثا بصراحة عن ذلك. قالت له الليدي جين:

- حب الاستطلاع يتملك كلينا، وفي الغالب: إننا لا نطيق الأشخاص أنفسهم. ليس هذا هو الحب، لكن...

رد السير جون:

-... لكن ربما شيء أفضل من ذلك.

تطلعا يساراً إلى الطين الذي خلفه الجزر، ويميناً إلى المروج، وتكلما عن المستقبل. كانت الحياة تمضي سريعة جداً. دائرة معارفهما كانت هائلة، وتسبب لهما التزامات أكثر مما تثير البهجة لديهما. الثروة محترمة، لكنها لا تكفي بعد لتمويل رحلة استكشافية إلى القطب الشمالي تمويلاً ذاتياً.

أخذ السير جون نفساً عميقاً. خلّف التجول شعوراً بالراحة في نفسه. تذكر قول ريتشاردسون له: «إذا لم تتحرك بنشاط، فلن أظل الطبيب الوحيد في حياتك. ولا تفرط في طعامك!». كان رد جون عليه: «لا جوع بعد اليوم!». لكنه وعده على كل حال بأن يفكر في النصيحة الطبية.

عشر سنوات! لقد مضت في لمح البصر، كأنه سافر خلالها في عربة تجرها الخيل. بلغ منتصف الأربعين. تكفيه آماله لحياة طويلة، لكن وزن جسمه الملعون في الكفة الأخرى. قالت له الليدي جين:

- لا بد أن تقوم بتمرينات رياضية!

- إذن سأذهب إلى مستر بوث، وأسجل نفسي للمشاركة في بعثه الاستكشافية. هذا هو التمرين الوحيد الذي يساعدني. لكنني سأشترط ألا نطلق على الممر الشمالي الغربي «شراب الجِن لين» الذي يتجه مصنعه!

لكن، بعد عدة أيام وصلت إلى بولينغبروك برقية من وزير المستعمرات اللورد غلنيلغ. كتب: أن مما يسعده أن يعرض عليه، بناء على رغبة صريحة من الملك شخصياً، وظيفة حاكم بلد فان ديمن.

قالت الليدي جين وهي مستغرقة في التفكير:

- البلد يقع جنوب أستراليا! رحلة بعيدة، ونقود كثيرة، اثنا عشر ألف جنيه في العام!

رد السير جون:

- إنها مستعمرة عقاب.

- لا بد من تغيير ذلك إذن!

بعد عدة أيام تقابل جون مع فلورا ريد التي لا تهدأ ولا تكل أبداً، وسألها عن رأيها على أن يبقى الأمر بينهما. قالت له:

- لا بد أن تحاول! ما قيمة الممر الشمالي الغربي؟ إن اكتشافه يجلب الشهرة فحسب، ويروي ظمأ الجغرافيين المتعطشين إلى المعرفة. ماذا يحول دون بناء مجتمع شاب تتاح فيه العدالة؟ وإذا كان هناك إنسان قادر على ذلك، فهو أنت.

اعترض السير جون قائلاً:

- هراء! أنا ملاح، ليس هدفي تغيير البشر ولا إجبارهم على شيء. وإذا نجحت بين الحين والآخر في الحيلولة دون وقوع أضرار، فهذا يكفي جداً.

أكملت فلورا:

- وهذا ما يستحق العناء!

عندما وصل إلى البيت، كان لدى الليدي جين حجة جديدة:

- من هناك، في الأسفل، ليس الطريق بعيداً حتى القطب الجنوبي.

- سأفكر في الأمر.

في كنيسة سبيلسبي وجد لائحة حجرية معلقة: «لذكرى الملازم شيرارد فيليب لوند، المفقود في البحر منذ عام 1812».

زمجر جون، وقال:

- هراء! إنه يحيا. في مكان ما في أستراليا. ربما حتى في بلد فان ديمن!

قبل القبطانان: جون، وجيمس روس، العم وابن الأخ، بسرعة عرض صاحب مصنع الجِن. عندما سأل فرانكلين مرة أخرى، كان الوقت قد فات. مرة أخيرة توجه إلى الإدارة البحرية.

أجابه بارو:

- للأسف لا! حتى لو كانت هناك خطة للقيام برحلة قطبية، فإن الإدارة تفضل اختيار قائد، معذرة! أصغر سناً. بالطبع يعرف كل إنسان أنك لست فقط الأكثر شهرة، بل أيضاً الأكثر كفاءة...

قاطعه فرانكلين:

- دعك من ذلك، لا بد أن يحصل الآخرون على فرصة أيضاً. خذوا جورج باك، إنه أصغر مني، وعندما يكبر قليلاً سيكون أفضل مني.

بعد ذلك سار على قدميه إلى البيت عبر طرقات لندن السريعة، وواصل تفكيره في وظيفة الحاكم: بإمكاني أن أُشكّل فريقاً أصدر إليه الأوامر،

لكنني لا أحب التحرك وسط الزحام. من غير المؤكد ما إذا كنت سأنجح في أن أكون حاكماً لمستعمرة...

بينما كان يتمعن في هذه الفكرة، اختلطت في خياله صورة مستعمرة العقاب بصورة أخرى: طبيعة القطب الجنوبي. أنهار جليدية أزلية، وفي ضوئها بحيرات دافئة بها أسماك وبطاريق، وربما أيضا منطقة بقبائل من البشر لا يعرفون الاستعجال.

كلا، كفى! لا يمكنه أن يوافق على حكم مستعمرة لا لشيء إلا لأنه يرغب في الإبحار إلى القطب الجنوبي! بلد فان ديمن، هذا شيء مستقل بذاته. وقد يلقى حتفه عند أول محاولة للحيلولة دون وقوع أقل الأضرار. إلى هذا الحد كان الأمر جاداً.

«حسنٌ»، قال جون فرانكلين، «بلد فان ديمن!». ولكن بجدية.

الفصل السادس عشر

مستعمرة العقاب

«ستندهش قليلاً عندما تتعرف إلى السير جون»، كتب د. ريتشاردسون إلى ألكسندر ماكونتشي «يبدو في بعض الأحيان أنه لا يستوعب كل شيء. يضحك ويزمجر وحده، ويعطي إجابات مراوغة عندما يريد التمعن في التفكير. لكنه رجل ذو قلب رحيم. وقد تجد فيه صديقاً، إذا...»، مسح ريتشاردسون الكلمة الأخيرة. ثم كتب: «... وأخيراً، إنني زكّيتك له؛ كي ترافقه في مهمته». لكن هذه الجملة لم ترق له أيضاً، لكنها غطت على الأقل على ما كتبه من قبل.

«لا تنتظر من السير جون أفعالاً سريعة. بذهنك الحاضر عليك أن تساعده في مقاومة الشرور».

تردد ريتشاردسون. لماذا كتب كذلك؟ أيشك في ماكونتشي؟ مسح هذه الجملة أيضاً. كان ينوي أن يعيد كتابة الرسالة كلها على ورق نظيف.

«إنه لا يفقد بوصلة الأمل أبداً، حتى في المواقف التي تثير الشك، وحتى في السياسة...» كلا، بكلمات أخرى: «ومما لا شك فيه...» الشك مرتان. حذف!

وماذا لو لم يجد فرانكلين في ماكونتشي سنداً، إذا لم يكن يفهم في السياسة، إذا وقف أعمى أمام علاقات السلطة؟ عندئذ لن تفيده أيضاً هذه الرسالة! مزق ريتشاردسون الرسالة ورماها بعيداً، وبسط كفيه. عندما لا ينجح في كتابة رسالة، كان في الغالب يصلي.

كانت السفينة «فيرلي» من نوع «البارك» ممتلئة إلى آخرها: مهاجرون، ومغامرون، ورجال دين أرسلتهم الكنيسة، ووصوليون، ومصلحون، وبينهم الحاكم الجديد لبلد فان ديمن وزوجته والابنة الصغيرة إيلا، إضافة إلى ابنة أخته صوفيا كراكروفت البالغة من العمر عشرين عاماً. على ظهر السفينة أبحر أيضاً سكرتيره الشخصي ماكونتشي مع عائلة كثيرة الأفراد. هيبورن كان معهم أيضاً، رفيق الطريق من القطب الشمالي، الوفي الخدوم. ازداد سمنة بعض الشيء، منحه هذا أيضاً بعض الجزاء.

طوال اليوم كان السير جون يسمع باستمرار وفي كل مكان كلمة «سعادتكم». بدا كأنهم جميعاً أبحروا معه؛ لكي يستطيعوا النطق بهذه الكلمة أمامه. قالت له الليدي جين: «تباشير ما سيأتي». رد السير جون: «تمرين جيد».

بلد فان ديمن: اكتشف هذا البلد الهولندي أبل تَسمان عام 1647، واعتبر حتى نهاية القرن الثامن عشر جزءاً من تيرا أستراليس. وكان ماثيو فيندرس وصديقه باص هما أول من أبحرا حول الجزيرة ورسما خرائطها. بدءاً من عام 1803 أصبحت معسكراً عقابياً، وابتداء من 1825 أضحت مستعمرة مستقلة عن سيدني، يسكن فيها أيضاً مستوطنون أحرار، لم يجيئوا إلى البلد كمجرمين، كي يقضوا فيه فترة العقوبة.

لا أسئلة لديه تقريباً عن التاريخ. التفاصيل الجغرافية أيضاً كان جون

يعرفها: موضع أهم المستوطنات، والرؤوس الصخرية، والجبال، وأسماء الأنهار المكتشفة حتى ذلك الحين. أحد المستثمرين الأثرياء الذين سافروا معه على ظهر «فيرلي»، قال: «معنا سيبزغ عصر جديد في بلد فان ديمن. معنا ومع السير جون!»، على الجزيرة أن تصبح مَخزن غلال الجنوب، وأحد أجمل بلاد الأرض، وهوبارت تاون أجمل المدن، و... لكن، لم لا؟ لم يكن جون ينوي أن يقضي سنواته الست هناك كمدير سجن أفضل من سابقيه. في الأماكن التي يعيش فيها مستوطنون، كان يسود مناخ منفتح عملي، من الممكن هناك القيام بشيء. والمجرمون؟ يتوقف الأمر على نوع الجريمة. إذا سرق جائع رغيف خبز، أو اصطاد في غابة أحد اللوردات دون رخصة صيد، فإنه لا يبرهن بذلك إلا على حسن تفكيره.

حكم جورج آرثر، سَلَف جون، المستعمرة اثنتي عشرة سنة. لم ير في الجزيرة سوى مؤسسة لعقاب المجرمين، ولم يفعل شيئاً من أجل المستوطنين سوى توزيع المجرمين عليهم كقوى عاملة. هذا النظام المستغل كان يطلق عليه «التكليف». عدا ذلك نمت أملاكه نمواً هائلاً، وعندما ترك الجزيرة كان من أكبر الأثرياء. تُرى، كيف فعل ذلك؟

أباد آرثر سكان البلد الأصليين – وهم شعب أسمر ذو شعر أشعث– عن بكرة أبيهم تقريباً، ولم يخجل من إطلاق اسم الحرب على هذه الفعلة الشنيعة. ولا كلمة أخرى عن آرثر! من أجل الانضباط والنظام فحسب تظاهر جون في البداية بأنه يواصل عمل سلفه.

كحاكم كان عليه أن يتشاور مع مجلس تنفيذي ومجلس تشريعي، لكن إذا أراد أن يصدر قراراً مخالفاً لأصوات المجلسين، فلا يستطيع أحد أن يعارضه. لم يكن يخضع إلا لوزير المستعمرات في لندن خضوعاً تاماً ومطلقاً.

في الصباح شعر مرة أخرى بذلك التوتر المزعج في عضلات الرقبة. كان يتصبب عرقاً، ويتقلب في الفراش. لكن ذلك جزء من العمل المهم: لا بد من الانتصار على الخوف والرعب في الوقت المناسب. ذات مرة سمع صوتاً: «إذا كان هناك شيء لا تتقنه يا جون فرانكلين، فهو السياسة!».

كان قد تجاوز الخمسين. مع السنين نمت خبراته، وكبر موته أيضاً، وبطء شرع يكتسي ملامح: ربما لا تزال أمامه عشر سنوات، وربما عشرون سنة. لكن المنزل قد شُيد، وإلى أن تصبح العروق الخشبية هشة، لم يكن جون في حاجة إلى تغيير شيء فيه.

مستعمرة يعيش فيها اثنان وأربعون ألف نسمة. حسن. الحاكم هو في نهاية المطاف رجل يدير الدفة. قال جون: «إنها مسألة ملاحة!». انهمك في قراءة مؤلفات عن قانون الإدارة والقانون الجنائي، وأخذ يحفظ أسماء المجموعات المختلفة في المجتمع ومصالحهم المحتملة. حاول أن يفكر مثل إقطاعي يريد الحصول على قوى عاملة رخيصة، ومثل تاجر يحتاج إلى زبُن لهم دخل جيد، ومثل موظف يتشوق إلى شيئين في الوقت نفسه: المديح، وامتلاك الأراضي. عبر الإمعان في التفكير توصل إلى ما يريده المجرم الذي يقضي عقوبته: العدل، والمساواة. وفي المقام الأول: الحصول على فرصة.

ساعات طويلة قضاها جون واقفاً على سطح السفينة، متفحصاً حبال الأشرعة والصواري، المتحركة منها والثابتة، وصولاً إلى قمة صواري «فيرلي»، ثم راح يتأمل في حبال الحكم، من الماليات وصولاً إلى سرعة تحرك الطبقات. المستعد وحده، هو الذي ينتبه إلى الإشارات التحذيرية. لا يمكن أن تختلف السياسة كثيراً عن الملاحة. كان ذلك رأي هيبورن أيضاً.

كتب له ريتشاردسون: إن شعلة الحب قد توهجت في قلب ألكسندر ماكونتشي، فضلاً عن ذلك فهو سريع البديهة وحاسم، وهو أفضل حليف لمن يريد القيام بإصلاحات. وبالرغم من كونه اسكوتلندياً، فهو ليس متديناً على الإطلاق، وهو أيضاً شخص غير ممل.

حقاً، إنه يبدو مثل شخص إصلاحي، بل مثل أحد اليعاقبة(*). وجهه النحيل ذو العينين الحادتين، وأنفه المدبب، وفمه العريض الذي كان يزمه على نحو حسي جسور، وبطولي على نحو من الأنحاء، كل هذا ذكّر جون بالمعلم بارنبي. بحماسة كان ماكونتشي يتعلق بالنظريات الجديدة، مثلاً بالنظرية التي تقول: إن البِيض أصلهم سود، والذكاء هو الذي يجعل بشرتهم بيضاء.

لم تكن هذه بداية جيدة بالنسبة إلى السكرتير، إذ سرعان ما اكتشفت صوفيا أن بشرته داكنة على نحو لافت.

على العكس منها، كانت الليدي جين تستلطفه، لأن حديثه كان مسلياً. عندما يتحدث عن قانون العقوبات المعادي للإنسان، كان يقول جملاً ألمعية تعلق بالذاكرة، مثل: «ليس خيراً ألا نثق في قدرات الإنسان الخيرة!». لم يكن يقيم وزناً للتكفير عن الجرائم أو ردع الإنسان عن ارتكابها: «ينبع العقاب من خوف البرجوازيين ومن نزوعهم إلى الاستسهال. التربية وحدها قادرة على تحقيق الخير!».

ذات يوم رد جون على إحدى نظرياته قائلاً: «الأمر يتوقف على كل حالة على حدة». كان يعلم أن فيلسوفاً راديكالياً لا يطيق جملاً مثل هذه. لكن ماكونتشي كان لديه حتى هنا أمل تربوي، فقال له إن السير جون لم

(*) اليعاقبة هم أتباع روبيسبير خلال الثورة الفرنسية، وكانوا يمثلون اليسار السياسي. وترجع التسمية إلى مكان اجتماعهم في دير الرهبان اليعقوبيين في باريس.

يصل بعد إلى الرأي النهائي في كل شيء، وهذا شيء لا يثير العجب. لكنه يسير على الطريق الصحيح. قال جون لنفسه: ماكونتشي طويل اللسان بعض الشيء. عندما يمارس عملاً؛ سيتخلى عن ذلك.

عندما ظهرت المنحدرات الساحلية الداكنة والجبال الوعرة في بلد فان ديمن، كادت الليدي جين تشعر بالحزن. بالنسبة إليها كان يمكن للرحلة -وهي الرحّالة الكبيرة- أن تستمر شهوراً، حتى في هذه السفينة المكتظة. كان جون يرى الأمر على نحو مختلف. كان يريد أن يبدأ عمله، وانتابه السرور من أجل ذلك.

امتدت أمامهم خلف الميناء مدينة جميلة، وبيوت بيضاء، وفي الخلفية جبل ولينغتون الذي بدا مثل جنتلمان مظلم، يبث الرهبة في النفس، وجدار صخري مائل. عندما رست «فيرلي»، انطلقت من الساحل سفينة صغيرة وعلى ظهرها لجنة الاستقبال. أول من هبط منها كان رجل قصير يرتدي سترة سوداء، ثم سار في اتجاه السير جون. عندما انحنى انحناءة قصيرة، كانت قامته مشدودة كأنه جندي. نظرته هادئة، لكنها غائمة بعض الشيء. بدا فمه كأنه نطق بكل الأشياء المهمة، ولذا سيظل مغلقاً حتى إشعار آخر. لم تكف اليدان والذراعان عن الحركة، دون أن ينم ذلك عن قلق أو رعونة، بل بما يتلاءم مع ممثل مسرحي. كان هذا هو جون مونتاغو، أمين عام المستعمرة، وأهم رجل على الجزيرة بعد الحاكم. طوال عشر سنوات كان أقرب الرجال إلى آرثر، وظل بعد رحيله مديراً لثروته وزوجاً لابنته. صافح جون الموظفين الآخرين الذين اصطفوا لاستقباله. تعمد أن يتريث طويلاً حتى يحفظ الأسماء والوجوه، وذلك حتى يتعود مرؤوسوه مبكراً على بطئه.

عندما اقتربت السفينة الصغيرة من رصيف الميناء، هبت رياح رقيقة؛ فشرعت كافة الحبال في السفن الشراعية لصيد الأسماك والحيتان تهتز وتصطفق؛ فصدر عنها ما يشبه التصفيق المبتهج. على الساحل كان يقف مستوطنون، وعسكر، وموظفون، مئات منهم على الخيل، وخلفهم نحو ثلاثين عربة تجرها الخيل وفيها سيدات يلوحن. لم يصدق جون أذنيه: كل الواقفين كانوا يهللون، نعم، يهللون!

وفجأة لفت انتباهه شيء: قد لا يجوز أن أسير على قدمي إلى دار الحاكم، بل ينبغي عليّ أن أمتطي حصاناً! وأي خطبة يجب عليّ أن ألقيها، ربما من فوق الحصان؟

كانت الشمس مشرقة. على رصيف الميناء بنوا مسرحاً صغيراً، وبجانبه وقف مستعداً ما كان جون يخشاه: الحصان. شاب قوي أمسك بلجامه.

كان مونتاغو هو الذي بدأ. رحب به، وأعرب عن آماله، وأبدى سروره باسم الجميع، ثم رحب به مرة أخرى، واختتم كلامه متأثراً. تلفت جون حوله بحذر باحثاً عن الحصان. تصاعد شخير من الحصان الذي ألقى برأسه إلى الجانب، وكاد ينتزع اللجام من يد الشاب. لاحظ جون أن دوره جاء في الكلام.

نطق بالجملة التي أعدها في السفينة: «أود أن يحصل كل فرد على فرصة!».

نظر إليه الحصان من زاوية عينيه، وشخر عدة مرات، ورفس بقوائمه. أعلن جون:

- لن أجلس فوراً جلسة راسخة فوق السرج، بل سأرى في البداية كل شيء بدقة سيراً على الأقدام!

ضحكات مؤيدة. صاح أحدهم: «اسمعوا، اسمعوا!» وقف السير جون شامخاً كنصب تذكاري، وانتظر إلى أن ساد الهدوء ثانية، ثم أخذ قراراً سريعاً وأمر الشاب بالانصراف والحصان. وأضاف بصوت شبه عال:

- هكذا أرى أكثر. ثم شرع يتحرك، وسار الآخرون وراءه بخطوة احتفالية، مندهشين بعض الشيء.

درس جون التقارير والملفات وآليات سير العمل، وسجلات العقارات، وأحكام المحاكم. صادفته مصطلحات جديدة كثيرة، مثلاً: «التنازل عن الأراضي»، بمعنى أن يُقطِع الحاكم شخصاً أرضاً، ويمنحه إياها، وبهذه الوسيلة تمكن الحاكم في السنوات القليلة الماضية من اكتساب أصدقاء ممتنين ومطيعين حيثما يحتاج إليهم. وعبر طرق ملتوية تكونت ثروة آرثر أيضاً عبر التنازل عن الأراضي. راح جون أيضاً يبحث في فهارس الملكية عن شيرارد فيليب لوند، ولكن من دون جدوى، لم يجد هنا ولا في نيوساوث ويلز(*) مستوطناً بهذا الاسم.

كانت قراءة الصحف تثير بعض الغرابة في النفس. في «فان ديمنس لاند كرونيكل»(**) كتبوا عن الحاكم الجديد: «إنه أحد أكثر شبان العالم صلابة، وجنتلمان لا يعلو سلوكه غبار. لقد حصلنا على الحاكم الذي تمنيناه. إذا لم يصغِ السير جون كثيراً إلى نصائح مستر مونتاغو، فلن تطاردنا أشباح آرثر إلا في أحلامنا ليلاً، وليس كما يحدث الآن، حيث تظهر لنا في وضح النهار بزي الشرطة وبمعطف القضاة!» لم يكن بمقدور

(*) نيوساوث ويلز، أو ويلز الجنوبية الجديدة، هي أقدم ولايات أستراليا وأكثرها كثافة سكانية، وتقع فيها مدينة سيدني، أقدم مدن أستراليا وأكبرها.

(**) Van Diemen's Land Chronicle.

جون أن يسعد بذلك حقاً. على الأرجح: إن الناس هنا يحبون المبالغة. انهمك من جديد في دراسة الملفات.

اليوم الثالث في المنصب. الجلسة الأولى للمجلس التشريعي. سادة يمشون بوقار، سترات سوداء تصل إلى الركبتين، وخطب احتفالية. المال في خزانة الحكومة ليس كافياً. فرض الضرائب المباشرة على المستوطنين: القانون يمنع ذلك! ما العمل؟ وقبل أن يتمعنوا في الأمر، طُرح سؤال جديد: «هل بمقدور حاكم، ليس إلا قبطاناً بحرياً، أن يعطي الأوامر إلى الفرقة العسكرية البرية في تسمانيا؟». بلا أي تمهيد انتقلوا إلى الحديث عن الإجراءات الممكن اتخاذها لمواجهة المجرمين الفارين الذين يسطون على منازل المستوطنين. ثم قفز النقاش إلى السبعين فرداً المتبقين من السكان الأصليين الذين تم ترحيلهم في عهد آرثر إلى جزيرة فليندرز شمال بلد فان ديمن، ولم يتكاثروا هناك على ما يبدو. لكن، ما علاقة ذلك بقطاع الطرق، والفرق العسكرية، والضرائب؟ وبينما راح جون يفكر في ذلك، كانوا قد انتقلوا إلى مسؤولية الدولة في حالة سرقة البريد، وبعدها بقليل تحدثوا عن توزيع المجرمين على مُلاك الأراضي للعمل لديهم، وقبل أن يقوم جون بمراجعة بسيطة للوائح التنفيذية الخاصة بتنفيذ... بتنفيذ...

ما زال لسانه يمتنع عن النطق بهذه الكلمة. لماذا استطاع بلا أخطاء نطق «اللوائح التنفيذية» الأكثر صعوبة، ولا يستطيع نطق «تنفيذ العقوبة»؟ مسح جون جبهته المتصببة عرقاً. الأمور هنا تشبه مزرعة دجاج. إذا رأى مشكلة، وأغلق عينيه للتمعن فيها، يكونون قد انتقلوا بسرعة إلى موضوع آخر. فإذا فتح عينيه مرة ثانية، كان الموضوع القديم لا يزال يحوم في المكان، عصياً

على الإمساك به، ومن دون الوصول إلى قرار فيه، في حين كان الموضوع الجديد يحدق فيه مهدداً.

يجب على وجه السرعة فرض جدول أعمال أكثر بطئاً، قد تكون خير وسيلة لذلك هي عَلَنية كل الجلسات: عندئذ لن يكون المتمرسون على العمل في المجلس وحدهم، وسينبغي عليهم أن يشرحوا ما يقصدونه. إن وجود نقاط كثيرة للغاية في جدول الأعمال يقضي على التركيز، لا سيما لدى رجل يحمل في رأسه فوضى الصور المنفردة.

هو وحده الحاكم، وهو وحده الذي يقرر مقدار الوقت الذي يُمنَح في كل حالة على حدة، وما إذا كانت الحالات تستحق أن يعقد عليها المرء الأمل، أو أن يستبعدها!

بدءاً من ذلك اليوم أضحت جلسات المجلس التشريعي في بلد فان ديمن علنية.

اليوم الرابع في المنصب. ما زال أمامه يومان حتى يقوم بأول معاينة دقيقة للسجون والمستعمرات. كل شيء يتوقف على ما سيراه. كان يعلم أن الملفات والتقارير تخفي أوضاعاً سيئة. ولهذا كان يطالعها بحماسة مزدوجة؛ إذ كان يهدف إلى أن تتطابق الملفات مع الوقائع. خلال المعاينة لن يستطيع التخلي عن النظرة الثابتة: كان عازماً على ألا تسلب الصور لبه ولا أن تحبطه. إنه الحاكم، وعليه أن يلقي نظرة شاملة على المكان، ليرى ما يستطيع فعله. فعله! لا أن يبكي، ولا أن يكره، ولا أن يرتعش.

اعتقد ماكونتشي أنه يعلم ما ينبغي تغييره في المستعمرة. أعطى نصائحه لجون؛ فحكى له جون عن رحلة الإنقاذ التي قام بها ماثيو فليندرز بعد

تحطم السفن: «في الملاحة ينبغي تحديد موقع الانطلاق بدقة، كالهدف تماماً». لكن الأمين العام لم يكن يعرف سوى الحرب البرية.

انتهى من رحلة التفتيش: سجن بورت آرثر، وآخر السكان الأصليين في جزيرة فليندرز، ومناجم الفحم التي يعمل فيها عتاة المجرمين. خالف نصيحة كبار الموظفين، وذهب إلى هناك مع الليدي جين، وسارا منحنيي القامة، وهما يتصببان عرقاً عبر الممرات المظلمة، وظلا في كل مكان الوقت اللازم حتى يفهم كل شيء. كان رابط الجأش، وتمكن من إخفاء استيائه، وأن يوجه الأسئلة بخصوص سير الأمور، ملقياً بين الحين والآخر نظرة إلى جين، ثم محولاً عينيه عنها بسرعة.

المتوسط المتوقع لتشغيل مناجم الفحم: من أربع إلى خمس سنوات. مدة العمل الشاق تحت الأرض تتراوح من خمس عشرة إلى سبع عشرة ساعة يومياً. الجلد بالسياط لأقل هفوة. غبار الفحم في الجروح. في بورت آرثر كان السؤال الأول الذي وجهه عن الندبات العرضية الغائرة مثل خطوط داكنة على ظهور صف من المساجين. الإجابة: «إنه نمر باركلي!». ثم أعلن الملازم باركلي بنفسه مبتهجاً: أنه بالجلد المنتظم يعمل على أن تظل تلك الخطوط التي تشبه خطوط النمر محفورة على ظهور المساجين.

ماذا كان ينتظر من حاكم في مكان كهذا؟ الإقالة الفورية، توجيهات إلى النائب العام؛ كي يرفع دعوى على باركلي وشخص اسمه سليد. جورج أغسطس سليد من سجن بوينت بوير تفاخر بأن خمساً وعشرين جَلدة من يده لهي أكثر فعالية من مئة من الآخرين. لن يقول ذلك في المستقبل!

لكن ينبغي الحذر: النائب العام من رجال جماعة آرثر. يجب مراجعة ما قام به! كتب ملحوظة بهذا الشأن.

فلنواصل! بوينت بوير، سجن القاصرين المشيد فوق المنحدر الساحلي. كل شهر يهوي عدة مساجين من القاصرين من فوق المنحدر؛ لكي يضعوا حداً لحياتهم. آخر من فعل ذلك طفلان في التاسعة، كان قد رآهما -مع الليدي جين وابنة اخته صوفيا- وهما بعد على قيد الحياة: جسدان نحيلان، وندبات، وعيون واسعة على نحو غريب، ربما بسبب نحافة الوجهين. وجهان لا يحتاجان إلى البكاء لإظهار بؤسهما. مس مصير الطفلين قلب صوفيا؛ فاحتضنتهما ببساطة، وطبعت قبلة على جبين كل منهما؛ ما أثار شعوراً واضحاً بالحرج لدى الحارس. همس الصبيان في أذنها: بأنهما يُضربان ضرباً عنيفاً، ثم صمتا. وعندما استعلم جون بعد أيام عن حالة الصبيين، عرف بانتحارهما. قدم الحارس له حكاية ملفقة تلفيقاً جيداً: اعتبر الطفلان المُدانان صوفيا ملاكاً بسبب شعرها الأشقر الطويل، فانتحرا بعد أن اجتاحهما أمل جسور في أن يلتقيا بها في السماء مرة أخرى. تذكر جون وجه الحارس، وكتب الأمر التالي: نقل تأديبي بسبب إهمال في مهام الحراسة. لم يكن بمقدوره، بدايةً، أن يفعل المزيد بدون شهود أو أدلة. أي نوع من الأطباء يعمل في بورت آرثر؟ أي رجل دين؟ إجابات لا تدفع إلى التفهم. إلى الأمام. سمع جون أمراً كالذي سمعه آنذاك على ظهر «إنفستيغاتور». لم يكن يريد للاشمئزاز والغضب أن يتملكاه تماماً، بل أن يبادر بالفعل. كان الوضع أكثر تعقيداً؛ إذ لا يكفي هنا أن يرفع راية. لم يكن باستطاعته بين عشية وضحاها أن يفصل كل الحراس أو أن يسجنهم. ولم يكن باستطاعته، في المقام الأول، أن يقيل وزراءه دون أسباب قانونية وجيهة.

ثم جزيرة فليندرز. كان يتطلع بسرور لزيارتها، ربما لأنها تحمل اسم

ماثيو الطيب. ويُقال إن العناية هناك فائقة بالمتبقين من السكان الأصليين في بلد فان ديمن...

سبعة وستون كائناً بائساً، جلد على عظم، شعر أشعث وتعابير لا مبالية على الوجه، ظهور محنية وبشرة قذرة، هؤلاء هم من تبقوا! كانوا يقضون أيامهم متبلدي الحس على قطعة من الأرض الجدباء المقفرة، وينتظرون الموت. لم يعد أحد ينجب أطفالاً، وهي نتيجة صحيحة للواقع: ماذا يفعل الأطفال في عالم لا يوفر لهم أي شيء سوى جزيرة تدعى فليندرز؟ تغلغلت الصور الحزينة في عيني جون، حاول جاهداً أن يبقيها في رأسه، لكنها وجدت الطريق إلى عظامه. قبعت هناك، وراحت تتساءل: ماذا ستفعل يا جون فرانكلين؟ فأجاب: لن أسمح لها بأن تصيبني بالشلل!

كم تبدو مختلفة، هذه البيوت الجميلة البيضاء، وتلك الجبال القرمزية الداكنة، والنهر الأزرق، والنساء في أكمامهن الفضفاضة، والسادة في معاطفهم المزررة ووجوههم الصارمة تحت قبعاتهم المهيبة المصنوعة من الجوخ. من خلف الكلمات المنبرية ظهرت حقائق أخرى.

لم يعد رجال الشرطة من حماة النظام، والفيلات الفخمة في باتري بوينت لم تعد تثير الإعجاب بالعمارة ولا بالتقدم. كاتدرائية سانت دافيد، والمنازل، لقد بناها كلها: مساجين!

أصبح يعلم الآن كيف يعيش السجناء، وليس فقط ما يريدونه. الترسانة المشيدة حديثاً، من جذع السفن شبه المبنية فاحت رائحة الخشب الحلوة: أمر غريب عندما يعرف المرء أن مشيدي السفن يسيرون بسلاسل! وكذلك رائحة السمك المتصاعدة من الشِباك المفرودة؛ كي تجف في ساحة سالامانكا لم تعد رائحة معزية. ما أكثر ما علق بالشِباك أحد موتى المنحدر الساحلي!

تحصن السير جون فرانكلين مرة أخرى خلف مكتبه، وتحولت غرفة المكتب إلى محل إقامته الرئيسي. لكنه لم يكن يريد فقط أن يراقب، ويعاقب، ويخوض الحرب، بل أيضاً اكتساب البشر الذين يشعرون ويفكرون مثله. وعلى هؤلاء أن يتكاثروا.

لا بد من العثور على منطقة سكنية أفضل للسكان الأصليين من تلك الجزيرة المقفرة. بلطف، ولكن بحذر، تحدث مع مونتاغو عن ذلك. لم يكن موافقاً، ووجد أسباباً تمانع ذلك. لكن جون أرسل في اليوم التالي مباشرة خططه إلى لندن بشأن تأسيس محمية كبيرة للسكان الأصليين.

أتقنت جين دورها كقرينة للحاكم إتقاناً تاماً. عندما يظهر جون في مقابلات علنية، كانت تقف بجواره كرفيقة متنبهة الحواس. اهتمت بشأن سجن النساء، وتراسلت مع إليزابيث فراي في لندن حول النظام في السجن. دعت زوجات الموظفين والمستوطنين وبناتهن، وأسمعتهن رباعيات وترية ومحاضرات علمية. كانت تنهض بكافة أعباء المنزل، وتطبخ بنجاح متوسط، ولكن بسعادة، لعشرين شخصاً؛ إذا مرض الطباخ أو هرب. كانت تقول رأيها للجميع بدون خجل، ولم تفكر في أن تسير على خُطا مسز آرثر، ولا أن تلعب دور السيدة الأولى الأنيقة البلهاء. لم يكن الدور يلائمها، وهي الرحالة التي قرأت الكثير من الكتب، وتأملت العديد من البشر المختلفين في قارات الدنيا الثلاث. لم تكن تخفي ذهنها ولا جمالها. في أحكامه كان جون مستقلاً عن جين، لكنه كان يصغي إليها باحترام. كان يحبها بلا عواطف متأججة، لكنه كان يثق فيها أكثر مما كان يفعل مع إليانور. لم يكن في حاجة إليها بجانبه دائماً، لكنها أيضاً لم تكن تزعجه. ولحسن الحظ كانت تشعر بالمشاعر نفسها. إذا لم يكن هذا هو الحب، فهو التفاهم!

قالت جين محذرة:

- لا تتوقع شيئاً من مونتاغو! إنه رجل آرثر. يريد أن يجعلك تابعاً له، ويصيبك بالشلل.

أجاب جون:

- أعرف.

- إنه يظن: الحكام يأتون ويذهبون، لكن مونتاغو هو الباقي.

- ربما، لكنني ما زلت في حاجة إلى ضابط أول سريع، خبير بالأمور، ويجلس في الحكومة. بدونه لن أستطيع التفرغ للأعمال التي تتطلب دقة أكبر. هيبورن لا يستطيع ذلك، أما ماكونتشي فليس مطلعاً على الوضع بشكل كاف، ولا يمكن الاستعانة بامرأة، حتى وإن كان ذلك أمراً أحمق.

كانت جين تعلم ذلك. قالت له:

- لن أستطيع أن أتولى عنك أمور الحكم. لكنني أستطيع أن أحذرك، والآن أحذرك من مونتاغو.

- جيد، وأنا أحذرك من ماكونتشي. إنه شخص مثالي. لا يجوز أن نحتال على أنفسنا بكلام حماسي بدلاً من أن نمارس السياسة.

نظرت إليه جين بانتباه، ثم قالت:

- ولا العكس أيضاً!

كانت تضع في الليل رأسها في الفجوة بين كتفه وعنقه، وكان بإمكانها عندئذ أن تنام هكذا، في حين كان يرقد هو مستيقظاً، ومراقباً بانتباه أن يظل رأسها في وضع مريح. بين الحين والآخر كانت تقرأ رواية من روايات المغامرات، ولا تطفئ الضوء إلا عندما يكون جون قد بدأ في الشخير منذ فترة طويلة. قالت له ذات صباح:

– لقد كنتَ في الليل تصر على أسنانك، لديك هموم.

فأكد جون ما قالته دون مناقشة.

اشتهرت جين بنشاطها الجم: بعد وصولها بأسبوعين أصبحت أول امرأة تتسلق جبل ولينغتون البالغ ارتفاعه 4165 قدماً. لم يكن ذلك نزهة.

على ما يبدو رفض جون مونتاغو أن يتحدث على نحو أبطأ من أجل سعادة الحاكم البطيء. أمين عام المستعمرة ذكّره في ذلك بالضابط ووكر وباسلي على ظهر «بيدفورد». كانت تصله أخبار كل شيء، وكان يضع الآخرين بسرعة في الصورة، ويتصرف بحكمة ولا ينسى شيئاً: لا اسم، ولا موعد، ولا أقل إهانة. عامله جون بلطف، ولكن بعد تفكير وتمحيص لم يعامله على نحو ألطف من الآخرين.

جعل الطموحُ أمينَ عام المستعمرة متوتراً، كان مثل قطة متأهبة للوثب. كان يخفي ذلك خلف هدوء ظاهري وصراحة في التعامل. كان بإمكان أي شخص أن يتحدث معه في أي وقت، وكان يضحك في سماحة، ويضع على صدريته المقوسة سلسلة ساعة مصلصلة، دون أن يحول نظرته الغائمة عن المتحدث أمامه ثانية واحدة.

عندما جعل جون جلسات المجلس التشريعي علنية، أبدى مونتاغو «قلقه»: لقد انعقدت تواً جلسة حضرها ثلاثمئة وثلاثة وستون مستوطناً، طالبوا بحكومة تمثيلية. اعتبر ذلك إشارة تحذيرية. عندما بدأ جون يهتم بالاعتداءات التي تحدث في السجون، وينقل بعض الموظفين، فقد فعل ذلك مخالفاً نصيحة مونتاغو الذي ظل أيضاً معارضاً نقل السكان الأصليين إلى منطقة أفضل. وعندما اعتاد جون الذهاب إلى سطح السفن التي تقل المُدانين الوافدين، وأن يشرح للمساجين أن عليهم واجبات ولديهم حقوقاً

أيضاً، بدأ مونتاغو يجمع حلفاء آرثر القدامى من حوله. وواصل محاولاته أن يجعل جون يعدل عن قراره، وذلك بأن تلا عليه بإلحاح «المبدأين الراسخين» اللذين وضعهما لإدارة مستعمرة عقابية:

«أولاً: كل حياد عن أي مبدأ تم إقراره، وعُدّ صحيحاً، هو خيانة.

ثانياً: كل حياد عن الممارسة المعتادة حتى الآن هو ضعف يشجّع المُدانين».

أخذ جون يقلب هذه الجمل بدقة على كل وجه. عندئذ قال لمونتاغو: إن خليطاً من كلا النظريتين يغلق الطريق أمام أي تغيير. إنه أيضاً يحسب مَن يكتشف مبدأ جديداً ويراه صائباً، ثم يجبن عن تنفيذه خائناً كذلك.

اتضح أن مونتاغو عدّ هذه الإجابة إهانة شخصية له. في محيط أتباع آرثر قال بابتسامة مرة ساخرة: «في عيني السير جون أصبحت في الفترة الأخيرة جباناً وخائناً! إنه مكتشف، ولا شيء يبقى خافياً عليه!».

عَبْرَ أحد الخدم سمع ماكونتشي ما قاله مونتاغو، وأخبر الحاكم بذلك. لكنه لم يصدق. بكلمات أخرى: لقد قرر أن يتجاهل ذلك.

كانت إيلا تشبه أمها إليانور تماماً. عندما منعتها جين أن تغرز قطعة من اللحم في الشوكة ثم عرضها على الضيوف، طلبت منها بإلحاح أن تشرح لها السبب. حكى لها جون عن القط تريم الذي كان يقتنص مثل هذه الفرص. «هذا هو القط الذي سميت باسمه المدينة»، صاحت إيلا. صحح لها جون: «كان من المفروض أن تسمى باسمه. لكنهم اعتبروا اللورد ميلبرون أهم». استرقت جين النظر إلى الضيوف، وألمحت له: إن من الأفضل أن يغير الموضوع. فضحكت صوفيا.

في الصباح الباكر تمشى جون مع ابنته في ظلال أشجار الأوكالبتوس

في حديقة دار الحكومة. بدا كل شيء واضحاً وبسيطاً. هذه المستعمرة ستصبح في يوم ما بلداً يشب فيه الأطفال بدون أن يحتاج المرء إلى إخفاء نصف ما يحدث عن أعينهم. لقد بدأت إيلا تسأل منذ فترة طويلة على كل حال عن المُدانين والسجون. سألته مرة:

– كيف يصبح المرء شريراً؟

كانت معتادة على أن بابا يحتاج إلى عدة دقائق يفكر فيها قبل أن يجيب بشيء. وكانت تفضل ذلك عن تلك الإجابات التي تعيد قول المعهود بكلمات أخرى فحسب. قال جون:

– الشرير لا يعرف سرعته الصحيحة. في مناسبات غير ملائمة يكون أبطأ من اللازم، وفي مناسبات أخرى يكون أسرع من اللازم، وفي كليهما يكون مخطئاً.

أرادت إيلا أن تفهم بدقة ما يقصد، فقال جون:

– إنه يفعل ببطء بالغ ما يريده الآخرون منه، مثلاً: أن يطيع أحداً، أو أن يساعده. لكنه يحاول بسرعة بالغة أن يحصل على ما يريده هو من الآخرين، مثلاً: نقود، أو...

– لكنك أنت أيضاً بطيء!

أجاب جون وهو يعض شفته:

– يجوز للحاكم ذلك.

نما نظام فرانكلين وازدهر، وبدأ يكتسي ملامح تتلاءم مع مستعمرة. على الأقل كان يؤمن نظرياً بأنه عثر على الطريق الصحيح للحياة، وللاكتشاف، وللحكم.

يجب أن تتكون الرئاسة من شخصين، وليس من شخص واحد، وليس من ثلاثة. يجب على أحدهما أن يقود الأمور، وأن يعرف كيف يتعامل مع نفاد صبر المحكومين وأسئلتهم وطلباتهم وتهديداتهم، وعليه أن يثير انطباعاً بأنه يمتلك العزيمة، ورغم ذلك فإنه لا ينجز سوى الأمور الملحة والتافهة وغير المهمة. أما الآخر فلديه الهدوء والمسافة عن الأشياء التي تمكنه من أن يقول «لا» في المواقف الحاسمة؛ فهو لا يهتم بالأشياء المستعجلة، بل يتأمل الأشياء بمفردها طويلاً، ويتعرف إلى مدة كل الأحداث وسرعتها، ولا يضع نفسه تحت ضغط مهلة ما، بل يأخذ الأمور من جانبها الصعب. إنه يصغي إلى صوته الداخلي، ويستطيع أن يقول «لا» لأفضل أصدقائه، لا سيما إلى ضابطه الأول. إيقاعه الخاص ونَفَسه الطويل الذي يحافظ عليه، هما ملاذه من كل الأمور التي تبدو ملحة، ومن الضرورات التي لا مهرب منها ظاهرياً، ومن الحلول قصيرة الأمد. عندما يقول «لا»، فهو ملزم بتقديم مبرر. لكن، لا داعيَ للاستعجال البالغ هنا أيضاً.

هكذا صاغ فرانكلين أفكاره، وسجلها.

صاح ماكونتشي:

- هذا نظام ملكي! الملك والمستشار، لقد اخترعت الملكية! هذا ما وصلنا إليه إذن.

أجاب جون:

- كلا، هذا هو الحكم بالمطلق! من السهل فحسب رؤية النظام الملكي في ذلك.

- وأين يبقى الشعب؟

- يمكن أن يحل محل الملك. لا يمكن فعل أي شيء إلا ببطء، حتى الثورة تحتاج إلى وقت.

لم يكن الأمين العام راضياً عن الإجابة:

- هذا لا يعني سوى: الانتظار! مَن تريد أن تنصحه جاداً بذلك؟ في سن الخامسة والستين لن أقوم بثورة!

وجد جون نفسه يردد:

- أنا، أنا سأفعلها.

واصلت حكومة لندن إرسال المُدانين في جرائم: عمال دمروا ماكينات في ديفونشاير، ومتمردون يريدون استقلال كندا، ومناصرون لحق الانتخاب العام لم يسمحوا للشرطة بأن تدخل الخوف إلى قلوبهم. في عين ماكونتشي كانوا أبطالاً، وفي عين فرانكلين «سياسيون محترمون». أما مونتاغو فتحدث عن مذنبين آثمين عصوا الرب والملك، وأوصى بأن يودعوا سجن عتاة المجرمين في بورت آرثر؛ فهذا هو المعتاد منذ أمد بعيد. ولا يمكن بأي حال من الأحوال توزيع السياسيين على المستوطنين كقوى عاملة: «من السهل أن تنتقل الشرارة!».

لكن قرار جون كان مختلفاً، رغم أنه كان يعرف: أن القرارات التي تخالف رأي مونتاغو ستمثل عبئاً على أعصابه، وتتطلب الكثير من العمل المكتبي فيما بعد. كان مونتاغو يفهم أكثر من أي شخص آخر، كيف يعرقل قراراً صدر بالفعل.

ثم قال له ماكونتشي:

- لا أميل إلى العمل المكتبي كثيراً. لا أرى واجبي في تسيير العمل

اليومي البائس. إنني أريد أن أساعد في إيقاظ روح متنورة في هذا البلد، وأن أُعيرَ العدالةَ سيفي!

رد جون:

- لكنك لن تستطيع فعل ذلك إلا في إطار تسيير الأمور اليومية. وتحديداً هناك؛ لأنك تعمل سكرتيراً لي!

شعر ماكونتشي بأن جون أساء فهمه، مثلما يشعر دائماً عندما لا تترك خطبُه البليغة أي تأثير.

ناضل ماكونتشي بحماسة كبرى ضد إقطاع الأراضي. كان يؤيد إقامة سجون مغلقة، والعمل بطرق علمية جادة على تحسين وضع السجناء، وذلك عبر تشغيل موظفين مؤهلين.

قال: إن العدالة هي أساس التربية، لكن المجرم لن يجد العدالة إلا داخل السجن، وليس لدى أصحاب الأعمال الخاصة الذين لا يستطيع أي موظف أن يراقبهم رقابة فعالة.

كان لجون رأي آخر:

- لا يحصل أي شخص في السجن على فرصة حقيقية، وذلك لأسباب منطقية. إن خطأ جناة كثيرين يرجع فحسب إلى إحساسهم المرتبك بالزمن. إن سرعتهم خاطئة؛ هم حيناً أسرع من اللازم، وأحياناً أبطأ من اللازم. كيف لهم أن يتعلموا السرعة الصحيحة تحديداً خلف الأسوار العالية؟ وعي الإنسان بالزمن في السجن يختلف عن وعيه في أي مكان آخر من العالم.

لم يفهم ماكونتشي المقصود، أيضاً؛ لأن جون تحدث ببطء ثقيل لا يستطيع مستمع غير صبور أن يتابعه. لكن ماكونتشي كان يعرف ما الحجة التي يستخدمها لمهاجمة نظام الإقطاع:

- المستوطن رفيق سيئ على طريق الفضيلة. لن يقوم المستوطن بجعل المُدان أفضل، بل إن المُدان سيفسد المستوطن! إن نظام إقطاع الأراضي يغري بالظلم والوحشية. لا يتورع المستوطنون عن استخدام السوط، ولا عن استحضار السجينات إلى فراشهم.

كان جون يخشى أن يتطور النقاش إلى مقارعة حجة بحجة، وألا يصبح ثمة مفر من استخدام التفاصيل، وأن يخوضا حرباً من الادعاءات ذات المحتوى العام. أراد أن يغير الموضوع. لكن الليدي جين كانت تصغي، وقالت:

- لا توجد إدارة سجن لديها أدنى اهتمام حقيقي بمعاملة المساجين معاملة عادلة، وهذا ما يظهر لنا، ونحن نراه! أما المستوطنون فإنهم مختلفون: إنهم في حاجة إلى المدانين؛ كي ينهضوا بعمل مهم يجلب لهم الفائدة.

صاح السكرتير:

- ويستغلونهم!

ردت جين:

- على المدى البعيد لا يستطيع أي إنسان أن يعامل إنساناً آخر في بيته معاملة سيئة. في نظام الإقطاع يُمنح حسنو النية فرصة، في السجن يصبح أكثر الناس طيبة كارهين للبشر. أنت نفسك تقول: على المرء أن يثق في طيبة الآخرين! لكنك تفكر كمربٍ، ولا تثق في الحرية إلا إذا انبثقت من نظريتك التربوية! لماذا لا تراهن على عقلانية المستوطنين؟ فهم في نهاية المطاف مستقبل هذه الجزيرة!

مرة أخرى شعر ماكونتشي بأن كلامه أُسيء فهمه. توتر فمه التوتر

البطولي المعهود، ثم انحنى واستأذن منصرفاً. لم يعجب الموقف كله جون، لكن جين كانت تضحك، فهي تحب المعارك بأنواعها كافة.

راهن جون فرانكلين على المستوطنين الأحرار. تشاور مع ألفريد ستيفن، أحد زعمائهم السياسيين الأكثر استقلالاً، ودعا أيضاً إلى حفلات الاستقبال التي يقيمها -أول مرة- ليس الموظفون فقط، بل أيضاً مربو المواشي ورجال الأعمال. لم يكن ذلك اعترافاً بوجودهم فحسب، بل لأنه أيضاً يريد أن يتحدث إليهم. أول مرة يشعر تجار الحديد، ونساجو الكتان، وأصحاب محال بيع الخضروات، والإسكافيون، بأن لهم وجوداً رسمياً؛ لذا راحوا يتحدثون بفخر عن الحاكم الجديد.

ما زال المستوطنون الأحرار لا يتمتعون بأي وزن سياسي يُذكر أكبر من المُدانين، وهذا ما ملأ صدورهم ضيقاً. كانت هناك بدايات لتمثيل السكان، وكان ثلاثة من المستوطنين يجلسون في المجلس التشريعي، لكن أصوات ممثلي الحكومة الستة لا تدع لهم فرصة. أما المجلس التنفيذي فلا يتكون إلا من موظفين، وأغلبيتهم من رجال آرثر. كان جون يراهن على المستوطنين، لكنه كان يعلم تماماً: أنه بذلك قد اختار أكثر الطرق وعورة وأقلها أماناً؛ أي الطريق السياسي. وسرعان ما جاءت الإحباطات الأولى.

ربح المستوطنون أموالاً كثيرة في العقود التي ارتفعت فيها أسعار الحبوب والصوف. كانوا مستقلين، راسخي الأقدام، وعدوانيين. لم يكن هناك صمام أمان للحساسيات ولا لحب الظهور، وباستثناء موظفي الحاكم لم يكن ثمة خصم يعتد به. لم تكن مشاعر الغيرة بين بعض العائلات المنفردة سوى إهدار للوقت. حتى الصحف المختلفة التي

تصدر في هوبارت ولونسستون وتكافح بعضها بعضاً بضراوة، كانت تعاني من انعدام تأثيرها السياسي؛ ولهذا مالت الصحف إلى أسلوب الوخزات، لا سيما في اتجاه حكومة المستعمرة: تحليل شخصية، وإهانات شخصية، واتهامات.

نظر جون إلى منازل ملاك الأراضي الأثرياء وإلى بناتهم المتبرجات تبرجاً غالياً. سمع المواعظ الأخلاقية، وتطلع إلى الحدائق المُعتنى بها. بدا أن شيئاً آخر تماماً يتوارى خلف كل ذلك. شعر جون: أن كل الخطب تتضمن نوعاً من الازدواجية، وأن العقلانية تخفي شهية لخوض الصراعات، لا سيما لدى كبار مربي المواشي على أطراف البراري. انقبض صدره بسبب ذلك، وخاصة لأنه في كثير من الأحيان لم يكن يفهم التلميحات الخبيثة فوراً؛ فيطلب تكرار ما قيل. كان يتشوق إلى وجود رجال أعمال أكثر، إلى ملاك أراض بذهن مرن، ذهن يتقن الحسابات، لكنه يتحلى أيضاً بجوهر بشوش، وبصبر التجار. لكن أمثال هؤلاء كانوا أقلية في بلد فان ديمن. أما الفرسان، - أولئك السادة المهذبون الذين يرتدون أحذية ذات رقبة طويلة، ويتحدثون بالتناوب عن المبادئ الأزلية أو عن إقامة المحاكمات القصيرة- فما أكثرهم.

وسرعان ما تفجر أول نزاع معهم: عندما أراد جون أن يعيد للسكان الأصليين بعضاً من أراضيهم، فقد بدا ذلك بالنسبة إلى الفرسان اعتداء على حياتهم، وعلى كل ممتلكاتهم. لديهم مال وعلاقات، والنتيجة: سرعان ما وصلت برقية من الحكومة في لندن فيها توجيهات إلى السير جون بترك التسمانيين يعيشون حيث كانوا. رجّح ماكونتشي أن مونتاغو وراء ذلك أيضاً. لكن جون عارضه قائلاً:

- هراء! نعم، نحن خصمان، لكنه رجل شريف.

أما الخلاف في الرأي حول تنفيذ العقوبة؛ فقد كانت له عواقب أكثر جسامة. شنت صحيفتا الفرسان، The True Colonist و Murray's Review حملة مسعورة على «الموضة الجديدة لمنح المُدانين حقوقاً، وملاحقة الانتهاكات التي يدعون أنها تحدث في تنفيذ العقوبات البدنية». أحد ملاك الأراضي الذين تحدث معهم جون شخصياً، قالها له على انفراد بشكل أوضح:

- إذا لم يعد بورت آرثر مكاناً للردع، كيف يمكننا إذن أن نرهب المُدانين الذين يوزعون علينا للعمل؟ إذا أصبح السجن فردوساً للمعاملة العادلة؛ فإن العمال لدينا سيقطعون رؤوسنا، لا لشيء إلا للعودة إلى السجون!

الغريب: أن الصحف كانت تحسب ماكونتشي تحديداً من مؤيدي فرض نظام صارم في السجون. قد يكون ذلك سوء تفاهم. والغريب كذلك أن السكرتير أعجبه الأمر، ولم يتخذ أي موقف لتصحيح الصورة. على ما يبدو كان يحب أن يكون موضع مديح وتقريظ. كان يشعر أن ذلك سيخدم قضيته العادلة، سواء حدث ذلك خطأ أم صواباً.

النظام جيد، لكن جون يفتقد مديراً تنفيذياً يستطيع الاعتماد عليه؛ لذلك كان الواقع مختلفاً. كان يحدس بوقوع الأسوأ. إذا تحتم عليه أن يراقب كل شيء بنفسه، فإن الشعور بالواجب يلزمه عندئذ ألا يفقد وقتاً، وأن يستخدم كل دقيقة لصالح المستعمرة. كلما زادت جهوده، وجد نفسه عاجزاً عن ملاحقة الأحداث، إلى درجة فقدان الحاضر تماماً. تعدد المهام جعله عصبياً. كان يضبط نفسه وهو يتخذ قرارات قصيرة المفعول، لمجرد أن يزيح ثقلاً من فوق كاهله.

ذات مساء متأخر ترك جين تقرأ رواية مغامرات، وخرج من الدار. انتوى في البداية أن يزور هيبورن الذي وظفه مربياً. لكنه قرر ألا يبحث عن عزاء، بل أن يمعن في التفكير.

حافياً أخذ يسير في حديقة دار الحاكم، رائحاً غادياً، وهو يحتسي رشفات من زجاجة الروم، حتى يكون مستعداً؛ إذا واتته بعض الأفكار الجيدة التي تبعث على التفاؤل. إذا لم يكن البطء الطبيعي كافياً للحفاظ على الهدوء والتركيز، فعليه إذن أن يقدم بعض المساعدة إلى ذهنه. قرر أن ينجز جزءاً من الأمور بسرعة، والجزء الآخر ببطء بالغ متعمد: المزيد من الصمت بين الجمل، المزيد من ثقل السمع عندما يقدم الآخرون تقاريرهم. وعند إبداء طلبات: لن يحصل على موافقة إلا من يكف فترة طويلة عن الإلحاح عليه.

عليه أن يهيئ محمية لنفسه، يستطيع أن يقضي فيها وقتاً بإيقاعه.

ثقلت قدماه من احتساء الروم.

أراد جون أن يبدأ طقس احتساء الشاي.

مهما كان الأمر مُلحاً: ينبغي الحفاظ على وقت الشاي. ينوي أن يرفع فنجان الشاي إلى فمه شيئاً فشيئاً، إلى أن يظن الآخرون أنه ميت، نعم! وسيظل يقلب الشاي، فلا يعلم أحد أيقلبه من اليمين إلى اليسار أم العكس. وستكتب صحيفة «فان ديمنس لاند كرونيكل»: «ها هو الدليل! لم يعد الحاكم يتحرك على الإطلاق!».

ضحك سعادة السير جون فرانكلين ضحكة طفولية، وجلس على السور. راح يؤرجح قدميه ناظراً إلى البحيرة المتلألئة في ضوء القمر. رأى أمامه وجهي مونتاغو وماكونتشي المبهوتين وهما يشربان الشاي. نفخ

زفيراً، ونقل ثقل جسده على أحد وركيه. إنه الحاكم، ويجوز له كل شيء! المطلوب: الهدوء، والوضوح، والخطط المستدامة. عليه أن ينجز ذلك.

لاحظ أن ضحكه أمسى متعباً. بدا له البحر بعيداً مثل نجم، وفي الوقت نفسه بدت الهاوية سحيقة من تحته. هكذا يرى المرء الأمر عند بوينت بوير على حافة الجرف. لكنه لا يفكر مطلقاً في أن يهوي. قال لنفسه: هذه هي ميزة التقدم في العمر من دون الاصطدام بالنظام القضائي. لقد كنتُ محظوظاً.

ليس في حاجة إلى عمود من الماء ينهض من الفيضان، ويرتفع ضد الجاذبية؛ حتى يبتلع أعداءه، ويُظهِر له الطريق الصحيح. ليس في حاجة إلى ساغالس الذي ينظر إليه بوجه بشوش؛ فيشعره بالأمان. لا شيء من كل ذلك. إنه الآن في الثانية والخمسين من العمر، إنه يعول نفسه، ويعول آخرين.

قالت صوفيا مرة: ستون عاماً ليست بالعمر المتقدم. برقة وشعور مرهف. لكن: لماذا اعتقدت أنه في الستين؟

كان يجب أن أتعرف إليها عندما عدت من الحرب، قال لنفسه. آنذاك لم تكن حتى وِلِدت...

عاد إلى المنزل، منتشياً، وشاعراً ببعض القوة.

النظام؟ لقد فشل. وهو لم يعد أيضاً يحب هذه الكلمة؛ لأن خصومه يستخدمونها. هذا المصطلح تحديداً هو الذي يسمح لهم، على نحو من الأنحاء، بأن يظهروا هذه القسوة، وذلك العمى. لا نظام بعد الآن! لن يدعي أنه يملك النظرة الشاملة، بل يجب أن تكون له نظرة شاملة حقيقية، نابعة من دقة الملاحظة والتفاصيل. فن الملاحة.

حافظ على عادته بأن يتم أي شيء بدأه. كان ذلك أمراً شاقاً على البر.

«لكن، ماذا يعني ذلك؟»، قال مدمدماً، «لم تكن طريقي سهلة قط!».

الفصل السابع عشر

الرجل الجالس عند البحر

كان هناك محام في هوبارت تاون لديه طباخ، أحد المُدانين الذي أُرسل إليه ليعمل خادماً في بيته. كان المحامي معروفاً كمناضل من أجل تخفيف العقوبات القضائية، والطباخ مشهوراً كمعلم في مهنته، طعم الصلصة التي يعدها أفضل ثلاث مرات مما يعده زملاؤه في دار الحاكم. يسافر المحامي ويعهد للطباخ بإدارة المنزل. عندما يعود يجد أن جزءاً من الأثاث قد بيع، وأن نقوداً قد اختفت من الصندوق، ولا يعثر على ملفات مهمة جداً لبعض عملائه. يدعي الطباخ أنه لا يعلم شيئاً عن الأمر. يبلغ المحامي السلطات؛ كي يُعاقَب الطباخ، فيُحكَم عليه بالأشغال الشاقة في تشييد الطرق. يتنفس الجاني الشرير براحة؛ لأنه لم يُرسل إلى بورت آرثر.

والآن، يظهر شخص آخر: أمين عام المستعمرة، وهو أحد أنصار الهدوء والنظام، ومدافع عن مبدأ الوفاء للمبادئ. وهو يقدر أيضاً الطعام الجيد. كثيراً ما تذوق ما طبخه الطباخ واقتنع بقدراته؛ ولذلك يحث أحد موظفي القضاء التابعين له على استثناء الطباخ، وإعادة توزيعه للعمل لدى أحد السادة: لدى نفسه.

لا يعجب ذلك المحامي؛ فيتقدم بشكوى لدى الحاكم. بعد فحص الحالة وبعد تفكير عميق يصدر أمراً بإعادة الطباخ إلى قطاع تشييد الطرق وفقاً لحكم المحكمة؛ فيشعر أمين عام المستعمرات بإهانة عميقة: صحيح أنه -مبدئياً- يجب الالتزام بالمبادئ، لكن الطباخ الجيد لا يُعامل مثل أي مُدان؛ فهو محل اهتمام الدولة. وهو -أمين عام المستعمرة- ليس أي مواطن.

هناك أيضاً السكرتير الخاص بالحاكم. إنه يعد نفسه من أشد مناهضي العبودية. لكنه بعد قراءة كتب علمية أصبح يؤمن بتفوق الجنس الأبيض؛ ولذا بدا له: أن استعباد بيض البشرة هو أسوأ الشرور، وهذا ما يجده في نظام توزيع المُدانين الذي يؤيده الحاكم. يرى في ذلك عبودية، في حين يعد كل الأفعال الوحشية التي يقوم بها المشرفون الذين يشعرون بالملل في سجون الدولة محض عدالة قضائية. وبالرغم من أنه محض سكرتير خاص، فإنه يعتقد أن بإمكانه استغلال مكانته من أجل هدف خيّر: عندما أرادت لجنة قانونية في إنكلترا، لجنة نبيلة التوجه، أن تعرف تفاصيل أكثر عن تنفيذ العقوبات في بلد فان ديمن، ألّف السكرتير تقريراً طويلاً حاد اللهجة يُرجِع فيه كل الأحوال السيئة في البلاد -حتى السكري والأمراض التناسلية- إلى نظام توزيع المدانين فحسب، ولدعم نظريته هذه انتقى بعض الاستثناءات، وجعل منها قاعدة. بحسم وضع مذكرته في بريد الحاكم، وعلى هذا تصل إلى لندن بكونها وثيقة رسمية وعليها ختم فرانكلين. بعد عدة أشهر عرف الحاكم من صحيفة «تايمز» اللندنية: أن سكرتيره -مدعياً الاتفاق في الرأي معه- يعتبر المستوطنين «غير قادرين على المعاملة الإنسانية للمُدانين». تملك السخط المستوطنين، وشعروا أن الحاكم غدر بهم. أقال الأخير السكرتير، لكن من دون أن يفضحه علانية. ترجوه زوجته أن يتركه يسكن

مدة محدودة في منزله. يعتبر ملاك الأراضي الكبيرة وسكرتير المستعمرة ذلك علامة على أن الحاكم قد ضحى بسكرتيره الخاص فحسب حتى يبرئ نفسه، لكنه في الحقيقة متواطئ معه. «المُضحَّى به» لا يفعل شيئاً لمواجهة ذلك، بل على العكس يقول أشياء مثل: «أستطيع أن أقول أشياء كثيرة عن ذلك!» يفسر إقالته على أنها فعل ضد التقدم والإنسانية، ويترسخ رأيه في نفسه باعتباره قديساً. ويقول: «هذا الحاكم لا يستحق خدماتي».

في تلك الأثناء يتشاور في لندن وزير الداخلية ووزير المستعمرات حول توصيات اللجنة القانونية. هل يجب إلغاء نظام توزيع المُدانين؟ الحاكم السابق لبلد فان ديمن، وهو نفسه الذي أدخل هذا النظام ومارسه ممارسة غير إنسانية، يعارضه الآن على نحو احتفالي، ويطلق عليه العبودية في أكمل صورها. السير جورج آرثر يعلم تماماً: متى، وكيف يربح استحسان الآخرين.

الحاكم الحالي لا يتقن ذلك مثله، بل هو لا يهتم بذلك. إنه يرى في «أنسنة» نظام التوزيع خير وسيلة في الوقت الحالي لمنح المُدانين فرصة خارج أسوار السجون. في الوقت ذاته ظل يكافح بنجاح الفساد والوحشية في السجون. يحاول أن تكون سياسته قائمة على دعم مواطني المدن والتجار والحرفيين وأصحاب شركات الشحن البحري الذين يتفقون معه في الأهداف، ويقدم طلباً في لندن لتحويل المجلس التشريعي إلى مجلس يتشكل عبر انتخابات عامة.

في الوقت نفسه يلتمس سكرتير المستعمرة -لأسباب خاصة كما يدعي- إجازة طويلة، ويسافر إلى إنكلترا.

فضل جون أن يقول «سكرتير المستعمرة» عن مونتاغو، و«السكرتير

الخاص» عن ماكونتشي. لكن ذلك لم يقدم الكثير من العون. لقد أضحت المصطلحات كلمات كثيبة مثل الأسماء. حتى عندما يقوم المرء بترويض اللغة، فإن ذلك لا يخلص الرأس الساخط، المُعذَّب، من المرارة.

ماكونتشي. مونتاغو. لماذا يشعر بالغضب تجاه سيدين، كل منهما ذو شخصية مريبة؟ هناك مئات، بل آلاف من هذا النوع في العالم.

النظرة الشمولية لم تقدم العون أيضاً. مَن أراد أن يتحرر من المرارة حتى يستعيد نظرته الخالية من الهموم، فعليه ألا يلوذ تحديداً بالنظرة الثابتة.

رفضت لندن تحويل المجلس التشريعي إلى برلمان، وكان ذلك ثمرة جهود مونتاغو. العواقب كانت محرجة: شعر التجار والحرفيون بأنهم تعرضوا إلى المماطلة والخديعة. كانوا يعتقدون أن السير جون لم يقم بالخطوة الأولى إلا لكي يحجب عنهم الخطوة الثانية. قالوا: «في تقاريره إلى لندن يقول كلاماً آخر غير ما يعلنه لنا».

وأخيراً حالة كوفرديل.

بعد سقطة خطيرة من الحصان رقد رجل عجوز يحتضر. أرسلت عائلته إلى د. كوفرديل كي يحضر، وهو رجل مُدان وطبيب في الخدمة الصحية الحكومية، ومسؤول عن منطقتهم السكنية. لا ينتظر الرسول رجوعَ الدكتور كوفرديل الغائب، بل يترك رسالة. لكن الطبيب لا يراها، ربما طيّرت الرياح الورقة. لا يلقى المريض علاجاً ويموت. تستند العائلة على أقوال الرسول بأنه أخبر الطبيب شخصياً، وتطالب بإنزال العقوبة على د. كوفرديل، وفصله من الخدمة الصحية. يدعم مونتاغو الطلب كذلك، فيصدر الحاكم قراره وفقاً لذلك. لكن سرعان ما تظهر شكوك حول مصداقية الرسول. يدافع المستوطنون عن الطبيب الذي لم يرتكب

خطأ حتى تلك اللحظة. يتحدث الحاكم معه، ثم مع المستوطنين، ويريد أيضاً سماع أقوال الرسول. لكن مونتاغو يلح عليه ألا يتراجع عن قراره. أما الليدي فرانكلين فتعد الطبيب بريئاً، وترفض الاحتفاظ برأيها لنفسها. يكتشف الحاكم تناقضات في أقوال الرسول. يعيد الاعتبار إلى الطبيب، ويوظفه مرة أخرى في وظيفته القديمة.

منذ ذلك اليوم لم تعد قراءة صحيفة «فان ديمنس لاند كرونيكل» تسبب له أي بهجة. يصفونه بغير الكفء والمتردد. يتهمونه بأنه أصبح محض خيال مثير للشفقة للبطل القطبي السابق، وأنه مجرد ألعوبة في يد زوجته، ويفعل دائماً ما تأمره به. إنها في الحقيقة هي الحاكم. استخدموا كلمة تحتم عليه أن يكشف عنها في القاموس. ممسوس: «أصابه المس أو الجنون. مخبول. معتوه».

رجّح أن يكون سكرتير المستعمرة متواطئاً مع رئيس تحرير الجريدة. نفى مونتاغو ذلك. لكن أكاذيبه تنفضح بعد مدة قليلة؛ إذ إن رئيس التحرير نفسه كان يتفاخر بالمساندة التي حصل عليها من الشخصية المشهورة. غيّر مونتاغو حجته الآن، وراح يتحدث عن سوء تفاهم. إنه يشارك منذ سنوات في إصدار الصحيفة، وقد أخبر السير جون بذلك منذ فترة طويلة. وهو، إلى ذلك، لا يكاد يتدخل في العمل التحريري للصحيفة. غير أن السير جون يكوّن صورة أخرى عما حدث، فهو الآن يعرف مونتاغو خير معرفة؛ لذلك يعزله عن منصبه.

لكن مونتاغو -بعد أن افتضحت كذبته- يتحرر من الشعور بالذنب ومن بقايا الشكوك الذاتية. تجتاحه مشاعر احتفالية، ويحول الكذب إلى حقيقة. يقول لكل شخص يقابله: إن الليدي تمارس تأثيراً شبيهاً بتأثير الساحرات على الحاكم. وفي الوقت ذاته يتوجه إليها باسم الصداقة،

ويرجوها أن تتوسط من أجله لدى السير جون. يتظاهر بالانسحاق البالغ، حتى إنها تشفق عليه فعلاً؛ فهي تؤمن بالمصالحة بين كل البشر إذا خلصت النية، لكنها لا تحقق نجاحاً لدى السير جون. يكتفي مونتاغو بأن يعتبر تدخلها -خلافاً لأي منطق- دليلاً آخر على تدخلها في السياسة. بعد ذلك يرحل من بلد فان ديمن، ويسافر إلى إنكلترا، وهناك يفعل كل ما في وسعه؛ كي يُعزل جون فرانكلين من منصبه كحاكم: الوزير الجديد للمستعمرات في لندن هو اللورد ستانلي الذي تربطه علاقات ما مع مونتاغو.

يقول جون لصوفيا:

- إنها محض تفاصيل، وتعدادها تضييع للوقت، والحصيلة قد تكون مُرة. لكن الأمر لا علاقة له بالسياسة. لقد ارتكبت خطأ. لماذا لم أقِل كليهما في الوقت المناسب؟

مهرجان تَسمان لعام 1841، يوم المسابقة الكبيرة للقوارب.

مرت خمس سنوات على جون في منصبه. كان يعلم عن خبرة: أن هناك حكاماً أفضل منه. كانت الملاحة مهمة خلال ممارسة مهام منصبه، لكنها وحدها لا تكفي.

في كل مكان في الميناء رفرفت الرايات الزرقاء وعليها زهور الأكاسيا الفضية. كانت الليدي جين قد صممت الشعار بنفسها قبل سفرها إلى نيوزلندا. رافقت صوفيا كراكروفت الحاكم، عندما سار إلى الساحل بدلاً من السيدة الأولى؛ كي يفتتحا المهرجان.

ارتدى زي القبطان الأزرق، وزرر كل الأزرار. على رأسه استراحت قبعة ذات قرنين، غطت صلعته والندبة القديمة على الجبهة؛ لقد أصبحوا في المستعمرة يرون في الطلقة التي أصابت رأسه سبباً لبطء السير جون.

أمسك في يده باقة من الورد الأحمر، «الورد الإنكليزي». ما أكثر الرموز التي يجب على الحاكم أن يراعيها. قالت صوفيا شيئاً. نظر إلى عينيها نظرة قلقة، وسألها:

- نعم؟

قدرة أذنه اليمنى على السمع تزداد ضعفاً. الثقل في السمع، إرث معركة طرف الغار الذي كان كثيراً ما يتصنعه؛ كي يكسب وقتاً قبل أن يجيب، الآن أصبح ثقيل السمع بحق. كان من سوء الحظ أن السيد - بسبب السيف الذي يحمله- يجب عليه دائماً أن يسير إلى يسار المرأة. إنه لا يستطيع حتى أن يقترب من صوفيا؛ إذ إن الموضة الآن هي التنورة المُطوّقة التي تجعل السيدات أكثر ضخامة، وذلك بوضع هيكل ناقوسي من السلك تحت التنورة.

كررت صوفيا الجملة:

- هل أنت حزين؟

- لست حزيناً، لكن ثقيل السمع. وعلى ما أعتقد أقل حدة في البصر بعض الشيء. أصبحت فجأة أرى أكثر وأسرع، لكني لا أرى الأشياء المنفردة جيداً مثل السابق. إنني أنسى كثيراً أيضاً.

كان واعياً بأنه لم يكن ليشكو حاله بوضوح هكذا أمام جين.

تؤمن جين بالخير، وتثق في كل شخص، وتتعامل بمرح. لكنها إذا اصطدمت على الدوام بالصغائر والإهانات؛ فإنها تصبح باردة وتشعر بالمرارة. بحاجبين مرفوعين باحتقار كانت تنزوي، وتبحث عن الحياة في مكان آخر. كانت في تلك الأيام في نيوزلندا، رسمياً لتريح أعصابها، ولكنها في الحقيقة كانت تشعر بأنها قد اكتفت فترة من ضيق الأفق السائد

في تسمانيا. أكان عليه أن يبعدها تماماً عن مشاكل الحكم؟ أم يشركها أكثر؟

سمعوا فرقة الموسيقى العسكرية تضبط آلاتها. بادرته صوفيا عدة مرات بالحديث. ظل جون واقفاً، ثم أحنى أذنه السليمة تجاهها، وقال:

- أود أن أناضل من أجل شيء ما. لكني لا أعلم من أجل ماذا.

راح جون يتأمل أنفها الجذاب، الغاضب. أضحت صوفيا سيدة صغيرة صامتة، تميل إلى التفكير العميق أكثر من الميل إلى الحيوية الطائشة. ولهذا تحديدا كان غريباً بعض الشيء ومؤثراً في النفس أن ينتفخ منخاراها هكذا. حوّل جون بصره عنها وابتسم لطفل. أشرق وجه الطفل رداً على الابتسامة. واصلا السير. قال لنفسه: لن تفارقني هذه الابتسامة. ممسوس، معتوه.

«إنه بلا شك شخصية مترددة، عملاق يريد الخير. لكنه للأسف الشديد يميل إلى إلقاء الخطب الصادقة، وهو ميل وخيم العواقب. لكنه على الأقل ليس شخصية هوائية». كان ليندون س. نيت قد كتب ذلك، وهو أحد محللي الشخصية في صحيفة «ترو كولونيست»(*). وبعد عدة سطور: «يتحرك السير جون بين الناس مثلما يمشي أسد البحر على اليابسة». على الأقل لم يكن نيت صنيعة مربي المواشي، وهذا ليس بالشيء القليل. لكن، أليس بإمكانه أن يكتب شيئاً أفضل من مجرد الإعجاب تارة بحاكم يواجه متاعب، ثم السخرية منه تارة أخرى؟ ألا يستطيع أن يناضل على الجانب الصحيح، بدلاً من أن يكتب فحسب عن كل شيء؟ على الأرجح، هو لا يريد شيئاً آخر. قال جون لابنة أخته:

- إنك تحملين بداخلك منذ فترة طويلة ما ستناضلين من أجله.

(*) True Colonist.

هل تفهم صوفيا مثل هذه الجمل؟ الخبرة التي مر بها تفضي إلى: أن لا إنسان تقريباً يفهم ما يُقال له. مع أن هدف كل شخص هو الفهم: وجميعهم يغضبون إذا أعاقهم أحد عن الوصول إلى هذا الهدف. حتى الليدي جين.

لكن صوفيا كانت تريد التعلم منه. وهي بعد الدكتور أورم ثاني إنسان في حياة جون يريد أن يتعلم منه بجدية. في الآونة الأخيرة وضعت البطء هدفاً لها، واعتادت أن تتحرك ببطء أيضاً. حتى الحركة البطيئة تبدو جميلة لديها.

حان الوقت. اقترب جون من الحاجز المعدني، وألقى نظرة على الحشد المنتظر:

- باسم صاحبة الجلالة، الملكة...

وقفة قصيرة من أجل الملكة.

- أُعلِن افتتاح المهرجان في الذكرى السنوية المئة والتسع والتسعين على اكتشاف تسمانيا!

صيحات تهليل، صواريخ نارية، ثم انطلقت الفرقة العسكرية تعزف. عاد للجلوس على المنصة بجانب صوفيا، ثم رفع المنظار المكبر، وانتظر إشارة القارب رباعي المجاديف. كان المنظار ممتازاً. شاهد جون خيمة نصبت كي يحتسي الناس البيرة داخلها، وأكشاكاً لتقديم الجبن، وأخرى للعروض المسرحية أو للتصويب، ورأى أطفالاً وزهوراً. لدى أقل حركة كان المنظار يتصيد مئات من الوجوه التي تنظر إلى الأعناق الممدودة على خط البداية. على طول رصيف الميناء تزاحم الناس، ولم يقلّ عددهم إلا عند اللسان الممتد في البحر. وهناك، في الخلف، كان شخص يجلس مرتفعاً قليلاً فوق السور. كان هو الوحيد الذي لم ينظر تجاه خط البداية،

بل إلى البحر. من الواضح أن الهرج والمرج لا يعنيانه في شيء، كان ينتظر شيئاً أهم، وربما رآه يأتي. المنظار جيد، لكن الرجل يجلس بعيداً جداً، المرء بالكاد يرى ملامح وجهه. تعرّف جون إلى أنف مقوس وجبهة قوية. رجل طاعن في العمر. كان ينظر، ليس «مثل نسر»، بل «مثل نسور». لاحظ جون أن المنظار يهتز أمام عينيه.

- مستر فورسترا

انحنى عليه رئيس الشرطة:

- صاحب السعادة؟

- تناول منظاري! أترى العجوز عند اللسان؟

بدا مستر فورستر كأنه لم يمسك في حياته يوماً بمنظار. فترة أبدية راح يضبط المسافة وحدة الصورة وهو يمسح الأفق بالمنظار، إلى أن رآه.

- هذا مسجون أُفرج عنه منذ فترة قصيرة.

- اسمه؟

- على الأرجح اسم زائف. معذرة يا صاحب السعادة، لكنه أطلق على نفسه جون فرانكلين.

- ولماذا تقول أطلق؟

لم ينتظر جون الإجابة. سمع أصواتاً مبهمة تسأل شيئاً أو تلقي التحية، وفجأة لاحظ جون: أنه نهض منذ فترة، وسار صوب اللسان، ماراً بخيمة البيرة وكشك الجبن. قبل أن يصل إلى الرجل الطاعن في العمر بعشر خطوات توقف.

- شيرارد لوند؟

لم تصدر ردة فعل عن الرجل، راح ينظر إلى البعيد، ويأكل. كسر

قطعة صغيرة من الخبز الذي كان يحمله في يسراه، ووضعها غريب، أين وضعها؟ لم يزل جون يراه من الجانب فحسب، من جانب وجهه الأيسر. بدا كأن الرجل يضع قطع الخبز في أذنه اليمنى. من خلفه سمع جون صوت مستر فورستر:

– عليك ألا ترتعب؛ فالرجل...

تذكر جون الاسم الآن وناداه:

– جون فرانكلين؟

التفت الرجل برهة فحسب، وفوراً واصل النظر إلى البحر. سار جون إليه من خلف ظهره، ثم وقف بجوار الناحية اليمنى من الرجل، ورفع قبعته. تحت القبعة الهابطة ظهر وجه شيرارد، بوصة بعد بوصة: شعر أبيض أشعث، والجبهة سمراء سمرة خفيفة، وكلها تجاعيد، وتحت السوالف كانت بشرته بيضاء على نحو غريب، وندبة، والآن ظلت الصورة ثابتة أمام عينيه، وأخفت كل ما عداها. هذا ممكن إذن: هذا ما فكر فيه جون المرة تلو الأخرى. ذكره وجه شيرارد بالكابوس الذي تحول فيه فجأة الشكل المتماثل إلى شوك وشظايا. إذ لم يكن ثمة وجه للرجل.

لحم الوجنة اليمنى لم يكن له وجود، ربما أزالته ضربة سيف، وربما احترق. الوجنة لا وجود لها، الفم خاو ليس فيه سوى بضعة أسنان.

همس مستر فورستر:

– من المرجح أنه كان بحاراً خلال الحروب النابوليونية. أما الآن فهو –معذرة– ممسوس. لا يتحدث مع أحد. قضى خمسة عشر عاماً في بورت آرثر.

– لماذا؟

جلس جون بجانب شيرارد، ووضع القبعة على رأسه، وأرسل النظر هو أيضاً إلى البحر.

أجاب مستر فورستر:

- قرصنة. عندما ضبطته فرقاطتنا، كانت بحوزته سفينة إنكليزية من نوع البريغ، تبحر في اتجاه جنوب الأطلسي.

- اتركنا وحدنا. وأبعد الجميع عن هنا. سآتي فيما بعد.

جلسا صامتين. واصل شيرارد تقطيع الخبز، ووضع القطع في جانب من وجهه. كان يدخل اللقيمات إلى عمق وجهه، ثم يمضغها، رافعاً كفه إلى أعلى حتى لا تسقط مرة أخرى. على ما يبدو كان قد وجد سلامه الداخلي. لا بد أنه ينتظر شيئاً، لكن دون أي عجلة. ظلت عيناه مثبتتين على الأفق، لكن ليس كمَن ينتظر الأمر الحاسم في اللحظة التالية.

فكر جون في جزيرة ساكسمبرغ التي لم يعثر عليها أحد.

آنذاك قال شيرارد: «إذا لم يجدها أحد، فهي لي».

- إلى أين تريد الذهاب يا شيرارد؟ إلى ساكسمبرغ؟

لا ردة فعل. ألقى جون نظرة أخرى إلى جانب الوجه المدمر، وحاول أن يعرف ما المرعب حقيقة في منظر كهذا! كلٌ يريد أن يبدو له الوجه الذي ينظر إليه جميلاً وبشوشاً. كلٌ يتمنى أن يرى نفسه منعكساً عليه انعكاساً لطيفاً، ويُصدم عندما يرى وجهاً يبتسم له في سخرية أو يهدده، إذا بدا أنه يتذمر ويلعن ويسب، بأسنان جمجمة الميت. هذا وحده هو السبب! إذا عرف المرء ذلك، كان من الممكن تحمل وجه شيرارد.

بالرغم من ذلك لم يستطع جون أن يسيطر على مشاعره التي لم يكن لها علاقة بالوجه إلا ظاهرياً. شعر أنه قَلِق «كأن الريح تحته» أكان حزيناً

أم سعيداً؟ وهل هذه شفقة أم فضول؟ ما يعتمل في رأسه، لم يكن مُعذِباً بسبب غرابته. لم تكن هذه معركة، يشبه الأمر بالأحرى مياهاً تحرك الرياح سطحها، والأفكار كانت تفور مثل زبد الأمواج بالقرب من الشاطئ.

كلهم رحلوا، قال لنفسه: ماري روز، وسيموندس، وموكريدج، وماثيو. إليانور أيضاً تركتني، لقد استبقت بسفري رحيلها فحسب. وشيرارد عاد، لكنه في الحضيض بعد أن نال ضربات القدر ولكماته، سجين سابق يحمل اسمي، والسجن أشرِفُ عليه أنا، والعقوبة صدرت باسمي.

تساءل جون فجأة عما إذا كان إنساناً خيراً. هذا سؤال من الأسئلة العديدة التي لم يجب عنها، تلك الأسئلة التي تنساب مع تيار أفكاره وتصطدم بفكره مثلما تنساب الرمال مع التيار وتضرب الشاطئ. أراد جون أن يسمح بكل سؤال، وأن ينتظر إجابته بثقة. قال لنفسه: لم أكن خيّراً قط، والبطء أيضاً لا يجعل من المرء خيراً. وكان عليّ في كثير من الأحيان أن أكون أكثر شراً أيضاً.

بدون أن ينظر إليه، مد لوند يده بالخبز حتى يكسر جون منه قطعة. المؤونة التي ادخرها لوند في حالة المجاعة، «ميناء فرانكلين»، الثلاجة، إشباع خمسة الآلاف إنسان. استحضر ذهن جون الآن كل شيء. تناول الخبز ومضغه ودموعه تتساقط. وفوق كل ذلك، وجد نفسه يضحك أيضاً. كان ماكونتشي ومونتاغو بعيدين تماماً، وكذلك السياسة التسمانية.

جلس شيرارد لوند في سلام يراقب الأفق. صخرة على الشاطئ، لا تتزعزع. لقد وصل إلى هدفي، قال جون لنفسه.

وضع يديه أمام عينيه ناظراً بانتباه إلى الظلام. عندما تلفت حوله، لم يعلم كم من الوقت مضى. أمسى كل شيء واضحاً: الأطفال، والقوارب،

والأكشاك التي تقدم عروضاً مسرحية. الوجوه التي كانت تتطلع إليه بدت بشوشة. شعر باستيقاظ تام لكل حواسه، وبالحيوية، وبالامتنان لحياته، وبالقوة في الذهن والبدن. وأحس بنفسه شاباً على نحو غريب.

جاء فورستر، وقال:

– صاحب السعادة، توزيع الجوائز! الفائزون على أتم استعداد.

ضحك جون فحسب، ثم قال:

– الفائزون بإمكانهم الانتظار!

انتقل شيرارد ليسكن في دار الحاكم. لا يعلم أحد ما إذا كان يعي ما حوله، وبأي قدر. في أثناء النهار كان يجلس دائماً في الموضع نفسه على الشاطئ، بنظرة يقظة إلى حد غريب. «لن يعيش أكثر من ستة أسابيع»، رجح د. كوفرديل الذي فحصه بناء على توجيهات من الحاكم، «مرضه لا شفاء منه. لكنه يبدو أكثر رضا منا جميعاً».

غمغم جون:

– ربما يكون قد عثر على الحاضر، لن يموت كمكتشف على كل حال.

مندهشاً سدد د. كوفرديل إليه نظرة متفحصة.

اعترف جون لنفسه فحسب أنه يحب صوفيا، ولم يبح لها بشيء. سار إلى يمينها، بدون سيف، عبر المتنزه، وعندما كانت تسير وحدها، كان يتابع مشيتها ببصره من النافذة. كان يشرب معها الشاي، ويقلب فنجانه بلا نهاية، ويحكي لها عن ويليام وستال وعن الخطوط الساحلية في القطب الشمالي. لم يسمح لنفسه بأكثر من ذلك. إذا كان قد وجد الحب مرة أخرى، فباستطاعته أن يخفيه في المكان الملائم له. إن كل ما يفعله

يستمد شرفه من كونه أمراً يستمر طويلاً، أو يؤتي ثماره على المدى البعيد. لم يكن يعتقد أن استثناءات هذه القاعدة قد تجلب السعادة. عندما وقفت صوفيا في إحدى الأمسيات وحدها معه في الصالون واحتضنته فجأة، ربت على شعرها، وراح يستعيد بسرعة النظام الداخلي الكامل للمجلس التشريعي حتى يحتفظ بهدوئه. وفي نهاية كل مادة كان يقول: «زوجتك اسمها جين!»، ثم طبع قبلة على مفرق شعرها. وكان هذا هو كل شيء.

«بالتأكيد سينقلونني قريباً من منصبي، عليّ إذن أن أنسى كل الخطوات التكتيكية». لم يعد جون في حاجة إلى أن يبالي برأي السادة الفرسان وصحفهم. كان يريد استغلال الوقت المتبقي حتى يترك آثاراً تدوم. وضعت خرائط جديدة لساحل الجزيرة بأكمله، وصححت الخرائط البحرية. أُعفي صيادو الحيتان وشركات الملاحة البحرية المحلية من رسوم الميناء كافة. في إثر ذلك نما عدد السفن بسرعة هائلة. صرح جون علانية: «هذا البلد يحتاج إلى بحارة أكثر!». رغماً عن أنف بعض الإقطاعيين الذين احتجوا احتجاجات غاضبة، فعل جون كل ما في وسعه حتى يمحو صورة المستعمرة العقابية عن الجزيرة. تقدم إلى لندن بطلب لتغيير الاسم: بدلاً من بلد فان ديمن، يجب أن يُطلق على الجزيرة مستقبلاً تَسمانيا؛ فالتجار والحرفيون ومستوطنو المدينة كانوا يطلقون على أنفسهم بفخر «تَسمانيين»، وكانوا يكرهون الاسم القديم. لم يعبأ جون بالمقاومة في كلا المجلسين، وأسس متحفاً تَسمانياً للتاريخ الطبيعي، ورغم فقر الخزينة أتم تشييد مبنى البرلمان، ودعم المسرح. اشترى أرضاً عند نهر «هون»، وأجرها بشروط ليبرالية مقابل القليل من المال إلى سجناء سابقين. أسابيع كان يتحدث في كل مساء مع علماء ورجال الكنيسة ومستوطنين عن قضايا التربية؛ إذ إنه أراد إنشاء مدرسة.

عندما عادت جين من نيوزلندا، كان يستشيرها على نحو استعراضي في شؤون الحكم كافة. وبالرغم من أنه لا يحق لها التصويت في كلا المجلسين، فقد كانت تحضر كل جلسة. أضحت أهميتها غير الرسمية شيئاً بديهياً. وهكذا خرست تدريجياً الأصوات القبيحة، وقلّت الشائعات. بدأ الناس يدركون: أن اختيار الحاكم مستشارين يعتبرهم أكفاء ليس علامة ضعف، بل من ملامح ممارسة السيادة.

شحّت النقود في المستعمرة نظراً لهبوط أسعار الحبوب والصوف، كانت فترة سيئة. ومما زاد الطين بلة أن لندن أرسلت عدداً من المُدانين يفوق أي وقت مضى، وفي الوقت نفسه ألغت نظام التكليف تماماً. كان لا بد من بناء سجون جديدة، وتوفير المزيد من الموارد من أجل رعاية المساجين. بقدر إمكانه استخدم فرانكلين حقه في العفو عن الجرائم البسيطة، وراقب الحراس بريبة، وعاقب المخطئين. لم يقف في مواجهته سوى الإقطاعيين، وفلول رجال آرثر، وموظفين في السجن. بلا مبالاة قال لجين:

– لن يكفي عددهم لإسقاطي.

فقالت له:

– قبل ذلك سنجوب الجزء المجهول من الجزيرة طولاً وعرضاً.

– ونتشاور خلال ذلك حول المدرسة الجديدة.

جلب لهم شيرارد الحظ، أو –وربما هذا هو الأرجح– أبعد عنهم سوء الحظ وأولئك الذين يجلبونه. لم يكن يقول شيئاً، وربما أيضاً لم يكن يفهم شيئاً، لكن كل مَن يقترب من دار الحاكم كان يشعر بأثر ما: صدمة، أو حزن، أو تأمل، أو هدوء مع انشراح في الصدر، أو بهجة تدعو إلى الفعل.

فكر جون في إشراك شيرارد في جلسات المجلس، لكنه تخلى عن الفكرة نظراً إلى جنونها الفائق. واحتراماً أيضاً لعشق شيرارد للبحر: ستكون الجلسة بالنسبة إليه مجرد وقت ضائع.

لكنه لم يبدُ مشرفاً على الموت رغم كلمات الطبيب القاطعة. كان يشعر ببهجة واضحة عند رؤية كل سفينة تقترب من المرسى في مصب نهر ديروِنت. لم تكن سفن مساجين فحسب. السفينة العتيقة «فيرلي» كانت تنقل علماء كثيرين، من بينهم الجيولوجي البولندي شترتسليكي، وكيغليفتيش مسّاح الأراضي عاشق الدقة الذي لا يكل أبداً، والذي يعاني دائماً. بعد عدة أسابيع رست سفينة «إريبوس» و«تيرور» اللتان يقودهما جيمس روس، صديق جون، الذي يريد استكشاف القطب الشمالي. ومن أجله شيد جون على حسابه محطة مراقبة فلكية.

على ما يبدو تجذب نظرة شيرارد الطيبين من وراء الأفق، في حين تبعد الآخرين بعيداً عن مجال النظر.

قالت الليدي متمعنة في التفكير:

– يجب أن تعلّم المدرسة الجديدة الاستمرارية، من دون الإصابة بالضجر؛ فالضجر تحديداً هو ما لا تحتاج إليه المدارس.

كان المطر فظيعاً. لم يكن ممكناً إشعال نيران إلا بالكاد. لكن غافيغان، أحد المساجين، بذل أقصى جهده. وكل المسافرين كانوا يشعرون بالسعادة كالأطفال. «مرة أخرى يفعل الحاكم ما يحلو له»، علقت صحيفة «كرونيكل». «بدلاً من أن يستعد لرحيله الذي قد يكون قريباً، فإنه يقوم برحلة مغامرات في البراري مع زوجته وعصابة من المساجين!» بدأت النار تصدر دخاناً على كل حال. قال جون:

- على التلاميذ أن يتعلموا الاكتشاف. لا سيما طريقتهم الخاصة في الرؤية، وسرعتهم الخاصة، كلٌّ بنفسه.

لزمت جين الصمت؛ لأنها كانت تعلم أن جون لم ينته بعد من كلامه؛ إذ كان لا يزال يثبت بصره على نقطة محددة. واصل جون قائلاً:

- المدارس السيئة تعيق كل تلميذ عن أن يرى أكثر من معلمه.

- من ناحية أخرى لا يستطيع أحد أن يجبر المعلمين على أن يروا أكثر!

- يجب أن يتمتعوا بالاحترام، وألا يحثوا أحداً على السرعة. ويجب أن يكون بمقدورهم الملاحظة.

- هل تريد أن تفرض ذلك؟

- أن أعرض عليهم ذلك. الاحترام يأتي من الإدراك. لا يجوز أن يكون المعلمون معلمين فحسب، بل عليهم أن يكونوا مكتشفين أيضاً. كان لدي معلم كهذا.

قالت جين:

- لا نستطيع كمؤسسين أن نفرض سوى المواد المدرسية.

- ولا حتى هذه، إذا كان للكنيسة رأي آخر! الكنيسة تريد اللغة اللاتينية.

- وماذا تريد أنت؟

- كل ما يمنح التلميذ فرصة: رياضيات، ورسم، وتأمل الطبيعة في المقام الأول.

اشتدت العاصفة المصحوبة بالأمطار؛ فانطفأت النيران. أغلق جون مدخل الخيمة. وضعت جين رأسها في الفجوة بين كتفه وعنقه.

- عليك أن تكتب كل هذا إلى الدكتور أرنولد في رَغبي. قد يعرف ناظرَ مدرسة كفؤاً.

أثبت السجناء جدارتهم، لا سيما غافيغان، أكبرهم سناً، وهو رجل بدين، قوي البنية بعينين حمراوين من يقظة حواسه وحضور بديهته. فرنش أيضاً كان شخصاً متزناً ويعتمد عليه، كان يبدو كأن أحداً قد وضع رجلين متوسطي القامة أحدهما فوق الآخر: لا بد أن طوله يبلغ سبعة أقدام وبوصتين. عند عبور الأنهار كان يثق في طوله الفارع، وكان يغوص قليلاً، لكنه لا يفقد أبداً الأرض تحت قدميه. العشرة الآخرون بذلوا في كل وقت أقصى جهودهم، كما لا يفعل سوى السجناء الذين يأملون في الحفاظ على كرامتهم بضعة أشهر.

التوت قدم الليدي في أحد الأدغال، وتحتم حملها فترة على محفة خشبية. لم يتوقف المطر؛ فامتلأت الأنهار وفاضت. الوقت ضيق: سفينة من طراز سكونة تنتظرهم منذ أسابيع في مصب نهر الغوردون. تأخروا كثيراً. ثم صادفهم نهر، يُدعى فرانكلين، لا يمكن عبوره بدون قارب. إذا خذلتهم السفينة؛ فقد ضاعوا، ففي تلك الأثناء كانت حتى الجداول – التي عبروها بسهولة– قد أمست أنهاراً عارمة. لا مجال للعودة. قال جون:

– لا بد أن يعبر أحد، ويبلغهم.

بعد تفكير طويل قال فرنش:

– سأحمل غافيغان عبر النهر، قدماي تصلان إلى القاع، وثقله يمنحني ثباتاً.

حمل الرجل الثقيل على كتفيه، وخاض المياه. اكتسحتهما المياه، واختفيا في الشلالات، لكن كليهما وصل حياً إلى الضفة الأخرى، وصاحا بعد أن صنع كل منهما من يديه بوقاً: «كوويي»، وهي صيحة تهليل باللغة التسمانية. قطعا الخمسة عشر ميلاً حتى نهر الغوردون في أقل من أربع

ساعات، ووصلا إلى منعطف النهر في الوقت الذي كانت فيه السكونة على وشك رفع المراسي، فاستطاعا أن يوقفا البحارة، وأخذا منهما بعض المواد الغذائية، وبعد خمس ساعات عادا إلى نهر فرانكلين وصاحا: «كوويي».

بعد يومين كانوا قد انتهوا من صنع زورق، واستطاعت المجموعة أن تعبر النهر دون بلل. انتهت الرحلة نهاية سعيدة. أصدر جون أمراً بإعفاء المنقذين من قضاء بقية العقوبة. وما إن تحررا، حتى، تزوج كل منهما. كان ذلك أيضاً شيئاً يختلف فيه السجناء عن المواطنين: لم يكن الزواج مسموحاً للمساجين.

لم يعد شيرارد قادراً على السير إلى الضفة؛ كي يصد عنهم المخاطر. تحتم عليه أن يعتاد مخيم المرضى، وفعل ذلك بدون مقاومة. كان عام 1843 هو عام وفاة شيرارد. شيئاً فشيئاً كان يبدو حقاً مثل نسر، وشاحباً مثل الورق العتيق المصفر.

أمام هوبارت تاون ظهرت سفينة أنزلت إلى اليابسة رجلاً، لم يتوقف عن التعجب. سأل عن الطريق إلى دار الحاكم، ولدى كل إجابة كان يردد: «غريبة، غريبة!». طلب التحدث مع السير جون، وأدخلوه أخيراً، فذكر اسمه: «إردلي، إردلي»، قال كأنه ينتظر رد فعل. هز جون رأسه بأدب فحسب، وواصل التطلع إليه. «إردلي، إردلي»، همس الآخر مرة أخرى. شكره جون على تلطفه بتكرار اسمه، ورجاه بأن يكف عن ذلك. فرد الآخر:

– اسمي إردلي، أنا خليفتك في حكم بلد فان ديمن. هنا رسالة اللورد ستانلي.

المرجح أنه كان يتوقع أن يدعو جون فوراً كل الموظفين؛ ليعرفهم به

في أجواء احتفالية فخمة، لكن جون قهقه عالياً فحسب، ولم يعد يريد أن يتوقف عن الضحك. وفي النهاية هز كتفيه قائلاً:

- لا بد أن مستر مونتاغو قد نجح في إلصاق كل عار بي. كيف فعل ذلك؟

ثم شرع يحزم حقائبه.

بقي شيرارد في تسمانيا ليموت فيها.

عمل هيبورن في وظيفة مساعد معلم في المدرسة الجديدة. بكت إيلا الصغيرة؛ لأنها تركت هناك حصانها الصغير، وبكت صوفيا؛ لأنها كانت تعلم أن الرجل الذي تحبه قد عومل معاملة ظالمة ومهينة. صاحت وهي تنتحب: «لو كنتُ أنا الملكة!»، أما جين فكانت تضحك، وتلعن، وتنظم عملية نقل المتاع كلها بنظرة شاملة.

في يوم الوداع ازدحم الشاطئ والميناء، كما لم يحدث من قبل إلا في أيام المهرجان. أحصى جون ثلاثمئة فارس، وأكثر من مئة عربة تجرها الخيل. أتت من أماكن بعيدة عائلات بأكملها من المستوطنين؛ كي يلوحوا له. عدد مخيف من النساء والرجال صافحه، وكثيرون ذرفوا الدمع. وتجمع سجناء سابقون، وبحارة، وصغار الفلاحين، وصبيان الخياطين، وصائدو الحيوانات ذات الفراء، وبينهم د. كوفرديل ومستر نيت الضخم من صحيفة «ترو كولونيست» الذي اندفع في اتجاهه وأمسك يده مصرحاً:

- إذا عرف هذا البلد يوماً الطريق إلى الكرامة والجيرة الطيبة؛ فلن يحدث هذا إلا إذا اقتفى الآثار التي تركها هنا صاحب السعادة، صاحب الفكر النبيل والصبور!

يد نيت كانت مبتلة بالعرق. لكن ذلك لم يُفقِد كلماته الكبيرة السامية شيئاً من أثرها المعزي. وضع جون اليد الرطبة على قلبه، وانحنى قائلاً: «كل ما أردته هو أن يحصل كل إنسان على فرصة».

الفصل الثامن عشر

اريبوس وتيرور

ثبّت جون فرانكلين عينيه على الوجه المتعالي لوزير الخارجية ووزير المستعمرات، ثم طلب توضيحاً:

– لماذا، يا سيدي اللورد، تصدقون حكايات مستر مونتاغو التي تفتقر إلى البرهان، وتتصرفون وفقها من دون الاستماع إليّ؟

رفع اللورد ستانلي –وهو دوق ديربي الرابع عشر، وكمشرف على المستعمرات البريطانية هو في الحقيقة أعظم رجال الأرض نفوذاً– حاجبه الأيمن على نحو رائع. وهذا أمر يتقنه اتقاناً مقنعاً: كان بإمكانه رفع كل حاجب على نحو مستقل عن الآخر.

– لن أعطيك أي توضيح. أنا مدين للملكة أو لرئيس الوزراء على أقصى تقدير بتقديم توضيحات.

كان يعد مراجعة قرار اتخذه بالفعل أمراً دون مستواه. ذكّر ستانلي جون بأبيه في الزمن الماضي، عندما أحضره من سكيغنيس، ثم حبسه في إحدى الحجرات. في هذه الأثناء أصبح يكاد يرى نفسه أباً لذلك الأب، واللورد

قد يكون ابنه، ابناً غبياً لا رحمة في قلبه. كانت تلك إحدى المقابلات التي يعتقد فيها كلا الطرفين: أنه لا يمكن الحفاظ على كرامته إلا على حساب الآخر.

في مواجهة نظرة الوزير الزجاجية، قال جون الجملة التي فكر فيها طويلاً استعداداً لمثل هذا اللقاء:

– ليس لي أن أنتقد إجراء اخترتموه، لكنني أود أن أبدي ملاحظة، وهي: أن شيئاً كهذا ليس له شبيه في تاريخ وزارة المستعمرات حتى الآن.

عقب ذلك نهض، وانحنى، واستأذن الانصراف. خلال ذلك قال لنفسه: إنني أعرفك، لكنك لا تعرفني. قد أتمكن من أن توجه لك الملكة ورئيس الوزراء هذه الأسئلة نفسها.

بعد هذه المقابلة تجول جون ساعات في شوارع المدينة. لم يشعر بأنه قادر على قبول الهزيمة؛ فأخذ يسلح نفسه بعبارات عديدة تصيب في الصميم. بين الحين والآخر كان يتعثر بالأحجار البارزة من أركان البنايات، أو يدهس قدم أحد الذين يخرجون تواً من محل ما. نال نصيبه من الخدوش والأورام من أجل التوصل إلى عبارات مصقولة مختارة بعناية. لكنه لم يفعل ذلك إلا لكي يوصلها إلى اللورد ستانلي بأي طريقة من الطرق.

شيئاً فشيئاً هدأت أعصابه. بدا له غضبه ضئيلاً في لندن هذه. كان من الصعب على كل حال أن يركز المرء على ذاته، عندما يرى المرء، ويقرأ، هذا الكم كله. الشارع صرخة من حروف كثيرة: هنا كانوا يهللون داعين الناس لركوب عربات رخيصة، هناك كانوا يقفون في صفوف من أجل الحصول على جِن نقي وتبغ فاخر، وبينهما كانوا يتجمعون حول لافتات

من القطن، ويتمايلون على أرجل خشبية: مظاهرة أنصار حق الانتخاب العام. وجد جون صعوبة في الرؤية والقراءة في الوقت نفسه، لا سيما أن كلمات جديدة معقدة كانت دوماً تبرق في وجهه. إحداها كانت «الداجيرية»(*). اقترب جون، وقرأ ما كُتب بخط صغير: «احصل على صورة لك بريشة الطبيعة!». بعد ذلك، لدى صانع النظارات، لافتة أخرى: «عدسات للعيون، الهدية التي تبهج المتقدمين في العمر!». وعلى ما يبدو كانت الدعاية ناجحة. النظارات السميكة، التي كانت فيما مضى رمزاً لافتقاد النظرة الشاملة، أو في أفضل الأحوال حكراً على العلماء، أصبحت الآن تزين وجوهاً عديدة، ومنها وجوه شابة أيضاً.

شاهد جون أيضاً جنازتين مهيبتين، ولاحظ أن المعاطف لم تعد وحدها في الآونة الأخيرة ضيقة عند الخصر، بل التوابيت أيضاً. كأنهم يحملون «تشلو» ضخم إلى المقبرة.

قضى ساعة في إحدى المكتبات. هناك روايتان لبنجامين دزرائيلي الذي تعرف إليه جون وهو بعد صبي، أما ألفريد تنيسون – وهو أحد أقارب جون من لينكولنشاير – فهو يكتب قصائد جيدة، أصبحت تباع حتى في لندن.

تجول في الميناء الذي كانت تحيطه غلالة رائحة الفحم المتصاعدة من السفن البخارية. لكن الرؤية لا تزال واضحة: صاح أحد عمال الحوض الجاف: «انظروا، إنه فرانكلين! الرجل الذي أكل حذاءه».

بخطا ثقيلة واصل جون سيره حتى وصل إلى بِثنال غرين، حيث فاحت

(*) تُعتبر الداجيرية (أو الداجيروتيب Daguerréotype في الترجمات الحرفية من الفرنسية، نسبة إلى مخترعها الفرنسي الرسام لويس داجير) أول طريقة تجارية للتصوير في القرن التاسع عشر.

الرائحة العفنة الصادرة عن شقق الأقبية. بصبر استمع إلى فتاة نحيفة، في الثالثة عشرة على أقصى تقدير، أرادت دعوته إلى إحدى تلك الشقق. لقد رُحّل اثنان من أشقائها؛ لأنهما سرقا من أحد المحال ساق بقرة مسلوقة، وأكلاها. بسرور ستخلع ثيابها من أجل السيد، ببطء شديد، وستغني له أغنية، وكل هذا مقابل بنس واحد. شعر جون بالتأثر وبانقباض في صدره، وأعطاها شلناً، ثم فرّ من أمامها مضطرباً. نادراً ما كانت الشبابيك مغطاة بألواح زجاجية هنا، أما الأبواب فلا ضرورة لها؛ لأن اللصوص لن يجدوا شيئاً. على ما يبدو زاد عدد رجال الشرطة. في كل مكان يقبع رجال يقظون بالزي الرسمي، لحسن الحظ غير مسلحين.

عند محطة «كينغس كروس» سمع جون القاطرات تزمجر، وقرأ صحيفة واقفاً. ثلاثة ملايين نسمة الآن. في كل يوم تُخبز حمولة مئتي عربة محملة بالقمح، وتذبح آلاف الثيران. وما زال ذلك قليلاً.

بالمناسبة، يتكلم المتسولون بسرعة تزيد عن اللازم؛ لا يريدون أن يزعجوا أحداً مدة طويلة. فكر جون: لو تحدثوا على نحو أبطأ، لما كان هناك إزعاج، بل بداية حديث. لكن ربما هذا تحديداً ما يريدون تجنبه.

زار جون في الأسابيع التالية أصدقاءه، أولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة.

قال ريتشاردسون:

– نحن الآن في الستين، عزيزي فرانكلين. سوف يستغنون عن خدماتنا مثل سفن الركاب القديمة. لا تغير الشهرة من ذلك شيئاً.

– أنا في الثامنة والخمسين ونصف!

استقبله الدكتور براون بين الكتب وشتلات النباتات في المتحف

البريطاني. في أثناء الحديث ظل إبهامه احترازياً على صفحة معينة في كتاب ضخم. عندما روى له جون ما فعله ستانلي معه، سحب إصبعه، ثم شعر بالسخط بسبب كلا الأمرين، اللورد المتطاول ورقم الصفحة المفقودة. ثم قال:

- سأتحدث مع أشلي! هذا رجل له قلب طيب، وهو سوف يخبر بيل، ثم نرى. الأمر في غاية السهولة!

عند دزرائيلي الشاب قابل جون الرسام ويليام وستال. أمسى حاجباه الآن دغلاً رمادياً أشعث، كادا يحجبان عنه الرؤية. كان يتحدث حديثاً متقطعاً، في الغالب لا يتعدى كلمة واحدة، لكن بدا عليه أنه سعيد بلقائه. فوراً دار الحديث عما إذا كان يجب على الإنسان خلق الخير والجمال أولا، أم أنهما موجودان في العالم. كمكتشف كان جون يؤمن بالفرضية الثانية. أفضل العبارات كان يتفوه بها دزرائيلي. لم ينجح جون في أن يحفظ حتى عبارة واحدة.

بعد عدة أيام قام جون بزيارة بارو الذي بدا في غاية الصحة، وتحدث بحيوية فائقة، لكنه لم يفهم من الإجابات سوى «نعم» و«لا». لم يقبل «لا» إلا على مضض.

- بالطبع ستقود البعثة يا فرانكلين! «إريبوس» و«تيرور» مستعدتان للإبحار، والمال متوافر، لا بد من اكتشاف الممر الشمالي الغربي أخيراً. وإلا فهي فضيحة! ما هي الأعمال المهمة التي تمنعك عن قيادة البعثة؟

شرح له جون الأمر. فرد بارو وهو يسب، ويلعن:

- هذا هو ستانلي! يفعل كل شيء بيده اليسرى، ثم يريد أن يكون على حق. سأتحدث مع ولينغتون، وهو سيتحدث مع بيل، وبيل سوف يوقف ستانلي عند حده!

أسس بيتر مارك روجيه جمعية لنشر العلم المفيد، وترأس جلساتها، إلى جانب ذلك كان يقوم بأبحاث لغوية. ولم ينس بعد الميوتوسكوب:

- حُلت كل المشاكل، ما عدا تصنيع الصور. ثمة شخص يدعى فويغتلندر، يعيش في القارة الأوروبية، يحاول ذلك بالداجيرية، لكنه لم يفلح. يجب أن يتجمد الممثلون في كل صورة في الحركة الصحيحة، ثم يُسلَط الضوء عليهم. ولكل ثانية يحتاج المرء إلى ثماني عشرة صورة على الأقل. هذه الطريقة معقدة للغاية، وبطيئة للغاية».

كان روجيه قد جاء إلى فرانكلين في المقام الأول؛ لأن الفضول تملكه، وكان يريد أن يرى كيف تبدو جين الآن. أما هو نفسه فكان بلا شك أجمل الرجال المتقدمين في العمر، وأكثرهم أناقة في كل أرجاء البلاد.

في نهاية المطاف قابل جون القبطان بوفورت، المتخصص في المسح البحري في الإدارة البحرية. راح يشرح له جدوله لقوة الرياح التي ينبغي استخدامها الآن في كل سجلات البحرية. احتاج إلى وقت طويل لذلك؛ إذ خطر على بالهما حكايات كثيرة مرتبطة بقوى الرياح المختلفة. عند توديعه قال بوفورت:

- سأروي لبارينغ ما حدث مع ستانلي، وهو سيحدث بيل عن ذلك. الأمر في غاية السهولة! بالمناسبة: ألم تعد تريد حقاً الإبحار إلى القطب الشمالي؟

- جيمس روس سيبحر.

نعم، لدى جون أصدقاء يبذلون جهداً من أجله. مع أنه لا يتذكر أنه فعل من أجلهم شيئاً. وهذه هي الصداقة.

في يناير 1845 حصل جون فرانكلين على رسالة من رئيس الوزراء.

عليه أن يحضر للحديث معه: يوم الجمعة في الحادية عشرة، داونينغ ستريت رقم 10.

قالت له جين:

- لا أعتقد، على كل حال، أنه يريد استثمار أمواله في تسمانيا.

قال السير روبرت بيل:

- خلال كل مساري المهني، لم أقابل أحداً لديه أصدقاء يتسمون بهذا الإصرار والإلحاح. لقد استمعت إلى حكايتك بخمس صياغات مختلفة حتى الآن، وكلها تكيل لك المديح أكثر بكثير مما تفعل للورد ستانلي.

ضحك، وراح يتأرجح على طرف قدميه، ثم واصل قائلاً:

- لكنني كنت أعرف بعض الأشياء عنك، وربما أشياء أكثر أهمية. د.أرنولد من مدينة رَغبي هو أحد معارفي.

أحنى جون رأسه، وفضل أن يلزم الصمت المستحسِن لما يقال. ما زال لا يعرف ما سيطلبه السير روبرت منه، عندما ينتهي من تأرجحه.

أضاف بيل:

- سأقول لك من البداية: لا أريد أن أعلق على طريقة ممارسة اللورد ستانلي لمهام وظيفته، وهو ما لا أستطيعه مطلقاً أيضاً؛ لأنه يبدأ كل الأشياء على نحو مختلف عني. منذ مولده.

حتى لا يحدق في عيني محدثه فترة أطول من اللائق، خفض جون نظره، لكن فقط حتى مستوى الربطة فاتحة اللون التي تربط الياقة المقواة. كانت الياقة ضيقة، إلى حد أن حوافها كانت تنخز على الدوام وجنتي الوزير. دعّم ذلك الانطباع اللائق، المعذّب للذات، الذي أثاره، وكذلك

فعل السروال الضيق والطويل للغاية. ربما كان كل ذلك سيكسب قامة جميلة المزيد من الجمال، لكن قدمي بيل القصيرتين أصبحتا بذلك أقصر مما هما. بدأ جون يشعر تجاهه بمشاعر محبة.

واصل بيل كلامه:

- لقد أوصوني بأن أقدم التماساً إلى الملكة...

وقف الآن على أطراف قدميه، ثم قال:

- لمنحك لقب البارون. لكن ذلك سيكون إهانة للورد ستانلي، وهو شيء مستبعد لأسباب أخرى أيضاً. لكن لدي إمكانية أخرى. فلنجلس!

إنه يشبهني، قال جون لنفسه. النظام بالنسبة إليه ليس أمراً بديهياً. الفوضى تنتشر في رأسه، ويجب عليه أن يجهد نفسه إجهاداً فظيعاً للتغلب عليها. إنسان برجوازي. بمشقة خاض صراعاً؛ لكي يجد إيقاعه الخاص. لقد بحثت طوال حياتي عن شقيق، قد يكون على الأقل بمثابة ابن عم. واصل بيل كلامه:

- لقد قرأت مقالتك بخصوص تأسيس المدرسة. د. أرنولد أعطاني إياها في أوكسفورد. النظرة البطيئة، النظرة الثابتة، النظرة الشاملة، عظيم! فكرة التسامح، المبنية على اختلاف سرعات الأفراد أو مراحل السرعات، مفهوم للغاية. نحن متفقان بشأن المدرسة. التعلم والرؤية أهم من التربية. إنني أتعامل في الوقت الحالي دائماً مع مربين مقتنعين تماماً بما ينادون به، مربين من طائفة الأنغليكان، ومن المنهجيين، ومن الكاثوليك، ومن الطائفة المشيخية. وما يجمع كل هؤلاء، هو: أن الرؤية لا تلعب أي دور، أهم شيء هي الشخصية الورعة.

شعر جون بالدفء من كل هذه الكلمات المتفقة مع رأيه. لكنه ظل

يقظاً. إن كيل المديح له بكونه شخصاً نظرياً، ليس هو كل ما يتمناه شخص عملي. أضاف بيل:

- علينا إدخال المزيد من روح الملاحة في مدارسنا، والتقليل من الروح الوعظية.

سحب ساعته من جيب الصديري، ووضعها على ركبته اليمنى؛ ليرى الوقت. واسع النظر هو إذن. كان جون قد سمع عن ذلك.

- باختصار، مستر فرانكلين: أريد أن أنشئ مؤسسة جديدة، يرأسها مفوّض ملكي لشؤون التربية؛ بذلك أستطيع أن أستجيب لكل تلك المطالب التربوية، والتحكم فيها في الوقت نفسه. الوظيفة الجديدة ستكون مسؤولة أيضاً عن حماية الأطفال والرقابة على الالتزام بشروط أوقات العمل. على شاغلها أن يفحص خطط توحيد المعايير، وتقديم تقرير سنوي شامل عن كل المدارس وعن وضع الشبيبة؛ لذلك أنا في حاجة إلى شخص لا يتعجل شيئاً، ولا يسير وراء أهدافه الشخصية، ولا يمثل مصالح دينية ولا إصلاحية، ولا يتراجع أمام صراخ الآخرين. يجب أن يكون شخصاً نزيهاً يتمتع بسمعة جيدة، وألا يكون اختياره استفزازاً لمجموعة دينية ما. كل هذا ينطبق عليك يا مستر فرانكلين!

لاحظ جون أن وجهه احمرّ، وحاول جاهداً ألا يستسلم تماماً لسروره. على ما يبدو فإن بيل هذا قد اكتشف البطء، مثله، لضرورة شخصية. من الواضح أنه مستعد أن يمنح البطء فرصة للظهور. شعر جون بأنه مثل شخص يسير عبر جدار نحو الهواء الطلق. يوتوبيات حياته أصبحت حاضراً: محاربة الإسراع غير الضروري، اكتشاف العالم والبشر بهوادة وشيئاً فشيئاً. كأن عموداً ناطقاً قد ظهر له من قلب البحر، رأى أمامه آلات ومعدات لم تصنع بغرض الاستغلال، بل لحماية فردية الزمن، محميات

طبيعية للدقة والرقة والتأمل. وبدا له ممكناً أيضاً إنشاء مدارس لا تقمع التعلم، ولا تعلم القمع. ليس هناك إمبراطورية أكثر نفوذاً من الإمبراطورية البريطانية، ولا يوجد رجل أكثر نفوذاً من رئيس وزرائها، وليس ثمة من هو أعلى مكانة من روبرت بيل. إذا كان شقيقاً...

قال بيل وهو يمسك بالساعة مرة أخرى على ركبته:

- خذ ما شئت من وقت قبل أن تجيب. ولا تتكلم عن ذلك مع أي شخص. إذا اشتم أشلي رائحة الموضوع...

انتبه جون مرة أخرى. لورد أشلي، دوق شافتسبري؟ إنه الدوق الذي حارب لإلغاء تشغيل الأطفال. استجمع جون شجاعته، وسأل:

- ليس عليّ أن أنفذ الكثير من الأفكار، أليس كذلك؟

أجاب رئيس الوزراء:

- لقد فهمتني تماماً. المطلوب هو «محلك سر»، لكن بهيبة. التغييرات الفجائية، وتحديداً في هذا المجال، ستكون مخاطر كبيرة. ولكن، لمن أقول ذلك!

فكر جون: إنك في حاجة إلى شخص مسؤول عن كل شيء، لكنه لا يفعل الكثير، ثم نهض. أعليه أن يغمض عينيه، ويوافق على هذا العرض الفاسد؟ الأمر مجز بالطبع. سار إلى النافذة. ورغم نفاد صبر بيل الواضح، فقد تمهل في التفكير. بعد ذلك استدار قائلاً:

- لقد عرضتم عليّ العرض الصحيح، السير روبرت، لكن الدوافع خاطئة، والغرض زائف. بالفعل، علينا ألا نتكلم عن ذلك مع أي شخص.

ثم انحنى، وانصرف.

أول مرة في حياته لا يحتاج جون إلى التفكير طويلاً في الاحتمالات الأخرى كافة. لقد سار مباشرة إلى الإدارة البحرية، وأخبر بارو المندهش أنه من هذه اللحظة مستعد لتولي قيادة سفينة.

وكأن أحداً قال كلمة السر؛ فانفتحت أمامه كل الطرق. في غضون يومين أصبح جون قائد السفينتين «إريبوس» و«تيرور». بدون مقدمات أبلغهم الرجل الطيب جيمس روس: أن عليه لأسباب صحية أن يسلم قيادة البعثة لشخص آخر. لم يكن ثمة شك في أن جون فرانكلين هو أكثر الكفوئين المهيئين لاكتشاف الممر الشمالي الغربي. وهو ما ينطبق أيضاً على السفينتين. كانت «إريبوس» و«تيرور» سفينتين متينتين، كانتا فيما مضى تحملان مدافع الهاون، ثقيلتين بعض الشيء، لكنهما راسختان ورحبتان، ومزودتان بثلاثة صفوف من الأشرعة. لبى له قادة البحرية كل أمنياته فيما يتعلق بالمعدات، بل وأمدوه بمعدات لم تخطر له على بال مطلقاً.

عندما أرادت جين سؤاله حول حديثه مع بيل، أجاب باقتضاب:

- لا شيء مهم. لقد اكتشف البطء.

في عصر الثامن من مايو، استمع السير جون والليدي فرانكلين في إحدى قاعات الموسيقى في «كوين سكوير» إلى ثلاث سوناتات بيانو للودفيغ فان بيتهوفن، عزفها سيد طاعن في العمر، لكنه قوي البنية، يدعى موشيليس. كل النغمات العالية لم ترق لجون، وكان يتمنى أيضاً تريثاً أكبر في النغمات العميقة. لكنه شعر بالسرور لتكرار بعض النغمات التي يمكن أن يحتفظ بها الذهن. لم يكن يتوقع الكثير. صممه أرهقه كثيراً. لا يعرف شيئاً تقريباً عن الموسيقى، واعتقدَ أنه لن يستطيع متابعة الفقرات السريعة؛ ولهذا راح يفكر في إمدادات اللحوم للبعثة. الجودة والتخزين،

نسبة الملح، اختيار المواشي الحية، لا يريد أن يترك للمصادفة شيئاً. لن يقضي المرء شتاءين أو ثلاثة لمجرد أن الحظ يحالفه، لا بد من الإعداد الدقيق لكل شيء.

شعر بمشاعر غريبة لدى سماعه السوناتا الأخيرة التي تُدعى Opus 111.(*) سمت أفكاره عالياً فوق البقر وبراميل التخزين، وغادرت العينان -دون تغيير اتجاه البصر- العازف العجوز والبيانو الكبير. الموسيقى حزينة ولعوب في آن واحد، ساطعة وصافية، الحركة البطيئة تشبه المشي إلى الساحل، مع الأمواج، تشبه آثار الأقدام، والرمال ذات التموجات الرقيقة. في الوقت نفسه كانت الموسيقى تشبه النظرة من العربة التي تجرها الخيل، والرائي له الحرية في كل لحظة في أن يدع البعيد يقترب، أو القريب يومض. أحس جون أنه يتعرف هنا إلى التموجات الرقيقة لكل أنواع التفكير، عناصر المعمار، وتعسفها في الوقت ذاته، حضور كل الأفكار، وتسربها. شعر جون بالتفهم، والتفاؤل. بعد عدة دقائق من آخر نغمة أدرك فجأة: لا وجود مطلقاً للنصر ولا للهزيمة، إنها مصطلحات متعسفة تسبح في تصورات البشر للزمن.

سار إلى موشيليس، وقال له:

- الحركة البطيئة كانت كالبحر، وأنا خبير به.

أشرق وجه موشيليس. يا لإشراقة وجه هذا الرجل العجوز!

- بالطبع سير، البحر، molto semplice e cantabile(**)، مثل الوداع الجيد.

(*) Opus 111: أي: العمل رقم 111 من أعمال بيتهوفن، وهو يشير إلى سوناتا البيانو الأخيرة التي ألفها بيتهوفن، وهي السوناتا رقم 32.

(**) بالإيطالية، أي: بسيط جداً، وغنائي.

عندما انطلقا بالعربة إلى المنزل، قال جون لجين:

- ما زال هناك الكثير. بعد أن أكتشف الممر، أريد أن أتعلم القليل من الموسيقى.

في أستوديو تصوير التقطوا للذكرى صورة داجيرية لكل ضابط على حدة، وكل ضابط صف من المشتركين في البعثة. جلس واحد تلو الآخر أمام الستارة المخملية المتموجة، ناظراً إلى الأمام نظرة مستقيمة ونبيلة. فاحت رائحة كأنهم في معركة، فالضوء الساطع اللازم للتصوير كان ينتج عبر حرق البارود. أبقى السير جون على قبعته؛ ليخفي صلعته. ولهذا، ومن أجله، احتفظوا جميعاً بقبعاتهم فوق رؤوسهم حتى أصغر صف ضابط.

قال مساعد القائد، القبطان كروزير:

- المجموعة فيها أناس ممتازون، هذا الفريق يوزن بالذهب.

أومأ جون قائلاً:

- حقاً، هو كذلك. لحظة من فضلك!

دوّن شيئاً حتى لا ينساه. وبعد ذلك كتب رسالة إلى بيتر روجيه: «إذا استخدمنا الداجيرية في جهاز الميوتوسكوب، فعلينا أن نقلل المدة الزمنية بين اللقطات المفردة جداً حتى لا يغير الناس من وضعهم، ثم يعودون إلى الوضع نفسه لالتقاط صورة جديدة. ربما يمكن التقاط صور كثيرة في كل ثانية؛ كي يظل كافة الممثلين في حركاتهم الطبيعية. وبالمناسبة، فإن شكوكي بشأن الميوتوسكوب ما زالت قائمة. المهم هو استخدام الجهاز لأسباب وأغراض صائبة. بعد عودتي سأعطيك بعض الاقتراحات التقنية».

عندما ابتعدت السفينتان عن رصيف الميناء في صبيحة التاسع عشر

من مايو، استدارت صوفيا وانخرطت في البكاء. رآها جون من السطح الخلفي للسفينة. بدا كأن جين تريد أن تدخل السرور إلى روح صوفيا عبر مزحة. كان جون يعلم أن جين بمرحها غير المتفهم، تستطيع أن تعزيها أفضل من الشفقة العميقة التي يبديها آخرون. أما إيلا فلم تجعل شيئاً يشتت انتباهها، واصلت تلويحها وقفزت ضاحكة مثلما كانت تفعل أمها. الجميع كان يتوقع ألا تستمر الرحلة أكثر من عام. حتى كروزير قال:

- إذا سار كل شيء على ما يرام، فسنصل هذا الصيف.

بعد ساعتين كان رصيف ميناء غرينهيث يقع خلف انعطافة النهر الكبيرة. سُحبت «إريبوس» عكس اتجاه تيار التيمز بواسطة باخرة دولابية صغيرة تدعى «راتلر»، أما «تيرور» فسحبتها سفينة أصغر تدعى «بليزر». لعقود كان جون يعتقد أن ذروة فن الملاحة يتلخص في: أن تصل السفينة وحدها إلى هدفها، مادام المرء لا يضع عوائق في طريقها. لم يقل في يوم: «فلنبحر إلى هناك!»، بل كان يقول دائماً: «لنَقُد السفينة إلى هناك!». كان عليه أن يتعود أولاً على أن تجر سفينة أخرى سفينته، لا سيما وأن قوس السفينة لم يستطع حجب سحب دخان «إريبوس». راح جون يسعل ويزمجر، لكنه في الحقيقة كان سعيداً مثل طفل في سكيغنيس. أمسك كتف فيتزجيمس، قائد «إريبوس»، الواقف بجانبه، وهزه قائلاً:

- إننا نسير بسرعة. لقد نجحت عملية الهروب!

ضحك فيتزجيمس بأدب، فاعتذر له جون؛ لأنه تذكر أن فيتزجيمس يحب صوفيا حباً جنونياً. فقال الملازم:

- سنة أو سنتان وقت طويل.

غمغم جون:

- هذا رأيي أيضاً.

كان يتوقع بالأحرى ثلاث سنوات، وراح يفكر مسروراً في كل المؤمنين بحتمية التقدم الذين يرسمون على الخريطة البحرية لشمال كندا خطاً عبر فوضى الجزر هناك، ويمرون بإصبعهم على الخط، ويعتقدون أن السفن ستتبع هذا الخط، ولكن بسرعة أبطأ، هذا هو كل شيء. الإبحار الشراعي ألف ميل، ثم الانتظار ثمانية أشهر وسط الجليد، ثم الإبحار بضعة مئات الأميال، ثم الانتظار ثانية، إن هؤلاء السادة لا يفقهون شيئاً عن البطء. بعد ثلاثة أشهر من الانتظار لن يفكروا في الحركة أبداً، وسيفقدون رشدهم.

محطة البريد التالية: سترومنيس في جزر أوركني لإرسال الرسائل، وبتروباولوفسكي في كامشاتكا أو هونغ كونغ لاستلام الرسائل. على ظهر السفينة سبع من الحمام الزاجل، وألفان من الكتب، وأرغنان يمكن العزف عليهما بثلاثين طريقة تقريباً، لكن لا يمكن عزف سوناتا بيتهوفن الأخيرة عليهما. كانت المؤن الغذائية تكفي أربعة شتاءات تقريباً. افترقت السفينتان «راتلر» و«بليزر» -رفض فرانكلين منحهما اسماً أنثوياً- عنهما عند جزيرة رونا. وسرعان ما اختفيتا، ولم يتبق منهما سوى سحابتين قذرتين أمام الساحل.

طوال شهر كانت السفينتان اللتان تنوءان بحمولة ثقيلة، والمصفحتان بالنحاس، تمخران عباب المحيط الأطلسي. صلى جون بنفسه اثني عشر قداساً في تلك الفترة، ورغم أن الطاقم لاحظ أن العظات ليست من الكتب الموضوعة لذلك، فقد كان راضياً. قال المشرف على الأشرعة:

- قائدنا فرانكلين هو في الحقيقة أسقف في زي قبطان، ولهذا فهو يتمتع بقداسة أعظم.

في نهاية يوليو رأوا في خليج بافِن سفينة لصيد الحيتان، تدعى «إنتربرايز». صعد الربان على ظهر سفينتهم، وتحدث مع فرانكلين، وقال له: إن الجليد هذا العام أقسى من العام السابق. فقال فرانكلين بجدية:

- إنني واثق من أننا سنستطيع أن نشق طريقنا، والطاقم يثق فيّ.

صيّاد الحيتان كان رجلاً يفكر تفكيراً منطقياً:

- وإذا مت، سير؟

نظر جون عبر سور السفينة إلى المياه في الأسفل، وقال:

- سأثق عندئذ بالطاقم. ما يبقى مني، ليس بالضرورة أنا في كل مرة.

كانت تلك جملة من إحدى عظاته الغريبة.

ولأن الرياح كانت مؤاتية، افترقت السفن سريعاً عن بعضها بعضاً. بقيت «إنتربرايز» في مكانها؛ لأنهم رأوا حوتاً، أما «إريبوس» و«تيرور» فقد أبحرتا في اتجاه الشمال الغربي إلى القطب الشمالي. وقبل أن تختفيا عن الأبصار، بدأ الثلج في الهطول.

سفن متينة مزودة بكل شيء، وبحارة مفعمون بالنشاط، وضباط محترمون، كلهم لا يهابون شيئاً ويتمتعون بمزاج رائق، تحت قيادة جنتلمان صبور، عجوز، يتسم بالعزيمة والإصرار: هذه هي الصورة التي احتفظ بها العالم للبعثة الاستكشافية.

الفصل التاسع عشر

الممر الكبير

حتى مجيء شتاء عام 1845 كان فرانكلين في مضيق لانكاستر، يبحث عن ممر إلى الشمال بدلاً من الجنوب الغربي، مثلما أمرته القيادة البحرية. ما زال يأمل في وجود بحر قطبي مفتوح. لكن السفن دارت حول جزيرة كبيرة فحسب، جزيرة كورنواليس، دون أن يجدوا شيئاً سوى كتل جليدية متزايدة. قضى فرانكلين الشتاء حتى ربيع عام 1846 في خليج محمي في جزيرة بيتشي، الذي سُمي على اسم الملازم الأول السابق لسفينة «ترنت». لقي ثلاثة رجال هنا نحبهم، اثنان من جراء مرض، والثالث غرق في البحر. شيدوا لهم شواهد قبور حجرية أعدت بعناية كأنها في مدافن قرية إنكليزية. ثم أبحرت «إريبوس» و«تيرور» مرة أخرى، هذه المرة في اتجاه الجنوب الغربي. يبدو أن هذا العام أيضاً لن يكون عاماً جيداً. التيار الجليدي يزداد سُمكاً. بصعوبة كانت السفن تشق طريقها ببطء بائس وسط أكوام القطع الجليدية. لكن ذلك لم يفت في عضد فرانكلين.

مضيق بحري خطير تتدافع في اتجاهه عدة حقول من الكتل الجليدية

الصماء وتتصادم، أطلق فرانكلين على المضيق اسم «بيل». لم يكن يفعل ذلك بالضرورة على سبيل المديح لسير روبرت.

كان الطاقم يعمل بشكل جيد، ويعتمد على حنكة فرانكلين. استعدادهم للمزاح زاد قليلاً، لكنه لم يصل إلى حد يثير القلق. يعلم فرانكلين: كيف يكون كلام الطاقم عندما لا تسير الأمور سيراً حسناً. كان يحمل هموماً صغيرة كثيرة، لكنه لم يحمل هماً واحداً كبيراً.

قضت جين فرانكلين الشتاء في جزيرة ماديرا، ومعها إيلا وصوفيا كراكروفت. في الربيع زرن جزر الهند الغربية،(*) رأت جين أن هموم صوفيا بشأن مصير البعثة الاستكشافية مبالغ فيها بعض الشيء، ولذلك اعتقدت أن التغيير سوف يحسن من حالتها. عادت إيلا إلى إنكلترا، وواصلت جين وصوفيا رحلتهما إلى نيويورك.

قرأتا في «هيرالد» إعلاناً، يقول:

«مدام لياندر لنت تكشف طالعكم بشأن الحب والزواج والأصدقاء الغائبين، وتعلن لكم كل الأحداث في الحياة. مالبري ستريت، رقم 169، الطابق الأول، في آخره. السيدات: 25 سنتاً، الرجال 50 سنتاً. وهي تتوسط سريعاً لعقد الزيجات، لكن لذلك أجراً خاصاً».

قررت جين –التي لم تبحث في لندن يوماً عن طريق العرافات– أن تدرس هذه الأجواء. ذهبتا إلى هناك. كانت مدام لنت في الخامسة

(*) تضم هذه الجزر عدة مجموعات من الجزر تقع أمام أمريكا الوسطى والجنوبية، ومن أشهرها جزر البهاما. ومصطلح «الهند الغربية» كان يطلق على الأراضي الأمريكية التي اكتشفها كولومبوس؛ لاعتقاده بأنه دار حول الكرة الأرضية ووصل إلى الهند. وبعد أن اكتشف أنه لم يصل إلى الهند، بل إلى أرض جديدة، أطلق عليها «الهند الغربية»، وأطلق على سكانها الأصليين «الهنود الحمر».

والعشرين تقريباً، قذرة على نحو بشع، وصلعاء تقريباً. في ضوء شمعة مصنوعة من الشحم كانت مثبتة في فوهة زجاجة بيرة، وضعت الورق لجون فرانكلين، وزعمت أن حالته ممتازة، وأنه في طريقه للوصول إلى هدف حياته، لكنه لن يصل إليه مرة واحدة، بل تدريجياً. عندما لاحظت أنهما لا يريدان الزواج، خاب أملها، وأخذت الخمسة والعشرين سنتاً قائلة: إن في الخارج أحد عشر شخصاً ينتظرون المساعدة.

لم يعد ممكناً أن تتحرك السفن الشراعية إلى الأمام بقوة الرياح فحسب. تجمع الجليد الانجرافي مكوناً كتلة مصمتة. قضى الرجال نصف وقت يقظتهم في التشبث بحبل القوس والضرب بالفؤوس على الجليد أو نشره بالمناشير؛ كي تشق السفينة طريقها. بالرغم من سعاله الشديد لم يكف فرانكلين عن الحركة طوال أيام، ولم يخلد إلى النوم تقريباً، وبين الحين والآخر كان يسمح لنفسه بلعب النرد مع فيتزجيمس، وكان يربح بانتظام.

في الخامس عشر من يوليو كان فرانكلين يقف بجهاز السدس على ظهر السفينة، ويحسب موقع السفينة بدراسة النجوم، ثم خُيل إليه أنه يسمع صرخة من وسط حقول الجليد من خلف «إريبوس»، صرخة أعلى من صرخة أي إنسان. مندهشاً وضع الجهاز، وراح يحدق في الخلف. لا شيء غير معتاد. خلف «تيرور» كانت بيضة الشمس الهائلة تتهادى في الأفق ناحية الشرق. آلاف من القطع الثلجية كانت تنهض مثل مدينة من زجاج أحمر، لكنها مدينة متحركة كانت تشق طريقها مع السفن دون توقف تجاه الجنوب. نظر جون إلى البيضة المشتعلة في الأفق، وقال لنفسه: لماذا تُسمى الشمس؟ وماذا تعني «الشمس»؟ خارت قدماه. الحذر، كل شيء عبث، قال لنفسه. وهو يتهاوى تشبث بجهاز السدس محاولاً أن يحميه.

أول ما تعلمه من مائيو عن السدس، هو: أنه لا يجوز أن يسقط. وسرعان ما فقد الوعي.

عندما استفاق، وجد نفسه يرقد في كابينته على غطاء مفروش على الأرضية، تطلع إلى وجهي فرتزجيمس والملازم غور اللذين انحنيا فوقه. ثم انضم إليهما وجه مساعد الطبيب جودسير. لكنه لم يتعرف إلى هذه الوجوه؛ إلا إذا أدار رأسه في وضع خاص. المحور البصري المعتاد لوجهه لا بد أن يمر الآن بالشيء حتى يستطيع أن يراه. مثل دجاجة، فكر مبهوتاً، بالأحرى أراد أن يفكر؛ إذ إنه لم يستطع تذكر كل هذه الكلمات. أراد أيضاً أن يقول شيئاً؛ لكي يبدد هموم الرجال الثلاثة. ما خرج من فمه لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية؛ إذ إن سحنة الرجال عبرت عن خوف أكبر. لكنه يستطيع الضحك والنهوض! حاول أن يفعل ذلك. بالقدم اليسرى لم يكن ممكناً أن يفعل شيئاً. ما زال يرى ذلك الشيء الأحمر في السماء، والمدينة الزجاجية. لكنها لم تكن تظهر في السابق في كل صورة، أليس كذلك؟ وما اسم هذا الشيء، هذا الشيء الساطع؟ الآن أدرك: لقد حدث شيء.

كان لا بد أن يحدث شيء ما منذ فترة طويلة. وإذا أصيب أحد، فمن الأفضل أن يكون هو.

في صيف 1846 كانت لندن تمور بأخبار عديدة، لذلك فإن خبراً من القطب الشمالي لم يكن يهم أحداً تقريباً.

في البرلمان كانت المناقشات تدور حول «قوانين الحبوب»(*) المزمع إصدارها منذ وقت طويل. سادت المجاعة في أيرلندا، وكانت الكارثة

(*) المقصود: القوانين التي صدرت في بريطانيا العظمى التي استهدفت فرض رسوم جمركية عالية على الحبوب ومنع استيرادها لحماية الزراعة المحلية.

على الأبواب؛ لذا أصبح تطبيق سياسة حمائية أمراً مُلحا أكثر من أي وقت مضى. كان لا بد من تخفيض سعر الخبز أخيراً، حتى إن تعالت صرخات بضعة إقطاعيين واسعي النفوذ. روبرت بيل، زعيم حزب المحافظين لمدة طويلة المُدافِع عن قوانين الحبوب، غيّر رأيه علانية بشجاعة واقتدار. أصدر قراراً بإلغاء القوانين، وحصد من وراء ذلك غضب زملائه النبلاء. صحيح أنه فقد منصبه، لكنه ربح عرفان الجوعى بالجميل.

في الخامس عشر من يوليو 1846، كانت الليدي فرانكلين وصوفيا المسافرتين الوحيدتين على ظهر سفينة شراعية فائقة الجمال من نوع «كليبر»، في طريقهما من نيويورك إلى لندن، حيث دارت السفينة حول الساحل الأيرلندي الجنوبي تحت أشعة الشمس الساطعة. كانتا تأملان في أن تجدا في لندن أول خبر من «إريبوس» و«تيرور».

في سيلسبي هبّت في اليوم نفسه عاصفة مريعة اقتلعت عدة أشجار عتيقة من جذورها، وقتل البرق شخصين يسيران في الشارع، وطارت أسقف البيوت مع الريح، وراحت الرياح تتلاعب ببعض الأكواخ في مستوطنة الفقراء. تكسرت سيقان المحاصيل في الحقول من هطول البرَد. لو كان أهل سيلسبي سمعوا ما حدث في اليوم نفسه في البحر الجليدي، لأنصتوا بالتأكيد. لكنهم بعد دقائق معدودة كانوا سينهمكون مرة أخرى في مواجهة مصيرهم، ولهم الحق في ذلك.

في الثاني عشر من سبتمبر التف الجليد الدوّار حول السفينتين وحاصرهما بإحكام أمام ساحل بلد الملك ويليام.(*) عدة تيارات من

(*) بلد الملك ويليام: هو الاسم السابق لـ«جزيرة الملك ويليام» الواقعة في البحر القطبي، شمالي كندا.

الكتل الجليدية المتجهة إلى الجنوب تدافعت معاً وفوق بعضها بعضاً بعد اصطدامهما بساحلين، وكان تأثيرها على الأمواج كالقمع. ارتفعت كتل جليدية عملاقة عالياً، وظلت منتصبة يوماً أو يومين مثل شراع مثلث، وقد لمعت في ضوء الشمس لمعاناً يخطف الأبصار، إلى أن انكسرت ومالت إلى الجانب الآخر. تكونت أبراج وأقماع سامقة، ثم غرقت ثانية، ثم تحركت الكتل حركة دوارة كأن أحداً يحرثها حرثاً. خاض البحارة صراعاً يومياً من أجل إنقاذ السفينتين، فكانوا ينشرون ويفجّرون ويسحبون الكتل الجليدية بلا راحة. تنامى بلا توقف الخطر الناجم عن التحركات غير المحسوبة للحقول الجليدية التي يمكن أن تعتصر بدن السفينة اعتصاراً، وفي النهاية وبعنفوان الضغط، ارتفعت السفينتان شيئاً فشيئاً، وفي الختام بدا كأن السفينتين تقفان على قاعدة عريضة مثل نصب تذكاري. يجب الآن العمل على ألا تنكسر هذه القاعدة. رُسمت رسومات ذات دقة هندسية، وأُجريت حسابات ستاتيكية، وألقيت المراسي في البحر. كان فرانكلين يعلم أن السفينتين تنزاحان مع الجليد في اتجاه الجنوب، بالطبع ببطء لن يجعلهما تصلان إلى شواطئ القارة؛ إلا بعد مرور سنوات عديدة. لكنه كان ينوي أن يمرر سفينتيه ورجاله عبر هذه الطاحونة.

جلس فرانكلين على سطح السفينة، وتطلع إلى الشمس التي لم يعد يعرف اسمها، وتظاهر بأنه حسن المزاج ومفعم بالأمل. لم يعد بإمكانه أن يتحدث ولا أن يكتب، وكان في حاجة إلى مساعدة في أي حركة يقوم بها. كان الطباخ يُطعمه، وفي بعض الأحيان كان فيتزجيمس يفعل ذلك. لكن ما زال باستطاعته ببعض الجهد أن يقرأ الخرائط البحرية والحسابات، وأن يصدر الأوامر بشأن ما ينبغي فعله عبر هزة رأس أو إيماءة أو إشارة. بل لقد واصل لعب النرد، وربح، وضحك ضحكته المائلة المرحة. لم يتشكك

أحد في قدراته العقلية. لم يخسروا شيئاً، طالما هو على قيد الحياة. كل شيء حدث في الماضي من أجل المحتضرين: سيموندس 1805، والملازم هوود 1821، وإليانور على طريقتها 1825، وشيرارد لوند 1842. والآن هو إذن، جون فرانكلين، 1846.

ما زالت نصف المؤن في المخازن، بإمكانهم أن يتحملوا شتاء آخر أو شتاءين؛ إذا حافظ على هدوء أعصابه، وهذا في ختام الأمر هو نقطة قوته.

حتى في ربيع 1847 لم تستطع السفينتان أن تتحررا من الحصار الجليدي. وقضى الإسقربوط على أول ضحاياه. تأمل فرانكلين طاقمه بدقة، وقد ساعده في ذلك وجهه المتقلص أكثر مما أزعجه. الروح المعنوية للرجال ما زالت عالية، بل ارتفعت أكثر. وهذا ما خبره جون فرانكلين في كل الكوارث البطيئة: عندما يقضي أول الرجال نحبهم، تسري بين الباقين روح الدعة والتراخي، وتصبح أقوى من قوة الإدراك. ولكن قبل أن تغدو الغالبية في خطر، كانت البصيرة تعود إليهم. في النهاية فحسب كانوا يفقدونها ثانية. لكن لم يصل الأمر إلى هذه المرحلة بعد. ما زال فرانكلين يحيا. إنه أبطأ من الموت، وقد يكون في ذلك خلاصهم.

خلال مسيرة استطلاعية في مايو 1847، شقت مجموعة من الضباط والبحارة من «إريبوس» طريقها في بلد الملك ويليام، حتى وصلت إلى مصب نهر الأسماك الكبير. من هناك كان مسار الساحل تجاه الغرب معروفاً، لقد رسم فرانكلين الخرائط بنفسه قبل خمس وعشرين سنة. عندما عاد أفراد المجموعة إلى السفينتين وأبلغوا فرانكلين بالنتائج، ضحك بنصف وجهه، وبكى بالنصف الآخر. لقد عثروا على الممر الشمالي الغربي، وهو حقاً لا فائدة منه مطلقاً بسبب الجليد، مثلما كان الجميع يظن. أفهمهم فرانكلين أنه يريد الاحتفال بعيد، وهذا ما حدث.

وكان عيداً رغم أن ثلاثة رجال لقوا نحبهم في ذلك اليوم وحده. أما كل الذين كانوا على قيد الحياة، فقد راودهم الأمل من جديد.

أشار فرانكلين إلى الخرائط، وبجهد كبير تهته بكلمات مفردة تعلمها من جديد بصعوبة. العنق المشرئب، العينان المفتوحتان على اتساعهما، بدا مثل طفل يحاول الصعود إلى عربة قد تبدأ في التحرك فوراً. لكن مَن ينطق بالصواب، ليس عليه أن يبدو في مظهر حسن، ويجوز له أن يتمهل.

احتاجا إلى ساعات حتى فهم كروزير وفيتزجيمس ما يود العجوز أن يقوله. ينبغي عليهما خلال ستة أسابيع بالتمام والكمال، أن ينطلقا مع أقوى مَن في الطاقم وأكثرهم صحة تجاه الجنوب، وأن يحاولا الوصول إلى نقطة تجارة الفراء، أو إلى الإسكيمو أو الهنود الحمر؛ لكي يستغيثوا بهم. ليس عليهم أن ينطلقوا فوراً، وليس في الشتاء، ولكن أيضاً ليس في الربيع المقبل بأي حال من الأحوال! كان فرانكلين يعلم أن حيوانات الرنة لا يمكن العثور عليها إلا في أواخر الصيف في «بارن غراوندس»، ولصيدها يجب أن يتمتع المرء بالقوة.

نظر كل ضابط وهلة إلى الآخر وتفاهما فوراً: لن يتخليا عن المرضى بأي حال من الأحوال.

في الحادي عشر من يونيو 1847 مات السير جون فرانكلين، نائب الأدميرال في البحرية الملكية، في عامه الثاني والستين إثر جلطة دماغية أخرى تعرض لها.

فجّر المتخصص في الجليد فتحة في الكتل الجليدية الصماء لتكون مقبرة. تجمع الطاقم ورفع القبعات. تلا كروزير صلاة. دوّت طلقات

المدافع في المساء الصقيعي الصحو، ثم أنزلوا ببطء التابوت المُثقل بمرساة قارب. امتلأ القبر بالمياه، وخلال ساعات قليلة تجمدت المياه، وأمست مثل غطاء من الزجاج الداكن فوق القبر. «رحلة سعيدة»، قال فيتزجيمس وسط الصمت السائد.

لم تكن تلك كلمة فارغة المعنى؛ إذ إن القائد العجوز سيظل بالتأكيد يتحرك فترة من الوقت مع كتل الجليد المنزاحة.

أرسلت الإدارة البحرية ثلاث بعثات للبحث في عام 1848، إحداها تحت قيادة جيمس روس الذي شُفي بسرعة لافتة. بحثت البعثات الثلاث بعيداً جداً في الشمال، كان روس يعلم كل العلم: أن فرانكلين كان يعتقد طيلة حياته بوجود بحر قطبي مفتوح. قضت البعثات الشتاء في الجليد، ثم عادت في العام التالي دون أن تصل إلى شيء. حتى عام 1850 أُرسل عدد كبير آخر من السفن التي جابت الأرخبيل القطبي طولاً وعرضاً، ورسمت الخرائط بدقة لكل جزيرة من الجزر الكبيرة. لكن البحارة لم يتوصلوا إلى شيء يخص فرانكلين، غير أنه قضى الشتاء الأول في جزيرة بيتشي. أرادت الإدارة البحرية أن توقف البحث، ولولا الليدي فرانكلين؛ لفعلت ذلك منذ عام 1849.

وسط ترحيب من الجميع واصلت جين البحث عن زوجها بكل ما لديها: بثروتها وثروة جون، بدهائها وقدرتها على الإقناع، بغضبها وسخريتها، وبدموعها الحقيقية والمزيفة، كلما كان ذلك ضرورياً. استأجرت غرفة في فندق أمام الإدارة البحرية حتى تكون قريبة للغاية من خصومها. كانوا يهابون ظهورها. دون جدوى كان الموظفون ينكرون وجودهم. أصبحت جين خبيرة بالملاحة القطبية؛ لأنها درست كل التقارير دراسة متمعنة،

وكانت تتمتع بذاكرة ممتازة. راسلت رئيس الولايات المتحدة، والقيصر الروسي، ومليونيراً سخياً في تبرعاته من نيويورك، وعدة مئات آخرين من ذوي النفوذ والمعرفة المتخصصة في كل أنحاء العالم. سافرت إلى ليرويك في اسكتلندا؛ لتحث صيادي الحيتان على القيام بعمليات بحث طوعية في أعالي الشمال. ألقت خطباً عظيمة التأثير أمام البحارة، وكذلك أمام سيدات جمعية البستنة، لم يكن ثمة إنسان يستطيع أن يقاومها. كتبت الصحف قصائد مدح عن البطلة زوجة المستكشف. من حر مالها اشترت عدة سفن، وانتقت بنفسها طواقم البحارة من وسط صفوف المتطوعين. قبل وفاته بقليل قال جون بارو: «جين هي خليفتي!».

ما لا يجوز لامرأة، ولا حتى للملكة، وفق القوانين المكتوبة وغير المكتوبة، كان مسموحاً لجين: إظهار قدرتها وفرض رأيها على الرجال. وهؤلاء تحديداً كانوا يعطونها الحق، فالأمر يدور في نهاية المطاف حول زوجها، ومئة وثلاثين رجلاً آخرين في القطب الشمالي.

وجدت أصدقاء أوفياء، وخدم يتحلون بروح البطولة. أبحر د.ريتشاردسون مرة أخرى إلى أعالي الشمال؛ كي يبحث عن صديقه. أتى جون هيبورن من تَسمانيا وسافر معه. طوال الوقت بقيت صوفيا مع الليدي فرانكلين. وكثيراً ما بدت مشاركتها العاطفية في البحث عن فرانكلين أشد من الليدي نفسها، لكن لم يكن لدى أي شخص سبب للتعجب. كانت سكرتيرة، وساعية بريد، وصديقة، ونائبة، ومعزية، وسبّاقة في الحديث عن فرانكلين. لم تتزوج بالرغم من أنه كان بإمكانها اختيار أحد المتطوعين، مثلما كانت تختار الليدي طاقم السفن. حتى عام 1852 حالت دون أن يُعتبر فرانكلين وطاقمه من الموتى، وعندما حدث ذلك، عرفت كيف تثير

السخط في نفوس الناس، إلى حد أن لوردات الإدارة البحرية لم يكونوا يغادرون الحي الحكومي إلا بعربات شُدت الستائر على شبابيكها.

بالطبع تضاءلت الثروة بسرعة؛ ما أثار استياء ابنة جون التي لم تتزوج رجلاً ثرياً، وكانت تخشى ضياع إرثها. لكن أحداً لم يستطع أن يتغلب على استبداد زوجة البطل، ولا حتى إيلا التي ورثت الكثير من إصرار أبيها.

أضحت «جين وصوفيا» أيضاً رمزي صداقة ووفاء بين النساء. ولحسن الحظ، تعامى حُماة الفضائل عن أنهما يتبادلان مشاعر الحب أيضاً. ومَن حدس بذلك، لم يكن من المتظاهرين بالفضائل، واعتبر الأمر ببساطة لا يعنيه.

لكن الأهم لم يتحقق: لقد ظل مصير فرانكلين وبحارته في غياهب الظلام. ولأن مكافأة عالية كانت مخصصة لمن يكشف عن ملابسات الوفاة؛ فقد كان هناك أيضاً، بعد عام 1852، رحلات بحثية طوعية قام بها صيادو الحيتان والأصدقاء الأثرياء. ثم كان هناك، أولاً وقبل كل شيء، جين وصوفيا اللتان كانتا مصممتين على التضحية بمالهما حتى آخر بنس للوصول إلى هدفهما الأوحد.

في عام 1857 اشترت جين فرانكلين آخر ما تبقى من سفن معروضة للبيع، باخرة صغيرة تدور بالمراوح اسمها «فوكس»، وعهدت بها إلى قبطان شاب، كان يعمل ملاحاً لدى البحث عن فرانكلين: ليوبولد ماكلينتوك، وهو رجل كانت تحبه مثل ابن، وكان ينظر إليها بإكبار مثل أم. كان واحداً من أولئك الذين لم يهتموا بحل اللغز والحصول على المكافأة المالية، بل بجون فرانكلين نفسه. جمع الكثير من المعلومات عن فرانكلين من ريتشاردسون وهيبورن والليدي فرانكلين وصوفيا، وقرأ كتابيه، بل

وسُمح له حتى بالاطلاع على سجل عقوبات سفينة «ترنت» الذي دوّن فيه جون أفكاره. «أريد أن أتعرف إليه!»، قال ماكليتوك. «ولهذا سأجده. من الممكن جداً أنه يحيا، ربما بين الإسكيمو. إنه لم يعش بسرعة قط، ولن يتوقف عن الحياة بسرعة أيضاً».

كان ماكلينتوك رجلاً قصير القامة، رشيقاً ومفتول العضلات بسوالف طويلة سوداء. وفي الثلاثين من يونيو 1857 غادر مع فريقه الاسكتلندي ومترجم دانماركي ميناء أبردين.

في السادس من مايو 1859، وجد بحارة ماكلينتوك في بلد الملك ويليام، تحت هرم حجري، ورقة موقّعة من كروزير وفيتزجيمس فيها معلومات عن مصير البعثة وموت فرانكلين. كانت الورقة بتاريخ ربيع 1848. لم تستطع السفينتان شق طريقهما وسط الجليد، فتخلى البحارة عنهما. اختُتمت الورقة بالكلمات التالية: «من هنا سنواصل السير غداً في اتجاه مصب نهر الأسماك الكبير».

واصلوا البحث في هذا الاتجاه. لكنها أسفرت عن عدم جدوى البحث بعد ذلك.

مئة وخمسة رجال غادروا «إريبوس» و«تيرور» في ربيع 1848، ولكن على ما يبدو كانوا في حالة إنهاك بالغ، جسدياً وذهنياً. وسرعان ما انقسمت قافلة المحتضرين إلى عدة مجموعات، إحداها حاولت الرجوع إلى السفينتين. كان بعض الرجال يحملون أدوات المائدة الفضية معهم، ربما لكي يستبدلوا بها طعاماً عند الإسكيمو. آخرون سحبوا قوارب ثقيلة فوق الجليد، ولا بد أنهم تركوها في وقت ما، وفيها غالباً جزء من المؤن الغذائية. بجانب أحد القوارب وجد ماكلينتوك عدة هياكل عظمية،

وأربعين رطلاً من الشوكولا التي ما زالت صالحة للاستهلاك. في أحد الخلجان عند مصب نهر الأسماك الكبير وجدوا عدداً كبيراً من هياكل عظمية أخرى، وفي الغالب بالزي الرسمي الذي بهت، لكنه ما زال كاملاً.

أطلق ماكليتوك على الخليج Starvation Cove، «خليج المجاعة». قابل بعض أفراد الإسكيمو الذين كانوا يتذكرون السفينتين وسط الجليد، أو سمعوا أنهما غرقتا في خريف 1848. ثمة عجوز راقبت عن بعد أيضاً المسيرة الأخيرة للرجال البِيض: «ماتوا في أثناء السير. سقطوا ميتين حيثما كانوا يسيرون أو يقفون». لكن، لماذا لم يساعد الإسكيمو البِيض؟ «كانوا كثيرين كثرة رهيبة، ونحن كنا نعاني من مجاعة فظيعة، لم نعرف مثلها من قبل».

حصل القبطان بالمبادلة على مجموعة من الأشياء التي وجدها الإسكيمو: أزرار فضية، وأدوات طعام، وساعة جيب، بل حتى الوسام الذي حصل عليه فرانكلين. سأل عن كتب ودفاتر. نعم، لقد وجدوا أيضاً ربطة من الأوراق، وأعطوها لأطفالهم؛ كي يلهوا بها. لم يتبق منها شيء الآن. محبطاً غادر ماكليتوك أكواخ الإسكيمو، وعاد إلى خليج المجاعة.

ولأن المواد الغذائية كانت لا تزال متوفرة، لم يعتقد أحد أن الجوع وحده سبب الكارثة. الإجابة الأقرب هي: الإسقربوط. كانت نتيجة فحص الهياكل العظمية أن أسناناً كثيرة سقطت قبل الوفاة. والنتيجة الأهم أيضاً، هي: أن بقية أفراد الطاقم الذين كانوا يصارعون من أجل البقاء أحياء، قد استخدموا هنا الوسيلة اليائسة الأخيرة: عثر ماكليتوك على عظام مفصولة عن الهياكل، بها أماكن مقطوعة وملساء لا يمكن أن تحدث إلا بالمنشار. قرفص طبيب السفينة أمامه، ثم تلاقت نظراتهما. قال الطبيب هامساً:

– من وجهة نظري... الإسقربوط هو مرض ناجم عن نقص في

الغذاء، ولحم الإنسان الذي توفي مصاباً به تنقصه بالتحديد تلك المواد التي يحتاج إليها المريض كي ينجو. أي أن ذلك لم...

قال له ماكليتوك:

- أكمل كلامك!

- لم يكن له أي فائدة.

عندما جمعوا العظام كي يدفنوها، قال ماكليتوك:

- لقد كان طاقم السفينتين عظيماً وجسوراً. لكن الوقت كان أطول من اللازم بالنسبة إلى أفراده. مَن لا يعرف ماهية الزمن، لن يفهم صورة، ولن يفهم هذه الصورة أيضاً.

الوحيد الذي لم ينصت إليه كان مصور «أخبار لندن المصورة»، الذي هيأ بسرعة آلة التصوير، نظام تالبوت، حتى يلتقط صورة للهياكل العظمية.

ملحوظة ببليوغرافية

جون فرانكلين عاش فعلاً. وقد أمدت حكايته الحقيقية هذه الرواية بتفاصيل لا تُحصى، لم تكن لتخطر لي على بال قط. يُلزمني هذا بذكر بعض المصادر، على الأقل، عن فرانكلين التاريخي الذي كان بلا شك يختلف في كثير من النقاط عن الشخصية الواردة في الرواية.

عن أقارب فرانكلين ومراحل تطوره المهني يمكن قراءة معلومات أكثر دقة في المصادر التالية:

Roderic Owen : The Fate of Franklin, London 1978.

وأيضاً في الكتاب التالي الذي يعتبر السيرة الكلاسيكية لجون فرانكلين:

Henry D. Traill: The Life of Sir John Franklin, R. N., London1896.

فيما يتعلق بما حدث تفصيلاً في الرحلة إلى لشبونة، وخلال معركة كوبنهاغن، فإن هذين المؤَلِفين لا يذكران شيئاً. أما فيما يخص الرحلة إلى أستراليا، فهناك المزيد عنها في الكتاب التالي الذي يعتبر تقرير الرحلة الرسمي:

Matthew Flinders: A voyage to Terra Australis, undertaken for the purpose of completing the discovery of that vast country and prosecuted in the years 1801, 1802 and 1803 in His Majesty's Ship The Investigator. Zwei Bände und ein Atlas, London 1814.

عن الملاح العظيم فليندرز انظر خصوصاً هذا الكتاب:

James D. Mack: Matthew Flinders 1774 – 1814, Melbourne 1966.

وعن الرحلة الأولى للجليد هناك تقرير رحلة الاستكشاف:

Frederick W. Beechey: A Voyage of Discovery towards the North Pole, performed in His Majesty's Ships Dorothea and Trent, London 1843.

وعن الرحلتين البريتين هناك التقارير التي كتبها فرانكلين بيده:

John Franklin: Narrative of a Journey to the shores of the Polar Sea in the years 1819, 20, 21, and 22, London 1823.

وقد تُرجمت التقارير في العام نفسه إلى الألمانية، وصدرت في فايمر. وهناك أيضاً:

Narrative of a Second Journey to the Polar Sea in the years 1825, 26, 27, London 1829.

(تُرجمت في العام نفسه إلى الألمانية في فايمر).

لا تتبع الرواية التتابع الزمني الدقيق للرحلة التي عانى المشاركون فيها من المجاعة. وفيما يتعلق باللقاء مع الهندي الأحمر مايكل، فقد تبادل فرانكلين ود. ريتشاردسون الأدوار في الرواية.

ولم يُعهد إلى فرانكلين بقيادة الحملة الحربية في الصين، لكن من

المؤكد أنه كان في الفترة من 1830 حتى 1833 قائد القوات المسلحة في المياه اليونانية، حيث نجح في الحيلولة دون نشوب نزاعات مسلحة.

المرجع التالي يعطي أفضل معلومات عن الفترة التَّسمانية:

Kathleen Fitzpatrick : Sir John Franklin in Tasmania 1837 – 1843, Melbourne 1949.

ثمة نظريات وجيهة عديدة عن مسار رحلة فرانكلين الأخيرة، وأهم الكتب التي تناولتها هي:

Richard J. Cyriax: Sir John Franklin's last Arctic Expedition, London 1939.

Leopold McClintock: The Voyage of the ›Fox‹ in the Arctic Seas. A Narrative of the Discovery of the Fate of Franklin and his Companions, London 1859.

Vilhjalmur Stefansson: Unsolved Mysteries of the Arctic

وفيه:

(The lost Franklin Expedition, S. 36 ff.), London 1921.

Noël Wright: The Quest for Franklin, London 1959.

ومن المراسلات بين زوجة فرانكلين الأولى وجون يكتسب القارئ أفضل المعلومات عن الزوجة:

Edith Mary Gell: John Franklin's Bride, Eleanor Anne Porden, London 1930.

وعن جين فرانكلين انظر:

Frances Joyce Woodward: Portrait of Jane. A Life of Lady Franklin, London 1951.

وما زالت هناك آثار باقية من إنجازات فرانكلين، خصوصاً في هوبارت، تَسمانيا، وكذلك المنزل الذي ولد فيه ما زال قائماً في سبيلسبي، وهناك، في لندن أيضاً، تمثالان بالحجم فوق الطبيعي للمستكشف. أما في كنيسة وستمنستر فيوجد حجر تذكاري عليه أبيات للشاعر ألفريد تينسون:

»Not here! The white North has thy bones, and thou, / Heroic Sailor-Soul, / Art passing on thine happier voyage now / Towards no earthly pole.«(*)

ويُطلق اليوم على كافة أراضي الجزيرة شمالي كندا: «District of Franklin».

ستن نادولني

(*) الترجمة: «ليس هنا! الشمال الأبيض لديه عظامك، وأنت / روح بحار بطولية، / تبدأ رحلتك السعيدة / صوبَ قطب لا أرضي».

ستن نادولني

ولد ستن نادولني في التاسع والعشرين من يوليو 1942، ابناً للكاتب بوركهارد نادولني (1905 – 1968) الذي لم يحقق نجاحاً أدبياً قط، والكاتبة إيزابيلا نادولني (1917 – 2004) التي أصابت شهرة كبيرة في مجال الروايات الترفيهية.

درس التاريخ وعلم السياسة، ثم عمل فترة مدرساً للتاريخ، لكنه سرعان ما استقال؛ ليعمل في مجال السينما، وكان ينوي أن يصبح مخرجاً. وعندما شرع في كتابة سيناريو لأحد الأفلام، حصل على منحة فتحت له آفاق الكتابة والأدب. لم يتحقق مشروع فيلمه، لكن نادولني حوّل السيناريو إلى رواية لم تنجح كثيراً، كان عنوانها «اشتراك شهري شامل»، سجل فيها الكاتب انطباعات بطل الرواية، أحد شبان جيل 68 الثائر، الذي اشترى تذكرة شهرية تتيح له السفر بالقطار مدة شهر في كل ربوع ألمانيا.

حقق نادولني النجاح والشهرة؛ عندما قرأ عام 1980 الفصل الخامس من روايته غير المنشورة بَعد، «اكتشاف البطء»، في مسابقة إنغبورغ باخمان الأدبية، ثم نال الجائزة التي بلغت قيمتها آنذاك أربعة عشر ألف مارك ألماني، غير أنه اقتسمها مع كافة المشاركين في المسابقة (سبع وعشرين كاتبة وكاتباً)؛ لأنه رفض فكرة المنافسة الأدبية. ظهرت الرواية عام 1983، وجعلت صاحبها اسماً شهيراً على المستوى العالمي في غضون عدة

سنوات، وأصابت نجاحاً لدى القراء والنقاد في آن واحد. وبيعت من الرواية حتى الآن ملايين النسخ، وترجمت إلى نحو عشرين لغة.

تتناول الرواية سيرة البحار الإنكليزي، ومستكشف القطب الشمالي، جون فرانكلين (1786 – 1847)، لكن الكاتب لم يلتزم تماماً بكافة وقائع السيرة، بل حوّل حياة فرانكلين إلى أمثولة عن البطء ومزاياه. عاش فرانكلين في زمن الثورة الصناعية، حيث أصاب هوس السرعة كل شيء، لكنه كان إنساناً بطيئاً منذ مولده، أو كما يقول نادولني في مفتتح الرواية: «بلغ جون فرانكلين العاشرة، ومع ذلك ظل يتسم بالبطء الشديد، حتى إنه لم يستطع أن يلقف كرة».

عاش فرانكلين في «عصر السرعة»، لكنه ظل وفياً لخصاله، ولسمة البطء التي ولد بها، وعرف كيف يحول الضعف إلى قوة؛ إذ اكتشف أن البطء ليس عيباً دائماً، وأنه لا يعني الخمول ولا التلكؤ في كل الأحوال، بل قد يعني التمهل، والتأني، والتريث، والصبر، والجَلد، والتمعن، والتدبر وقيماً كثيرة أخرى.

بروايته أصابَ نادولني عصب الوقت، وكان ذلك سر نجاحها المذهل ألمانياً وعالمياً. وقد أصدر نادولني روايات عديدة بعد ذلك، لكنها لم تحقق له النجاح نفسه، منها: «سليم أو موهبة الخطابة» (1990)، و«إله الوقاحة» (1994)، و«هو أو أنا» (1999)، و«حظ الساحر» (2017).

المترجم سمير جريس

درس سمير جريس الألمانية وآدابها في القاهرة وفي ماينتس في ألمانيا. ترجم عن الألمانية ما يزيد عن ثلاثين عملاً من الأعمال الأدبية الحديثة، منها: «عازفة البيانو» لإلفريده يلينك، الحاصلة على جائزة نوبل عام 2004، و«الوعد» لفريدريش دورنمات، و«شتيلر» لماكس فريش، و«صداقة» لتوماس برنهارد، و«دون جوان» للكاتب النمساوي بيتر هاندكه، الحاصل على جائزة نوبل 2019.

أَلّف كتاباً عن الكاتب الألماني غونتر غراس (نوبل 1999) بعنوان «غونتر غراس ومواجهة ماضٍ لا يمضي».

حصل على جوائز عربية وألمانية تقديراً لترجماته.

الفهرس


MOHAMED KHATAB



اكتشاف البطء



ما زال فرانكلين يحيا، إنه أبطأ من الموت ...

يرفض جون فرانكلين الاستعجال في إنجاز الأمور، هو الذي ولد بطيئاً! ولكنه يستمد من بطئه تصميماً وسلاماً داخلياً، متحملاً سخرية جميع من حوله، ويمضي محدداً أهدافه بدقة بالغة بوتيرته الخاصة، حتى يصبح أحد أوائل المستكشفين البحريين في العالم!

يستعير نادولني من فرانكلين هدوءه؛ فتتسم اللغة بالسكينة، ويتسم الأسلوب بالاتزان، حتى في أكثر اللحظات إثارة؛ ما يرفع وتيرة التشويق في فصول الرواية جميعها. يمكن تصنيف الرواية بأنها رواية مغامرات، أو رواية تاريخية، أو سيرة ذاتية متخيلة... ولكنها بكل تأكيد رواية عن قوة البشر وصلابتهم.

تتناول الرواية سيرة البحار الإنكليزي ومستكشف القطب الشمالي جون فرانكلين (1786-1847)، لكن الكاتب لم يلتزم تماماً بوقائع السيرة كافة، بل حوّل حياة فرانكلين إلى أمثولة عن البطء ومزاياه.

عاش فرانكلين في "عصر السرعة"، لكنه ظل وفياً لخصاله، ولسمة البطء التي ولد بها، وعرف كيف يحول البطء إلى قوة، إذ اكتشف أن البطء ليس عيباً دائماً، وأنه لا يعني الخمول أو التلكؤ في كل الأحوال، بل قد يعني: التمهل، والتريث، والصبر، والجَلد، والتمعن، والتدبر، وقيماً كثيرة أخرى...

بروايته أصابَ نادولني عصب العصر المتعجل القلق، وحقق معنىً يكاد يستحيل تخيله في وقتنا هذا: إعادة تمجيد البطء!

ظهرت الرواية في عام 1983، وجعلت صاحبها اسماً شهيراً على المستوى العالمي في غضون عدة سنوات، وأصابت نجاحاً لدى القراء والنقاد في آن واحد. وبيعت من الرواية حتى الآن ملايين النسخ، وترجمت إلى نحو عشرين لغة.







